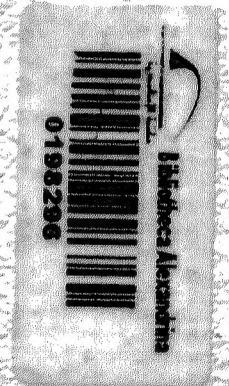


المُشْرِقُونَ الْأَمْثَلُونَ

تَرَاجُمُهُمْ وَمَا أُسْهِمُوا بِهِ فِي
الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

دراسات
جمعتها وشارك فيها
صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان







المُستشرقون الألمان

المُتَشَرِّقُونَ الْأَمْسَانِ

تَرَاجُمُهُمْ وَمَا أَسْهَمُوا بِهِ فِي
الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

دراسات
جمعتها وشارك فيها
صلاح الدين المنجد

الجزء الأول

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الاولى

دارالكتاب الجديد
بيروت • لبنان

١٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

إنّ اطلاع الباحثين والمتقنين من العرب والمسلمين على الدراسات الجيدة التي كتبها المستشرقون بتجرّد وإخلاص ، أصبح أمراً ضرورياً ، في سبيل وضع دراسات شاملة قريبة من الكمال تكشف جميع نواحي الحضارة العربية الاسلامية . ولا شيء يمهّد لهذا الاطلاع مثل معرفة سير حياة هؤلاء العلماء ، والإحاطة بما قاموا به من أبحاث ودراسات .

لذلك رأيتُ أن أنشر تباعاً سير هؤلاء المستشرقين الذين أدّوا للإسلام والعرب خدمات جليلة صادقة بدراساتهم ، وقد بدأتُ بسير طائفة من المستشرقين الألمان وبعض النمساويين .

وأنا اشكر القائمين على مجلة « فكر وفن » الألمانية ، الذين سمحوا لي بإعادة نشر ما كانوا نشره في مجلّتهم من هذه السير ، كما أشكر أصدقائي المستشرقين الذين قدّموا لي كل عون لاتمام هذا المشروع ، آملاً أن تتاح لي الفرصة لإصدار مجلدات أخرى تضمّ سير حياة مستشرقين آخرين .

لمحات :

من عظمة الاستشراق الألماني

بقلم : الأستاذ صلاح الدين المنجد

والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختصّ مجازيا واضحة ، هي ، في رأبي :

١ - لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية : كالاستشراق في بلدان أوروبية أخرى . . . فألمانيا لم يتّح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الاسلامية ، ولم تهتمّ بنشر الدين المسيحي في الشرق ، لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان ، وظلتّ محافظة على الأغلب ، على التجرد ، غالبا ، والروح العلمية .

واذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية ، بعض الانحراف في الرأي ، أو الخطأ ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها .

٢ - لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والاسلام والحضارة الاسلامية-العربية ، متصّفة ، على الأغلب ، بروح عدائية . نعم ، لقد وجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين ، أو بآراء خاطئة تماما ، كـ بعض آراء نولدكه (توفي سنة ١٩٣٠) عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم أو آراء فولرز Vullers (١٨٨٠) عن القرآن وتفسيره . لكن هذه الآراء معدودة ، فالاستشراق الألماني لم

اتيح لي أن أكون صديقا لعدد كبير من المستشرقين الألمان منذ ثلاثين سنة ، وعرفت معظمهم شخصا : شيوخهم وشبابهم ، وزرت بعض جامعات ألمانيا وألقيت فيها محاضرات مختلفة ، واطلعت على كثير من دراسات المستشرقين الألمان الماضين والمعاصرين ، ونقلت بعضها الى العربية في كتابي « المنتقى من دراسات المستشرقين » . لهذا كله ، أسمح لنفسي بالكتابة عن الاستشراق الألماني .

يذكر الأستاذ ألبرت ديتريش أن أوّل محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية كانت من قبيل كريستان المتوفي سنة ١٦١٣ م. فقد ألف كتيباً لتعليم كتابة الحروف العربية ، بل إنّه أعدّ بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب الخشب . لكنّ الرائد الأوّل الذي وقف حياته كلّها على دراسة اللغة والحضارة الاسلامية هو رايسكر المتوفي سنة ١٧٧٤ . وتتابع بعد ذلك المستشرقون حتى كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار وانتاج خصب للاستشراق الألماني . وما زال كذلك حتى الحرب العالمية الثانية ، فأصيب بالضعف والبطء في الانتاج .

القي هذا البحث في الاسبوع الثقافي الألماني-العربي ، الذي انعقد في مدينة توبنجن في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٤ . وقد اعاد كاتبه النظر فيه ، ووسمه .

٢ - نشر النصوص القديمة :

لقد ظهرت النصوص العربية القديمة محققة بعناية الألمان منذ القرن الثامن عشر . كان رايسكه Reiske (١٧٧٤-) أول من نشر «معلقة طرفة بن العبد» بشرح ابن النحاس ، مع ترجمتها الى اللاتينية عام ١٧٤٢ . ثم ازدهر نشر النصوص في القرن التاسع عشر ، فنشرت مئات من نصوصنا القديمة الأساسية ، في الشعر العربي القديم في الجاهلية والاسلام ، واللغة والأدب والتاريخ والجغرافية والفلسفة والفريق والحساب والجبر والفلك والطب . ان مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والانكليز معاً . ومن المؤسف ان جمعية المستشرقين الألمان لم تكلف أحداً بوضع مسرد لجميع النصوص العربية التي نشرها الألمان . فهذا مفيد جداً ومهم . وقد ضرب بعض المستشرقين مثالا نادراً في تحقيق النصوص ، من حيث العدد ، ومن حيث الدقة . ولقد نشر فون من حيث العدد ومن حيث الدقة . ونشر وستنفلد F. Wustenfeld (١٨٩٩-) ما يعجز مجمع علمي عن نشره .

فقد حقق «معجم البلدان» لياقوت ، و «وفيات الأعيان» لابن خلكان ، و «طبقات الحفاظ» للذهبي ، و «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ، و «الاشتقاق» لأبن دُرَيْد ، و «تواريخ مكة» للأزرقي ، والفاكهي ، والفاسي ، وابن ظهيرة . و «معجم ما استعجم» للبكري ، و «عجائب المخلوقات» للقزويني ، و «السيرة» لابن هشام ، وغيرها . وكان كل ما حققه من الكتب الضخمة الصعبة الأساسية . وقد زادت آثار هذا العالم الكبير على المائتين .

وقد نشر فرايتاغ Freytag (١٨٦١-) «ديوان الحماسة» لأبي تمام بشرح التبريزي ، وترجمه الى اللاتينية .

يعرف مستشرقين جعلوا دينهم عداً للعرب والاسلام ، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم ، بل بالعكس ، رافقت دراساتهم روح إعجاب وتقدير وحب وانصاف . تجدد هذه الروح عند رايسكه الذي سمى نفسه «شهيد الأدب العربي» والذي يعتبر واضع الأساس المتين لدراسة العربية في أوروبا ، وتجددها عند جورج جاكوب في كتابه «أثر الشرق في العصر الوسيط» ، وتجددها بين المعاصرين عند السيدة زيفريد هونكه في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» ، وعند المستشرقين الألمان في هذا العصر ، هلموث ريتز ، وعند شوبلر ، وعند باريت في دراساته المتأخرة ، وعند غيرهم . بل أن بعضهم أسلم حباً بالعربية والاسلام مثل ريشر الذي سمى نفسه بعد اسلامه «عثمان» ، وبعضهم اتخذ لنفسه اسماً عربياً مثل اوغوست مئير -الذي نشر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة- فقد سمى نفسه «امرؤ القيس بن الطحّان» ، وكان هذا ترجمة لأسمه الألماني . وقد نال بعضهم كثيراً من المتاعب والأذى في سبيل العربية . إن رايسكه ، الذي كان فقيراً ، وبقي كذلك ، مات مسلولاً بعد انصرافه الطويل إلى العربية والشعر العربي القديم . وإن وستنفلد كُتِفَ بصره من كثرة البحث والعمل على نشر النصوص العربية طول ستين سنة . وبعضهم كان ينشر النصوص العربية التي كان يحققها على نفقته رغم فقره . فقد طبع الاستاذ رايسكه الجزء الأول من «تاريخ أبي الفداء» سنة ١٧٥٤ م . على نفقته ، ولم يبع غير ثلاثين نسخة ، وطبع كذلك «لامية الطغرائي» بالعربية مع ترجمتها الى اللاتينية ، وما باع منها سوى مئة نسخة . ولقد بلغ من حماسة كريستمان للعربية أنه أعد بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب من الخشب ، حتى يسهل طبع النصوص العربية .

وهاتان الصفتان السابقتان أتاحتا للاستشراق الألماني أن يقدم للعرب والمسلمين خدمات واسعة ، وخاصة في الميادين الآتية :

ونشر روكرت Ruckert (١٨٦٦-) «مقامات الحريري» ، و «معلقة عمرو بن كلثوم» .

ونشر فبكه Wæpke (١٨٦٤-) «براهين الجبر والمقابلة للخيّام ، و «الفخري في الجبر والمقابلة» للكرخي .

ونشر فلوجل Flugel (١٨٧٠-) «فهرست ابن النديم» ، عمل فيه خمسة وعشرين عاماً ، وحقق «كشف الظنون» لحاجي خليفة وعمل فيه ثلاثة عشر عاماً .

ونشر ملّار M. J. Muller (١٩١١-) «صور الأقاليم» للاصطخري .

ونشر توربكه Thorbecke (١٨٩٠-) «درّة الغوّاص» للحريري .

ونشر الورد Ahlwardt (١٩٠٩-) «الأصمعيّات» ، و «رجز العجاج ، والزّكيان ، وروبة» ، وديوان «طهمان الكلابي» ، و «الفخري في الآداب السلطانية» لابن الطقطقي .

ونشر ليبرت Lipert (١٩١١-) «تاريخ الحكماء» للقفطي .

ونشر مّز Mez (١٩١٧-) «حكاية أبي القاسم البغدادى» .

ونشر يان Jahn (١٩١٧-) «شرح المفصل لابن يميّش» .

ونشر بيكر Becker (١٩٣٣-) «مناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي .

ونشر مايرهوف Meyerhof (١٩٤٥-) «شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون ، و «العشر مقالات في العين» المنسوب لحنين بن اسحق .

ونشر برجستراسر G. Bergstrasser (١٩٣٣-)

وبرتسل (١٩٤١) مجموعة نادرة من النصوص القرآنية، ورعيّا معهد أبحاث القرآن في جامعة ميونيخ ، لكن هُدِّمَ هذا المعهد وأُتلفَ كلُّ ما فيه ، أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد نشرنا نصوصاً قرآنية مهمة جداً . منها «التيسير في القراءات السبع» ، و«المقنع في رسم مصاحف أهل الأمصار» ، و«مختصر الشواذ» لابن خالويه ، و«المحتسب» لابن جني ، و«طبقات القراء» لابن الجزري ، و «معاني القرآن» للفرّاء ، و «الايضاح» للأنباري .

ومما يذكر عن برجستراسر أنه جاء الى القاهرة واستمع الى مقرئ القرآن ودوّن أنغامه بالنوطة .

ونشر سخاو Sachau (١٩٣٠-) الكثير من مؤلفات البيروني الرائعة ، «كالاتار الباقية» ، وتاريخ الهند» ، وشارك مع مستشرقين آخرين في نشر كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد .

ولا بدّ أن نذكر هنا المكتبة الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمان التي بدأ بنشرها العلامة الكبير هلموت ريتز (١٩٧١-) في استانبول عام ١٩٣١ ، وتبعه في إدارتها الاستاذ البرت ديتريش Dietrich والاستاذ فيلد E. Wild . وقد ظهر فيها نصوص قديمة محققة ذات شأن . فقد حقق ريتز الجزء الأول من «الوافي بالوفيات» للصفدي ، ثم تتابع على نشره علماء آخرون . وكتاب «فرق الشيعة» للنوبختي ، وكتاب «أسرار البلاغة» للجرجاني . ونشر هانس فير H. Wehr «كتاب الحكايات العجيبة» وهو أقدم من ألف ليلة وليلة ، ونشر فاغنر E. Wagner «ديوان أبي نواس» .

وللاستاذ ريتز تحقيقات أخرى . فقد نشر «غاية الحكيم» المنسوب لمسلمة بن أحمد المجريطي ، و «رسالة الأرزاق» لابن سينا ، وكتاب «باتانجل» للبيروني .

ومما ظهر من النصوص العربية بعناية المستشرقين

الورد في عشر مجلدات ضخام ، وصف فيه ما يقرب من عشرة آلاف مخطوط . ولقد كان عملاً جباراً .

وهناك عشرات من الفهارس المفردة وضعها آخرون للمخطوطات العربية . فقد وضع زييولد الجزء الأول من فهرس مخطوطات جامعة توبنجن ، ووضع فايسفايلر Weisweiler الجزء الثاني منه . ووضع أومير Aumer (١٩٢٢) فهرس المخطوطات في مكتبة جامعة ميونيخ ، ووضع فلايشر Fleischer (١٨٨٨) فهرساً للمخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الوطنية (٤٥٤) مخطوطاً . ووضع فير فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة جمعية المستشرقين الألمان ، وبروكلن فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة الدولة في برسلو ، وبرنباخ Berenbach ، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة هايدلبرج ، وغير ذلك . ويتابع الاستاذ زلهام الآن فهرسة طائفة أخرى من المخطوطات العربية التي لم تفهرس في ألمانيا . ووضع الاستاذ «اولمن» فهرساً للمخطوطات الكيمياء العربية في مكتبة شستربتي بدُبلن .

وقد كتب الاستاذ ريتير H. Ritter - الذي كان يعتبر مرجعاً نادر المثال في المخطوطات العربية - مقالات كثيرة عن مخطوطات استانبول . منها : مخطوطات تاريخية عربية في مكتبات استانبول لم تطبع بعد . صدرت في كتاب : ما ساهم به المؤرخون العرب (بيروت ، ١٩٥٩) ، والمخطوطات المكتوبة بمخطوط أصحابها autographs في مكتبات تركية ، (صدرت في مجلة Oriens ، عام ١٩٥٣) . والمخطوطات العربية في الاناضول واستانبول . (صدرت في Oriens عام ١٩٤٩ و ١٩٥٠) ، ومخطوطات التفسير في اياصوفيا ، (صدرت في مجلة Türkiye Mecmu'asi عام ١٩٤٥) ، وغيرها مما كتبه المستشرقون الألمان كثير .

وفي باب الارشاد الى المخطوطات العربية في العالم،

الألمان : «طب العيون» لابن سينا ، نشره Hirschberg (١٩٢٥) بمعاونة ليبرت ؛ وكذلك نشر «المنتخب في علاج العيون» للموصلي . وكتاب «نقط العروس» لابن حزم ، نشره زييولد (١٩٢١) ، و «الحاسن والمساوي» للبيهقي ، نشره شوالي Schwalli (١٩١٩) ، ورسالة «الطير» لابن سينا بشرح السهروردي ، نشره شبيس Spies ، وكتاب «الأوائل» للعسكري ، نشره فيشر (١٩٤٩) ، و «عيون الأخبار» لابن قتيبة ، نشره بروكلن (١٩٥٦) ؛ والجزء التاسع من كتاب «كز الدرر وجامع الفهر» لابن ايبك ابواداري ، نشره روير Roemer ؛ والجزء الثامن من الكتاب نفسه نشره هارمان V. Haarmann ، ونشر فان ايسس J. Van Ess نصوصاً مختلفة عن المعتزلة ، ورسائل في الرد على القدرية . ونشر هربرت بوسه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» لعبد الغني النابلسي .

ولا سبيل الى الاستقصاء ، فكل ما ذكرنا هو على سبيل المثال . وواضح أن ما نشر هو ذو شأن في تراثنا ، وهذا دليل على مدى الاهتمام العميق بهذا التراث .

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من هذه النصوص القديمة ، قد نقلها ناشروها ، أو غيرهم الى اللغة الألمانية.

ب - والأمر الثاني الذي خدم فيه المستشرقون الألمان العرب ، وكان من مظاهر نشاطهم هو فهرسة المخطوطات العربية الموجودة في مكتبات ألمانيا ، أو مكتبات العالم أو التنويه بها . وكان كريستمان J. Christmann (١٦١٣) أول من وضع فهرساً لمخطوطات عربية اقتناها نبيل ألماني . ولعل أعظم أثر في هذا الميدان يعتبر فخراً للاستشراق الألماني هو فهرس المخطوطات العربية في مكتبة برلين الذي وضعه

يدخل كتاب العلامة بروكلمن عن تاريخ الآداب العربية . فهو بنيان ضخم جبار يدل على عظمة مؤلفه وقوة ارادته ومثابرته وصبره . وهو فخر للاستشراق الألماني . وسيتقى ، رغم نقصه ، مرجعاً لكل باحث لعشرات من السنين . وقد أمدّ الاستاذ ريتز هذا الكتاب في طبعته الأخيرة ، بكثير من الإضافات .

ج - والأمر الثالث الذي عثي به الاستشراق الألماني هو الاهتمام بالمعاجم العربية . وكان يعقوب يوليوس (-١٦٦٧) أول من وضع معجماً عربياً-لاتينياً . ثم وضع فرايتاغ (-١٨٦١) معجماً مثله ، حلّ محله . وجاء نولدكه فكتب على هوامش نسخته من معجم فرايتاغ الكثير من الإضافات . يمكن أن يكون منها معجم خاص . وقد اهتم جورج كير (-١٩٦١) باستخراجها ، ونشر في عام ١٩٥٢ و ١٩٥٤ كرّاستين فيهما حرف الإلف . وحاول فيشر (-١٩٤٩) أن يضع جذاذات ، بلغت الألف ، لمعجم اللغة العربية مستمد من المصادر القديمة على اختلاف العصور ، ليكون معجماً تاريخياً يدل على تطور معاني الألفاظ وقد قضى في جمع ذلك ، وبمعاونة بعض تلاميذه ، قرابة أربعين عاماً . واذ كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فقد حمل إليه بطاقاته ، بعد أن أبدى المجمع رغبة في إخراج معجمه . ولم يخرج المجمع إلا كرّاسة واحدة صغيرة منه .

ووضع الاستاذ فير معجمه العربي الألماني الذي قصره على الألفاظ العربية المستعملة في عصرنا ، في الصحف ومؤلفات الكتاب الحديثة ، مهملاً الألفاظ القاموسية أو الأدبية التي ماثت أو لا تستعمل اليوم . وقد قضى في جمعه وقتاً طويلاً ، ونقل إلى الإنكليزية . وأصبح مرجعاً لكل مستشرق ، وعالم .



د - وكان من الطبيعي أن يهتم المستشرقون الألمان ، بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الإسلامية . وهناك دراسات هامة ما تزال مرجعاً ، رغم مضي زمن على تأليفها ، كدراسة رايسكه عن التاريخ الإسلامي وضرورة اعتباره جزءاً من التاريخ العالمي ، ودراسات «فوك» عن اللغة واللهجات والأساليب ، ودور الرواية والرواة في الإسلام ، وشعر القبائل العربية الشمالية في الجاهلية ، والنبي محمد انساناً ومؤسساً لدين ، وغيرها ، ودراسات «شاخت» في الفقه الإسلامي ، ودراسات تشتر عن الفتوة في الإسلام ، ودراسات «شبولر» عن تاريخ الإسلام في إيران ، وجنوب روسيا ، وآسية الوسطى ، ودراسة «مايرهوف» عن طب العيون في الإسلام ، ودراسة «قلهاوزن» عن الأمبراطورية العربية وسقوطها ، ودراسات «متز» عن الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ودراسات «هرزفلد» الآثارية عن سرّ من رأى ، وسورية . ودراسات باريت عن القرآن ، وبراون W. Braune عن الشعر الجاهلي ، و «كاسكل» W. Caskel عن القبائل العربية ، ودراسات «اولن» عن الطب في الإسلام ، وغير ذلك .

ومن المستشرقين الأحياء الذين يتابعون دراساتهم الإسلامية في مختلف ميادين الثقافة العربية ممن عرفناهم أو قرأنا آثارهم : الأساتذة والدكاترة : شينتالر A. Spitaler ، وديتريش Dietrich ، وزلهام R. Sellheim ، وغاتيه Gatje ، وبورجل Ch. Burgel ، وشال A. Schall ، واولمن M. Ulmann ، وغروتزفلد H. Grotzfeld ، وفيلد S. Wild ، وديم W. Diem ، وفيشر W. Fischer ، ونوت Noth ، وناجل Nagel ، واند W. Ende ، وفوكه H. Vocke ، واندريس G. Endress ، وغرامليش R. Gramlich ، وشولر H. R. Singer ، وداير H. Daiber ، وسنجر H. Busse ، وروتر G. Rotter ، وغاوبه H. Gaube ، وهالم Halm ، وكونيتش P. Kunitzch ، وياسترو

ZDMG التي صدرت عام ١٨٤٧ بعد تأسيس الجمعية بستتين وما زالت تصدر . ومجلة الاسلام Der Islam التي أصدرها Becker عام ١٩١٠ ويشرف على تحريرها الآن الاستاذ شبولر Spuler . ومجلة Islamica التي صدرت عام ١٩٢٤ وبقيت الى عام ١٩٣٨ ؛ ومجلة الدراسات السامية Zeitschrift für Semitistik التي صدرت عام ١٩٢٢ وتوقفت سنة ١٩٣٥ ؛ ومجلة Die Welt des Islam التي صدرت عام ١٩١٣ ، وتوقفت عام ١٩٤٢ وعادت سنة ١٩٥١ . ومجلة عالم الشرق Die Welt des Orients التي صدرت عام ١٩٤٧ وما تزال ، ومجلة اوريانس Oriens التي أصدرها العلامة ريتز عام ١٩٤٨ ، ويرأس تحريرها الآن الاستاذ زهايم . ويمكن أن نلحق بهذه المجلات أيضاً مجلة «فكر وفن» ، التي صدرت عام ١٩٦٣ .

وفي هذه المجلات مجموعة جيدة من المقالات والدراسات والنصوص التي كتبها ونشرها الألمان يحتاج إليها كل عالم وباحث .

*

وثمة ناحية جديدة زاد اهتمام الاستشراق الألماني بها بعد الحرب العالمية الثانية ، هي تتبع أحوال العالم العربي المعاصرة ودراساتها ، من النواحي الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاتجاهات الجديدة والتيارات الفعالة ، ودراسة اللهجات العامية . وقد كان هذا طبيعياً نظراً لمكانة العالم العربي والإسلامي في زماننا ، وازدياد شأنه . فظهر مستشرقون جدد اهتموا بمثل هذه الأبحاث . وكان اهتمام الأجيال الماضية من المستشرقين بمثل هذه الأبحاث أقل . وكان من الذين اهتموا بها برجستراسر الذي كتب بحثاً عن «اللهجة الدمشقية بنصوصها النثرية» نشر عام ١٩٢٤ ، وهارتمن الذي كتب عن «اللورد كرومر وعباس حلمي ،

O. Jastrow ، وباخن P. Bachmann ، وراذكه B. Radtke وفايبرت R. Weipert ، ودنز A. Denz ، وكورل Ch. Correll .

وقد شاركت النساء الألمانيات في الاستشراق ، وشاركن في الدراسات المختلفة . فمنهن عميدة المستشرقات انا ماري شمل A. Schimmel ، والسيدات سوسنة فلزر Wilzer ، وريراك ياكوبي R. Jakobi وانجليكا نوورث A. Neuwirth ، وانجليكا هارتمن A. Hartmann . ومشتيلد بانكه Mechthild Pantke ودوروتيا كراوولسكي D. Krawulsky ، وفيلنت Vielandt وغيرهن .

٤ - وننتهي الى الميزة الرابعة من مزايا الاستشراق الألماني وهي المنهج العلمي الدقيق ، الذي يعتبر عند بعضهم مثالا نادراً يحتذى .

ولست أنكر أن في انتاج بعض هؤلاء المستشرقين نقصاً أو أغلاطاً ، ولكن من هو العالم الكامل ؟ يكفي أنهم عملوا بحب وحماسة بقدر ما أسعفتهم به المعرفة والمصادر . ولقد استدرك بعضهم على بعض ، باخلاص ، وصحح بعضهم أخطاء بعض ، وكانوا علماء حقاً يقبلون كل نقد وتصحيح .

ومن المقدمين في باب النقد المجرّد فلايشر الذي صحّح طبعات نفح الطيب ، ومعجم البلدان ، والفهرست ، والكامل للمبرد ، وكذلك ريتز الذي نقد وصحّح عشرات وعشرات من الطبعات التي صدرت في اوروبا والبلاد العربية .

*

ولا بدّ أن ننوّه أيضاً بالمجلات الاستشراقية التي أصدرها الألمان ، منها مجلة المستشرقين الألمان

والطهطاوي» ، وعن «الصحافة العربية في الاراضي الاسلامية» ، و «دليل لهجة سوق بيروت» ، و «أغاني شعبية سورية» و «أغاني من صحراء ليبيا» . وكبفماير الذي كتب عن الادباء والشعراء المعاصرين في مصر والشام في الثلاثينات .



وعلى الرغم من العوامل المادية الكثيرة التي تشبّط همم الشباب الألمان للتخصص في ميدان الاستشراق ، ورغم عدم وجود مناصب في الجامعات لجميع المستشرقين الشباب ، فإنّ الاستشراق الألماني اليوم ماضٍ في سيره . وتكاد معظم الجامعات الألمانية تحتوي اليوم على قسم لتدريس اللغة العربية والاسلاميات ، وأحوال العالم العربي المعاصر . وقد اختصّت كل جامعة بنوع من الدراسة ، حسب الاستاذ المشرف على القسم . نذكر من هذه الجامعات : جامعة برلين ، وبوخوم ، وبون ، وارلنجن ، وفرانكفورت ، وفرايبورغ ، وغيسن ، وغوتنجن ، وهامبورغ ، وهايدلبرج ، وكيل ، وكولن ، وماربورغ ، ومايز ، وميونخ ، ومونستر ، وساربروكن ، وتوبنجن ، ورزبورغ .

والى جانب هذه المراكز ، أنشأت جمعية المستشرقين الألمان معهداً في بيروت للدراسات الشرقية . وكان

الاستاذ روير هو الذي أنشأه ، في أوائل الستينات وتعاقب على ادارته روير ، وشتيبات ، و ويلد ، وبخمن . وفي هذا المعهد يقضي بعض المستشرقين الألمان الشباب سنة أو أكثر لمتابعة دراساتهم الاستشرافية والتعرّف على أحوال العالم العربي .



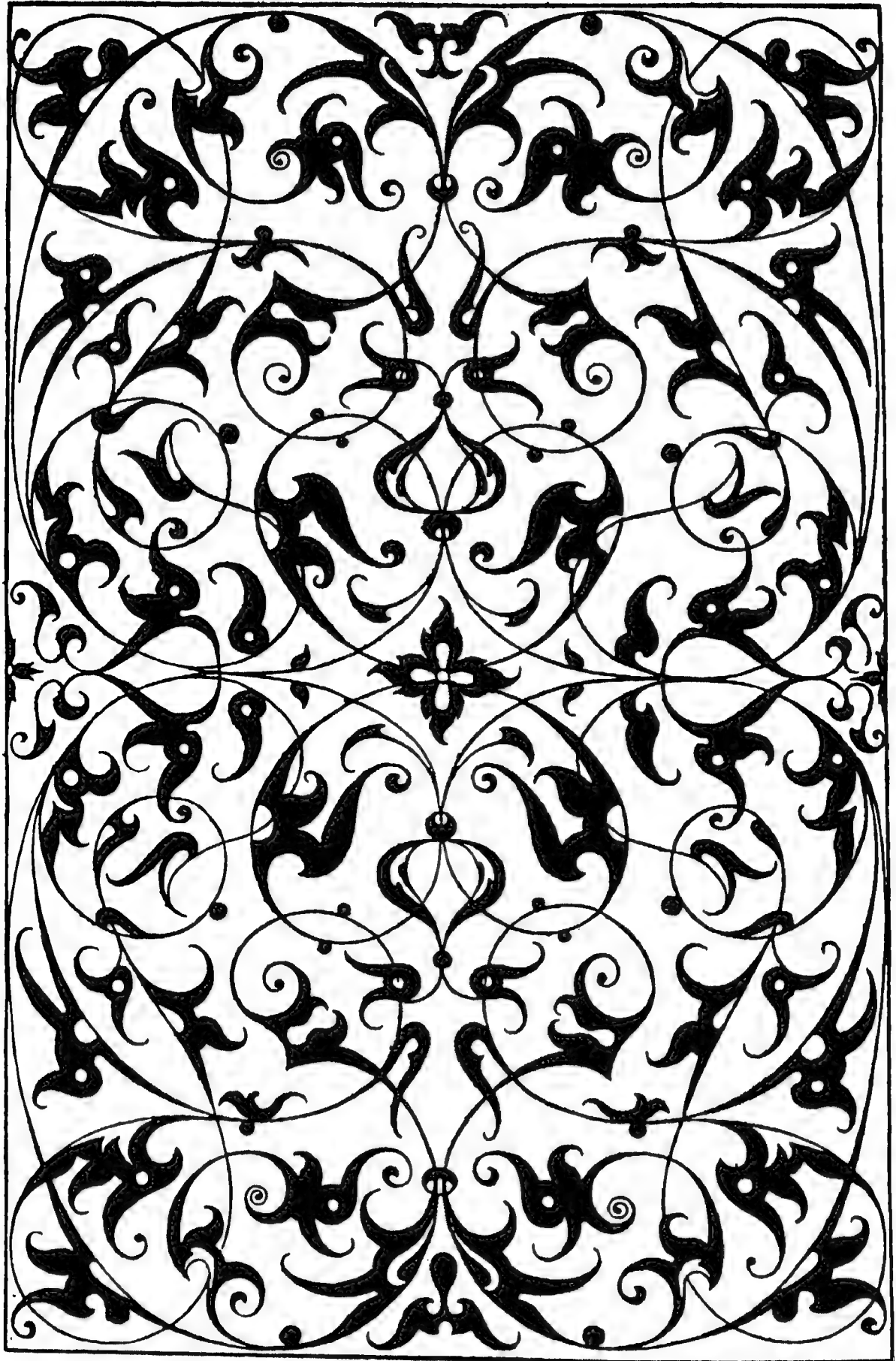
وقبل أن ننهي استعراضنا هذا لا بدّ أن نلحّ على أمرين هامين :

الأول : زيادة التعاون العلمي بين المستشرقين الألمان وعلماء العرب . فمثل هذا التعاون يفيد الطرفين ، ويعطي ثماراً علمية جيّدة .

الثاني : العمل على نقل أحسن الدراسات الاستشرافية الألمانية ، في الماضي والحاضر الى اللغة العربية ، نظراً لقلّة من يعرف الألمانية بين علماء العرب . ويمكن أن يتم هذا العمل بالتعاون بين الألمان والعرب معاً . ولا تخفى الفائدة التي تحقّقها هذه الترجمات الى اللغة العربية . فالاستشراق الألماني مقصّر في التعريف بنفسه . والمثقفون العرب بحاجة الى معرفة ما توصل اليه المستشرقون في دراساتهم في مختلف ميادين الثقافة الاسلامية .

صلاح الدين المنجد

بيروت



يُوْهَانَ يَعْقُوبَ رَايسْكَه

(١٧١٦ - ١٧٧٤)

بقلم : الأستاذ يُوْهَانَ فوك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Fück في سنة ١٩٤٣ بوضع مؤلف ذي اهمية فائقة عن تاريخ الاستشراق والمستشرقين في اوروبا من اوائل دراسات اللغة العربية الى القرن التاسع عشر ؛ ثم اتم هذه الرسالة فيما بعد ونشرها في كتاب عنوانه :

Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955

نود ان نورد هنا باباً من هذا الكتاب عن اول من جعل علم اللغة العربية علماً ودرساً مستقلاً ، وهو يوهان يعقوب رايسكه J.J. Reiske الالماني (١٧١٦ الى ١٧٧٤) .

كان اول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهدهم في درس لغة المسلمين غير ان هدفهم لم يكن هدفاً علمياً بل انهم ارادوا الرد على الاسلام على اساس تراجم لاتينية للقرآن و«اهداء» المسلمين بواسطة تراجم عربية للانجيل والكتب الاخرى ، اى ان غرضهم كان بعيداً عن تحقيق عادل ودراسة علمية . ولم يتغير هذا الوضع في بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريباً عندما اشتدت الرغبة لدى اهل الغرب في ارسال المبشرين الى البلاد الإسلامية بعد ان فتح الاتراك مدينة استانبول سنة ١٤٥٣ . ثم اخذ بعض اهل العلم يؤمنون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من استانبول ودمشق وغيرها من مدن الشرق ولتعلم اللغة العربية في هذه المنطقة . وكان اول هؤلاء المستشرقين ويلهلم پوستل W. Postel الفرنسي الاصل الذي ارسله ملك فرنسا ، فرانس الاول ، سنة ١٥٣٤ الى مصر ثم الى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقليلاً من اللغة الحبشية . ولما رجع پوستل الى وطنه عينه الملك استاذاً للغات الشرقية في جامعة باريس سنة ١٥٣٧ فألف في تلك السنين كتاباً في النحو العربي اشار فيه الى اهمية اللغة العربية وادبها ولكن امله في درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصارى في بلاد الاسلام . ونجد في كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على ان معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره في اخر كتابه ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .

اما المخطوطات التي كان پوستل قد اتي بها الى اوروبا فقد باعها الى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع في ضيق مالى وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغريبة ؛ واصبحت هذه المخطوطات اساساً مهماً بنيت عليه دراسة اللغات الشرقية في المانيا في مهدها . فقام بعض اللاهوتيين بدراسة تراجم الانجيل العربية التي وجدت في المخطوطات المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (١٥٥٤ الى ١٦١٣) الذي تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لهوستل اول من عرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسى خاص للدراسات الشرقية وبالأخص العربية في جامعة هايدلبرج ، وكان ذلك في عام ١٥٩٠ غير ان هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة ١٦٠٩ .

مع ان كريستمان ومن تبعه في المانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية في الشرق فقد قام في فرنسا عالم بمنهاج اخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ الى ١٦٠٩) ، احد تلامذة پوستل . وكان هذا اول من اتم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ في الشرق والغرب وقام بجمع اخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه في ذلك العالم المتبحر البيروني في «كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية» من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجر بين هذه التقاويم حتى انه اتم بخصوصية التاريخ الهجرى وكان هذا غير معروف عند اهل الغرب ، ووقف ايضا على التأريخ الحلالي الذي ابدعه الرياضيون في دولة السلطان ملكشاه السلاجوقى (المتوفى ١٠٧٢) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتأريخ الاسلام .

وفي هذا العصر ظهرت لأول مرة الحروف العربية في الطبع في اوروبا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربي وارتباطهم بهذا العلم الذي كان مشهوراً في الغرب منذ القرون الوسطى على يد التّراجم اللاتينية . اما المملكة التي لعبت دوراً كبيراً في تطور الدراسة الشرقية فهي هولاندا ، وكان تومس ارينيوس Erpenius (١٥٨٤ الى ١٦٢٤) اول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب العربي في اوروبا عندما طبع في سنة ١٦١٥ «كتاب الامثال» للميداني ، والى ايضا كتاب النحو العربي الذي كان يستعمله كل من اراد درس العربية في الغرب نحو قرنين الى ان نشر سيلفستر دي ساسي S. de Sacy كتابه المشهور في النحو العربي في عام ١٨١٠ . واعتنى ارينيوس ايضا بطبع سورة يوسف . إن ما ابتدأ به هذا العالم اتّمه خليفته في جامعة لايدن ، يعقوب جوليوس Golius (١٥٩٦ الى ١٦٦٧) الذي نشر عدداً من الآثار العربية المشهورة ، منها «لامية العجم» للطغرائي و«عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربي - لاتيني . زد على هذا انه اشترى في اثناء سياحته في سوريا وتركيا نحو ٢٥٠ مخطوطة عربية مازالت محفوظة في مكتبة لايدن الى الآن ، وازضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، احد تلامذة جوليوس ، ما يقارب من الف مخطوطة ذات قيمة ، فاصبحت مدينة لايدن مركزاً لتحصيل العربية في اوروبا . ومما يدعو للاسف اننا نجد بعد ذلك في الجامعة نفسها استاذاً آخر اى البرشت شولتنس Schultens (١٦٨٦ الى ١٧٥٠) الذي يعتبر مثالا مثيلاً لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية او للتعمق في تاريخ الاسلام او لدرس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية . وعاش في ايام هذا المستشرق الفلمنكي عالم الماني اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بان يدعى اول مستشرق حقيق في عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدهش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وادام عليها على الرغم من المصاعب التي اصابته في ايام حياته .

باذن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجوداً من الكتب العربية المطبوعة في سنة ١٧٣٦ - اي لما اتم من عمره عشرين سنة! - وفي هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التي كان مخطوطها محفوظاً في مكتبة لايزج ، فقال المستشرق الكبير ه. ل. فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة ١٨٧٠ ، اكثر من قرن بعد وفاة المؤلف : «انه لم يعد يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة يستطيع القيام بترجمة احسن منها حتى ولو كان حاصلاً على افضل التعليم ومتلقناً اصح الوسائل» وعبر كذلك عن رغبة واحدة يقول : «ليتني اجتنبت غلطات رايسكه ، ولا ارجب في فضل اخر» . بعد ذلك كان على رايسكه ان يحصل على مخطوطات عربية فبعث اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف فولف Wolf في مدينة هامبورج (من ١٦٨٣ الى ١٧٣٩) بنسخة من مقامات الحريري من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمثنى العربي وترجمتها الى اللاتينية استناداً الى هذه المخطوطة وإن سمى هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعا ما تحسنت ترجماته وتوفيق الاولية . واقرضه فولف المذكور مخطوطات اخرى لكي يتصرف بها فكان رايسكه ممنوناً له لفضله هذا طول عمره . وكان كلما ازداد تعمقاً في الادب العربي ازداد شغفاً به ، واصبحت

ولد رايسكه في عائلة دباغ فقير في ٢٥ كانون الاول سنة ١٧١٦ في قرية تسوربيج Zörbig في مملكة ساكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية في الميتم المشهور في مدينة هاله (وكان هذا الميتم الذي أسس سنة ١٦٩٥ مدرسة ذات شهرة في ذلك العهد) وبقي فيه من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣٢ ، واخذ «شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية» لم يدر الشاب ما سببه ، وعندما ابتدأ بدراسته في جامعة لايزج عام ١٧٣٣ اختار مواضيع تحصيله . مستبداً برأيه وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفيق في درس النحو العربي دون الأخذ بمعونة اى معلم ما مستندا على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى ان يشتري كل ما وجد اذ ذاك في اوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه اكثر من ٢٠٠ تالر في مدة خمس سنوات (وكان التالريساوى الدينار اواقل منه) . وفي سنة ١٧٣٥ بدا له ان يتجرأ على مطالعة «عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنقائص الكتاب المنشور على يد جوليوس واغلاظه سافر في شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوماً لديه ان احد مأموري المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة على نسختي هذا المؤلف المحفوظتين في مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه

عام ١٧٤٠ ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين اى فى عام ١٧٤٢ ؛ ويحتوى كتابه هذا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ؛ وبعد ان يعلق المؤلف على الترجمة والحواشى بعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر ايضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الايات والعبارات المأخوذة عن المعلقات الاخرى وعن ديوان الهذيلية والحماستين واشعار المتنبي وابى العلاء المعرى وسائر الشعراء ؛ وتعالج المقدمة انواع مخطوطات المعلقات وحواشها وشرحها والاسماء التى تعرف بها ، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف ايضا جدولا للانساب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التى اقترحها رايسكه فى مقدمة تليفه هذا . وكان رايسكه بهذا العمل اول من سلك الطريق الذى يسلك الى الآن فى الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلم به ان هذا الطريق هو احسن طريق يهتدى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فان المهاج الجديدي كان بعيداً جداً عن الطرق التى بحث فيها الاستاذ شولتنس عن اصول اللغات السامية فى نغمات خياله ، ولم يقيم رايسكه فى تأليفه بذكر مثل هذه الخيالات الغير معقولة : ان من اقتنع ببراهين رايسكه على ان المعلقات من شعر القرن السادس الميلادى فهو يعرف بان لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربى القديم العهد . اما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتاباً فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين .

وقعت لذلك ولسبب اخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلى الاخلاق غاية الاختلاف . اما رايسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق الذى عرفه صحيحاً وطيباً ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكثر بالسرؤال هل لعلم التوراة ودرس اللغة العبرية اى فائدة من جراء درس العربية ام لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس اقناع تلميذه هذا بان يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان رايسكه كان قد ادرك ان هذا لن يجلب اثمارة مرضية لدرس علم اللغة العربية وادبها ، وعرف ان درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جدور فرضية وان السعى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرافات باطلة .

امنيته الكبرى ان يكرس حياته لهذا العلم ويبدل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكناً الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المسماة «بوقف وارنر» . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة ١٧٣٨ متوجهاً اولاً الى هامبورج حيث قابله المؤلف ثولف المذكور بكل لطف وقدمه ايضا لرايماروس Reimaruss ، عالم واسع الصيت . ثم تابع رايسكه سفره الى مدينة امستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville ، احد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ ثولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل ان يتخذ رايسكه معاوناً له ، ولكن الشاب الذى كان شغفاً بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما ورد هذا العرض مع انه لو كان قبله لحسنت وضيعته المالية تحسناً ملحوظاً ؛ ولكنه رفض القبول حتماً كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية . ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طيلة اقامته فى هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى اواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى ٦ حزيران ١٧٣٨ وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من نغمة انه لم يسمح له بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححاً عند احد الكتبيين ، وهو يوهان لوزاك ، الذى اعطاه بدلاً لخدمته غرفة وطعاماً فقط ، وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكاملة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعطيل الصيفى اصبح رايسكه تلميذاً له وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التى طالما اشتاق لرؤيتها . وكانت رغبته الاولى التعمق فى آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس اوصاه بدرس الشعر العربى . فلتسح الشاب سنة ١٧٣٩ ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفى السنة التالية الحماسة للبحترى ، واما معظم اوقاته فصرفها فى مطالعة اشعار «وارنر ٢٩٢ و وارنر ٦٢٨» مع شرح التبريزى وشرح النحاس ؛ واختار اطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهذيب والتصحيح ، واتم هذا العمل او القسم الاكبر منه ،

THARAPHÆ MOALLAKAH

cum Scholiis

N A H A S.

e MSS. Leidensibus

Arabice edidit, vertit, illustravit

JOANN. JACOB. REISKE.



LUGDUNI BATAVORUM,
Apud JOANNEM LUZAC,
MDCCXLII.

und mein damaliger Hauswirth, der Kriegsrath Lange, mir verschafften. die habe ich nur in den letzten Jahren meines hiesigen Studentenlebens genossen. Ich hätte sie noch länger genießen können; allein um das Jahr 1738 fuhr mir die Reise nach Holland in den Kopf, und ich war davon nicht abzubringen. Keine Vorstellungen der Gefährlichkeit einer Reise in ein fernes Land, ohne Geld, fielen mir bey, oder hatten auf meine, damals noch kindisch hitzige und der Welt unkundige Seele, einige Gewalt.

Ich sollte, ich mußte Leyden sehen. Darüber ließ ich alle in Händen habende Vortheile fahren. Meiner Reise nach Leyden, und dem Durste, die dortigen arabischen Manuscripte zu durchwühlen, opferte ich alle Aussichten meines künftigen Glückes auf. Das ist mir übel bekommen. Theuer, gar theuer, habe ich meine Thorheit büßen müssen! Ich bin zum Märtyrer der arabischen Literatur geworden! Ach, wenn doch mein damaliger brennender Durst nach dieser Literatur, der mich nur unglücklich gemacht hat, weil er zu frühzeitig kam, in einem Jahrhunderte, das ihn nicht brauchen, mit ihm auch nicht schätzen, und nicht belohnen, noch aufmuntern konnte, in eine Seele führe, die etwa einmal glücklichere Zeiten beleben möchte! wenn dergleichen Zeiten etwa einmal (wiewohl das nicht zu hoffen steht,) einbrechen sollten, da man die arabishe Literatur höher achten, und fleißiger treiben wird, als man jetzt thut. Ein Geist, mit einer solchen

عنوان كتاب رايكه عن معلقة طرافة.

على كرسى الدراسات الشرقية ، وود لورايكه ترك دراسة العربية تماما . لذلك افهم العالم الالماني ان وضعيته بائسة بلا امل واقنعه بان يدرس قليلا من الطب ، فدرس رايكه الطب لمدة بعض اشهر وحصل على درجة دكتور طب في شهر مايو سنة ١٧٤٦ استناداً الى ما كان قد جمع من معلومات طبية من المؤلفات العربية مع ان اللاهوتيين في لايدن اقاموا مشكلات جديدة مدعين انه كان مادياً لما عرضه من الابحاث العلمية في امتحانه . سافر رايكه في ١٠ حزيران ١٧٤٦ من هولاندا ووصل مدينة لايبزج في اوائل شهر تموز . ولما لم يرغب في اجراء الطب فعلا وجب عليه ان يكسب يوميته بتصحيحات الكتب وباعطاء دروس خصوصية وبتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير الحميدة . ولكن المهم انه بقى لديه وقت لمتابعة العربية ، والى في شهر آب ١٧٤٧ كتاباً لاتينية عنوانه :

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memorialem rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

صحيفة عن مذكرات الاستاذ رايكه كتب فيها «اصبحت شهيد الادب العربي ...»

حتى انه اعلن «ان اراد المرء ان يساعد على رواج دراسة العربية فعليه انه لا يدرسها كاللاهوتي» . وثار ضميره كفقيه في اللغة على طريقة شولتنس الهوائية في معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفادى الصعوبات إما باهمال الكلمات التي لم يفهم معناها دون ذكر ذلك او بتغييرها تعسفا . لقد كان على علم بأنه لا يكفي لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائماً على اساس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذي يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف .

كلفته ادارة المكتبة في لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية ، ورحب رايكه بهذه الفرصة التي امكنته من تدقيقها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار ، مثلاً المعارف لابن قتيبة ، والتاريخ والجغرافيا لابي الفداء ، وتاريخ حمزة الاصفهاني ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وغيره . ولكنه لم يمكنه الحصول على درجة الدكتوراه في كلية الاداب في جامعة لايدن لان شولتنس ابي ذلك عليه إذ انه كان يريد ان يعين ابنه خليفة له

94. قلن كنت وغلا في الرجال لضربي عداوة ذي الاصحاب
والمتوحد
95. ولكن نفي عن الرجال جرائي عابهم واقدمي وصدقي
ومحتدي
96. لهركي من امري على بجة نهاري ولا لبللي على
بسرمد
97. وبيوم حبست النفس عند عراكها حفاظا على عورتها
والنهود
98. على موطن يخشي القتي عند الردي مني تعتركي فيه
الغريص ترعد
99. واصغر مضبوح نظرت حولي علي الناس واستودعته
كف محمد
100. سبدي لك الايام ما كنت جاهلا بياتيك بالاجبار
من لم تزود
101. لهركي ما الايام الا معاري بما استطعت من معروفيا
فتزود



94. الوغل الضعيف الخامل الذي لا ذكر له والواغل
الذي يدخل على القوم من غير اذنه والوغل الذي
يحضر الشراب ولم يدع عليه والوغل الشراب ايضا
95. ويروي ولكن بقي الاعادي والاحتاد الاصل
96. العمر والعمر واحد الا انهم لا يستعملون بالقسم الا الغنح
لكثرة استعمالهم اياه والعمة الامر انهم لا يهندي
له والسرم الطويل
97. اصل العراك الاندحام اي صبرت نفسي عند اندحام
القوم في الحزوب والخصومات وعورتها اي مخافة
العدو

F I N I S.

Nam si obscurus essem inter illustres, profecto noceret mihi odium & amicis stipati, & solitarii.
95 Sed homines a me propulsat mea in ipsos audacia, & aggressio, & strenuitas, & profapia.
Res meæ, ita valeas, neque interdum me sollicitum tentent, neque nox mihi mea nimis longa.
Per diem, quo firmavi pedem in conspata acie & inter minas, loca mihi patentia præmuniens,
In campo, ubi heros vereatur exitium; ubi, cum te in aciem inferas, scapulæ contremiscant.
Perque aleatoriam sagittam flavam, fumosam, cujus vidi pullum igni adstantem, & quam ingessi dextræ avari:

100 Prodent sane dies tibi quod ignorabas, & adferet tibi nuncios is, quem nec comæatu instruxeras.
Dies, hercle, non sunt nisi depoluitum; quod itaque ab his beneficii potes obtinere, capta.



- العدو كقولته تعالى بيوتنا عورة اي هذا العدو ويروي
مروعاتها اي فزعائها
98. الموطن مستقر الحرب والردي الهلاك وتعتركي اي
تزدحم والغريصة اللحم من اخر الكتف عند الجنب
وهي اول ما ترعد
99. يعني بالاصغر السهم والمضبوح الذي غيرة الباني
وحواره رجوعه اذا جعل علي الناس انه محمد الذي يضرب
بالسهم
100. اي سنظري لك الايام ما لم تكن تعرفه بياتيك
بالاجبار من لا تاسره ان ياتيك بها ولا تزود

F I N I S.

الصحيفتان الاخيرتان لكتاب رايكه عن معلقة طرافة، مع مثبها وترجتها اللاتينية.

المالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث ايضا بوساطة مقدمة العالم العربي نفسه عن البحور والانهار والجبال وينجز الباب مشيراً الى ما يجب ان يلم به من المعلومات على مدرسي الجغرافيا التاريخية. ويحتوي الباب الثالث - وموضوعه المناهج التاريخية - على فهرس الكتب النقدية مبتدئاً بتأليف ديربلو d'Herbelot المسمى بـ Biblio-thèque Orientale (المكتبة الشرقية، وهي قاموس شامل على كل ما كان معروفاً في اوائل القرن الثامن عشر عن المواضيع الشرقية)، ويقدر رايكه هذا التأليف غاية التقدير؛ ويذكر فيما بعد المطبوعات المعدودة التي يمكن ذكرها بهذا الخصوص وهي: E. Pocock

وتأليفات جرجيس المكين (المتوفى ١٢٧٣)، واني العباس احمد الفرغاني المنجم المشهور في اوربا منذ القرون الوسطى، والاقسام المطبوعة من تاريخ ابي الفداء (وليس في رأيه ابن عربشاه بمؤرخ حقيقي)، وما يسمى الجغرافي النوبي Geographus nubienis؛ ثم يشير بالايجاز الى كتب الرحلة وما ألف في اوربا من الكتب حول التاريخ الاسلامي (مثلاً قانمر، Péris de la

وهو رسالة في التاريخ الاسلامي، نشرها تلميذه له، يدعى ب. كولر Köhler سنة ١٧٦٦ في كتابه عن ابي الفداء في شكل ملحق (ص ٢١٥ - ٢٤٠) وفيه يرفض رايكه في مستهل مقدمته استعمال التعبير «شرق» لانه غير مضبوط، ويستعمل بدلا منه تعبير «محمدي» او «مسلم» لان هذا العلم يبحث عن تاريخ المسلمين لا في الشرق فمحسب بل ايضا في افريقيا واوربا؛ ويريد المؤلف، كما قال، معالجة مادته في ثلاثة ابواب: اولها البحث عن الملل والسلالات، ثانيها عن البلدان التي وقعت فيها هذه الحوادث التاريخية، وثالثها عن المصادر التي نخبنا عن هذه الوقائع. ويلى هذا التمهيد الصريح بيان واضح حسن النظام.

الباب الاول (ص ٢١٨ - ٢٢١) يعدد العناصر الخمسة التي لعبت دوراً في تاريخ الاسلام، وهم العرب، والايانيون، والأتراك والتراكمة، والمغول والتتر، والبربر، ويبين موجزاً السلالات التي اخرجتها كل أمة، ويشير في ملحق للباب الاول مرة اخرى الى اماكن هؤلاء السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط. وفي الباب الثاني يذكر المؤلف استناداً الى آثار ابي الفداء،

Croix وغيرهما ، وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، اى عن تأليفات ابي الفداء باجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهاني ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميداني الذي قدره غاية التقدير . ثم يضيف بعض ملاحظاته في فهرست المخطوطات الشرقية في لايدن الذي اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيراً الى مجموعات المخطوطات الموجودة في اوكسفورد ، باريس وفلورانس التي كانت اقل اهمية من مجموعة مكتبة لايدن .

بعد ان عالج رايسكه موضوعه في هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه — على عادة عصره — بمديح يستحق المطالعة حتى في ايامنا هذه ، يمدح فيه التأريخ الاسلامي ويوصي مواطنيه بمتعدد الاسباب على درس هذا التأريخ الذي كان يهمل كثيراً في اوروبا . ومع ان هذه التصريحات كانت مخاطبة لطبقة القراء غير الاختصاصيين في هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد اراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم من ذلك فان هذا المديح دليل صريح لادراك تصورات رايسكه ونظرياته العامة وإن نقص احيانا ارتباط منطقى ، تدل هذه السطور على ان العالم رأى تأريخ الشرق كقسم لتأريخ العالم العام ، وانه ظن ان درس هذا التأريخ كان واجبا على الانسان لاجل التواتر التاريخي ، كما اعتبر ايضا درس تاريخ اليونان والرومانيين القديمين واجبا على كل رجل مثقف وقد اجمع العلماء في العالم على ذلك اجماعاً كاملاً ولا ينكر احد اهمية التاريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران في اثناء القرون الوسطى بقلم ابي الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم ، وعين العادات وانواع الحكومة التي تحققت له من مطالعته تأريخ هرودوت اليوناني ووصفه لايران القديمة . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقب ما حدث في مدى العصور لتلك الممالك والولايات في الشرق وفي افريقيا التي فتحتها اليونان او كانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعى ايضا العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامي التي كانت موجودة منذ ايام شارلمان الامبراطور الالماني في ايام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان في صيقيليا والصليبيين الى فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التي سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرفيات . وكثيرا ما اكد لقرائه بان التأريخ الشرقى لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى او قيمة او محتويات ؛ وصرح بان المتخصص بالتأريخ كثيرا

ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان في سعادة فانية بينما يرى ايضا التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض او مداسين في التراب ، فيبدو للناظر المتحير كأن كل شيء دائري في دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بان الثمر الاحلى والمحصول الاهم الذي انتجه درس التأريخ هو ادراك القوى التي تسير الافعال البشرية كما كشف عنها تأريخ بنى آدم . ومن اراد ان يتعلم من درس التأريخ مناهج السياسة ، ومن رغب في تبصر الحكمة الالهية او طرق القضاء الاعمى ، او من ود ان يتفحص الاخلاق والقيم البشرية فانه يجد لذلك في تأريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها في تأريخ اوروبا . ولا يتردد رايسكه بان يعطف على اعمال طغرل السلجوقي ، جنكز خان ، تيمور ومحمد الفاتح اهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر ، وبلغ اعجابه بملوك ايران القديمة حدا انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصلف برغش يزعج الاقيال ، ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وان اعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التاريخية التي لا يفهم معناها العقل الانساني بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ؛ ويرى في قبض بنى امية عنان الدولة وفي الآلام التي قاساها آل على بن ابي طالب قضاء الهيا . وتمسك ؛ «تشيع حسن» كما وجد هذا التشيع في مصادره التاريخية غير القديمة العهد: اى انه اعتبر علياً الخليفة الحقيقي للرسول وقد منعه احيال الشورى ودسائسه من حقه الموروث لمدة ٢٤ سنة ، ويرى فيه احسن ملك ظهر في العالم الاسلامي ، ملكا شجاعا ، عادلا امحاه القضاء والقدر ، واباده بغض عاتشة الطموحة . ويرى رايسكه في مجادلة علي ومعاوية مثالا امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز الرذالة على الامانة ، حتى انه لا يكتفي بذلك المديح بل يقارن بين علي بن ابي طالب ومارك أورل ، الامبراطور الروماني الذي يسمى «الفياسوف على السرير» . وتدعوه احيانا هذه الرغبة في التشبيه الى ان يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخي في ممالك الاسلام وفي اوروبا لكي يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المبهدة مثلاً جرى في الغرب .

وفي ابان هذه السنوات كتب رايسكه كتابا اخر عنوانه :

de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فانعم عليه ملك ساكسونيا في مدينة دريسدن لقب «الاستاذ» وخصص له معاشا سنويا مقداره ١٠٠ تالر ، بيد ان الحكومة



برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: السوق المتبق في مدينة دريسدن وشارع القصر. نحت على النحاس، سنة ١٧٥٢.
تصوير: الفوتوتك الألماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden

برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: ايوان القصر المعروف باسم «تسوينجر» Zwinger مع «باب الناج» والجسر على نهر ايلبه.
نحت على النحاس، سنة ١٧٥٨.
تصوير: الفوتوتك الألماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden



أدريان زينيك A. Zwingg (١٧٣٤-١٨١٦): منظر مدينة دريسدن سنة ١٨١٥.
محفوظ في متحف دريسدن المخصوص التصويرات المنحوتة على النحاس Kupferstichkabinett
تصوير: الفوتوتك الألماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden

برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: السوق الجديد في مدينة دريسدن، نحت على النحاس، سنة ١٧٤٩.
تصوير: الفوتوتك الألماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden



اننا نهدف بايراد هذه الرسوم ان القارئ يَصوّر منظر مدينة المانية مشهورة في القرن الثامن عشر، وكانت هذه المدينة مركز المملكة الساكسونية التي كانت وطن العلامة رايسكه، و سافر اليها مرارا.

لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماماً بعد سنة ١٧٥٥. وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرقه احد اذ اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره الا يسمى محمدا «نبياً كاذباً» و«خداعاً» والا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، احدهما التاريخ المقدس ، والاخر التاريخ الدنيوي ، بل كان يحصل لتاريخ الاسلام منصباً في وسط التاريخ العام .

زد على هذا ان رايسكه لم يتردد باظهار رأيه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، واحداث ذلك خصوصاً شديدة ؛ فمثلاً قام الاستاذ شولتنس الفلمنكى في سنة ١٧٤٨ بنشر طبعة جديدة لكتاب النحو الذى ألفه اربنيوس (سنة ١٦١٣) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصلى كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل ابقى على ما فيه من اساطير لقمان ومن الامثال الا انه اضاف الى هذه المادة الموروثة اشعاراً منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ؛ ثم الف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحي التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصارى في مسألة قدسية اللغة العبرانية . واعترض رايسكه على المقدمة قائلاً بانه لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة في كتاب يبحث عن النحو العربى. ، ولا جدال في ان مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفي العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال سليمان مع شرح له مستعملاً فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام رايسكه بمراجعة هذين الكتابين في Nova Acta Eruditorum وهى مجلة علمية من نشر السيد منكن . وألزمه ضميره في هذا النقد الأدبى أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الاحترام اللائق تجاه شولتنس فإنه أدرك من الوقع الذى سببه فقط انه كان من الأفضل لو كان قد قام احد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذى كان معتاداً على المشاجرات الأدبية والذى لم يجترأ احد حتى ذلك الوقت الشك في كونه معلم عصره في العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعث تحريزين الى «منكن» طالباً منه أن ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصى وافترى على رايسكه غاية الافتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين المكتوبين تأثير كبير في المانيا — وكان

شولتنس قد ارسلهما الى جميع اساتذة الكلية بلايزج — فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه رايسكه من الاسباب الواقعية ولم يتمكن احدهم من المقارنة بين الرايين مقارنة علمية كما لو كانوا اختصاصيين في الموضوع . ولم يمد احد يد المساعدة لرايسكه ومضت عليه سنة بعد سنة دون ان يعينه معهد ما في المانيا او في خارجها استاذاً ولم يفده اثباته في نشرياته انه كان متبحراً في اللغة اليونانية ايضا لأن خصيمه في هذا المضمار كان الاستاذ ارنستى Ernesti . استاذ اللغات القديمة واللاهوت معاً . — في سنة ١٧٥٣ حاول الاستاذ بوبوويتش Popowitsch في جامعة فيينا ان يجد منصباً لرايسكه لدى السفير النمساوى فون شواختهايم الذى سافر الى استانبول سفيراً عند الباب العالى ، وفشل هذا الترتيب لان رايسكه ابى ان يتكثلك . واستمرت احواله المالية تملئ عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسونى عن اداء معاشه في عام ١٧٥٥ .

ولما يئس رايسكه من حاله توجه في اواخر سنة ١٧٥٦ الى الاستاذ ي . د . ميخائيليس Michaelis (١٧١٧ الى ١٧٩١) في مدينة جوتنكن الذى كان زميله في المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذى لم يكن له دراية لا بالناس واخلاقهم ولا بالدنيا ودناياها انه وضع حياته في يدى انانى مدبر للمكائد . روى له رايسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وافهمه انه لو عينه استاذاً في معهد جوتنكن لأجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولو كان هذا التعيين المفروض ظاهراً وغير حقيقى ؛ واطاف الى هذه الكلمات — وكان مخلصاً غاية الاخلاص مستقيماً — ان ضيقه وفقره قد منعه من ان يخدم ركاب الادب العربى اكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت احواله فانه سيأخذ في طبع كتباً عربية ويعتنى خاصة بطبع قاموس صغير للعربية ؛ وان لم يساعده الله بالقرب العاجل فيصبح لا فائدة منه للادب العربى . ورغم انه كان لميخائيليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين اهل العلم في المانيا فانه لم يرغب في التوسط لأجل عالم فاقه بكثير في اتقان اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصاً لا يعتد به ، وظن مثلاً ان الاعراب كان من مخترعات النحويين العرب ولعلمهم ادخلوه متبعين المثال الاوروبى ؛ وكان يعترف نفسه بانه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهاج تدريسه . ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس وحب الظهور والاستبداد لم يرد ان يشتغل احد سواه في هذا المضمار . ولذلك تظاهر

بالغليظ لما جاءه طلب رايסקه ، حتى انه حول مكتوبه الذى لايشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى وزير المعارف فى مملكته مشيراً اليه بالرد ؛ ثم قدم لرأيسكره الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .

واطاح ذلك المكتوب بآمال رايسكره كلها ، فادرك انه لن يتعين استاذا فى معهد ما بعد ذلك ، فاخذ فى السعى الى وظيفة فى مدرسة ، فاصبح عميد مدرسة نيكولاى فى لايبزج بيد ان «صديقاً مرثياً» اراد منع هذا التعيين بدسائسه وكاد ان يوفق بذلك ، ولكن رايسكره كان قد وجه اهتمام الوزير كونت واكربارت الساكسونى الى شخصه عندما عرف السكك العربية فى مخزن متحف مدينة دريسدن سنة ١٧٥٦ ، وكفت شفاعه هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر اهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رايسكره عميداً للمدرسة .

وهذا وجد رايسكره بعد سنوات الضيق والفاقة الطويلة ملجأً اميناً ، فاستمر بالعمل فى ميدان الاديين العربى واليونانى فى اوقات فراغه من المدرسة . ولكنه لم يجد ناشراً لهذه المؤلفات فكان عليه ان يقوم بمصاريف الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام ١٧٥٤ المجلد الاول من ترجمته اللاتينية لتأريخ ابى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع اكثر من ٣٠ نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشرىات الصغيرة ؛ وفى عام ١٧٥٥ اعتنى بنشر رسالة ذات اهمية كبرى لما تحتوى عليه من تلميحات واسارات تأريخية ارسلها ابن زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة الفها ردا على تهينة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد ذكر فى شعر لاتينى عصا يعقوب والصوبلخان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رايسكره برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة امثال عربية تعالج العصاة وقد اخذها عن كتاب الامثال للميدانى الذى كان مغرماً به جدا . اما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكثم بن صيفى احد «حكماء» الجاهلية استنادا الى كتاب الميدانى المذكور ولم يفهم احد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن ادراك اهميته العلمية حتى ان رايسكره كف عن تدوين برنامج اخر فى المستقبل .

وكان المتن العربى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبي كمثل للشعر العربى ، ونشر نحو اثنتى عشر ابيات عشقية ومرثيتين فى سنة ١٧٦٥ ، واهدى هذه الباقية الشعرية الغرامية لزوجته التى اهلها بعد انتظار طويل فى سنة ١٨٦٤ ، وحجاً لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات

الايضاحات العلمية واكتفى بتعريف كلمات الشاعر وايضاح عالم شعوره للقارئ الغربى الذى كثيراً ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبي من وجهة نظر علم الجمال .

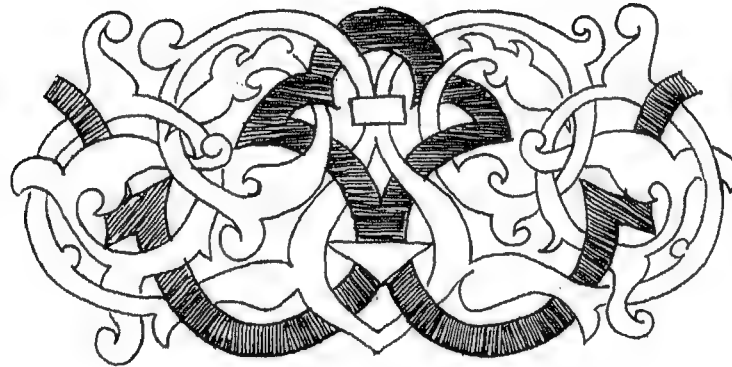
وتحقق مرامه الذى عبر عنه فى اهداء هذا الكتاب وهو : ليت شعرى ان يبق اسم زوجى مقرونا باسمى . معروفا عند الناس ! لان مادام اسم رايسكره يذكر سيذكر ايضا اسم رفيقته التى رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى رايسكره فى ١٤ آب ١٧٧٤ على اثر مرضه بالسل - ولم يكن قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره - اهتمت هى بتركته القيمة حتى لا تقع فى يدى خصمه ارنستى ، واستودعها لسينك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى كان من القليلين الذين قدروا قيمة رايسكره اثناء حياته ؛ وحفظ لسينك هذه التركة الى ان اشتراها حاجب الملك الدانماركى السيد فون سوم ، ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رايسكره تاريخ حياة زوجها الراحل كما دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلوب . ولم تخف من مجادلة اولئك الذين ظهرت سفالتهم وحقاتهم فى هذا التأليف ونشرت ايضا سنة ١٧٧٩ «نظريات فى كتاب ايوب» و«امثال سليمان» التى دونها رايسكره سنة ١٧٤٩ ، مضيفة عليها متن خطابه الافتتاحى الذى القاه فى ٣١ آب ١٧٤٨ فى كلية لايبزج ، وسادها شعور بالرضى عندما رأت ان العالم المتوفى حصل على التقدير الذى نكروه عليه فى حياته . ونشر جرونر Gruner فى ١٧٧٦ للمرة الثانية اطروحة رايسكره ، واماى . ج . ايشهورن Eichhorn ، وهو ايضا من المستشرقين ، فنشر سنة ١٧٨١ المكاتيب التى بعث بها رايسكره عام ١٧٥٧ بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة فى متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكره من شأن علم اللغة العربية وادبها وجعله علماً مستقلاً . لم ينتبه احد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلاً ادرك ذلك رايسكره ، ولم يتوجه احد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذى كان مسيطراً على عقول العلماء فى ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسدائها له فوائد جمّة فى تفسير العهد القديم ، وكان يكتفى بالبحث عن اصول كلمات عربية فى القاموس العربى لجوليوس ويقابلها بكلمات عبرانية مختاراً له من المعانى المختلفة لكل كلمة المعنى الذى يوافق اغراضه . ورغم ان

احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعوبـ Polyhistorismus اى ان العالم تخيل انه بإمكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التاريخي باجمعه فقد عرف رايه ان للطبيعة الانسانية والعقل الانساني حدا ونهاية ؛ لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الروماني سيسرو «لأجل لانهاية الاعمال ، للنقص في الوسائط ولليل عظيم لليونانيين» كذا وقد كرس وقته بأكمله للعربية فقط ورفض اضاءة وقته وقوته في تحصيل اللغات المتجانسة . وكان غرض رايه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتاريخية والادبية ، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية . مما لاشك فيه انه كفتيه في اللغة رأى اصل العلم واساسه في درس عميق للغة نفسها ، وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقى على اللغة العربية الا طول الاناة والصبر في مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع ، وتحقيق له بان مؤلفات العرب المسلمين افضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصارى بكثير . ولم يكن يخفى على فراسته ان طبقات التوراة والانجيل العربية ترجمها إما نصارى شريقو ممن لم يكن لهم علم باليونانية او العبرانية او العربية ، او انها كانت تراجم عجمية على ايدي اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجاتا (اى الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م) . ولذلك اجتهد رايه في فتح طريق الى خزان آداب العرب المسلمين وتوفيق في ذلك واصبح هاديا للآخرين . ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه اساساً للكشف عن التاريخ .

ونظرته هذه ادت به الى ادراك اهمية الدور الذى لعبه الاسلام في تأريخ الشرق . فانه لم ينظر الى المتون العربية نظرة اللغوى الصرف الذى لا يكتثر الا لفهم معانى الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذى جعل لتأريخ الاسلام مقامه من تأريخ العالم العام ، وكان يشرح هذه المتون مثلما يشرح المشاهد في دار التمثيل عند تأمله في الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر . ورغم ان رايه لم يتوفق بتأليف «تأريخ الاسلام» كما اراده فانه هذا العالم البعيد النظر وضع اساساً للعلوم الاسلامية العصرية التى تبنى كعلم تاريخى على اساس علم اللغة العربية . اما معاصروه فلم يستطيعوا فهم افكاره الجسورة ولا تأملاته الجلية فصار «شهيد الادب العربى» كما سماه نفسه ، واصبح تاريخ حياته تأريخ الآلام والظلم كما تشهد مذكراته المؤثرة . وكما ان للجرأة التى سار بها دون اكرات على الطريق الذى اعتبره مرة صحيحة أثرا ساميا فانه من الخجل انه لم يكتشف احد من اولى الامر في جامعات اوربا اهمية هذا الرجل العبقري العظيم ؛ هذا الرجل الفذ الذى كان من اعظم علماء الاداب العربية ، ومن الخجل كذلك ان هذه الاداب التى اراد تشييد بيت لها لم تحصل في المانيا القبول الذى استحقته . ولكنه من الطريف ان نذكر ان اسس في القرن التالى في لاينزج اى في عين المدينة التى قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بان يعتبر رايه من اجداده الروحانيين .





يوسف فوت هامر - يورجستال

(١٧٧٤-١٨٥٦)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

كان وضع الدراسات الشرقية في ألمانيا وسائر بلاد أوروبا غير مرض إلى أواخر القرن الثامن عشر ، إذ لم يكن العلماء يعتبرون دراسة العربية إلا امتداداً لدراسة العبرانية واللاهوت لأغبر. وقد حاولنا أن نرى في وصف حياة الأستاذ يوهان يعقوب رايكسه Reiske الذي نشأه في النسخة الرابعة من هذه المجلة المشكلات التي اعترضت من أراد تحرير الاستشراق من قيود علم اللاهوت.

أما وضع الاستشراق في النمسا فيختلف عنه في سائر بلدان الغرب. كانت هذه المملكة الواسعة مجاورة الدولة العثمانية ، وقد حاصر الجنود الاتراك مدينة فينا مرتين ، سنة ١٥٢٩ وسنة ١٦٨٣. ولذلك وجب على النمساويين الاهتمام بعادات جيرانهم الأقوياء وبطرق حياتهم ، وكذلك بلغتهم. فحفرت حروف عربية في خشب لاجل الطبع لأول مرة في سنة ١٥٥٤ في فينا ، وبعد قرن واحد أسس في تلك المدينة كرسى للدراسات الشرقية ، والف الأستاذ مينسكى Meninski كتاب النحو التركي وقاموساً تركياً نشره سنة ١٦٨٠ ، وما يثير الأسف أن أكثر نسخ هذا القاموس المفيد قد ضاعت في أثناء محاصرة فينا عام ١٦٨٣ ، كما ضاعت الحروف العربية التي ابتدعها مينسكى ؛ ثم عثر على هذه الحروف العربية المفقودة مرة أخرى في سنة ١٧٥٠ ، وحسنت شكلاً حتى صارت الآن أقرب إلى قواعد الخط العربي. وقد طبع القاموس التركي المذكور للمرة الثانية سنة ١٧٧١ في فينا.

وقد أدركت الامبراطورة ماريا تيريزيا (١٧١٧-١٧٨٠) الكبيرة أهمية الدراسات الشرقية ، فأستت لذلك داراً للعلوم خصصت لطلبة اللغات الشرقية الذين عزموا على دخول السلك الدبلوماسي. وكان نظام هذه المؤسسة المسماة بالأكاديمية الشرقية Orientalische Akademie صارماً جداً ، فكانت الدراسة تبدأ في الساعة السادسة صباحاً وتستمر إلى الساعة التاسعة في الليل. وكان على الطلبة أن يدرسوا اللغات الشرقية كل يوم لثلاث ساعات ، وعلاوة على ذلك كانوا يتعلمون الفلسفة والتاريخ واللغة الفرنسية والفراسة والرقص وكل ما كان ينتظر من صفات في شاب أصيل سيكون ممثلاً لمملكته في البلاد الأجنبية. وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، وكان الشبان يتعلمون فيها التركية بصورة جيدة دون أن يحصلوا على تعمق في فقه اللغة أو في الطرق العلمية ، بل كان مقصد هذا المعهد التطبيق الفعلي للغات في المناسبات السياسية بين النمسا والدولة العثمانية. وكان الطلاب يدرسون قليلاً من الشعر ويترجمون شيئاً من الأدب الفارسي كما نرى آثار هذه الأعمال الأدبية في مجموعة أهداها أعضاء الأكاديمية إلى الامبراطورة سنة ١٧٧٨.

وكان أحد طلبة المعهد المذكور يوسف هامر Joseph Hammer الذي مدحه العالم الكبير الألماني ي. ج. هردير J. G. Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) وهو أحد أصدقاء جويته وكان يحب الأدب الشرقي وإن لم يتعلم اللغات الشرقية ، وقال فيه : «ليت شعري أن تزهو كل الآمال التي تنتظرها من المشرق في أثار هذا الشاب ذي المواهب والامام باللغات !»

توجد عناوين تصانيف هامر كلها في :

K. Goedeke, Grundriß der deutschen Literatur VII, 2, S. 747—770.

توجد ذكريات يوسف هامر في كتاب :

J. von Hammer-Purgstall, Erinnerungen aus meinem Leben. Bachofen-Echt, Wien 1940.

وفي اثناء اقامته في استانبول اهتم هامر اولاً بحكايات ألف ليلة وليلة التي كان قد ترجمها جالان Galland الى الفرنسية في اوائل القرن الثامن عشر (ونشر هو ايضاً فيما بعد ترجمة فرنسية لهذه الحكايات)؛ ثم اهتم بحكاية عنتر، وما جذب قلبه اكثر من ذلك هو اشعار الحافظ الشيرازي التي أنشدها له درويش ايراني. ومن ذلك الوقت عزم على ترجمة كاملة لديوان الحافظ واخذ باعدادها.

نقل هامر من استانبول الى مصر سنة ١٨١٠ واقام بها لمدة عامين، ثم سافر الى انكلترا ورجع الى استانبول كاتباً للسفارة واشتغل هناك بالتأريخ والجغرافية وقام بتصميم «تأريخ الدولة العثمانية» الذي اصبح، بعد ثلاثين سنة، مؤلفه الأشهر. ولكن الحكومة النمساوية ارسلته بعد مدة الى ولاية مولدافيا عقاباً له على بعض الخلافات التي جرت بينه وبين امرائه، وعاد سريعاً الى فيينا حيث أسس بموافقة الكونت رزويوسكي Rzewuski مجلة «معادن الشرق» Fundgruben des Orients؛ ثم عين مترجماً رسمياً للحكومة النمساوية سنة ١٨١١، وانعمت عليه الحكومة بمنصب مستشار البلاط سنة ١٨١٨. وما زال هامر يكتب كتاباً بعد كتاب، ومقالة بعد مقالة، وترجمة بعد ترجمة، وكلما زاد اجتهاداً زاد كذلك في عدم الاعتناء.. سعى هامر في تأسيس اكاديمية العلوم في فيينا ووفق في ذلك سنة ١٨٤٧ بعد اجبات دامت ١١ سنة، وصار الرئيس الاول لهذه المؤسسة العلمية، ولم يبق في هذا المنصب الا عامين. وتوفي فجأة في سنة ١٨٥٦، وهو في الثالثة والثمانين من عمره، وكان يشتغل حينئذ بتأريخ الادب العربي، وقيل ان سبب وفاته سكتة القلب لشدة الحزن الذي اصابه عند سماعه خبر قطع تبادل المخطوطات العربية بين المكتبتين في فيينا وباريس...

فما الذي يمتاز به هذا العالم العامل الذي انقسم العلماء عند الحكم فيه قسمين؛ فمنهم من مدحه غاية المدح، كما فعل ذلك كثير من زملائه النمساويين مدعين انه كان «فخر الغرب»؛ الفاتح الكبير الروحاني للشرق، مشعل العلم ومنارته، قطب الاجيال القادمة...». ومنهم من نقده أشد النقد، مدعياً ان علمه بالعربية قليل وتفاهره وطموحه اكبر بكثير من تعمقه في العلوم. كان على رأس هذه الفئة الاخيرة الاستاذ فون ديتس von Diez، احد اصدقاء شاعرنا جويتته، والف رسالة خاصة في جهالة هامر وسوء اخلاقه، عيره فيها بانه «عديم المعرفة كلياً بجميع اللغات وبانه يجهل التعابير والمواضيع جهلاً لا سبيل الى التغلب عليه» واتهمه «بانه ذو اخلاق سفينة لاتوصف ووقاحة لاحد لها ولا



صورة يوسف فون هامر في سنة ١٨١٧.

ولد هامر في عين السنة التي توفي فيها الاستاذ الالماني للغة العربية رايسكه المقدم ذكره، اى سنة ١٧٧٤، في مدينة جراتس Graz في النمسا الجنوبية (وما أطلق عليه لقب الاصلالة «فون هامر» الا بعد سنة ١٨١١، ثم اضاف الى اسمه لقب «بورجستال» بانتسابه الى الكونتس بورجستال التي توفيت بدون اولاد وسمحت له بهذا الانتساب، فصار يوسف فون هامر-بورجستال Joseph von Hammer-Purgstall واشتهر بهذا الاسم). وكان والده مأمور الحكومة النمساوية، ولما وجد في ابنه استعداداً لتحصيل اللغات الشرقية ارسله الى المعهد الشرقي في فيينا حيث تعلم اللغات واشتغل في المكتبة لمدة عشر سنوات الى ان بعثت به الحكومة الى السفارة النمساوية في استانبول عام ١٧٩٩. وكان يتكلم التركية دون صعوبة ويجيد من العربية ما يكفي للمكالمة، أما الفارسية فكان يجيدها اجادة حسنة حتى انه حادث سفراء الشاه الايراني عند زيارتهم فيينا سنة ١٨١٩. وكانت علاقته بالادب والتاريخ اكبر منها بقواعد النحو، ومن عاداته انه كان يطالع القاموس بلا انقطاع ليتعلم كثيراً من الكلمات في اسرع وقت ممكن؛ وكان يظن ان هذه الطريقة لا بد منها لكل من اراد معرفة كاملة للغة ما. وكان هامر مشغولاً بالادب الشرقي، ولم يزل طول حياته يسعى في نشر حب الشرق في اوروبا كما انه الف في شبابه قصيدة في اهمية الاشتغال بالادب الشرقي.

Heinrich Doctor von Gobbi
als Merkmal
seiner Hochachtung
vom Verfasser

den 10. März 1842

أهداء بخط يوسف هامر.

والآن، ماهي هذه المؤلفات التي اشتهر بها هامر، وما هو الطريق الذي سلكه في اعماله العلمية والادبية؟
نشر هامر في اواخر حياته رسالة «في خواتم العرب والعجم والأتراك» ذكر فيها ثلاثة خواتم له، مكتوب على احدها «عبد السباح السامر يوسف هامر» وظن انه في الحقيقة سامر، يحب المسامرة والحكايات الطويلة في اجتماع الرجال والشيوخ، ويشبه اثره الادبي من جانب مسامرة كثيرة المواضيع مزهرة الاسلوب، مزينة بايات واشعار، ذاكرة للحوادث والامور ووقائع الدهور في دار الاسلام كلها، من التاريخ والفنون والتصوف والجغرافية وغيرها. وكان في اسلوبه - وخاصة في اواسط حياته - مقلدا للاسلوب الشرقي المزين بالسجع والتلاعب بالكلم، كثير التشبيهات والرموز لأن المؤلف قصد مواصلة بين التذكر الشرقي والتفكير الغربي، بين الروح الشرقية والعقل الغربي؛ وكانت جمل اثاره مطرزة بانواع الاسلوب الخطابي حتى انه ليصعب على القارئ الغربي ادراك معناها البسيط...
لما رجع هامر من استانبول الى فينا سنة ١٨٠٧ ناشد صديقا له، الكونت رزويسكي Rzewuski (١٧٦٥-١٨٣٢) تأسيس «مجلة استشرافية» مشتملة على مقالات حول العلوم الشرقية واخبار عن احوال بلدان الشرق. ووفق في ذلك الاقتراح فسمى المجلة الجديدة «معادن الشرق»

نهاية...» ولا فائدة لهذه الكلمات الا في التعبير عن اخلاق الكاتب نفسه.
ولاشك ان هامر لم يكن عالما بحتا بمعنى الكلمة، وان كان قد الف اكثر من ٧٥ كتابا، بعضها ضخم جدا، ومئات من المقالات والتراجم. ويندر ان نرى في تاريخ الاستشراق مثله: ذو افكار عالية وهمة جليلة، وفي الوقت نفسه ذو غيرة وطموح شديدين، الف من الآثار ما لم يؤلف غيره قط، ومع ذلك فهو يفتقر الى الطريقة العلمية في البحث؛ وقد جمع من الكتب واطلع من الاشعار على ما لم يطلع عليه احد قبله وربما بعده، ومع ذلك فانه لم يبق من مؤلفاته ما هو معروف في تاريخ الاستشراق الا القليل؛ وقد حصل على معلومات يصعب على العالم العصري الحصول عليها، ولذلك لا بد من مطالعة بعض مؤلفاته حتى الآن وان لم نجد في مئات الصفحات الا خبرا او خبرين مهمين. ومع ان تأثيره في تاريخ الاستشراق العلمي قليل لا يزيد على ما تأثيره كتبه بين الفقهاء في اللغة لرد غلطاته، إلا ان تأثيره في تاريخ الادب الالماني عظيم، فقد صار استاذ الشاعر الكبير جويته كما تعلم من آثاره الشاعر المستشرق ريوكرت Rückert (١٧٨٨-١٨٦٦) والشاعر الظريف كونت بلاتن Graf Platen (١٧٩٦-١٨٣٥). وما اسعد من يسمى استاذا ومعلما روحانيا لشعراء وطنه وادبائه!

Fundgruben des Orients مشيراً الى أنها ستحتوى على ذهب المعلومات التاريخية القيمة وجواهر الادب، واختار شعاراً لها الآية القرآنية:

«قل لله المشرق والمغرب يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم». نشرت هذه المجلة بين السنتين ١٨٠٩ و ١٨١٧، وكان هامر مديراً الفخرى وكان يؤلف مع ذلك نحو سُدس المقالات بنفسه، ونفهم من المحاضرة التي القاها في ١ شباط ١٨٥٥ عندما نصب هيكله في الاكاديمية النمساوية انه افتخر بهذه المجلة وادارته لها اكثر من افتخاره بسائر تأليفه. وفي الواقع يجد القارئ فيها مقالات حول مسائل مختلفة ومواضيع ذات اهمية، مكتوبة باقلام المستشرقين المشهورين في اوروبا كلها، ومنهم العالم الشهير الفرنسي سيلفستر ده ساسي Sylvestre de Sacy الذي يعتبر الى الآن مؤسس الاستشراق العلمى وفقه اللغة العربية في الغرب وهو استاذ اجيال من البعث في القرن التاسع عشر؛ كتب في «معادن الشرق» مقالة عن الكتاب الفارسي المعروف بهندنامه (كتاب النصيحة) لفريد الدين عطار الشاعر المتصوف (المتوفى عام ١٢٢٠ عند هجوم اجناد جنكز خان على مدينة نيشابور). نجد ايضا للعلامة الفرنسي ترجمة لقصيدة الأعشاء المشهورة «ودع هريرة». اما زملاء سيلفستر ده ساسي الفرنسيون فألف كاترمير Quatremère المؤرخ الواسع الصيت مقالات في مسائل تاريخ الاسلام، ونشر جرانجره ده لاجرانج Grangeret de Lagrange متونا وتراجم لاشعار الصفدى والمتنى وايضا لمقامة من مقامات الحريري. وهناك مقالة عالم اسباني اسمه ي.ا. كونده Conde عن ابن خلدون وفلسفته، ومن الطبيعى ان عدد المستشرقين النمساويين في هذه المجلة فاق عدد غيرهم، ونشر هناك شاب ذو موهبة شاعرية وهو روزنتسوايغ - شواناو Rosenzweig-Schwannau (١٧٩١-١٨٦٥) لأول مرة ترجمة منظومة لبعض ابواب الاقصودة المشهورة «يوسف وزليخا» للشاعر الفارسي مولانا عبدالرحمن جامى (المتوفى سنة ١٤٩٥) وصار هذا المستشرق فيما بعد من اشهر مترجمي الادب الفارسي في اوروبا. وقد ود هذا النسل الرومانتيكى من المستشرقين الترجمة الشعرية للآداب الشرقية حتى وان لم يفهموا معنى الشعر العربى والفارسي بتمامه اوقصروا عن تحليله على قواعد النحو.

وعدا التراجم والمقالات عن مسائل الادب جمع هامر في «معادن الشرق» معلومات تاريخية، مثلاً عن حياة البخارى كما وصفها ابن خلكان في وفيات الاعيان، او عن اسماء

النجوم عند العرب للمتخصص في هذا المضمار، الاستاذ ايدلر Ideler الذى كان قد الف في مجلة هامر مقالة اخرى في طرق تأريخ العرب والعجم وتقويمهم فأصبحت المجلة ميدان مشترك للمستشرقين من المانيا وروسيا، من فرنسا واسكندنياقيا؛ ولم يكتف هامر بنشر مقالات علمية فحسب بل زاد عليها ما سماه «مكاتبة من الشرق» وهى مشتملة على رسائل من علماء وبخاتين اوروبيين يسافرون في الشرق منهم اولرش ياسر سيتسن U.J. Seetzen الذى عاش في مصر وقام بالحج في زى عربى ثم سافر الى اليمن للحصول على معلومات علمية عن تأريخ اليمن القديم وقتل هناك؛ وارسل بعض اعضاء السفارات الاوروبية في سوريا والعراق باخبار مهمة سواء عن حركة الوهابية ام عن بعض الحفريات في بابل، عن تربية الخيول العربية ام عن مخطوطات عثروا عليها. وكان هامر يترجم ايضا مقالات واشعار وتوقيعات صادرة من ملوك العرب والعجم في ايامه، وجلب دقة المستشرقين الى محصولات اقلام الادباء المعاصرين في الشرق الاذنى، كما قال الاستاذ فيوك في كتابه عن تاريخ الاستشراق في اوروبا:

«علق هامر على هذه المراسلة اهمية كبرى خاصة لأنه لم يكن قد تعرف من قبل على وجهة النظر في علم التاريخ التي لا ترى الا في ما مضى موضوعاً يليق بالبحث الجدى. وكانت نظرتة هو الى حياة الشرق الغزيرة نظرة شاملة تأخذ بعين الاعتبار جميع الحوادث من العصور الغابرة حتى حاضر زمانه، ولم يكن يتردد في الاستماع الى آراء معاصريه الشرقيين.»

ولم يدخل هامر في هذه المجلة علم اللاهوت ولا الابحاث اللاهوتية واقتصر على اللغات الثلاث المهمة في بلاد الاسلام وهى العربية والفارسية والتركية الا انه ذكر شيئاً من الادب الهندوستاني، ولكنه لم يحب الفلسفة الهندية التي كانت رائجة في ذلك الوقت عند الفلاسفة الالمان الذين كانوا يعتبرونها اشرف فلسفة واعلى افادة لاشتياق الروح الانسانية، ويعتبرون الهندوستان وطناً لكل ماهو جميل وجليل، فهجا هامر هذه الطائفة احياناً في رسائله.

وكان شاعرنا الكبير جويته يستفيد كثيراً من «معادن الشرق» وذكرها في حواشى ديوانه الغربى - الشرقى شاكرامديرها وهو يقول:

«إن كتيبي في جميع فصوله يبرهن الى اى حد انا مدين لهذا الرجل المبجل... كان قد وصل الى علمى منذ بضع سنوات نشاط حركة العمل المتزايد في «معادن الشرق». ولكن الوقت قد حان الآن فقط الذى اهلى للحصول على

فوائد منها. إن هذه المجلة اشارت الى عدة جهات فقد اظهرت للعصر احتياجاته فأصر بتسديد هذه الاحتياجات وجعلنى اومن بصدق اختبارانى من اننا نحصل فى كل موضوع على مساعدة قيمة من معاصرنا إذا استطعنا ان نستفيد من فضائلهم ونظهر لهم شكرنا وامتناننا. هناك رجال ذوو معرفة واسعة يلقوننا دروسا عن الماضى ويوضحون لنا الموقف الذى وصلنا اليه فى حاضرتنا والذى يكون مسرح اعمالنا ويومئون الى الأمام مشيرين الى الطريق الاقرب الذى يجب علينا ان نسلكه. انه لمن حسن الحظ ان التصنيف البارع المذكور يجد تتمته بالجهود ذاته ومع اننا نجري بحثنا فى هذا المضمار ناظرين الى الخلف فأنا نرجع دائماً وبكل سرور وعطف الى كل ما يقدم لنا هنا من جميع الجهات بشكل منعش يانع ومفيد.»

وبعد ذلك اشترك هامر ايضا بمنتهى النشاط فى تحرير مجلة اخرى اسمها Wiener Jahrbücher für Literatur نشر فى كل من مجلداتها المائة والخمس والعشرين مقالة أو نقداً أو أكثر من ذلك، وكتب «مقالات فى كل ما كان يثير الاهتمام فى مضممار الادب العربى والفارسى والتركى والصينى والسنسكرىتي والى تفقيحات ومراجعات بجميع كتب السياحة التى كانت تحتوى على اخبار مغلستان وآسيا ومصر وسوريا مما ألفت فى هذا القرن وما كتب بوجه عام عن الهندوستان وكشمير وافغانستان» وفضلا عن هذه الرسائل فى الكتب الجديدة التى يطول بعضها الى الغاية نشر هامر فى هذه المجلة ملاحظات واسعة فى كتب شرقية، او فى مقارنة كلمات فارسية والمانيّة، او ترجمة مديح بعثت به الحكومة العثمانية اليه، وما يشبه ذلك.

وان كان جويته قد مدح «معادن الشرق» فهو قد استحسن ايضا اقصوصة لهامر نشرت سنة ١٨٠٩ استنادا الى مصادر فارسية وتركية وهى حكاية «فرهاد وشيرين» التى نظم فيها شعراء العجم اشعار غير معدودة.

اما الكتاب الذى خلد اسم هامر وتوج اعماله فى حيز الادب الشرقى فهو ترجمته الألمانية لديوان الحافظ الشيرازى، وقد مضى ذكر اطلاعه الاول على اشعار هذا الشاعر العظيم فى اثناء اقامته فى القسطنطينية. وترجم هذا الكتاب مستفيدا من حواشى السورى التركى الذى يعتبر احسن شارح لاشعار الحافظ وكل الطبع بعد اجتهاد اربع عشرة سنة (وقال فى مقدمة الكتاب انه اتّمه فى «مرقى سبع سنوات» لانه احب رقم السبعة واللعب بالارقام حتى انه الف مقالة فى المجلة الادبية المذكورة فى اهمية السبعة عند اهل الغرب

والشرق ولاشك ان موضوع «الرقم المقدس» مهم جدا فى تأريخ الاديان)

ولم تكن ترجمة هامر للحافظ اول ترجمة لهذا الشاعر فى لسان غرنى وان كانت الترجمة الاولى التامة. فقد نشر مينيسكى النمساوى سنة ١٦٨٠ غزلا للحافظ مع ترجمته اللاتينية، وكذلك هايد Hyde الانكليزى سنة ١٧٦٨، وترجم العالم النمساوى رويتسكى ١٦ غزلا له الى اللاتينية عام ١٧٧١، ولفت المستشرق الكبير الانكليزى و. جونز W. Jones اهتمام اهل الغرب الى هذه الاشعار فى كتابه المسمى Poeseos asiaticae commentarium libri sex الذى نشر فى ١٧٧٨، واستنادا الى اشغال جونز الذى كان حاكما فى كالكوٲا طبع ديوان الحافظ فى هذه المدينة سنة ١٧٩١ وهو من اول الكتب التى اهتم الانكليز بطبعها فى الهند.

اما المستشرقون النمساويون فاستندوا الى التقاليد العثمانية فى شرح الحافظ وسائر الشعراء الايرانيين ولم يظن هامر الحافظ «متصوفا كاملا» لا يغنى الا عن العشق الالهى مستعملا رموز العشق المجازى. وقال مشيرا الى القاب الشاعر «شمس الدين» و «لسان الغيب»:

«لانه لم يكن هاديا مضيقا للدين، ولم يترجم لسانه الا كلمات الشهوة، لا اسرار العشق الالهى». واصر على رأيه هذا بيدان رئيس المستشرقين سيلفستر ده ساسى الفرنسى كان قد قبل الحافظ متصوفا بحثا كل كلامه اشارات ورموز. اما جويته فألف بين الرأيين المتضادين لانه كان يعرف ان لكل كلمة معنى رمزيا يشير الى حقيقة اعلى منها ولا يمكن التفريق بين العشق المجازى والعشق الحقيقى، او بين الشراب المادى والخمر المعنوية فى اشعار هذا الشاعر كما قيل «المجاز قنطرة الحقيقة» وفهم جويته هذه الوحدة الروحانية بين المعنيين وان كان يميل الى ايضاحات هامر دون تفسيره ساسى والمتصوفين.

وكانت ترجمة هامر فى شكل منظوم غير مصقول ومع انها لا تعكس الظرافة واللطافة اللتين امتازت بهما غزليات الحافظ إلا اننا نعتقد انها احسن من بعض التراجم الشعرية التى نشرت فيما بعد تحت اسم الشاعر الفارسى بأقلام شعراء المان لاعلم لهم باللغة الفارسية ولا معرفة بطرز الادب الشرقى على الاطلاق اتخذوا منه افادات العشق والشهوة واللهو ومدح الخمر فقط. ولما حصل جويته على ترجمة هامر قرأها مراراً ووجد فى الحافظ «اخا روحانيا» له والهمه هذا الكتاب بتأليف ديوانه الغربى - الشرقى الذى يشتمل على كثير من الافكار الشرقية. وافاد ريوكرت Rückert

الادب الالماني اخذ في ترجمة ديوان المتنبي الذي اعتبره الشاعر الاكبر للعرب، ونشر هذا الكتاب بعد ديوان الحافظ بسنوات عشر راجيا منه عين النتيجة الحسنة وقال: «نعم المترجم إذا اصاب نجاحا وتمكن بواسطة عمله (كما توفى هو بواسطة ترجمته لأشعار الحافظ الفارسي) أن يؤثر على الشعراء الالمان مثل جويته وريوكرت وبلاتن ان يتابعوا توطين الشعر العربي الذي ارتدى حلة المانية...»

ولكنه لم يوفق في هذه الترجمة، ولم يقبلها العلماء حسن القبول لكثرة أخطائها، ولم يشغل الشعراء بها لخلوها من الجمال الشعري وحشوها بعبارات صعبة الفهم على غير المتخصصين، بيد ان بعض اصدقاء المؤلف مدح الكتاب غاية المدح رغم انه لم يبق له اى اثر في العلم او في الادب الالماني.

ومع ذلك لم يزل هامر يقوم بتراجم جديدة، فنشر (بعد ان ترجم اقصوصة «كل وبلبل، لفصلى التركي) سنة ١٨٢٥ ترجمة ديوان باقى الشاعر المشهور التركي (المتوفى عام ١٦٠٠ في استانبول) ولاشك ان هامر اجاد في معرفته للغة التركية وكان أكثر أنسأبها منه بالعربية، ولكن اسلوب الشعراء الاتراك في القرنين السادس عشر والسابع عشر يمتاز بمشكلاته حتى انه يصعب فهمه وحل رموزه على الاتراك انفسهم. وقال هامر في مقدمته لهذه الترجمة انه بعد ان طوى منطقة البروج في سماء الادب التركي وجد هذا الشاعر القطب الاعلى والكوكب الازهى، مع انه لا ينكر ان القارىء الغربى قد يستغرب المبالغات الموجودة في اشعار «باقى» والتلاعب بالالفاظ المتشابكة في هذه الصنعة.

بعد ان تناول معاصرو هامر «ازهار الجنة وثمارها هذه من المشرق» (كذا وصف بعضهم هذا الكتاب) اشتغل المستشرق الذى لم تأخذه كيلولة ولا كسالة بترجمة الشعر المتصوف الفارسي «كلشن راز» للشبستري (المتوفى سنة ١٤١٧) احد ممثلى افكار ابن عربى في ايران. ولم يكن بالوسع في ذلك الزمن تحقيق ترجمة صحيحة لآثار المتصوفة لان المنايع المهمة لتأريخ هذه الحركة الروحانية والرسائل القديمة الموثوقة كانت لاتزال مجهولة الى حد بعيد. ولذلك حكم ايضا بالفشل على ترجمة اخرى نشرها هامر في حيز التصوف وهى ترجمة منظومة (١) للتائفة الكبرى لابن الفارض التى طبعت مع منها العربي في ابهى شكل سنة ١٨٥٤ بمناسبة العيد المئوى للمعهد الشرقى في فيينا. فقال ه. ل. فلايشر H. L. Fleischer وهو اشهر المستشرقين في اوروبا بعد وفاة استاذه ده ساسى في هذا التأليف واصفا اياه بكل احتياط:

١٨
١ اعود برب الناس ملك الناس الى الناس
من تر الرسواس اخلص الذي يوسوس في صدور
الناس من آجنته و الناس
٢ اللهم الى اعود بك من تر مايلج في الليل
من تر مايلج في النهار و من تر ماذهب به الرياح
٣ اعود بوجهك الكريم و كلماتك الثائرة من
تر ما انت تافد بناصيته
٤ اعود بكلمات الله الثمات التي لا تحادون
تر ما تاجر من تر ما نزل من السماء و الارض
من تر فمن الليل والنهار
٥ الى اعود بك من تر الاعداء و طهر
النفوس و طهر الالهام و طهر الالهة و طهر
النسمة
٦ اعود بك من تر نقل بهار صبيد و شيطان
معه و تر نقل نصيف من ظلك و شديده و من
تر الشامة و الكاتبة و الكاتبة و الكاتبة و من

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٢.

الشاعر المستشرق الكبير عن استفادة جويته من ترجمة هامر لديوان الحافظ قائلا للعالم النمساوى: «إن اكناركم من التأليف يجعلكم لا تتمكنون من تذكر كل ما كتبتم. فلعلكم لم تدركوا عند مطالعة كتاب جويته كم من السطور والمصاريح قد اقتبسها هذا الشيخ عن كتابكم (الحافظ) كلمة بكلمة...»

اما هامر فلم يعجبه طريقة جويته في تغريبه للحافظ وطعن على الشاعر لاجل اشعاره الجديدة في الطرز الغربى - الشرقى، وفضل على ديوان جويته الاشعار التى غناها شاعران المانيان اخرا، احدهما ريوكرت المذكور واخرهما الكونت بلاتن، لان ريوكرت العبقرى حفظ الاسلوب الشرقى بتمامه حتى انه كان يطبق لأول مرة في تأريخ الادب الالماني شكل الغزل فقلده صديقه بلاتن في هذا الاسلوب البديع وعرفا بذلك عامة القراء في المانيا على اسم الحافظ الشيرازى والاسلوب الشعرى الشرقى. وعندما رأى هامر ثمار ترجمته هذه للشاعر الفارسي في

Die vierte Tageszeit.

Der Mittag.

Die Dusk.

Ich flüchte zu Gott!

Weltrauchopfer.

1. Ich flüchte mich zu dem Herrn der Menschen, zu dem König der Menschen, zu dem Gott der Menschen vor dem Bösen des Einflüsterers, des Seelenverführers, der verwirrt die Brust der Menschen, ich flüchte mich vor dem Bösen der Genien und der Menschen.

2. O mein Gott! ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen, womit die Mächte schwanger gehen, vor dem Bösen der Tageswehen, vor dem Bösen, das die Winde herwehen.

3. Ich flüchte mich zu Deinem Angesichte, dein gnädigen, zu Deinen Worten, den vollkommenen, vor dem Bösen, das Du bei den Stirnenhaaren fassst.

4. Ich flüchte mich zu den Worten Gottes den vollkommenen, wider die der Gerechte und der Lasterhafte Nichts vermag, vor dem Bösen, das niedersteigt von Himmel und Erden, vor dem Bösen der Ururufen bei Nacht und Tag.

5. Ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen der

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٣.

نحن تاريخ الشعر الفارسي ... حقا ان لدينا الآن اساسا يستطيع ان تبني عليه الآداب الفارسية بصورة بارعة واضحة وشاملة...

كان كتاب هامر هذا اجابة لرغبة العلماء الادياء الالمان في ادراك مقاصد الفنون الجميلة والآداب في العالم باسره يجعلوها أساساً للثقافة الأوروبية الجديدة، فكانت الحركة الرومانتيكية (في حوالى سنة ١٨٠٠) في المانيا وسائر بلدان الغرب قد ايقظت الميل الى حضارة الشرق والرغبة في التعمق في درس هذه الحضارات القديمة الفنية، اى حضارة «المشرق الاكبر» المعتبر اذ ذاك موطن الثقافة ومنبت الاديان ومنبع كل ما هو كبير وجليل في تاريخ بنى البشر. واذا بهامر يقدم لمواطنيه منتخبات من ادب هذا «الشرق الاسطوري» ورسم لهم ما يشبه رسماً تخطيطياً لتطور الادب الفارسي من ابتداءه الى القرن السابع عشر. وكان حب الالمان للايرانيين حديثا في ذلك الوقت لان علماء اللغة قد اطلعوا على تجانس اللغتين الالمانية والفارسية ولاشك ان

«اننا لانرى في هذه الترجمة الملحقة الا طلائع فجر لا يكتفى لأكثر من ايضاح المعالم العامة والمقاييس الكبرى للقبة الصوفية المحيرة، بينما لا يزال قسم كبير من التفاصيل غارقا في حجب الغسق او في غياهب الظلام الدامس: ومع ذلك فان من تمنحه السماء في العقد التاسع من حياته المتوجة بالشهرة القوة على اختراق عالم الظلمات بحثا وراء منابع الحياة كالاسكندر الشاب، فانه يستحق ان ينال على جراته الطليعية، دون ان تمس حقوق العلم، الاعتبار والتقدير حتى وإن لم يأخذ الخضر بيده ويوصله الى هدفه...»

اما العالم الانكليزي ر. ا. نيكولسون R. A. Nicholson الاخصائى الكبير في الابحاث عن التصوف فعبّر سنة ١٩٢٣ عن هذه الترجمة قائلا بايجاز: «لقد كان من سوء حظ تائية ابن الفارض أن يكون هامر مترجما لها»

وقال هذا المؤلف نفسه في طريقة هامر في الترجمة الشعرية للقصائد العربية انها ما كانت الا عبارة عن اقتباس كلمتين او ثلاثة من كل بيت وحشو الباقي بالمعاني التي تخطر في باله في تلك اللحظة... وتشبه افادة نيكولسون هذه النقد الذى كان قد نشره العلامة فلايشر السابق ذكره عندما نشر المستشرق النمساوى ترجمته لاطواق الذهب للزحشرى في مستهل سنة ١٨٣٥ فنشر فلايشر في عين السنة تصحيحا لهذا الكتاب مع ترجمة جديدة ناقدا فيها بلا تردد اخطاء هامر وهفواته، وظن هامر ان هذا النقد الشديد من نتائج ظلم فلايشر وقسوته وان مقصده «الاساءة الى المترجم» فقط: ولذلك لم يزل يقاتل العالم المتبحر الالماني بالقلم وهجاءه في ترجمة رباعى للشاعر التركى «نجمى» في القصاب لان معنى اسم «فلايشر» هو «قصاب» ويصفه في هذا الشعر في لباس قصاب ظالم قاتل يقوم بجرح كل من دناءه وبسلفك دماؤه...

لم يكتف هامر بترجمة دواوين الشعراء المشهورين فحسب بل كان هدفه الاعلى ان يعرض الادب الشرقى بكماله لاهل اوروبا. ولذلك جمع ما جمع من المعلومات واستخلص منها الاخبار المهمة عن تاريخ الادب الاسلامى فألف فيه كتباً ورسائل؛ واحسن ما صنف في هذا المضمار هو تاريخ الادب الفارسي Geschichte der schönen Redekünste Persiens الذى نشر سنة ١٨١٨، واهداه للاستاذ الكبير في حيز الاستشراق، سيلفستر ده ساسى. واستفاد جويته من هذا المؤلف واعترف بقيمته قائلا:

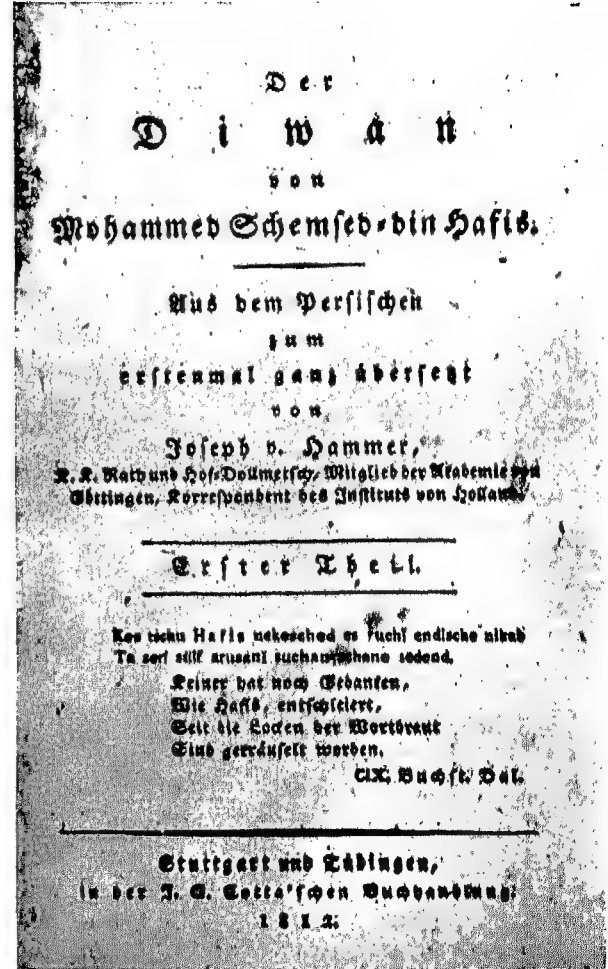
«... هذا التصنيف الذى ليس له مثيل، الذى ينقل الينا

مولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣). ثم في القرن الرابع عشر نرى الحافظ الشيرازي (المتوفى تقريبا سنة ١٣٨٩) الذي لا كفو له في صنعة الغزل وفي ظرافة الافادة وحسن البلاغة. اما في القرن الخامس عشر فقد جمع مولانا عبدالرحمن جامي (المتوفى عام ١٤٩٥) في آثاره كل ماسبق من الفنون، اقصوصة كانت ام غزلا، حكاية كانت ام شعرا متصوفا. وترجم هامر منابعه الفارسية بلا نقد، كما عثر عليها، وترجم ايضا كثيرا من ابيات هؤلاء الشعراء، ورغم بعض اخطائه فان هذا الكتاب مازال يحتفظ بقيمته الى الآن لان هامر اوضح في مقدمته اسلوب الشعر الفارسي واهم التعبيرات والرموز والامعاءات التي يستعملها الشعراء والتي لا بد من درسها لمن اراد فهم الادب الشرقي.

وبعد ان نشر هامر هذا التاريخ بعشرين سنة، قام بتأريخ الشعر العثماني باربعة مجلدات، تشتمل على اسماء ٢٢٠٠ شاعر ! ولا عجب ان العالم الذي ألى على نفسه التعب والعجز التي سنة ١٨٤٩ اثني عشرة محاضرة بين فيها تطور الادب العربي ونشر متن هذه المحاضرات في رسالة له، ونستدل من اسلوب بيانه انه الآن قد هجر الايرانيين واخذ يفضل عليهم العرب كل تفضيل. قال:

«ان الايراني يخلق صوت الطبيعة لأنه يملأ فاه بالؤلؤ واوراق الورد بينما تتمكن الطبيعة من قلب الشاعر العربي مرسله من اعماق صدره صدى يدوي في افلال الصحراء». ولما توفي هامر سنة ١٨٥٦ كان قد اكمل سبعة مجلدات ضخمة جدا لتاريخ الادب العربي الذي قصد منه جمع كل المعلومات التي كان العرب قد جمعوها عن آدابهم. ومما يبعث على الاسف انه لا يستطيع احد الآن مطالعة هذه المؤلفات الهائلة لأنها تفتقد الى الترتيب، ومما زاد في صعوبة الفهم ان هامر على عادته ترجم الابيات باجمعها نظما، وان اعجبنا اجتهاد المؤلف الذي قد فاق الثمانين من عمره فلا يمكننا ان نعرف لهذا التاريخ الادبي قيمة علمية او شعرية...

وكان هامر طول حياته يرغب في اعداد مجموعات شعرية من تأليف الشعراء الشرقيين، وكان قد ابتداء بهذا الطرز في رسالته المقدم ذكرها «شعريين» التي يحكي فيها اسطورة الملكة شيرين وعشق فرهاد البناء، استنادا الى اشعار شتي فارسية وتركية. ومثال اخر هو المجموعة المسماة بعطر الورد (Rosenöl) وهي مشتملة على حكايات واخبار من بلاد الاسلام، وزد على هذا منتخبات من القاموس الفارسي «فرهنگ شعوري» تحت عنوان «اطواق الجواهر لابي



عنوان لترجمة ديوان حافظ الشيرازي، ليوسف فون هامر. شتوتجارت سنة ١٨١٢.

هذه المناسبة ايقظت اهتمام الناطقين بالالمانية بتأريخ اقربائهم البعيدين.

اما «تاريخ الادب الفارسي» لهامر فهو، كما قال المؤلف، «ثمرة مطالعة خمسين مثنويا وديوانا ذات اكثر من مليون بيت». قسم الكتاب سبعة فصول مبتدئا من زمان فردوسي الطوسي (المتوفى حوالي سنة ١٠٢٠) الاستاذ الاول للنظم الفارسي، وعدد هامر الشعراء السبعة الكبار الذين وجدهم في هذه القرون، وهم فردوسي، ثم انوري (المتوفى سنة ١١٧٠) الذي اشتهر بالقصيدة المدحية، وعين الزمان نظامي (المتوفى عام ١٢٠٩) الذي بلغ نهاية الجمال في اقاصيصه الشعرية الرومانتيكية التي قلدها في العصور القادمة شعراء عديدون في ايران وتركيا والهندوستان. وفي القرن الثالث عشر نجد سعدى الشيرازي (المتوفى سنة ١٢٩٢)، مؤلف اشعار وحكايات مليحة، منها «كلستان» المشهور، وكان معاصره المتصوف الاكبر



عن كتاب هامر : تاريخ الاداب الايرانية، نشر فيه لأول مرة النوتة الموسيقية لمقطوعة غزل لحافظ الشيرازي.

سبع قصائد تعبر السبعة الاولى عن فضائل الدين الايراني القديم، إذ كان هامر يظن ان افكار الدين الزردشتي وقوانينه الاخلاقية كانت قابلة للتقليد في الادب الالماني بيد ان هذه الديانة والحضارة الايرانية القديمة كادت ان تكون مجهولة في اوربا في ذلك العصر. وعبرت قصائد هامر «العربية» عن طبيعة مصر وفيها يجذب الشاعر نظر القارئ وينقله من ظواهر الطبيعة الى بواطن الروح الانسانية. اما في القسم الثالث فانه يتبدى باشعار منسوبة الى يوم الجمعة وفيه مجموعة من امثال تركية. - ومما يشبه هذا الكتاب رسالة اخرى اسمها «حباب العطر» - Duft- körner، مقصدها «صهر حرارة الشرق بتألق الغرب،

المعالي» Juwelenschnüre Abu'l-Maâlis؛ ولكنه لم ينل من المديح لهذا الكتاب ما كان يرجوه. ونجد بعد ذلك خلاصة للاقصوصة الفارسية الشعرية «وامق وعذراء» القديمة (سنة ١٨٣٣) كما الف في ذكرى زوجته المرحومة عام ١٨٤٤ مجموعة جميلة من الادعية العربية مع ترجمتها الالمانية اسمها «ميقات الصلاة».

ومع ان هذه الترجمات والمجموعات وتواريخ الادب الاسلامي شغلت هامر لسنوات فقد اغتنم الفرصة ايضا لتأليف كتب شعرية ملهمة عن روح الشرق. فألف سنة ١٨١٨ رسالة سماها «البرسم الشرقي» تحتوى على «اناشيد فارسية وندبات عربية ومدائح تركية» وفي كل من الاقسام الثلاثة توجد

حركة العقل براحة القلب» (سنة ١٨٣٦). يختم هامر هذه المجموعة بقصيدتي «الرجل الشيخ عند مولده الخمسين» و «الشيخ في الثالثة والستين» جامعاً فيها اقوال الشعراء في الشيخوخة ووصفهم للعجز وشكاياتهم منه.

ولم يتورع هامر عن ولوج حقل التمثيل المسرحي، وأول موضوع وجده لائقاً للمسرح الألماني هو «جعفر أو سقوط البرامكة» (كتب سنة ١٨٠٧، وطبع في عام ١٨١٣) وكان لتأريخ البرامكة شهرة خاصة في أوروبا منذ أوائل القرن الثامن عشر وقد كان الف بعض المؤلفين مأس في قضاء جعفر وعباسة، اخت هارون الرشيد (منهم م. كلينجر M. Klinger سنة ١٧٨٢)؛ ولما تناهت اخبار المسرحية المذكورة الى مسامع جويته رغب في تدقيق اثر هامر هذا وكان قد قال لصديق لها قبل ذلك:

«اني اتلهم لمشاهدة «البرامكة»، وليست هذه هي المرة الاولى التي تملك فيها شعور المرء حالة استثنائية فبرى نفسه مضطراً لان يعبر عن هذه الحالة المعقدة والغامضة بأسلوب التمثيلية او المسرحية. فاذا نظرنا الى هذا العمل بأكمله من هذه الوجهة الاخيرة ظهر لنا انه عمل بدون جدوى، ومع ذلك فان الرجل قد نقل إلينا شيئاً لم يستطع التعبير عنه بالاسلوب القصصي او بالاسلوب الاحاديث واني لا بد من غطىء خطأ كبيراً اذا لم تكن لهذه المسرحية قيمة لا بأس بها من هذه الناحية..»

خيل لهامر تصنيف كثير من المآسي الشرقية ولكنه لم ينشر منها الا واحدة بعد نشر «جعفر» وهي «محمد او محاصرة مكة» (١٨٢٣). اراد المؤلف منها الرد على المأساة المشهورة للفيلسوف الفرنسي فولتر (١٦٩٤-١٧٧٤) الذي كان قد صور محمدا الرسول في شكل خائن منافق تابعا للتقاليد الغربية القديمة وهادما من وراء تلك المسرحية الهجوم على الاديان باجمعها لا على الاسلام وحده. اما هامر فحاول في هذه المسرحية الدفاع عن محمد ونواياه وان لم يوفق من اللحاظ الفني الجمالي.

وفضلاً عن هاتين المآسيتين نجد هامر يكتب (وذلك ايضا في عام ١٨٢٣) ثلاث مسرحيات خفيفة، مواضيعها مأخوذة من الادب الهندي والفارسي والتركي (Memmons Dreiklang).

ولكى يتحقق هدفه في عقد الصلة بين الشرق والغرب لم يكتف هامر بترجمة اشعار شرقية الى الألمانية بل قام ايضا بترجمة افكار الامبراطور الروماني ماركوس اوريليوس (المتوفى سنة ١٨٠) الى الفارسية ليستفيد اهل الشرق من نموذج من الحكمة الغربية (سنة ١٨٣١).

وان كان القارئ الصابر قد تابع تعداد آثار هامر الادبية الى الحد الذي وصلنا اليه فلا شك ان تأخذته الحيرة تجاه هذا الجلد وهذا الاجتهاد، ولعله يظن ان هذا الانتاج سيكونى حياة رجل بل بضعة رجال. ولكنه سيزداد دهشة وتعجباً اذا داوم على متابعة فعالية هامر في سائر ميادين العلم؛ لان العالم النمساوى كان مشغولاً بالاداب الشرقية فحسب بل بتأريخ الشرق على العموم، وقد نشر مؤلفاته الاولى في هذا المضمار عند اقامته في استانبول حيث حصل على كثير من الوثائق المفيدة لتأريخ الدولة العثمانية، والى نتيجة لذلك التحصيل كتاباً عن دستور الدولة العثمانية وسياستها Des Osmanischen Reiches Staatsverfassung سنة ١٨١٦. وبعد ذلك بسنتين، في ١٨١٨ نجده ينشر «تأريخ الحشاشيين» الذى اهداه للمؤرخ الشهير ر. فون ميولر J. von Müller الذى لفت انتباهه الى مسائل تأريخية عندما كان هامر في عنفوان الشباب. وظن هامر ان تأريخ الحشاشيين «سيفتح باباً الى معادن التأريخ الاسلامى المجهولة». ولكن القارئ العصري لا يرى فيه الا تجربة ضعيفة لا يوضح وقائع كثيرة التشاكل لم يمكن في ذلك الزمن ايضاحها لنقصان المتابع وقحط البحوث وعدم توفر الوسائل العلمية. وهامر محق في وصفه وضعية المؤرخ الباحث عن اى موضوع في تأريخ الاسلام حيث يقول:

«ان المؤرخ ليشاهد امام ناظره سطوة ممالك الدنيا العظيمة وقد انصبت اشعتها في نقطة واحدة الى جانب قوة كل من الدول المتعددة وقد توزعت في الف شعاع، وانه ليرى السر الاسطورية لأقدم الممالك الى جانب ادق التواريخ، لاحداثها، كما يبدو امامه عهد الجاهلية قبل بعث الرسول، وايام المعرفة والهداية بعده، كل ذلك الى جانب معجزات الفرس، وبطولات العرب، وروح المغول المدمرة التى اجتاحت اطراف العالم، وحكمة العثمانيين في اقامة دولتهم وتدعيمها...»

ولما كان هامر طالبا في المعهد الشرقى أخذ بمطالعة «كشف الظنون» لحاجى خليفة الاديب التركى (المتوفى ١٦٥٧) وكرر مطالعة هذا الكتاب مرارا ثم اضاف على المعلومات التى حصاها من الكاتب التركى المتبحر ماجمعه من الوثائق الرسمه والخطوط فكتب «تأريخ الدولة العثمانية» وهو عشرة مجلدات، ولكنه صنف ايضا خلاصة ذات اربعة مجلدات لهذا التأليف العظيم الذى مازال ذا قيمة واهمية الى الآن لانه يحتوى على اخبار لا توجد في مؤلفات اخرى بيد ان اسلوبه صعب جدا، كثير التشبيهات يشبه اسلوب المؤرخين العثمانيين. ومع ذلك فقد بدى في



فيينا: الحوش الكبير لقصر شونبرون Schönbrunn (المبنى بين عامي ١٦٩٤ و ١٧٧٥). تصوير: هاينس برناتسك، ووكارا بروك، نمسا.

المانيا بطبع واصدار جديد لهذا التأريخ سنة ١٩٦٣. وفي الفترة نفسها جمع هامر سير الخلفاء والامراء والملوك الكبار ونشر خمسين منها في «ايوان الصور لحكام المسلمين الكبار في القرون السبعة الاولى للهجرة» Gemäldesaal يعالج فيه مفصلا سير الملوك المشهورين في بلاد الاسلام، مبتدئا بسيرة الرسول الى ان ختم كتابه (وهو ٢ مجلدات، نشر بين عامين ١٨٣٧ و ١٨٣٩) بسيرة قلاوون المصري. ولكنه كف عن معالجة تاريخ الاسلام باسره معترفا

«ان عروق الذهب والكنوز الخفية في تاريخ العرب والفرس والأتراك العثمانية والتترليست معروفة معرفة كافية والذهب الخام الذي تحتويه هذه الكنوز لم تجر عليه لحد الآن عمليات الغرلة والتصفية بشكل يدعو الى الراحة ولم تفصل الجواهر الثمينة بعد من التربة الملتصقة بها ولم يصقل بعد جيدا بحيث يمكن ان يؤلف منها الآن عمل فني تاريخي عظيم.»

ومع ذلك تجاسر هامر على تأليف تأريخ للاولاد مونكه سبط جنكر خان الذين اشتهروا باسم «السلالة الذهبية» في القبحق في جنوب روسيا؛ وسبب هذا المؤلف الذي صنفه هامر اجابة لمسابقة علمية اقامتها الاكاديمية الامبراطورية الروسية مناقشات طويلة ومعارضات قبيحة بين هامر وزملائه الروس الذين رفضوا الكتاب تماما ولم يعتبروه جدرا بالجائزة الموعودة. ولم تمنع تلك النتيجة الحزينة العالم النمساوي من ان يكتب رسائل اخرى في تاريخ الأتراك والتتر، منها تاريخ الايلخانين في ايران (١٨٤٢) وتاريخ ملوك القريم (١٨٥٦). وترجم ايضا تأريخ وصاف المؤرخ الفارسي المشهور بصعوبة اسلوبه المزهر المسجع. هذا والكتب المذكورة كلها لا تستحق الذكر الا لانها شاهدة على اجتهاد هامر الذي لم يهتم بمشكلات المتن ولا بانتقاء وجود المصادر الكافية لاضاءة ظلمات هذه الادوار التاريخية غير المعروفة بل كتب ماكتب كأن القلم يحرق اصابعه وكان لا يضيع وقتا في تنظيم مؤلفاته او في تصحيحها ولم يقبل اى نقد لطريقته العلمية.

إن ماذكرناه من الكتب حتى الآن هي الكتب الكبيرة الحجم، ولكن هامر ألف علاوة عنها رسائل غير معدودة في مسائل مختلفة، في البيزرة وفي الموسيقى الشرقية، في دين ميتراس الايراني وفي الفرسان الرهبان، ولم يهمل تاريخ وطنه النمساوي ولا الادب الاوروي في منشوراته التي تكون في الواقع مكتبة خاصة ذات مئات الرسائل ادعى هامر انه لم يعرف الطموح ولا الغيرة الشخصية وانه لا سبب لفعاليته العظيمة الا الهمة العليا وحب العلم. وقال اخرون انه كان يحب المناقشات والتفاخر حتى ان هذه

الاصناف غير الحمودة افقدته كثيرا من اصدقائه. ومثال مشهور لهذه الغيرة هو مناقشته مع تلميذه ريوكرت السابق ذكره حول تلفظ بعض الكلمات الفارسية، وايضا لان ريوكرت قد وفق في ترجمة باعثة الحيرة لمقامات الحريري؛ وان كان هامر قبل هذه الترجمة الشعرية المسجعة لأول وهلة بيد السرور ونظم فيها رباعيا معبرا عن تمنيه الخالص بان هذا الكتاب سيطلع بالذهب على البردى، الا انه قام بعد مدة بانتقاد نفس الترجمة وبتوجيه اشد اللان الملامة للمترجم العبقري مدعيا انه نفسه ابدع الاسلوب المسجع في الادب الالماني وان ريوكرت غير معنى الكلمات والتعابير لاجل مقاصد جمالية ... ولكن علينا ان نعرف ان هامر كان يمد مواطنيه وتلامذته كل عون اذا ارادوا درس الشرقيات والتحصيل على معلومات في مواضيع شرقية. كما قال في رباعي له، مشيرا الى معنى اسمه هامر وهو «مطرقة»:

Ich bin genennet Jussuf Hammer,
Doch heiss' ich nicht für alle gleich:
Den Freunden Jussuf in der Kammer;
Die Feinde trifft des Hammers Streich.

وسميت يوسف ذا المطرقة
ولكن اسمي ليس سواء:
ففي الدار بين الاحبة يوسف
لكن على الخصم تهوى المطرقة.

واجاد احد المستشرقين الالمان وهو آلوارد Ahlwardt (١٨٢٨-١٩٠٩) في مقالته عن خلف الاحمر حيث يصف ترجمة هامر لقصيدة هذا الشاعر كثمرة من اثمار خياله، لما اعترف بخصوصية هامر قائلا:
«كان هدفه أن يفهم الشرق من جميع نواحيه. وأن يقود العالم الاوروي لادراك الشرق كما انطبع في عقله. هذا يفسر لنا سر نشاطه الفذ والدافع الداخلي لاقتباسه المعارف والسعى الى اطلاع الغير على المعلومات وهذا سبب انتاجه الخصب لكتب كبيرة وسبب كده وعمله المتواصل دون كلل طالما كان في حيز النهار».

ومع كل اخطائه اللغوية والنحوية، ومع ان اكثر مؤلفاته العلمية لم تثر الا نقد المستشرقين الشديد، فانه يجب على القارئ الاعتراف انه لا يوجد مستشرق في تأريخ الثقافة الالمانية أثر في ادب عصره تأثير هامر الذي وفق الى الهم شاعرنا الاكبر بغناء اشعاره الخالدة في ديوانه الغربي- الشرقي.

وقد ضربت حكومة النمسا وساما تذكاريًا لهامر، منحوتًا عليه إنه وصل بين آسيا وأوروبا

أبحاث هاينريش بارت

(١٨٢١ - ١٨٦٥)

بقلم: الأستاذ فيلكس قرانكه

ولد هاينريش بارت البحاثة والرحالة الألماني عام ١٨٢١، وتوفي عام ١٨٦٥، وقد نشرت دار نشر فرانس شتاينر بئيسبادن في عام ١٩٦٧ كتاباً تذكاريًا بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته. ومع أن بارت كان يكثر من التجول والترحال في الأناضول وأوروبا الشرقية والجنوبية وقد ألف عن رحلاته ما ألف من الكتب والمقالات، فسياحته الأكثر شهرة هي الرحلة التي قام بها في أفريقيا بين عامي ١٨٤٩ و ١٨٥٥، والتي جمع في أثناءها معلومات كثيرة حول تاريخ أهل أفريقيا الشمالية والمركزية وعاداتهم وتقاليدهم كما أنه جمع الأخبار الجغرافية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية على العموم وهذا أول كتاب ألف في أوروبا حول هذه المنطقة غير المعروفة.

ونظن أن اكتشافات بارت في أفريقيا وملاحظاته في حضارة السكان المسلمين في منطقة تشاد والنيجر مهمة جداً في يومنا هذا حينما نشاهد الاسلام في افريقيا ينتشر ويزداد قوة. لذلك نود أن نقدم لقارئنا ورقة من تاريخ الاكتشافات الألمانية في أفريقيا الغربية والشرقية.

وعلى القارئ ألا ينسى أن كلمة «السودان» كانت تستعمل في زمان بارت لتشير إلى المنطقة المركزية في افريقيا، أي ما يلي تشاد حتى مملكة نيجيريا غرباً ومالي شمالاً، ولم تطلق أبداً على السودان الذي نعرفه اليوم!

عن كتاب: Heinrich Barth. Ein Forscher in Afrika. Leben · Werk · Leistung. Herausgegeben von Heinrich Schiffer. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1967.

حميه، المستشرق المعروف والمعاصر لبارت، إدوارد ويليام لين Edward William Lane، فقد قام صهر بارت، شوبرت Schubert، بكتابة سيرة حياة حميه بارت. وفيما عدا خبراً مختصراً مفاده أن بارت كان قد درس مدة أربعة أشهر على يدى استاذ للاستشرق في لندن، فاننا لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك عن دراسته الشرقية. وكان بارت على صلة بعدد من المستشرقين: كجون نيكولسون John Nicholson في بنريث Penrith، وبلو Blau ورافلس Ralfs. ولا نعرف كان قد تعرف أيضاً على لين Lane في انكلترا. وكان بارت قد قرأ كتابه «عادات وتقاليد المصريين الحديثين» "Manners and Customs of the Modern Egyptians" الذي كتبه بعد أن أقام عامين في مصر، كما أشار إليه واقتطف منه في كتابه «رحلات في افريقيا» "Reisen in

عندما جاب هاينريش بارت Heinrich Barth في منتصف القرن الماضي ربوع السودان وراح يستكشف بقاعه، لم تكن هذه البلاد الواسعة معروفة جيداً في أوروبا ولاتاريخها القديم والحديث ولاأوضاعها الاجتماعية والثقافية المعقدة. وكان علم اللغات الشرقية لا يزال حقلاً علمياً فتياً، كما استطاع بارت أن يعتمد في حالات قليلة جداً على أبحاث ودراسات تمهيدية سابقة. فقبل بارت كان الرحالون قد اخترقوا افريقيا حتى أواسطها. ولكن بارت يتفوق عليهم جميعاً كعالم حق. فقد جمع ما بين البحث النظري والعمل على أحسن وجه.

١ - سيرته

ولا نعرف الشيء الكثير عن دراسات بارت الشرقية. فكما كتب ستانلي لين-بول Stanley Lane-Poole عن حياة



تصوير هاينريش بارت Heinrich Barth

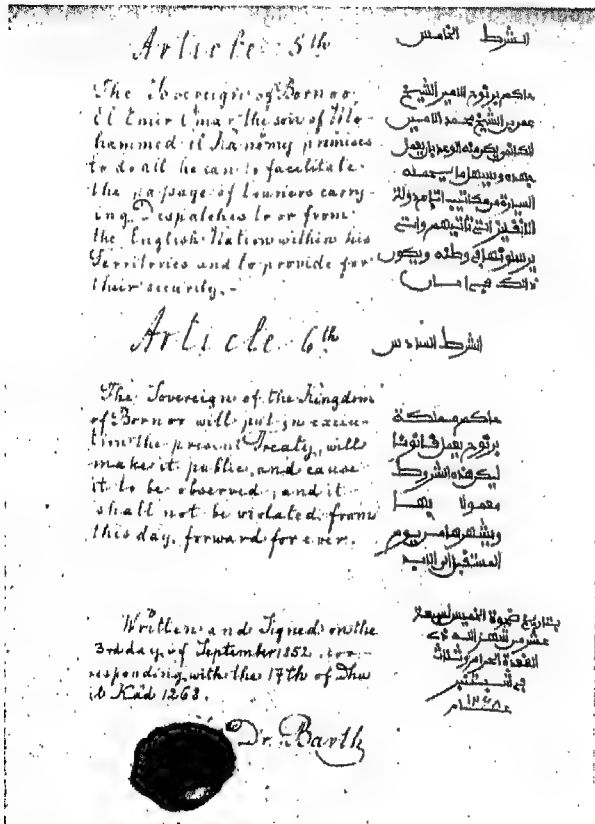
عن كتاب:
Frühe Wege zum Herzen Afrikas
Turris-Verlag, Darmstadt, 1969

يكون أكثر ملاءمة لمناخ البلاد، كما يبدو في نظر أهل البلاد أكثر حشمة من ملابس الأوروبيين. وبل تبدو بعض التصرفات في حياة الأوروبيين اليومية عملاً مشيناً في نظر المسلمين، بحيث أن الرحالة المنفرد الذي لا حول له ولا قوة والذي يسعى إلى النجاح في مشروع لا يخلو من النبل، سيكون بعيداً عن الحكمة إذا رفض التكيف بهذا الخصوص لمشاعر أهل البلاد وأعرافهم... ومن الجهة الأخرى فإن بعض عادات المسلمين مليئة بالورع الحقيقي، بحيث أنني اعتقد أن الرحالة المسيحي يستطيع أن يتكيف بأزائها دون أن يؤثر بذلك على خلقه المسيحي بأي شكل من الأشكال.

أما ما يتعلق بدراسات بارت الشرقية، فقد كان، بوجه عام، وعلى ما يبدو، عصامياً. وكانت اللغة العربية بالنسبة له وسيلة للتعرف على البلاد وأهلها. ولو استخدم اللغة العربية الفصيحة في السودان لما استطاع التفاهم مع أهل البلاد، حيث أن السكان المسلمين لم يكونوا يتمتعون بوجه عام بمستوى ثقافي رفيع. ولذا فقد كان عليه أن يتعلم اللهجة العامية للوصول إلى غايته. وكان بوسع

"Afrika" ويتشابه الباحثان كثيراً في موقفهما الذي ينطوي على احترام الحضارات الغربية عليهما. وفي مقدمة كتاب لين المذكور، يقول المؤلف (ص. XXI): «لقد عاشت المسلمين من جميع طبقات المجتمع بوجه خاص: فكنت أعيش كما يعيشون وأتكيف لعاداتهم العامة؛ ولكي أجعلهم يألّفوني ويتخلّون عن أي تحفظ تجاهي في كل موضوع، فقد كنت أظهر موافقتي لهم في الرأي كلما سمح ضميري بذلك، وكنت، في أغلب الحالات الأخرى، أتخاشى التعبير عن مخالفتي في الرأي، كما أتخاشى القيام بأي عمل من شأنه أن يثير اشتزازهم؛ فكنت امتنع عن تناول الطعام الذي يحرمه دينهم، وعن احتساء الخمر، وما شابه ذلك؛ كما كنت أتجنب العادات التي لا تروق لهم كاستعمال السكاكين والشوكات أثناء تناول الطعام.»

وبطريقة مشابهة لذلك يتحدث بارت في مقدمته (ص XXIX وما تلاها)، فيقول إنه يرى أن من «الفطنة أن اتكيف في الملابس والأموال الأخرى لعادات أهل البلاد، وذلك بارتدائي زياً نصفه عربي ونصفه سوداني،



عقد وقع عليه هاينريش بارت مع ملك «بورنو» Borno في ٣ سبتمبر ١٨٥٢.

عن كتاب:
Frühe Wege zum Herzen Afrikas
Turris-Verlag, Darmstadt, 1969

والإيصالات التي كتبها بارت بالعربية لا تخلو أحياناً من أخطاء تتنافى وقواعد اللغة العربية. ولكن بارت كان على أي حال قادراً على قراءة كتابات ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات التي ذكرها، كترتين الورقات^(١)، وتاريخ السودان^(٥)، والاتفاق الميسور^(٦) مثلاً، قراءة فاحصة نقادة ومتمكناً من تقييمها لأغراض أبحاثه الخاصة - وهذا مجهود لا يجوز الاستهانة به. وهناك عدد قليل من الرحالين العلماء الذين يستطيعون أن يتباهوا بميزة إتقان اللغات واللهجات المختلفة للبلاد التي يجوبونها لأغراض الاستكشاف ونذكر في هذا المجال بوجه خاص المستشرق ماكس فراهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim الذي عين عام ١٨٩٤ رئيساً لبعثة استكشافية إلى بحيرة تشاد، والذي أشاد في كتابه «أرجح ومنطقة تشاد»

بارت التفاهم بدون جهد بالعربية. وبمناسبة مثوله بين يدي السلطان عبد القادر في ميسينيا، يكتب بارت^(١): «ألقيت كلمتي بالعربية، بينما راح صديقي الأعشى سمبو يترجم حديثي إلى لغة البغرمي كلمة كلمة، كما كان يعطيني إيماءة بين حين وآخر، كلما بدا له أنني استخدمت تعابير قوية جداً». أما هذه «التعابير القوية جداً» فهي على ما يبدو اصطلاحات لغوية من العربية الفصحى، ممزوجة باللغة العامية، كانت تبدو مثيرة جداً لمرجمه.

وبالإضافة إلى العربية كان بارت يتحدث كذلك لغات الفوليه والهاوسا^(٢) والكانوري^(٣). ورغم موهبته الكبيرة لتعلم اللغات فإنه لم يقدّر بنشر النصوص العربية التي جمعها وإنما كلف المستشرقين المذكورين أعلاه بذلك. وبطبيعة الحال فإن تصحيحات بارت لهذه الترجمات التي كلف بها غيره لم تكن صحيحة دائماً؛ كما أن الوثائق

(٤) R. i. A., ٤٤، ١٨٨.
(٥) R. i. A., ٤٤، ٢٠٢.
(٦) R. i. A., ٤٤، ١٨٨.

(١) R. i. A. Reisen in Afrika، المجلد ٣، ص ٣٧٠.
(٢) R. i. A., ٤٤١، ١.
(٣) R. i. A., ٣، ٢٥٨.

”Rabeh und das Tschadgebiet“ (Berlin 1902) بأعمال بارت واكتشافاته^(٧).

لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والاثولوجيا فحسب، وإنما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الإسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في افريقيا» لا يعتبر مصدراً لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين. ولو اعتبرنا الأمر من وجهة نظر البحث العلمي الحديث فإن لدينا اليوم، وخاصة في علم اللغة، معرفة تفصيلية أكثر دقة. وقد زادت المصادر الجديدة المكتشفة في عشرات السنين التالية من معرفتنا هذه. ومن الجهة الأخرى، لا بد أن نأخذ بنظر الاعتبار أن بارت أراد نتيجة الإلحاح الشديد من جميع الجهات أن ينشر كتابه «رحلات في افريقيا» في أسرع وقت ممكن — فقد طبع عمله المكون من خمسة مجلدات بعد عودته بعامين، بل إن النسخة الإنجليزية من مؤلفه ظهرت قبل ذلك. ولذا فإن بعض الأمور التي تستحق اهتماماً أكبر لا تظهر إلا في الهوامش.

ليس الغرض من هذه الدراسة سد الثغرات الموجودة في تفاصيل بارت بطريقة منظمة، ولا تصحيح هذه التفاصيل حيثما يبدو ذلك ضرورياً. إذ يجب أن ينظر إلى عمل بارت أولاً من زاوية عصره، وإنه لمن غير المحدى قياس هذا المؤلف بمقياس غير المقياس التاريخي. وسأقتصر فيما يلي على معالجة الحقلين الذين يعتبر استكشافهما على يدى بارت ذا أهمية قصوى بالنسبة للاستشراق، واعنى بهما: تاريخ الإسلام، وانتشار اللغة العربية في السودان.

٢ — الدراسات الخاصة بالإسلام والمسلمين في السودان

عند ذكر كلمة الإسلام، يجب أن نميز هنا أمرين مختلفين: الإسلام كدافع تاريخي سياسي، والإسلام كنظام ديني. ومنذ بدايته الأولى انطبع الإسلام بصفة قوية بالحياة الدنيا. فلم يكن الدين الجديد مجرد «صراط مستقيم» يسير عليه المؤمن بثقة وأمان إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب، وإنما تعهد بالاهتمام بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاجتماعية بنظم وقوانين

(٧) لقد ألغت البعثة الاستكشافية لأسباب تكتيكية وسياسية؛ غير أن الكتاب يعتمد على أخبار الرحالين إلى افريقيا الوسطى الموجودين في مصر.

دقيقة. وكانت المجتمعات الإسلامية الفتية منظمة تنظيماً شديداً، كما أنها شكلت، بالنسبة للخارج على الأقل، جبهة موحدة — وصارت بذلك سلاحاً قوياً تجاه شعوب كانت وهى في ذروة تطورها متماسكة تماسكاً ضعيفاً بفعل تقاليد قديمة، مما أدى إلى انهيارها أمام موجة الفتح الإسلامى.

وتمت الفتوحات الإسلامية بصورة عاصفة في شمال أفريقيا التي اعتنقت دين الفاتحين بسرعة. وبلغ سلطان الفاطميين في القرن العاشر من فلسطين حتى المغرب الأقصى. أما في اتجاه الجنوب، نحو قلب افريقيا، فقد كان تقدم الإسلام ابطأ بكثير. وظلت ممالك سونغاي وغانا وكاتم القديمة — كما ظلت غيرها أيضاً — في مأمن من التغيرات السياسية الجارية في شمال افريقيا، تحميها صحار يصعب اختراقها. غير أن التجار والرحالين خلقوا شيئاً من الاتصال منذ القرن التاسع بين العرب في الشمال والسكان السود في داخل القارة الأفريقية. ولكن الغزوات الحربية لم تبدأ إلا بظهور المرابطين. وكان هؤلاء من البربر القاطنين في الصحراء الكبرى من قبائل اللمتونه، التي أخذت تزيد من عنف غزواتها الحربية باسم الجهاد في سبيل الله وتحت راية الدين الجديد. وأقام هؤلاء على امتداد الحدود الجنوبية للبقاع التي فتحوها لدين الإسلام حصوناً وروابط^(٨) عسكرية، كانوا يتدربون فيها تدريباً دينياً وعسكرياً، وكانت تخدّمهم كقواعد ينطلقون منها في غزواتهم للبلاد المجاورة.

وحقاً أيام حياة بارت كان بعض العرب في هذه البقاع يتفخرون بكونهم من نسل المرابطين، ويذكر بارت نفسه كيف أنه قابل عربياً زعم أنه سليل بربر اللمتونه المذكورين^(٩): «... وبعد ذلك قابلتنا فئة أخرى من المسافرين، كان بينهم رجل لمتونى، وهو مغربي، مزيج من دم عربي وبربرى من قبيلة اللمتونه القديمة، التي، بعد أن كانت في الماضي تشكل العنصر الرئيسى للمرابطين الأقوياء، استوطنت الآن في مجموعات صغيرة على شاطئ المحيط الأطلسى».

ويخبرنا بارت كذلك أن سلالة هذه القبيلة البربرية تعيش منفصلة عن بقية السكان، في أماكن سكنية خاصة. وبلغ بارت أثناء ركوبه في الصحراء أحد مراح «المرابطين» ويقول حول ذلك^(١٠): «وكنّا قد قطعنا ميلين في هذا

(٨) جمع (رباط) وهذا هو أصل تسميتهم.

(٩) R. i. A., ٤، ٢٣٦.

(١٠) R. i. A., ١، ٣٥٢-٣٥٣.

منشورة فيه في عصره. وهي مؤلفات ابن حوقل^(١٤)، والبكري^(١٥)، والإدريسي^(١٦)، وابن بطوطة^(١٧)، وابن سعيد^(١٨) والوزان الزياتي^(١٩).

ولإلى جانب هذه الأعمال النموذجية فقد استخدم بارت كمصادر له مؤلفات «رحلى القرن الرابع عشر»^(٢٠) إلا أنه لا يذكر المؤلفين ولا عناوين الكتب مع الأسف.

إن أبحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد إلى حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مبهمة في أورها تقريباً. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب وبتقديم افتراضات وتعليقات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات. أما هذه المخطوطات فهي ما سبق وذكرناه: «تاريخ السودان»، و«تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الأبيات»، و«الانفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرر»^(٢١).

ولم تتح لبارت أثناء رحلته في أفريقيا امكانية دراسة المخطوطات في جميع تفاصيلها. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التي احاطت به للتمكن من القاء النظر على هذه المخطوطات لدهشنا لاقتطافه منها وتقييمها بهذا التفصيل والتوسع. وهذا ما يفسر أيضاً الأخطاء التي وقع فيها بارت بسبب اسرعه في الاطلاع على المخطوطات، وهي الأخطاء التي سنتعرض لها فيما بعد.

«لتاريخ السودان»: — يكتب بارت فيما يكتب حول هذا المؤلف^(٢٢): «قبل سفرى في مناطق النيجر لم تكن تعرف أية معلومات تتعلق بتاريخ هذه البقاع المتسعة الهامة، باستثناء بعض الاوضاع المتفرقة القليلة التي جمعها الجغرافى الانجليزى الرفيع العلم والحاذ النقد ويليام ديسبوروكولى William Desborough Cooley بكثير من النبوغ مما

الوادى عندما نزلنا في مكان فسيح مكشوف محاط بأشجار الأيسكا الخضراء. وكان يقع في الجانب الآخر من تين طرح عوده، وهي قرية المرابطين أو الأيسلمين، وهي تمتد في صف طويل على إمتداد الهضاب المنخفضة عند بداية السلسلة الجبلية. وتتألف القرية من حوالى المائة منزل، وهي في الغالب اكواخ بنيت من الأعشاب وسعف النخيل، بينما لم يبن إلا القليل منها من الحجر. ورغم صغرهما، إلا أن القرية هامة بالنسبة للمواصلات بين شمالى أفريقيا ووسطها، تلك المواصلات التي لا تتم إلا بحماية اعتبار أولئك الرجال العلماء المتدينين وذلك بأمان يثير الدهشة إذا ما اعتبرنا الطبيعة الوحشية للصوصية التي يمتاز بها سكان هذه البقاع ... ورغم أن الأيسلمين يسمون أنفسهم «أتقياء ورعين»، إلا أنهم لم يحرموا أنفسهم من حاجات هذا العالم؛ بل على العكس من ذلك، فهم يحافظون على حياتهم ووجودهم بطموحهم، ومكائدهم وتصرفاتهم العامة بحيث يمارسون تأثيراً هاماً على أوضاع البلاد.»

وفي مكان آخر يصف بارت خلف المرابطين المزعومين أولئك على الشكل التالى^(١١): «وكانت ثياب اغلب الرجال بيضاء كذلك، ولكن أكثر صفة مميزة لهم كانت أن كثيراً منهم كانوا يرخون شعورهم في جدائل طويلة. وهذه علامة على أنهم من الأيسلمين، أو المرابطين (أى الأولياء)، وهي صفة يدعونها لأنفسهم رغم عاداتهم البعيدة عن الصرامة والتزمت. ورغم أنه لا مدرسة لهم، إلا أنهم فخورون بتنصيبهم معلماً في مسجدهم الذى لا حاجة به أن يكون فخماً عظيماً.»

ولكن لنعد من النسل إلى المرابطين الاصلين في القرن العاشر الذين خضعت لغزواتهم وما تلاها من غزوات ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة. واعتنق رعايا هذه الممالك الوثنية العقيدة الجديدة — رسمياً على أى حال — سواء أتم ذلك بالاختيار أم بالقسر أم بالانهازية. ونحصل على خبر حول ذلك في تاريخ البربر^(١٢) لابن خلدون^(١٣). وبحث بارت باهتمام وعناية كبيرين التاريخ المتحرك للممالك القديمة في السودان واثبت جداول إجمالية ادرجت فيها الاحداث التاريخية في السودان الغربى من أول أخبار المصادر التاريخية حتى العصر الحاضر بشكل واضح شامل. المصادر: واستخدم بارت كمصادر لتاريخ السودان القديم أعمال المؤرخين والجغرافيين العرب بالقدر الذى كانت

(١١) R. i. A. ، ١ ، ٥٩٩ .

(١٢) النص مقتطف من الترجمة الفرنسية: Histoire des Berbères, Paris 1927, II, 110.

(١٣) المتوفى في ١٤٠٦/٨٠٨ — تاريخ الأدب العربى GAL ، ٢ ، ٢٤٢ .

(١٤) المتوفى حوالى ٩٩٧ .

(١٥) المتوفى ١٠٩٤/٤٨٧ ، S I ، GAL ، ٨٧٥ .

(١٦) ١١٥٤/٥٤٨ — I ، GAL ، ٤٧٨ .

(١٧) المتوفى ١٣٧٩/٧٧٩ — II ، GAL ، ٢٥٦ .

(١٨) كما ورد في أعمال ابى الفداء المتوفى ١٣٣١/٧٣٢ — II ، GAL ، ٤٤٤ .

وعند ابن خلدون؛ وعند المقرئى المتوفى ١٤٤٢/٨٤٥ — GAL ، II ، ٣٨ .

(١٩) المعروف بـ «ليو أفريكانوس»؛ المتوفى حوالى ١٥٥٠ — GAL ،

S II ، ٧١٠؛ ويرجع بارت كثيراً إلى كتابه: "Descrittione del l' Africa".

(٢٠) R. i. A. ، I ، ١٥ .

(٢١) قام بنشره G. E. J. Whitting في لندن عام ١٩٥١ .

(٢٢) R. i. A. ، IV ، ١٤٤ وما تلاها .

أوجزه واستفاه استاذى ومعلمى الممتاز كارل ريستر Karl Ritter من البكرى، وتاريخ ابن خلدون، ورواية ليوالغامضة المشوشة عن الإيشيا الكبير ومن تلميذ موجز جداً عن احتلال مولاى أحمد الذهبى لتمبوكتو وجارو مما أورده بعض الكتاب الاسبان^(٢٤). ولكنى كنت محظوظاً جداً إذ سنحت لى فرصة الاطلاع على تاريخ مملكة سونرهاى الكامل ابتداء من أول آثار الوثائق التاريخية المسجلة حتى عام ١٦٤٠ من تاريخنا الميلادى. ولكن الظروف حالت لسوء الحظ دون حصولى على نسخة كاملة من هذه المخطوطة التى تشكل مجلداً من حجم رباعى ضخ، وكان بوسعى فقط خلال الايام القليلة التى اتيت لى للاطلاع على هذا المؤلف اثناء اقامتى فى غاندو أن اقتطف نصوباً قصيرة من فصول الكتاب التى بدت لى الاكثر أهمية من الناحيتين التاريخية والجغرافية.

وكما تذكر المعلومات الاجماعية التى يدلى بها علماء بلاد النيجر فان سجلات سونرهاى السنوية هذه قد ألفها رجل كبير المنصب اسمه أحمد بابا تحت عنوان: «تاريخ السودان»، كما يذكر اسم هذا الرجل فى الكتاب بصيغة الغائب فقط. ويبدو وكأن يداً اخرى سجلت معلومات إضافية فى الكتاب، ولكنى لا أستطيع الإدلاء برأى اكيد حول هذا، حيث لم يتسع الوقت لى لقراءة القسم الأخير من المؤلف بما يستحق من انتباه وعناية.

وفى مكان آخر يكتب بارت حول «تاريخ السودان»^(٢٥): «لقد وجه انتباهى الى هذا المؤلف التاريخى فى بادئ الأمر صديق عبد القادر فى سوكتو ولكن دون أن يتمكن من اشباع فضولى. والآن امضيت ثلاثة أو أربعة أيام وأنا استمتع باقتطاف المعلومات والمقاطع التاريخية الهامة من هذا المؤلف، بحيث حصلت على فكرة جديدة تماماً حول التطور التاريخى للمناطق الممتدة على النيجر الأوسط، التى اتجه إليها تجوالى وكشفت أسفارى النقاب عنها وأثارت فى أكبر اهتمام حى. فقد أيقظ الكتاب أمام عيني وبخطوط واضحة جلية سطوة مملكة سونرهاى السابقة التى لم أكن أفقه شيئاً عنها فى السابق، ولم آسف لشيء أسنى لعدم توفر الوقت الكافى لدى لنسخ المخطوط بكامله، بحيث اكتفيت باقتطاف المقاطع التى بدت لى الأهم من الناحية الجغرافية والتاريخية دون أن أتمكن من اعارة الاهتمام الكافى للترابط الخارجى بين هذه المقاطع»^(٢٥).

أما مؤلف هذا الكتاب فليس أحمد بابا^(٢٦)، كما اعتقد بارت خطأ^(٢٧)، وانما تلميذه السعدى من تمبوكتو^(٢٨). ويحتوى الكتاب اخباراً هامة عن شعوب السودان، السونغاى، والميللى والطوارق^(٢٩).

تزيين الورقات: — إن مؤلف هذا العمل هو عبد الله^(٣٠)، أخ غير شقيق المصلح الكبير عثمان بن فوديو. وبعد وفاة هذا عام ١٨١٧ ورث عبد الله المناطق الغربية لمملكة فولى. وتزيين الورقات هو موجز لتاريخ مناطق فولى هذه. وعندما مكث بارت فى ربيع عام ١٨٥٣ فى سوكتو وقعت بين يديه مخطوطة لهذا المؤلف. ويكتب حول ذلك^(٣١): «وخلال هذه الفترة كلها كنت اقضى اوقات فراغى بقراءة نصوص مخطوط اتاح لى أول اطلاع على تاريخ الجزء الغربى من مناطق فلانى هذه. أما المؤلف فهو عبد الله، اخو عثمان، المصلح، الذى حصل على الجزء الغربى من المنطقة المفتوحة كنصيب له. ومع أن الكتاب^(٣٢)، الذى عنوانه «تزيين الورقات»، يحتوى بالإضافة إلى مادة دينية كثيرة، على بعض المعلومات التاريخية الهامة، إلا أنه لم يكف مطلقاً لارواء ظمئى الشديد إلى المعرفة». وخلافاً لهذا القول، فان المؤلف موجز تاريخى يعالج تاريخ مملكة الفول سوكتو منذ عام ١٧٨٤، بينما لا تلعب المادة الدينية فيه، كما يقول A. Brass^(٣٣)، إلا دوراً ثانوياً مع الأسف.

الاتفاق الميسور: — إن هذا المؤلف التاريخى الذى كتبه محمد بيللو، أحد أبناء عثمان بن فوديو، كان قد نشر بصورة مقتطفات على يد A. V. Salame مع ترجمة انجليزية فى كتاب Denham-Clapperton: «قصص الرحلات والاكتشافات فى شمالى ووسط أفريقيا، لندن، ١٨٢٦، كملحق على الصفحة ١٦٦.

(٢٦) المتوفى بعد ١٠٦٦/١٦٥٦ - GAL، II، ٤٦٧ وما بعدها.
(٢٧) راجع، بيكر: Becker, Zur Geschichte des östlichen Sudan, Der Islam I, 166.

(٢٨) ذيل الديباج.
(٢٩) بعد أن نشر المخطوط على شكل مقتطفات، كما سبق وذكرنا، قام O. Houdas بالتعاون مع E. Benoist بنشر العمل بكامله عام ١٨٩٨ مع ترجمته الفرنسية: (Paris, Publ. de l'École des langues or. viv. à l'histoire du Soudan I).
كل ذلك GAL، II، ٤٦٨.

(٣٠) المتوفى عام ١٨٢٩ - GAL، SII، ٨٩٤.

(٣١) R. i. A.، IV، ١٨٨.

(٣٢) قارن A. Brass المخطوطتين الموجودتين فى مكتبة خاصة ثم نشر وترجم اجزاء مقتطفة منهما فى مجلة Der Islam المجلد ١٠، الصفحات ٧٣-١ (١٩٢٠).

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٢٢) Cooley, Negroland of the Arabs, 1841.

(٢٤) R. i. A.، IV، ٢٠٢.

(٢٥) المكان نفسه.

“Narrative of travels and discoveries in Northern and Central-Africa”.

وقد اتاحت لبارت الفرصة في سوكونوت أيضاً لدراسة المؤلف بكامله. وهو يكتب حوله^(٢٤): «بكثير من الجهد سعت إلى الحصول على كتاب بيللو وعنوانه: «الإنفاق الميسور في فتح بلاد التكرور»، وهو الكتاب الذي أوصاني به بكثير من التوكيد صديقي الفقيه عبد القادر في كتسنا؛ ولكنه لم يصل إلى إلا قبل مغادرتي المدينة ببضعة أيام. وعندها وجدت أن القسم الأكبر من محتوياته الذي يحمل أهمية تاريخية أو جغرافية ينطبق على الوثائق التي أحضرها الكاتبين كلا برتون من رحلته الأولى والتي قام السيد سالام بترجمة جزء منها كملحق لقصة تلك الرحلة الهامة على الدوام».

ومن المخطوطات العربية فان «تاريخ السودان» يعتبر أهمها جميعاً كمصدر لتاريخ شعوب السودان كما أن بارت قد اهتم بمعالجتها بتفصيل خاص.

واعتماداً على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب تمكن بارت بوجه عام من تحديد موعد ومكان انتشار الإسلام في السودان على وجه الدقة. فند القرن التاسع ثبت أن الإسلام قد تغلغل في بعض مناطق السودان. ولم يتوقف تغلغل الإسلام في السودان حتى بعد ألف عام من هذا التاريخ. وتاريخ السودان زاهر بالحروب العقائدية والاضطرابات التي كانت تشتعل بشارة التعصب الديني. وبوجه عام يمكن القول بأن الإسلام اصطحب معه تغيرات واضطرابات سياسية. ويصور بارت آخر ثورة دينية كبيرة أصبح شاهداً لتأثيراتها الثورية: وهي حركة عثمان بن فوديو الإصلاحية^(٢٥).

لقد أدى مطلب الجهاد في الإسلام إلى عيش سكان السودان الوثنيين في اضطراب دائم. وتوיד انطباعات بارت، الذي عاش بين القسمين من السكان، هذا الرأي. وقد أيد الإسلام إقامة دول على أسس سياسية واجتماعية موحدة. إلا أن سكان السودان الوثنيين كانوا مقسمين إلى قبائل وعشائر صغيرة، كانت متخاصمة فيما بينها في الغالب بحيث لم تكن قادرة على مقاومة المسلمين. وكان هذا هو الموقف عندما ثارت الفوليه في بداية القرن الماضي. ولكن قبل أن نتناول تاريخ السودان في القرن التاسع عشر، نود أن نذكر شيئاً حول التاريخ القديم كما سجل في تواريخ المؤلفين العرب.

(٢٤) R. i. A., IV, ١٨٨.

(٢٥) R. i. A., IV, ١٥٢ وما بعدها.

ومن أقدم الممالك الإسلامية في السودان مملكة البورنو. ومن سجل بورنو التاريخي عرف بارت^(٢٦)، أن أول ملك لهذه المملكة اعتنق الإسلام كان هوميه (أو أوميه)، ابن عبد الجليل. وقد حكم في الأعوام ما بين ١٠٨٦/٤٧٩ و ١٠٩٧/٤٩٠. وباعتناقه الإسلام فقد أسس أسرة مملكة جديدة. وقد وجد بارت هذه الملاحظة عند الجغرافي العربي المقریزی^(٢٧): «وكان أول ملوكهم الذي اعتنق الاسلام محمد بن جبل^(٢٨) بن عبد الله بن عثمان بن محمود بن ابى...، وهم يزعمون أنهم من سلالة سيف بن ذى يزن». ولذا فقد افترض بارت — على خطأ طبعاً، كما يقول بيكر^(٢٩) — أنه حدث اختلاط هنا بين أول سيف في الإسلام وملك بلالا الأول^(٣٠)، والأغلب أن يكون محمد بن جبل هو هوميه (أو أوميه) بن عبد الجليل. وفوق ذلك فمن التناقض أن يكون اسم والد أول ملك اعتنق الاسلام اسماً إسلامياً هو عبد الجليل.

«إن مملكة كانم، وهي في الأصل جزء من مملكة بورنو، كان لها كذلك منذ القدم سكان كثيرون كانوا مسلمين في الغالب»^(٣١).

ومن أقدم الممالك القديمة أيضاً مملكة سونغهاى حيث أن البكرى يتحدث عن تقاليد الإسلام^(٣٢). وحسب تاريخ السودان للسعدى فان تاريخ الإسلام في مملكة سونغهاى يعود إلى بداية القرن الرابع الهجرى/الحادى عشر الميلادى.

وقد تسرب الإسلام إلى السودان من اتجاهات مختلفة: فبالنسبة لغانا نقله المرباطون من قبيلة اللمتونه وغيرها من قبائل البربر^(٣٣) من الشمال. وفي الممالك القديمة حول بحيرة تشاد يحتمل كثيراً أن يكون الاسلام قد جاء من الشرق من نفس الطريق التي جاء منها البدو القادمين من جنوبى شبه الجزيرة العربية، كما جاء فيما بعد عبر مصر أيضاً من خلال طرق التجارة. وكانت الطريق إلى مكة تمر بمصر. وكما يذكر ابن خلدون^(٣٤) فان مفتى غانا اتخذ عام ١٣٩٣/٧٩٦ طريق الحج التي مرت بمصر

(٢٦) نفس المصدر، II، ٣٠٩.

(٢٧) Hamaker, specim. catalog, p. 206؛ راجع Der Islam،

١٧١، ١.

(٢٨) قل جبل... كذلك بارت II، ٢٨٩.

(٢٩) Der Islam، I، ١٧١.

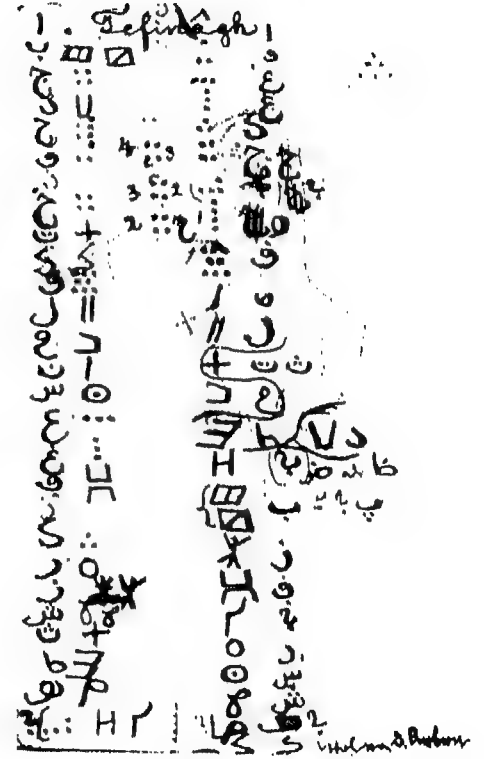
(٣٠) راجع بارت II، ٣٠٩.

(٣١) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 109. ١٥٩.

(٣٢) بارت، ١٧، ٤١٧.

(٣٣) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 64.

(٣٤) نفس المرجع ص (١١٠).



خريطة لمدينة «ماسينيا» Māseña، مركز الحكومة في مملكة باغرى، عام ١٨٥٢ء
على اليسار صورة تخطيطية كما رسمها بارت في يومياته ١٨٥٢ء على اليمين نسخة
مصححة مطبوعة منها كما نشرت في كتاب بارت حول سياحته.
حروف Tefinagh للطوارق في الصحراء الوسطى كما رسمها هاينرش بارت في يومياته
وقايسها بالحروف العربية. وهذه اليوميات محفوظة الآن في باريس.

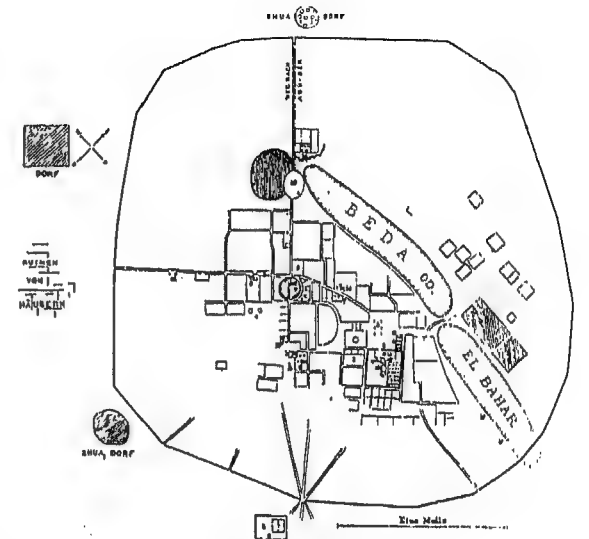
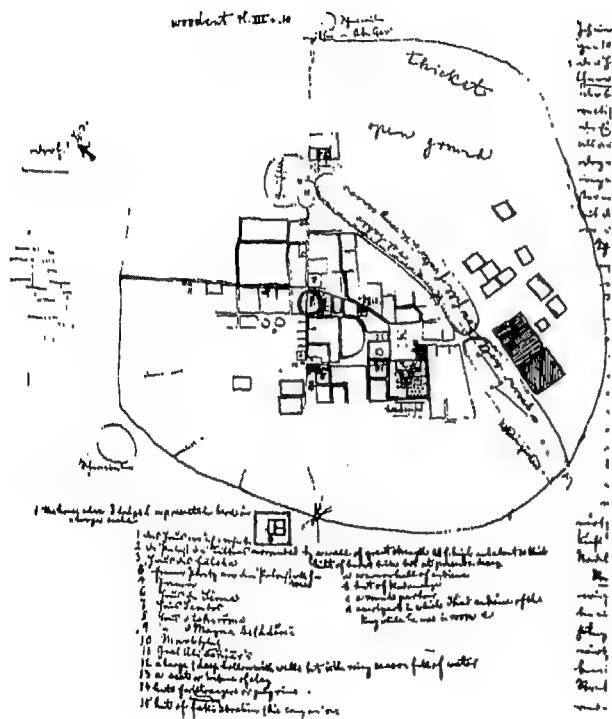
إذ أن من دخل في الدين الاسلامى لا يمكن أن يتخذ
أو يصبح عبداً. وقد جلب الاسلام معه مستوى معيشياً
رفيعاً بحيث كان من هذه الناحية أيضاً جديراً باعتناقه.
وهناك امثلة على أن سيرة بعض الرجال الشبهيين
بالقديسين اكسبت الدين الجديد كثيراً من الأنصار.
وكانت باغرى قبل القرن الحادى عشر الهجرى/السابع
عشر الميلادى منطقة وثنية تماماً. وكما يقول بارت (٤٧)
فان انتشار الإسلام هنا تم بوجه خاص بفضل «شيخ
من شيوخ الفيلاتا وقديس من بيد دبرى (قرية على مسافة
٩ أميال شرقى ماسينيا) كان له، رغم انفراده وعزله،
تأثير كبير جداً في إدخال الإسلام إلى هذه البقاع».

ويعود الفضل في نشر الإسلام في مناطق واسعة إلى محمد
بن عبد الكريم بن مرجلى (٤٨). ويسميه بارت رسول بلاد

(٤٧) R. i. A.، III، ٣٨٧.
(٤٨) المتوفى ١٥٣٣/٩٤٠.

قبل بلوغ مكة. وكانت هذه الطريق نفسها طريق الحج
المألوفة على زمن بارت أيضاً كما يؤكد لنا في كتابه.
وهكذا فبفضل فريضة الحج الدينية قامت بين السودان
ومصر صلة وتبادل دائم لم يساعد على تطوير التجارة
بين البلدين فحسب، بل وأثر تأثيراً كبيراً على المستوى
الفكرى والثقافى لشعوب السودان الإسلامية. وندرك
هذه الصلة القديمة بمصر، كما يذكر بارت (٤٥)، من وضع
مدينة كوكو Gögö، عاصمة سونغهاى، التى «كانت في العهود
الماضية تتألف من حيين منفصلين، أحدهما لعبدة الأوثان
(على الشاطئ الغربى أو شاطئ كورما) والحقى الملكى
أو الإسلامى (على الشاطئ الشرقى، باتجاه مصر، المكان
الذى جاء منه الاسلام وما صاحبه من مدينة)». (٤٦)
ولم ينتشر الاسلام في السودان بالنار والسيف.. بل
كثيراً ما كان من الانفع لأهل البلاد أن يعتنقوا الاسلام؛

(٤٥) R. i. A.، V، ٢١٨.
(٤٦) نفس المصدر، ص (٤٣٤).



Plan der Stadt Maseh.

- 1 Das Haus, in dem ich wohnte, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 2 Der Palast des Sultans, umgeben von einer starken Mauer, welche zwei Jahre vor seinem Besuche der Stadt hier bei unregelmässiger Arbeit in hoher Leistung stand. Der Palast wird von einem Kuppelbau besetzt.
- 3 Eine grosse tiefe Zinnkammer mit Brunnen, der in der Gegenwart mit Wasser angefüllt.
- 4 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 5 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 6 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 7 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 8 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 9 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 10 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 11 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 12 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 13 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 14 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 15 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 16 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.
- 17 Das Haus des Sultans, hier auch in grösseren Maassstab dargestellt.

الزنج الوسطى (٤٩). وكان صديقاً للسيوطي، من اعظم عباقرة الكتاب العرب واكثرهم تنوعاً في حقول الثقافة (٥٠).

ويكتب بارت (٥١) أنه اطلع في تمبوكتو على رسالة طويلة من ابن مرجيلي يعالج فيها مسائل دينية. ومن المؤسف ان بارت لا يفيدنا بالمزيد عن محتويات هذه الرسالة التي يقول إن لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الاسلام في السودان. وكان ابن مرجيلي هو الذي أثر على ابراهيم ماضي، ملك كاتسينا، لاعتناق الاسلام (٥٢). وبعد ذلك بقليل دخل ملك واداي الاسلام أيضاً (٥٣).

وتنتهى مصادر بارت الأدبية مع «تاريخ السودان» عام ١٦٥٥. ولم يكن يعرف المصادر التالية التي يذكرها

- ٤٩ Der Islam X, ٦٣٦, IV, R. i. A.
- ٥٠ ١٤٤٥/٨٤٩ - ١٥٠٥/٩١١, GAL, II, ١٤٣ وما بعدها.
- ٥١ R. i. A., II, ٨٣ (ملاحظة ٢).
- ٥٢ نفس المصدر, II, ٨٣.
- ٥٣ نفس المصدر, III, ٨٥ وما بعدها.

- ٥٤ (٥٤) A. Brass. وكان على بارت أن يعتمد بخصوص تاريخ السودان الحديث على الروايات الشفهية والانطباعات الشخصية.
- ٥٥ وتشهد في نهاية القرن الثامن عشر حركات وثورات دينية خطيرة النتائج. فبينما لاقى الاسلام في دولة لوكونه استقبالا فاتراً وسطحياً (٥٥)، أشعل الدين الجديد بين الفولبه في كوبر (٥٦) وأداماوا (٥٧) تعصباً شديداً ملتهباً.
- ٥٦ وبعد مرور فترة قصيرة على بدء الحركة الوهابية الرشيدة في جنوبي الجزيرة العربية، هبت الفولبه، وعلتهم متأثرون بالاحداث الجارية في جنوبي الجزيرة العربية (٥٨). ولم يكن قد مضى على دخولهم الاسلام زمناً طويلاً حتى بدأوا

وبنشره باذلين في سبيل ذلك أقصى الجهود، حتى شنوا فيما بعد، عندما قويت شكيمتهم، حروباً دينية دموية، في سبيل ذلك. وكان الرجل الذي تزعم القولية، والذي فتح عهد مملكة للقولبة، والذي اعتبره انصاره نبياً وخصومه مستبداً مخيفاً، هو المصلح عثمان بن فودييو^(٥٩). وقد أيد أخوه عبد الله^(٦٠) سياسته بخضوع وتفان زائدين، واستمر ابنه محمد يبلو على تلك السياسة وثبت دعائمها بتطرف أشد واعنف. وبعد أن نقل محمد ليو الإسلام المجدد المصلح إلى قبائل القولبة التي تقطن على ضفاف النيجر الأعلى^(٦١)، أصبح القولبة بوجه عام طلائع المجاهدين في سبيل الإسلام^(٦٢).

وقد شهد بارت هذه الأحداث ونتائجها بصورة مباشرة، ولذا فإن كتابه (رحلات في أفريقيا) "Reisen in Afrika" يعتبر مصدراً لا يقدر بثمن بالنسبة لتاريخ الإسلام الحديث في السودان أيضاً. وكما تثبت روايات البكري والوزان الزياتي (ليو أفريكانوس)^(٦٣) فإن للإسلام في السودان جذوراً عميقة جداً في بعض أجزائه ولكنها ليست عميقة. وكما ورد في كتاب بارت أيضاً^(٦٤)، فقد كان الإسلام في عهده أيضاً تقليداً ظاهرياً في بعض الوجوه، ظلت العادات والتصورات الوثنية كامنة خلفه. وهناك حاجة إلى مثل كتاب فيلهاوزن Wellhausen «بقايا الوثنية العربية» Reste Arabischen Heidentums يعالج الموقف في السودان. ويقدم بارت هنا عدداً كبيراً من الملاحظات تقع مهمة تنسيقها وإيضاحها وتفسيرها على عاتق المستشرقين. ونذكر في هذا المجال مثلاً يشير إلى ضرورة إعزاء بعض ملاحظات بارت إلى أسبابها الدينية والبيولوجية الحقيقية: يوضح بارت بمثل^(٦٥) «غربة مبالغة سكان الصحراء المتمدنين هؤلاء في اعتبار الحشمة الإسلامية. فعند التبول يتبعدون على مسافة كبيرة من الطريق ويجلسون القرفصاء إلى الجانب ويحفرون جحراً صغيراً في الأرض». والحقيقة أن ليس في الأمر حشمة ولا مبالغة وإنما التقيد باتباع مطلب إسلامي قديم يقول بأن يجلس المرء «لقضاء حاجاته فلا يقضيها قائماً»^(٦٦).

وفي تمبوكتواتيحت لبارت الفرصة لحضور تدريس اللغة العربية وتعاليم الإسلام^(٦٧): «وخلال جزء من النهار قرأ الشيخ على تلاميذه مقاطع من حديث البخاري^(٦٨)، بينما راح ابنه الصغير سيدي محمد يكرر درسه من القرآن بصوت جهوري، وخلال المساء راح التلاميذ يجودون عدة سور من القرآن الكريم بصوت موسيقى حتى ساعات الليل المتأخرة».

٣ - دراسات حول اللغة العربية في السودان

ولقد كان الإسلام واللغة العربية دوماً متصلين اتصالاً لا يمكن فصلهم عراه. وبما أن القرآن لا يجوز ترجمته إلى أية لغة أخرى - خوفاً من الله وكذلك حفاظاً لطهارة الضمير تجاه كلام الله المنزل - فقد أصبح لزماً على كل مسلم مؤمن أن يتعلم العربية إلى درجة تمكنه من فهم القرآن أو تلاوته على الأقل. ويكتب بارت عن القولبة^(٦٩): «من المؤسف أن لإقامتي القصيرة لم تمكني من مراقبة مستوى الثقافة بين هؤلاء المسلمين النائيين، ومع ذلك فقد وجدت أثناء سفري أن قراءة القرآن وبعض الكتب الرئيسية للإسلام^(٧٠) ومعرفة جيدة للغة العربية المكتوبة منتشرة بين عليّة القوم بينهم. وبطبيعة الحال فلا توجد مدارس هنا، ولكنه يوجد في القرى الأكبر رجل فقيه يتجهه الشباب الذين يسعون للحصول على مزيد من المعرفة أكثر من مجرد ترداد بعض الصلوات، يتجهون إليه للقراءة والدرس على يديه، وكلما كان الافتقار إلى كتب أخرى أكبر كلما ازدادت حيوية استيعاب الكتاب المتيسر بين أيديهم بطبيعة الحال، ذلك الكتاب الذي يأخذ عليهم ألبابهم بلغته الشعرية العظيمة».

وتحتوي ملاحظات بارت على إشارات هامة حول انتشار اللغة العربية آنذاك والتحديد المحلي للهجات المختلفة. وفي بعض مناطق السودان التي تكون غالبية سكانها

وتحتوي ملاحظات بارت على إشارات هامة حول انتشار اللغة العربية آنذاك والتحديد المحلي للهجات المختلفة. وفي بعض مناطق السودان التي تكون غالبية سكانها

(٥٩) ١٧٩٤-١٨١٧، R. i. A.، IV، ١٥٢ وما تلاها؛ GAL، II، ٨٩٤.

(٦٠) التوفى عام ١٨٢٩. (٦١) R. i. A.، IV، ٢٥٨.

(٦٢) نفس المرجع، II، ٢٠٨-٢٠٩.

(٦٣) نفس المرجع، IV، ٤٣٤.

(٦٤) نفس المرجع، II، ٥١٥؛ III، ٣٣٥؛ III، ٣٦٥.

(٦٥) R. i. A.، I، ٢٩١، ملاحظة.

(٦٦) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، القاهرة، ١٩٣٦/١٣٥٥، قسم العبادات، ص (٣٥).

(٦٧) R. i. A.، II، ٣٧٥/٣٧٦.

(٦٨) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، ص (١٤١).

(٦٩) R. i. A.، II، ٦١١/٦١٢.

(٧٠) المقصود بذلك كتب الحديث.

(٧١) R. i. A.، IV، ٥٢٣.

(٧٢) ١٩٤/٨١٠-٢٥٦/٤٨٧، GAL، I، ١٥٧ وما تلاها.

مسلمى السودان، وتتحول كلمة «العقل» إلى "Lakal" و«الأخبار» تصبح في لغة الهاوسا "labari"، وفي لغة سونغهاي "laabar" (٨٢).

وهناك فئة متكاملة من الوجهة اللغوية بين عرب السودان وهى الشوا Schūa، سكان بورنو العرب. ويكتب بارت (٨٤): «إن لهجتهم العربية متميزة جداً، فبينما تتخذ لنفسها صفة الصفاء الأكثر بالقياس إلى اللهجة الشعبية الفاسدة في المغرب وذلك بالمحافظة على صيغ الأفعال الكثيرة، إلا أن لها طابعاً يلفت الانتباه في بادئ الأمر بالتشكيل الحاد للكلمات واستخدام عبارة «كوتش، كوتش» بمعنى «على الإطلاق» بصورة دائمة — وكذلك كلمة «بركتك» — بحيث يحشرون هذه العبارات خلف كل ثلاث كلمات بصورة تثير الضحك».

وتزداد معرفتنا لسكان السودان العرب في ذلك الزمن بوجه خاص بما نشره بارت من الشعر بالنص العربي مع الترجمة الألمانية في المجلد الرابع من كتابه «رحلات في إفريقيا» (٨٥). أما هذا الشعر فقصيدتان لصديقه الشيخ البكاى. والقصيدة الأولى من بحر الخفيف، والثانية من بحر الطويل وكلاهما من بحور الشعر العربي القديم. ولا تعتمد القصيدتان الرائعتان على فن الشعر العربي القديم من الناحية الشكلية فحسب، بل ومن ناحية الموضوع والأسلوب أيضاً — وهذا دليل على مدى تمسك هؤلاء العرب الموزعين في الخارج بتقاليدهم الثقافية وتراثهم الأدبي. وكانت درجة الثقافة بين العرب هنا متباينة بطبيعة الحال؛ ويذكر بارت (٨٦) كيف أن إحدى القصيدتين القيت بين يدي شيخ تمكلا وأتباعه ومدى التجاوب والصدى الذى حققته القصيدة لديهم «رغم أنه لا يمكن أن يحكم عليها إلا من كان متمكناً من اللغة العربية، بينما لم يفهم القسم الأكبر من القوم كلمة واحدة منها».

لقد كان بارت خبيراً عارفاً بالشعر العربي. وبينم أسلوبه الخاص عن ذلك. فعند زيارته إلى أغاديس يصف صورة هذه المدينة بما يلي (٨٧): «كانت العقبان تنظر بألم وشراسة من نتوءات الأسوار المتهاوية المحيطة بالمكان؛ وكما كان يبدو فإنها كانت تعاني من الافتقار إلى الطعام، لأنه، بعد أن خرج عدد كبير من سكان المدينة مع

من المسلمين استحوالت اللغة العربية إلى لغة عامة باستثناء استخدام اللغة الفصيحة للأغراض الدينية. وفيما يتعلق باللهجة سكان أكادس يكتب بارت (٧٢): «إن التعامل مع البربر قد مارس تأثيراً كبيراً، بحيث انتقلت من لغتهم كلمات كثيرة واندججت في التعابير المحلية هنا، بينما يبدو أن العربية لم يكن لها تأثير كبير، فيما عدا أسماء العدد المحلية التى اختفت ابتداء من «أربعة» فما فوق. ويظهر استخدام أسماء العدد العربية في بعض اللهجات المحلية مدى تأثير التجار العرب والدور الذى لعبوه في انتشار اللغة العربية. ويكتب بارت (٧٤) حول الكانورى، «لقد تخلوا عن كلمتهم المحلية التى تعنى «مائة» وهى «ييرو» واخذوا يستخدمون الكلمة العربية ميه» (٧٥).

ومن الكلمات العربية التى نقلها التجار العرب المسافرون «ذراع» (٧٦) و«خلق» (٧٧) و«ودع» (٧٨) وغيرها من التعابير التى تمثل وسائل الدفع والمقايسة. وباعتناق الاسلام فقد ازداد اهتمام الفولبه باللغة العربية. ويقول بارت (٧٩) إن بعضهم كان يفهم اللغة العربية المكتوبة جيداً. ولكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث بها. ويكتب بارت الكلمات العربية فى الغالب بالحروف الألمانية مما يساعدنا على الحصول على فكرة تقريبية عن الخصائص الصوتية للهجات العربية فى السودان على عهد بارت. وحسب ذلك فقد كانت القاف العربية (ق) تلفظ كحرف (g) او جيم غير المعطشة بالألمانية (٨٠)، بما يشبه لفظ بدو الجزيرة العربية. ومن المؤسف أن بارت لم يكن دقيقاً عند كتابة الكلمات بالحروف الألمانية فى بعض الحالات.

ومن الأمثلة الموجودة فى كتاب بارت ندرك خاصية مميزة من خصائص اللهجات العربية فى السودان، وهى دمج (أ) التعريف مع الاسم المعرف بطريقة تسقط فيها الألف (أ) وتصبح اللام (ل) الحرف الأول للكلمة المعرفة. وهذا ما يحدث بالنسبة لقبيلة «الانصار» مثلاً التى تدعى لنصار Lanssār. (٨١) ويحدث الشيء نفسه كذلك بالنسبة لكلمة "Loel"، لول (٨٢). وهو اسم شخص عند

(٧٢) R. i. A., I, ٤٥٨.

(٧٤) R. i. A., IV, ٦٣، الملاحظة.

(٧٥) مائة.

(٧٦) ذراع؛ نفس المرجع، II, ٥٣٦.

(٧٧) خلق، ج (خلكان)؛ نفس المرجع، III, ٣٣٨.

(٧٨) نفس المرجع، IV, ٢٩٢.

(٧٩) نفس المرجع، II, ٥١٧.

(٨٠) نفس المرجع، IV, ٥٥٤.

(٨١) الانصار.

(٨٢) الأول

(٨٢) راجع Vincent Monteil, L' Islam Noir, ص ٢٢٧.

(٨٤) R. i. A., III, ١٢٥.

(٨٥) ص (٥٨٨) وما تلاها.

(٨٦) R. i. A., V, ٣٠٦.

(٨٧) نفس المرجع، I, ٤٩١.

«أم البركة» (III, 52) «أبو ديج» (شجرة ذات ثمر يشبه المشمش — III, 313)
 «اللبان» (Benzoin, III, 329)
 «العرديب» (Tamarinde — III, 400)
 «حسب الملوك» (III, 400) «المست» (Zea Mays).

لقد عرضنا حتى الآن مساهمة بارت في الدراسات الشرقية بإيجاز. ومن هذه الأمثلة يدرك المرء مدى معرفته الواسعة في مختلف حقول علم الاستشراق الذي كان لا يزال ناشئاً في ذلك الزمن. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات فإن الاستشراق لم يول ما يستحقه من اهتمام حتى الآن. ولعله كان ينبغي عن نفسه بتواضع صفة «المستشرق» كما كان يعتقد بأنه لا يصح أن يعتبر عالماً طبيعياً أو عالم فلك (٩٠). وفي الحقيقة فإنه يستحق هذه الصفة، وإن كان من الصعب تصنيفه داخل نظام علمي معين دون غيره. فقد كان بارت يمثل ذلك النوع من العلماء الذين لا يقسمون العلم إلى حقول خاصة وإنما يضعون العلم كله دوماً أمام أعينهم ويقيمون الصلات بالأنظمة العلمية الأخرى — لقد كان عالماً كلياً متعدد المعارف (Polyhistor)، كما كان يعرفه عهد الرومانتيكية.

وكما هو الحال بالنسبة لكل علم، فإن الاستشراق مهدد كذلك بخطر الاعتكاف والانزغال عن بقية الأنظمة والحقول العلمية. فالسودان، مثلاً، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق إلى قارة جديدة، إلى عالم جديد، يحتاج إلى مزيد من التقصي والاستكشاف. ويجب أن تنطلق الأبحاث المقبلة في هذا المجال من عمل بارت العظيم (٩١).

٤ — ملاحظات حول ما اقتطفه هاينرش بارت من مخطوطات المؤرخين العرب ودونه في كتاب يومياته

في أحد كتب يوميات الباحث هاينرش بارت الموجود حالياً في المكتبة الوطنية في باريس توجد بعض الصفحات المكتوبة باللغة العربية.

وتحتوي مقتطفات من كتابي «تاريخ السودان» لعبد الرحمن

الجيش، أصبح نصيبها من نفايات الطعام اليومي لهؤلاء السكان قليلاً يسيراً. ومن المحتمل كذلك أن بعض العقبان تبعت سكان المدينة؛ إذ أن هذه الحيوانات تدرك، عندما ترى جيشاً من الرجال المسلحين يخرجون إلى القتال، أنه سيكون لها من فئات الطعام هناك ما ستقتات به. وهذه صورة معروفة من الشعر الجاهلي، وحين يقرأها المرء لا يسعه إلا أن يذكر بيتاً من قصيدة مشهورة للشاعر الجاهلي النابغة الذبياني (٨٨):

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
 عصائب طير تهتدى بعصائب

لقد كان أدب سكان السودان من العرب أوسع وأغنى مما تيسر لبارت الاطلاع عليه. ولم نحصل في أوربا على معرفة دقيقة حول هذا الأدب إلا عندما وقعت مخطوطات ثمينة عام ١٨٩٤ بأيدي قوات الكولونيل وفيما بعد الجنرال آرشيناير Archinard. وقد أصبحت هذه المجموعة الكبيرة اليوم ملكاً للمكتبة الوطنية في باريس. ويوجد بين هذه المخطوطات عدد من مؤلفات المصلح عثمان بن فودي، وابنه محمد بيلو، وأخيه غير الشقيق عبد الله بن محمد والأمير الحاج عمر. وفي مقال نشره Georges Vajda بعنوان: «مساهمة في معرفة الأدب العربي في إفريقيا الغربية» (٨٩) «Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique Occidentale». أورد قائمة وشروحا موجزة لمخطوطات المؤلفين المذكورين العربية الموجودة ضمن المجموعة.

وأخيراً فإننا نود أن نشير إلى التعابير الاختصاصية العربية الكثيرة من دنيا النبات في السودان والمنتشرة في جميع فصول كتاب بارت. ومن يهتم بالذات بعلم النباتات والعقاقير عند العرب سيجد معلومات قيمة في كتاب بارت. واد أن اذكر هنا بعض هذه الأسماء فقط: «الدوم» (Dum) (Cucifera Thebaica—Thebanpalm; I, 419); «الحسكيت» (Pennisetum distichum — Chaskanit) I, 427)

«الهد» (I, 591) «حب العزيز» (Erdnuss — II, 463);

«الجاوى» (Benzoe-Gummi — II, 595);

«بوركه» (Panicum colonum — III, 52)

«شجرة الحمل» (Avena Forskalii — II, 52)

٨٨ عاش في النصف الثاني من القرن السادس — GAL, I, ٢٢.
 Journal de la Société des Africanistes, Paris, Tome XX, ٨٩
 Fascicule I, 229—237.

(٩٠) XVIII, I, R. i. A.

(٩١) راجع بيكر 177, Becker, Der Islam, I.

بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي^(٩٢) وكتاب «تزيين الورقات» لعبد الله اخي عثمان بن فودي. وبالمقارنة بكتابات عربية أخرى من خط بارت (كفواتيره وايصالاته) فاننا لا نرى محالاً للشك بأن المقتطفات من الكتابين المذكورين كتبت بخط بارت نفسه.

وتبلغ مساحة الصفحات المكتوبة ١٥ سم × ٨,٨ سم. أما الخط فهو مغري. وتحتوي الصفحة الواحدة من النسخة المنقولة عن تاريخ السودان معدل ٣٦ سطراً، ومن النسخة المنقولة عن تزيين الورقات معدل ٢٨ سطراً.

وكان بارت يهدف إلى نشر هذه المقاطع من المخطوطين العربيين بأسرع وقت ممكن في أوروبا، دون الانتظار حتى انتهاء رحلته الاستكشافية التي استغرقت عدة اعوام في افريقيا الوسطى. وكان يرجو نشر المخطوطين بكاملهما بعد عودته. ولكنه لم يتمكن من ذلك لسوء الحظ، ومن المقطعين اللذين نسخهما على عجل في كتاب يومياته، لم ينشر، على حد علمي، إلا تاريخ السودان للسعدي. وقد اعطى بارت المقطع العربي المنسوخ إلى المستشرق G. Ralfs، الذي نقله إلى الألمانية ونشره في المجلد التاسع من مجلة جمعية المستشرقين الألمانية Zeitschrift der Morgenländischen Gesellschaft^(٩٣).

وقد نشر الكتابان العربيان بكاملهما فيما بعد: تاريخ السودان، نشر Houdas O. بمعاونة E. Benoist^(٩٤)، وتزيين الورقات، نشر A. Brass^(٩٥).

لقد نالت الأبحاث الأفريقية بمقدار متساو بالنسبة للجغرافيا والمؤرخ والمستشرق، نالت دافعاً جديداً بفضل أبحاث ونشاط بارت. وبينما ظلت صورة أفريقيا التاريخية حتى الآن على الشكل الذي بدت فيه في الأعمال التاريخية الكبيرة لابن خلدون وابن بطوطة وليو أفريكانوس، على سبيل المثال، فقد أدى «تاريخ السودان» إلى التعريف بفترات أخرى من تاريخ أفريقيا. ورغم أن بارت جاء بمقتطفات فقط؛ ولكنها كانت كافية لإعطاء دفعات جديدة للأبحاث الأفريقية ما زالت تتغذى عليها حتى اليوم.

^(٩٢) بروكلان GAL، II، ٤٦٧.

^(٩٣) „Beiträge zur Geschichte und Geographie des Sudan,“ p. 518—594. Eingesandt von Dr. Barth, Paris 1898, Publications de l'Ecole des Langues Orientales.

^(٩٤) Vives, Documents Arabes Relatifs à l'Histoire du Soudan, 326.

^(٩٥) Der Islam, 1920, X, 1—73: Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulreiches Sokoto.

ليس لمخطوطي بارت الذين وجدا من جديد قيمة تاريخية فحسب؛ وإنما يقدمان سلسلة من المعلومات المغيرة والإضافات لإزاء المخطوطين الذين اعتمد عليهما Houdas و Brass فيما نشراه. فالمخطوطان اللذان استخدمهما بارت من جهة والآخرا اللذان اعتمد عليهما Houdas و Brass من جهة أخرى جاءا من مصدرين مختلفين. ومما يؤسف له أنه لا بارت ولا هوداز يعطيان مزيداً من التفاصيل عن أصل المخطوطات. أما المخطوطان اللذان اعتمد عليهما Brass لكتابه المشور فيعود اصلهما إلى حملة Frobenius الاستكشافية (F) ومجموعة المستشار السري Meier من لاينزغ (M). وتتفق بعض الافتراضات التي قدمها Brass مع طريقة القراءة التي قدمها بارت فيما نسخه، بحيث تبدو هذه معتمدة على أصل أفضل. وبعض الاختلافات في نص بارت هي اخطاء وقع فيها بارت بسبب العجلة الشديدة التي كان ينسخ بها، وبسبب الظرف الصعب الذي كان خاضعاً له أثناء ذلك.

يضم ما اقتطفه بارت من تاريخ السودان ٢٢ صفحة من كتاب يومياته، ثم يتوقف في منتصف الكتاب تماماً^(٩٦). ويكتب بارت في نهاية مخطوطه في يومياته: «إنه خليف بكثير من المعرفة الاختصاصية»، إلا أنه يضيف عند اتصاله برالفيس^(٩٧): «لقد كانت رواية انهيار مملكة سونراي هذه مخزنة بالنسبة لي إلى درجة توقفت عندها عن مواصلة النسخ».

ومما يؤخذ على ما نسخه بارت أنه كان يقتطف في بعض المواضع دون ترابط كاف. فكان يتوقف في وسط الحملة ثم يواصل النسخ من جديد، حيث كان الأمر يبدو له أكثر نفعاً وجدوى، دون أن يترك ما يشير إلى انتقاله من موضع إلى آخر. وبسبب جهله بالنص الكامل فقد كان رالفيس مضطراً إلى تقديم ترجمة ناقصة جداً، كان يرصف الجمل في بعض المواضع دون أى ترابط أو تسلسل.

أما مقطع بارت من كتاب تزيين الورقات فيضم ما يزيد على السبع صفحات من كتاب يومياته. ويبدو هنا مزيد من الدقة في الاقتطاف، كما أن الخط أوضح منه في تاريخ السودان. وقد وضع هنا، كما وضع هناك أيضاً، خطأً تحت الأسماء العلم.

وتختلف المخطوطات التي اعتمد عليها بارت وبراس في بعض الأسماء بسبب كتابة الأسماء غير العربية بالحروف

^(٩٦) طبعة Houdas، ص ١٥٨، سطر ١٢.

^(٩٧) ZDMG، IX، 594، ملاحظة 147.

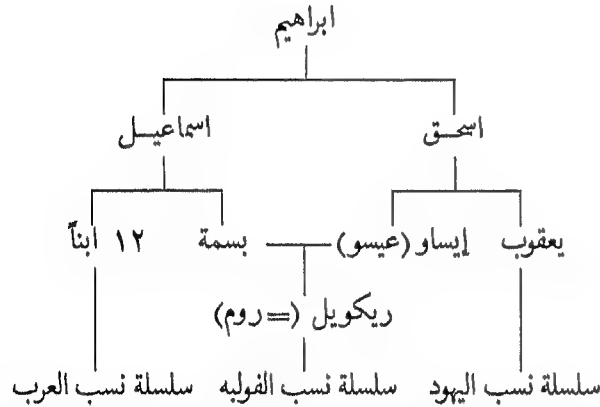


تمريضة من «كانو» Kano (نيجريا)



تمريضة من «كانو» Kano (نيجريا) ◀

لقد جعل المؤرخون العرب منذ القدم البطارقة اى ابراهيم واسماعيل على رأس تاريخ النسب العربي. ويظهر المثل أن القولبه أيضاً اتخذت مع الإسلام عادة اشتقاق نسبهم من نظام النسب العربي التقليدى وذلك بخلق سلسلة نسب وهمية.



وكما تظهر شجرة النسب، فإن تاريخ النسب العربي يماثل في القسم الاساسى منه التقاليد اليهودية التي استقى منها. واسم نسمة العربي (؟) الوارد عند بارت قد يكون مماثلاً لاسم بسمه اليهودى، حيث أن نقطة الباء قد تكون جعلت للنون خطأ. وقد يكون اسم عيص IS (؟) لدى بارت كتابة خطأ لعيسو (= Esau).

وبالنسبة للمكان الذى جاء فيه «وكان الروم أصفر» فهناك ما يشبه ذلك لدى هشام بن محمد الكلبي (المتوفى عام ٨١٩ أو ٨٢١ ميلادية) وهو من ثقافة التاريخ والأنساب العربية القديمة. وقد أشار لها كتاب الأغاني لأبي فرج الاصبهاني (المتوفى ٩٦٧ ميلادية)، في المجلد ١٢، ص ١٥٠. فهناك يجرى الحديث عن رجلين، قيس بن عاصم، وعمرو بن الاهتم، كان الواحد منهما يتهم الآخر أمام النبي محمد بأنه ليس من أصل عربي. و«زعم عمرو بن الأهم أنه (أى قيس) المنحدر من صلب الروم؛ فقد كان أحمر». وفي هذا المثل يتضح التقليد اليهودى كأصل استندت عليه الحادثة: ففي كتاب التوراة باب ٢٥، جاء أن عيسو كان محمراً منذ الولادة. وبما أن أسماء الألوان السامية تتغير كثيراً فمن الممكن اعتبار «الأحمر» و«الأصفر» قيم لونية متماثلة.

ترجمة: محمد على حشيشو

اللاتينية. فصوت ج (g) يعطى في مخطوط بارت بحرف (ق) العربى، وفي مخطوطه F و M اللتين استخدمهما براس بحرف (غ) العربى (قوبر - غوبر). وفي كل من مخطوطه بارت وبراس فإن النص يخلو من أبيات الشعر العربية المكتوبة بين فصول الكتاب، وكذلك من الشروح الخاصة بها. وفي مكان واحد فقط ينقل بارت شرحاً لأبيات لم ينسخها، ربما بسبب بعض الأسماء الجغرافية.

ويظهر النصان العربيان لدى براس من صفحة ٢٤ إلى ٢٦ بينما يظهران لدى بارت في نهاية المقطع. ويخلو نص بارت، باستثناء بعض المواضع، من المقاطع العربية التي نشرها براس على الصفحات ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، و٢٣. وهى تشتمل في الغالب على معلومات حول تاريخ الإسلام في هذه الأجزاء من السودان وكانت بالنسبة لبارت، كما لاحظ هو، قليلة الأهمية.

وتبدأ مخطوطه بارت بتاريخ نسب للفولبه غير معروف حتى الان يجعل من روم، ابن إيساو، جد القولبه الأصلي. ثم تتلو ذلك ملاحظات طريفة عن لغة القولبه. واقدام فيما يلى النص الذى لا تحويه مخطوطه (F) ولا (M)، أقدمه بصورة مطابقة للأصل:

«هم تورذب الذين جاؤا من فوت وهم فيما نسمع هم اخوان جميع الفلانيين ولغة الفلانيين لغتهم لأن عقبة بن عامر المجاهد الذى فتح بلاد الغرب زمان عمرو بن العاصى جد(؟) مصر وصل اليهم وهم قبيلة من قبائل الروم فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة ابنة ملكهم اسمها بيج منع فود الفلانيين جميعا هذا ما تواتر عندنا واخذنا عن الثقافة الذين يخرجون من بلاد فوت اعنى العلماء فتكلموا بلغة أمهم ولم يعلموا لغة أبيهم لقلة من يتكلمه هناك في ذلك الوقت.... والأقرب أنهم تعلموا بلغة أمهم وليست لتورذب لغة أصلية غير تلك اللغة والله اعلم وتعلمت(؟) ان الروم هو بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهما السلام واهم نسمة بنت اسماعيل عليه السلام قال ذو النسيين في كتابه التنوير: ولد اسماعيل عليه السلام اثني عشر رجلاً وامراًة واحدة عن اولاده نشر الله العرب كلها فلما حضرته الوفاة اوصى الى اخيه اسحق ان يزوج ابنته نسمة من العيص فزوجها منه فولدت له الروم وكان الروم اصفر فسميت بنوه بنا الاصفر...»

فريدريش روكرت

(١٧٨٨ - ١٨٦٦)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

وكان هذا الرأي جديداً مثيراً لمناقشات عنيفة بين اساتذة اللغة، ولكن العالم الشاب لم يبرح مداوماً على اعتقاده هذا حتى انه بعد ذلك بسنوات طويلة أفاد برأيه في ان الروح الألمانية وحدها هي التي تتمكن من استيعاب خزائن الآداب الأجنبية طراً، دون ان تضع مع ذلك خصائصها الذاتية، مثلها في ذلك مثل تقبل المرأة البلورية للالوان والأشكال بلا تفريق، ثم إذ بها تعكسها عكسا تاما بينما لا تزال بلوراً صافيا ...

لم يحب روكرت الحياة الجامعية ولا التدريس ولذلك ترك جامعة فيينا وعاش كشاعر حر، وكان ذلك في زمان حروب الاستقلال في ألمانيا، فنظم قصائد دعى فيها قومه لمقاومة نابليون وما زالت بعض هذه الاشعار مشهورة حتى يومنا هذا نظراً لما تذخر به من حب الشاعر لوطنه ونفوره من المعتدى الأجنبي ... وفي تلك الفترة قام روكرت بتأليف المسرحيات، مستمداً بعض مواضيعها من الأساطير الشرقية او حكايات ألف ليلة وليلة، ومع أنه كان لا يجيد على الاطلاق تأليف الروايات التمثيلية، لاسيا وأنها كانت تخرج من بين يديه خالية من الحياة فقيرة إلى القيم الجمالية، فانه لم يبرح التأليف في هذا اللون الأدبي طوال حياته حيث دون فيه ما دون، فن مسرحية دعاها «نابليون» الى موضوعات مأخوذة عن التوراة والتاريخ الألماني. وكانت آخر تجربة له في مجال التمثيلية ملهمة عن التاريخ الأرمي القديم ...

سافر روكرت الشاب على عادة معاصريه الى ايطاليا حيث اقام هناك لمدة من الزمان ولكنه لم يكن شغوفا بهذه المملكة كما أننا لا نعرف في كتبه على آثار لهذه السياحة الا في أشعار معدودة. ولكنه عند عودته الى الشمال زار مدينة فيينا التي عاش فيها «يوسف فون هامر - بورجستال» أستاذ اللغات الشرقية؛ وكان روكرت قد عزم على الالتحاق بالأكاديمية الاستشرقية في فيينا، عندما أشرف على التاسعة عشرة من

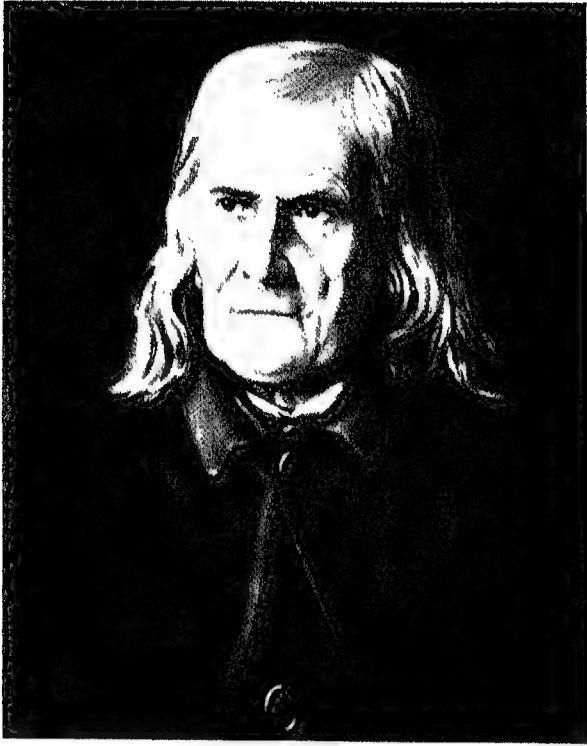
توفي الشاعر المستشرق فريدريش روكرت Friedrich Rückert منذ قرن واحد، او على وجه التحديد في ٣١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٦٦.

والحق انا لسنا ندرى أكانت عبقريته أكبر في مجال الشعر ام في مضمار اللغات الشرقية، ولعله مما يبحث على الأسف ان هذا العالم الفذ لم يحظ بتقدير مواطنيه فما زال الشعب الألماني يجهل حتى الآن الكثير من أعماله في حقل الاستشراق، خاصة وأنه كان ذا باع طويل في ترجمة الآداب الشرقية الى الألمانية حتى أنه ليس من اليسير حصر كل ما ألف من أشعاروما ترجم من أعمال. ولقد أقبل الشعب الألماني في القرن التاسع عشر على قراءة وترديد أشعار روكرت التي مجد فيها الأسره؛ ومن اشهرها بعض الأبيات العذبة التي كان يترنم بها الأطفال في المانيا الى يومنا هذا؛ كما ان لروكرت انتاج غزير من الأشعار الغرامية التي ألهم بعضها الموسيقار الموهوب «شوبرت» مما دفعه الى تصنيف ألحان لها. وعلى الرغم من ذلك لم يدرك الجمهور أن شاعره المحبوب كان في الوقت نفسه مترجما عبقرى الإلهاب، يندر أن يوجد مثله على مر العصور. ورغم كل هذا فأحيانا ما كان روكرت يشكو حاله بقوله :

لا يثير النفوس ما أوحىني به آلهة الشعر...

ولا يلتفت العلماء الى ما ألفت في مضمار اللغات ...

ولد فريدريش روكرت سنة ١٧٨٨ عن عائلة حاكم في مدينة «شفالينفورت» في شمالي بافاريا، وكثيراً ما وصف في اشعاره النهر والحقول والبساتين والغابات التي كان يلهو ويعدو فيها وهو طفل. وعندما شب درس اليونانية واللاتينية في جامعتي هايدلبرج وينا ودافع عن أطروحته في اللغات القديمة وفلسفة اللغة التي تقدم بها سنة ١٨١١؛ وقد انتهى في هذا البحث العلمي الى ان اللغة الألمانية تشتمل على إمكانيات سائر اللغات بأجمعها فتشكل بذلك اللغة المثلى التي في إمكانها أن تبنى خصائص كافة الألسن.



فريدريش روكرت في خريف عمره.



الشاعر فريدريش روكرت في شبابه
نقدم شكرنا لبنت حفيد روكرت، السيدة باربارة شوخس Barbara Schöx
في كراختنار التي قدمت لنا هذه الصورة التي لم يسبق نشرها.

ولما كان دخله كشاعر حر وعالم مستقل لم يكف لسد نفقات عائلته فقد اضطر لأن يبحث عن وظيفة معلم في مدرسة او مدرس جامعي على الرغم من أنه كان يكره تلقين الدروس. وبعد مدة عينته جامعة «إرلانجن» في بافاريا الشمالية أستاذا للغات الشرقية مع أن بعض أعضاء ذلك المعهد العلمي كانوا قد رفضوا تعيين رجل اشتهر كشاعر ولم ينشر مؤلفا ما في فقه اللغة ولا في تاريخ الشرق ... ظل روكرت في هذا المنصب الى أن دعاه الملك البروسي الى جامعة برلين سنة ١٨٤١؛ وكان جد سعيدا باقامته في مدينة ارلانجن وسط كتبه وبين عائلته، وقد ترجم في هذه السنوات قسماً كبيراً من الأشعار العربية المشهورة، ومنها اشعار الحماسة لأي تمام بكاملها فضلاً عن ترجماته عن الآداب الهندية والفارسية، وقد نظم آلاف الأشعار التي تدور حول تجاربه الذاتية وبستانه الذي كان مغرماً به وكل ما حدث في عائلته التي كان متفانيا في حبها (وتوجد له أكثر من مائة قصيدة قرضها في رثاء طفلين من أبنائه) كما نشر قصائد وحكايات منظومة استمد مواضيعها من كتب التاريخ الإسلامي. وقد جمع روكرت

عمره، ورد طلبه آنذاك لتجاوزه السن القانوني للقبول. وهنا يتعلم روكرت أصول العربية والفارسية في أسابيع قليلة على يدي الأستاذ هامر - بورجستال الذي أهده قبل مفارقتها خاتماً وبضعة كتب. من هنا تبدأ حياة روكرت الفعلية التي تجمع بين فنون الشعر وعلوم اللغة .. وهكذا أقام العالم عدة سنوات في مدينة صغيرة مكبا على نسخ ما جاءه من الكتب والمخطوطات الشرقية والاقتباس عنها؛ فقد كان فقيراً لا يستطيع ابتياع هذه الكتب الاستشرافية كلها، ومع أنه كان يشكو كونه «معزولاً عن اسواق العلوم الشرقية» فقد وضع في تلك الفترة أساساً متيناً لآثاره المستقبلية، ولم يكتف بنسخ الكتب بغاية الاجتهاد فحسب بل أضاف الى المتون ملاحظاته الشخصية وصحح أخطاءها كما ترجم ما استحسنته من كل المتون التي قرأها. وصاغ بقلمه أشعاراً على نمط اسلوب الشاعر المتصوف مولانا جلال الدين الرومي، وأخرى تعكس روح الحافظ الشيرازي، وأخذ يترجم القسم الأكبر من القرآن الكريم؛ وعندما نشر «سيلفستر ده ساسي» مقامات الحريري سنة ١٨٢٢ ترجمها روكرت ترجمة رائعة قريبة من الاعجاز ...



نشيد كلماته من تأليف الشاعر فريدرش روكرت (من ديوانه «ورود الشرق») وتلحين الموسيقار فرانس شوهرت (المتوفى عام ١٨٢٨)

التامل والملايالام، والبربرية، والأرناوتية، والفنلندية، والسورية، والأرامائية والحبشية، والقطبية ... وقد حكى احد ابناء روكرت أن أباه قد تعلم نحو الحمسين لغة. كما نثنين من مذكرات أولاده ومن أشعاره هو أن هذا العملاق كان إذا اراد درس لغة ما كرس لها نفسه لمدة لا تزيد على الستة او الثمانية أسابيع بحيث لا يلتفت في تلك الفترة الى اى لغة أخرى ويظل هكذا حتى يفهمها ويدرسها ويترجم عنها. وقد حدث ولده ان قساً سأل في شهر تموز (يوليو) ان يدرسه اللغة التاملية - وهي من اللغات الهندية الجنوبية الصعبة - وكان الأستاذ يجملها، ولكنه وعد الرجل أنه سوف يعلمه اللغة المذكورة في تشرين الثاني.. ولم يوجد عند روكرت سوى انجيلة مكتوبا بالتاملية ويضع ملاحظات قديمة لسائح اوروبي.. ووصف هو في شعر له كيف ابتدأ بدراسة هذه اللغة «بسم الله» باحثا عن اسم «الله» الذي لاشك انه موجود في الانجيل، وبعد أن عثر على الاسم العلي سهل عليه فهم كل ما حوله في المتن من «السموات والأرض» ... وهكذا

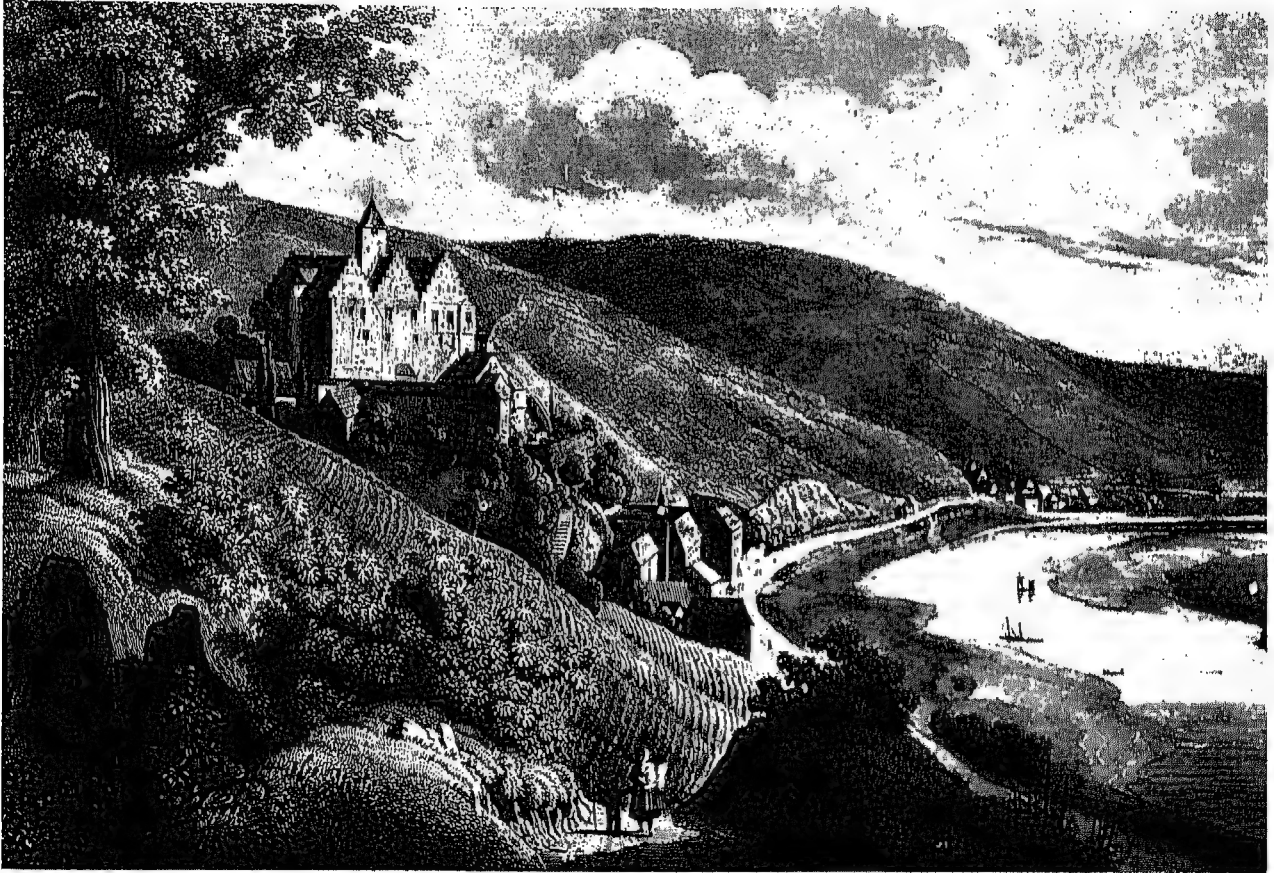
منها مجموعتين تحتويان على حكايات وأشعار حول الأحداث الهامة في تاريخ الاسلام، وعلى أجزاء من بعض رسائل الفلسفة والتصوف مصاغة كلها في لباس أشعار ألمانية رقيقة. ومن اطلع على هاتين المجموعتين الشعريتين وعنوانهما:

Sieben Bücher morgenländischer Sagen
und Geschichten;
Erbauliches und Beschauliches aus
dem Morgenlande

وجد فيهما مضمونا قويا في أبهى شكل وأبداع تصوير. كانت مكتبة روكرت شاملة على كتب في لغات بلا عدد، وقد وصفها الشاعر نفسه قائلا إنها تحوى مؤلفات باللغات التالية :-

اليونانية والألمانية واللاتينية والصقلية والرومانية والفارسية والسانسكريتية والتركية والعربية ...

وزد على ذلك مراجع أخرى بالعبرية والكردية والأرمنية والبشتو والفارسية القديمة، ولغات جنوبي الهندستان مثل



لودفيج ريشرت : قصر ماينبرج. Ludwig Richter: Schloß Mainberg.

وكثيرا ما كان روكرت يزور اهل هذا القصر القريب من موطنه.

نشكر السادة المشرفين على أرشيف فريديش وركرت، بمدينة شفاينفورت ومطبعة فرت بها لتصريحها لنا بنشر هذه الصورة.

راجيا ان يمتنع الطلاب عن الاشتراك في الدرس بعد أن جعل موعده قبل طلوع الشمس.

وكان لدى روكرت خاصية أخرى ألا وهي أنه لم يعن بأشكال الكلمات على ما ينبغي بل كان يقرأ بعضها ملحنا في التلفظ بها، وكان في شيخوخته قد نسي النطق الصحيح لعدد من الكلمات مع أنه كان يحفظها عن ظهر قلب

ويجيد كتابتها. ذلك أنه لم يسافر قط الى بلاد الشرق ولم يشاهد رجلا من العرب او الفرس او الهنود طوال عمره، وكان تعلمه قاصرا على الكتب وحدها ... واهتم روكرت بالدراسات اللغوية المقارنة كما هم بتأليف كتاب عن النحو المقارن للغات السامية حتى أنه قد تجاسر على المقارنة بين اللغات السامية والإندوجرمانية إلا أنه لم ينشر محصول بحثه ولم نر نحن معشر المستشرقين في هذه الابحاث فائدة علمية، بل نعتبرها ثمارا لشطحات الخيال الرومانتيكي.

اما روكرت فكان هدفه الأعلى من هذه البحوث غير علمي وهو البرهنة على أن اللغات كلها فروع من أصل واحد وأنه من عرف الكثير منها وجد مفتاحا الى قلوب الناس

تعلم التلمية واستطاع ان يعلمها في تشرين الثاني ...! وكان روكرت كلما درس لغة جديدة عاش فيها حتى أنه كان يتكلم بها في أحلامه على ما وصف هذا الحال في ابياته.

ولكنه من الغريب انه لم يكن معلما موهوبا فقد قصر عن فهم ما اعرض تلامذته من المشكلات، وحكى أحدهم وهو «باول ده لاجارد» أن روكرت لم يكن يدرس على الطريقة المعروفة التي تنهج الى توضيح المسائل من الوجهة اللغوية والنحوية كما كان لا يهتم بفقهاء اللغة كعلم مستقل، ولم يلحق تلامذته قواعد الصرف والنحو بل كان يشرح المتن لطلبته كما يبينه للأطفال عند بدء تعلمهم اللسان .. وبذلك كان يأخذ بيد التلميذ الى قلب اللغة ليتعرف على أسرارها وتوافق العبارات فيها وتشابك الكلمات. وأحيانا كان يترجم الشعر العربي او الفارسي الذي قرأه على طلبته ارتجالا في شكل منظوم .. وسعى روكرت الى الحلد من عدد ساعات محاضراته على قدر الامكان، حتى أنه أحيانا ما عين موقات بدء دروسه الجامعية في السادسة صباحا (١١)

فأقام روكرت لمدة سبع سنوات، ثم عاد متقاعدًا إلى موطنه البافاري عام ١٨٤٨، وعاش هناك وسط كتيبه في داره المحاطة بالبساتين إلى أن فاضت روحه في ٣١ يناير ١٨٦٦.

قال روكرت واصفا موهبته الخاصة أنه أحب اللغات في حد ذاتها وأنه يعجب ويسر باللغة كلغة؛ ولا نجد في الغرب شاعرا أقرب منه إلى روح الشرق. كما كان له استعداد فائق التعبير عن المفاهيم والمعاني، ومع تبحره في اللغات الشرقية كان ولوعا باللغة الألمانية التي تعمق فيها حتى ألم باشتقاقاتها الغائية؛ كما وضع ألفاظا لكل من الكلمات العربية أو الهندية التي لم يوجد مقابلا لها بالألمانية. وقال فيه أحد فقهاء اللغة «لو أن اللغة لم تكن موجودة في عصره لصارت لروكرت اليد الطولى في إيجادها وتشكيلها».

ومن الغريب أن روكرت لم يأت بالترجمة المنثورة، ولكنه كلما قرأ بيتا أو قطعة مسجعة ترجمها في الحال نظما أو سجعاً، ونعثر لذلك على تراجمه المنظومة في وسط المتون النحوية. وهو يعلق على ذلك بقوله :

«إن صنعة الترجمة هي ان ترى كيف تبدل أرواح المعاني في أثواب الكلمات».

وهو لم يعبر عن فكرة واحدة له بشكل منشور بل اعترف قائلا «إن الدنيا ليست عندي إلا مادة للشعر ...»

وكان فكره وشعره شيئا واحداً، فلم يفكر إلا وهو ينظم حتى وصف أبسط أحداث حياته في شكل رشيق، ومن ذلك أنه ألف ٣٨ قصيدة في حدث غير هام ألا وهو سقوط الثلج في أحد أيام نيسان وهو أمر نادر الحدوث في ألمانيا ...

ومن أقواله : «أن الدنيا تنعكس في بلور الشعر وتبهج به»، ولذلك لم يبرح يترنم بأبياته إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

ومن الطبيعي أن هذه الفعالية غير المحدودة انتجت أبياتا عديدة لا قيمة لها، وكثيرا ما ترجم هذا المستشرق الفحل بيتا واحدا مرتين أو أكثر وهو في ذلك يسخر من نفسه بقوله :

«.. وإن والد أشعاري

هو عدم الحافظة

وأما هي النسيان ...»

وكانت موهبته الشعرية مشابهة لموهبة شعراء الشرق إذ كان يحب اللعب اللفظي كما كان يرى

«أن اللغة في بدايتها كانت لعبا بالكلمات والمعاني

فدعنا نلعب نحن أيضا بها ...»

Ermutigung zur Uebersetzung der Hamäsa.

(1828.)

Die Poesie in allen ihren Zungen
ist dem Gewelkten Eine Sprache nur,
Die Sprache, die im Paradies erklingen,
ob sie verwildert auf der wilden Flur.
Doch wo sie nun auch sei hervorgebrungen,
von ihrem Ursprung trägt sie noch die Spur;
Und ob sie dumpf im Wüstenluftwind stöhne,
es sind auch hier des Paradieses Töne.

Die Poesie hat hier ein dürftiges Leben,
bei dürftigen Herzen im entbrannten Sand,
Mit Blüthenschmuck und Schattenduft umgeben,
mit Abendthau gelöscht den Mittagbrand,
Versöhnt, versöhnt ein leidenschaftlich Streben
durchs Hochgefühl von Sprache und Stamminverband,
Und in das Schlachtgeräusch Liebe selbst gewoben,
die hier auch ist, wie überall, von Oben.

مصحف انشد فيها روكرت قصيدة موحية صدر بها ترجمته الألمانية لكتاب الحماسة.

واستطاع ادراك الوحدة الأصلية للبشرية، تلك الوحدة الكامنة تحت ستار اللهجات المختلفة؛ وكان مقتنعا بأن اللغات لا تعدو في مختلف اشكالها ان تكون إفصاحا عن الروح الالهية المطلقة (الواحدة) التي تنعكس فيها على وجه ثلاثي : في الفرع السامي للغات وفي الفرع الاندوجروماني وأما الفرع الثالث فيشتمل على كل ما تبقى من الألسنة، من الصينية إلى لهجات القوقازيين. ولا شك إن هذه الأفكار لا أساس لها من الواقع ولكنها بنت التخيلات التي كانت سائدة في ذلك العصر في ألمانيا، ومع ذلك فهي تدل على مقصد روكرت الأسمى وهدفه الأعلى وهو أن يثبت بواسطة بحوثه العلمية وتراجمه الشعرية عن اللغات الأجنبية وحدة الاحساس عند كافة الأقوام، وأن يبرهن بذلك على أن العشق هو هو في الأقاليم السبعة وفي قديم الزمان وحديثه ولذلك كتب عند ترجمته لأشعار «الحماسة» أبياته العجيبة القائلة :

إن الشعر في اللغات جميعها

لغة واحدة لدى العارفين ...

كل ذلك وهو أستاذ في جامعة إرلانجن. اما في برلين

ذكرت لك واختلي يفتير بيننا

وقد تهلت منا المقتفة السمر

فوالله ما ادرى ولتى لصادق

اداء عرائ من حبايك ام سيحر

فان كان سيحرا فاعثري على الهوى

وان كان داء غيره فلك المله

قال بلعاء بن قيس الكنانى

وفارسى في غبار الموت منفتيس

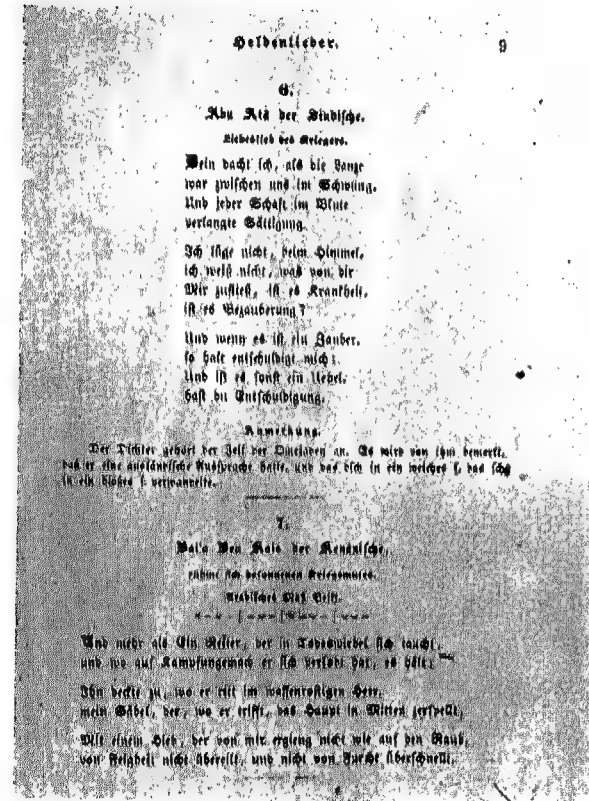
إذا تالتى على مكروهة صدقتا

غشيتته وهو في جأراء باسلة

غشيتا اصاب سواه الرأس فانفتقا

بضربة لم تكن ميتى مخالسة

ولا تمجلتها جتبا ولا فرتا



صهيفة من ترجمة روكرت لكتاب الحاسة، تحتوي على قصيدتين عرييتين حيث يرى القارئ ان المترجم قد وفق كل التوفيق في محافظته على روح النص حتى انه ابداع في محاكاة بحر البسيط في ترجمته.

على العموم والألمان على الخصوص يعرفون الشعر ذا القافية الواحدة فان الشعر الألماني أقرب الى الموشح او المربع او المسدس الخ. وجليد بالذكر أن القافية في اللغة الألمانية لا تشكل بحرف واحد بل هي مركبة من تكرار مقاطع معينة من الكلمة او من كلمات كاملة ذات وقع واحد. اما المستشرقون فعندما عثروا على هذا الطرز في الآداب الاسلامية ظنوا أنه غير قابل للتطبيق في اللغة الألمانية لأنها «فقيرة في القوافي» وأن استعمال كلمات مقفاة بقافية واحدة

سيكون مطرد النغم، قبيح الصوت، صعب الفهم... ولكن روكرت بين ان تطبيق هذا اللون الشعري في اللغة الألمانية ممكن كل الامكان، فأعتبرت غزلياته هذه مثالا في الجمال والرشاقة، وهي خفيفة القافية، حلوة الصوت والايقاع، عميقة الأفكار... ولم يلبث روكرت وصديقه «بلاتن» يستعملان طرز «الغزل» الوحيد القافية في أشعارهم حتى أخذوا عنهما شعراء آخرون وصار بذلك أسلوبا معروفا في الغرب أثناء اواسط القرن التاسع عشر.

أما قصائد روكرت التي نشرها تحت اسم المتصوف الاسلامي فلم تكن بمشابة التراجم الحرفية بل هي ملهمة من تراجم الأستاذ هامر - بورجستال التي نشرها في كتابه

لم يكن روكرت شاعرا رومانتيكيا يذوب في غرام لانهاى او يريد الحصول على الكواكب الدرية لينثرها تحت قدمي معشوقته بل كانت فنون الشعر في اعتقاده لعبا روحانيا ظريفا بديعا حتى انه يقول في بعض أبياته :

«الشاعر مثله كالبهلوان يمشى على حبال الكلام...»

وان هذا الاستعداد الاكروباى هو الذى مكنه من تراجمه الفائقة التي لا شبهة لها في الدنيا بأسرها .

والآن فلنجمع أطراف فعالية روكرت في حوزة الآداب الفارسية والعربية ولنضع تراجمه من اللغات الهندية وإن كان عددها أكبر من تراجمه كلها عن اللغات الاسلامية، فهي تعد بالآف. ولا نذكر كذلك أبياته المأخوذة من ترجمة لاتينية للشاعر الصينية القديمة ..

وصف روكرت الشعر العربى والفارسى بأنهما معشوقاته الجميلتان وفي الحقيقة أنه كان لهما عاشقا صادقا من أول حياته الى آخرها ! كان اول ما نشره روكرت في حوزة الاستشراق مجموعة صغيرة سماها «من ديوان مولانا جلال الدين الرومى» (١٨١٩) وأدخل في هذه الأشعار النفيسة طرز الغزل في الآداب الألمانية، ولم يكن الشعراء الاوروبيون

«تاريخ الآداب الفارسية» وكان قد اعطاه لتلميذه هذا اثناء إقامته في فينا. ومع ذلك تعكس أشعار روكرت روح مولانا الروى بكمال الصداقة ولم تزل تعتبر أجمل مرآة في الغرب لأفكار هذا الصوفي العظيم وإن كان الكثير من المستشرقين وغيرهم من أهل العلم قد قاموا بترجمة بعض آثاره. وكان روكرت على حق إذ أشار في أول هذه الغزليات الى معشوق مولانا جلال الدين وهو شمس الدين التبريزي المذكور اسمه في كل من أشعار الروى :

«النور في المشرق، وانا في المغرب

مثل جبل ينعكس على ذروته الضياء

إننى القمر الأشهب لشمس الجحمال

فاصرف عني النظر، وانظر الى وجه الشمس ...»

وقد عني روكرت في الوقت نفسه بأشعار حافظ الشيرازي وكان إذ ذاك تأثير حافظ على شاعرنا جوته قد أتى بثمرة بدیعة تمثلت في ديوانه «الغربي - الشرقي». وقصد المستشرق الشاعر كذلك الى تأليف رسالة شعرية في هذا الطرز إلا أنه علق أهمية كبرى على الخصائص الجمالية في الأسلوب الفارسي حتى أنه قام بتقليد الجناس واللعب اللفظي وكتب الى ناشر كتبه قائلاً :

«إنه من استوعب الروح الموجودة في أشعار جوته والشكل الظاهري في مؤلفي هذا وأضاف الى هذين الجوهرين الكتلة الجسمانية كما توجد في آثار هامر عسى أن يستطيع ادراك ماهية الشعر الفارسي دون أن يعرف الفارسية.»

وكان كتيب روكرت المدعو «ورود شرقية» (صدر سنة ١٨٢١، Östliche Rosen) يحتوي على أشعار رائعة البهاء بيد أن الشاعر كان يستعمل فيها ألعاب لفظية وقواف غير مألوفة، ورغم ذلك فإن القارئ الألماني لا يستغرب هذا الطرز بل أنه يبهج لحسن الإيقاع وسهولة النغمات، وليس من العجيب أن جوته الذي - مع كل ميله الى حافظ الشيرازي - لم يستحسن تقليد الغربيين للأشكال الشرقية كان قد نصح أهل الموسيقى أن يضعوا ألساناً لهذه الأبيات التي تبعث على الغناء ... بعد نشر كتابه هذا بأربع سنوات طبع روكرت بعض تراجمه لرباعيات حافظ، واستنسخ متن ديوانه كله، ونفهم من عدة أبيات في الدفتر المسمى «يوميات شاعرية» أن الشاعر الفريد الإيراني لم يزل صديقه الروحاني حتى في شيخوخته، ولكن لم يكن أحد من زملائه على علم أن روكرت كان قد ترجم قسمًا

غير صغير من ديوان حافظ الى ان نشر تلميذ له وهو «لاجارد» الآنف ذكره سنة ١٨٧٧ (اي إحدى عشر سنة بعد وفاة أستاذه) ٤٢ من الغزليات رويها من الرأى الى الياء و٢٨ رباعيا كان روكرت قد اهداها اياه سنة ١٨٤٧، وقد عثر الدكتور «كراينبورج» Kreyenborg على بواقى هذه الترجمة وهي ٨٥ شعرا رويها من الألف الى الدال، ونشرها سنة ١٩٢٦، وتعتبر هذه الترجمة قمة في الصدق والروعة والجحمال وليتها جمعت في ديوان واحد بدلا من كونها الآن متناثرة يصعب العثور عليها في المكتبات ...

كانت عادة روكرت أنه اذا اشتغل بآثار شاعر قام أولا بنظم شعر مستقل ملهم من أفكار الأديب الشرقي ثم تعهد بترجمة حقيقية صادقة لكلمات الأصل وكذا لروحه. نشاهد هذه العادة ايضا في معاملته للفردوسي الشاعر الجليل الإيراني. كان «لومسدن» احد المستشرقين الانكليز قد نشر متن الأسطورة المنظومة «شاه نامه» اي كتاب الملوك سنة ١٨١١، ورأى فيها الأديب الألماني «جورس» Görres افادة كاملة عن إحساسه الرومانتيكي فحكى قصص «شاه نامه» في شكل منشور ونشر كتابه الذي لا قيمة له من الوجهة العلمية سنة ١٨٢٠. اما روكرت فحقق متن هذا المؤلف الضخم ذى الستين الف بيت من الشعر ورغب في نشره، ولكنه قد سبقه في هذا المضمار المستشرق الفرنسي «مول» Mohl الا ان روكرت قد انتقد هذه الطبعة المليئة بالأخطاء انتقادا شديدا، الأمر الذي نستدل منه على تعمقه في هذه المادة، ومن بين تراثه العلمي آلاف الأوراق الحاوية على حواش وملاحظات خاصة بأسلوب «شاه نامه» ولغته.

ألف روكرت عند أول اطلاعه على هذا الكتاب أقصوصة منظومة تعالج قتال رستم وسهراب وهي المقطوعة الشهيرة في «شاه نامه» حيث يروى فيها الشاعر كيف قاتل الوالد ولده دون أن يعرف أحدهما الآخر. واعتبر روكرت نظمه هذا أحسن شعر ألفه كما رأى أنه جدير بأن يهدى الى روح جوته ... لكن القراء الألمان لم يهتموا بهذا المؤلف الحزين، ولم يشعر احد بأن روكرت في الوقت نفسه قد قام بترجمة كاملة لشاه نامه بأسره ... وظلت هذه الترجمة العظيمة المنظومة التي لا تخلو من فائدة نحوية ولغوية كما أنها ذات روعة جمالية بتقليدها للأسلوب الشعري الألماني القديم مخفية وراء أوراق الشاعر حتى أنها لم تطبع الا بعد ٣٠ سنة من وفاته ...

ولا غرو أن يلتفت روكرت الى الشاعر الإيراني الذي كان واسع الشهرة حتى في الغرب منذ ثلاثة قرؤن وهو الشيخ

سعدى الشيرازى الذى ترجم كتابه المشهور بعنوان «كلستان» (روضة الورد) السائح الألماني آدم «أولياريوس» سنة ١٦٥٣، والذي قدر شعراء الغرب وإدباؤه أشعاره الأخلاقية غاية التقدير. وكثيرا ما نصادف في أشعار روكرت بعض الاشارات لأفكار الشيخ سعدى لأنه كان يجب النصيحة في لباس شعري ... ولكن اشتغاله العلمى بآثار هذا الأديب لم يبتدئ الا بعد رجوعه من جامعة برلين متقاعدا، اى سنة ١٨٤٨ او ١٨٤٩. ولكنه فاتته الفرصة لنشر تراجمه وشكى ان مؤلفه الكامل يستره الغبار ... وكان من سوء حظله انه كان قد طبع في هذه السنوات عدد من تراجم جديدة جميلة ولو كانت غير علمية لأشعار سعدى ورسائله، اما مترجمات روكرت فظلت مجهولة لم تمثل للطبع الا بعد عام ١٨٩٠، وهى مقطوعات من كلستان، وترجمة منظومة جميلة لشعر «بوستان» وعدد جدير بالذكر من «صاحبنامه» والمدائح والمراثى وديوانه الحافل بالخواشى التاريخية المفيدة؛ لأن المترجم قد عرف أن القارئ الغربى لا يستطيع فهم الايماءات والتلميحات دون معرفة الوضع السياسى فى القرن الثالث عشر.

وكان روكرت قد عثر على ديوان مولانا جامى (المتوفى عام ١٤٩٥) سنة ١٨٣١ واستنسخ منه عددا لا يستهان به من الأبيات بعد أن نقل بعض الأساطير الصغيرة للشاعر الهروى فيما قبل. ووجد في أبيات هذا الشاعر ظرافة بديعة ورشاقة طريفة تتوافق واستعداده هو، ولذلك نشر ترجمة لها في مجلة جمعية المستشرقين الألمان، ويحس القارئ أنه قد بذل جهده في تقليد أعجب تشاكلات الأسلوب وفي ايجاد رموز غير معروفة وتلميحات غير مألوقة، كما عبر عن مقصده في الشعر الذى أضفاه الى ترجمته هذه :

«لأننى قد اصطدت غزال المسك الذى علفته الرائحة في مروج إيران، فأحضرتة في زناجير الايقاع الوطنى وسلاسل الألحان المستأنسة لأعرضه هنا».

توجد في تراجم روكرت أسماء شعراء فارسيين أخرى، مثل نظامى الذى نشر مستشرقنا بعض الابواب من «إسكندرنامه» في شكل منظوم، ثم مقطوعات من آثار فريد الدين عطار، وقصيدة لأنورى، وبضع رباعيات لعمر نيام، وهولم يهمل الشعر الشعبى الفارسى. وكل ما ترجمه قريب من الأصل في الايقاع وفى الكلمات الا أن الترجمة أحيانا ما كانت تفوق الأصل جمالا وعدوبة.

والكتاب الوحيد الذى نقله شاعرنا العبقري منشورا هو كتاب في علم المعانى، اى الدفتر السابع لـ «هفت قلزم» (البحور السبعة) الذى كان قد طبع في لكهنؤ فى الهند سنة ١٨٢١، ودعا هامر - بورجستال تلميذه السابق للاشتغال بهذا المصنف المحتوى على كل الفنون من البديع والمعميات وما يختص به الشعر الفارسى وبالأخص السبك الهندى من المشكلات اللغوية. وكان هذا العمل متفقا واستعداد روكرت «الأكروبانى» للعب بالألفاظ وصارت ترجمته هذه مع حواشيا والإيضاحات الطويلة مرجعا قيما لكل من أراد فهم البلاغة الفارسية على ما ينبغى. ونشاهد في هذا المصنف أن لروكرت موهبة خاصة لإيضاح مسائل معقدة في أسلوب خفيف مزين بعبارات باسمة وتلميحات فكهة، وإن اطلعنا عليها زادنا أسفا أن روكرت لم يجمع معلوماته الفاتحة في مضمار الآداب الشرقية في تصنيف يشتمل على تاريخ الآداب من الوجهة الجمالية.

هذا ما ورثناه في مضمار الآداب الفارسية من فريدريش روكرت الذى لا مثيل له في فن الترجمة المنظومة لا في عصره ولا في أيامنا هذه ... أما تراجمه عن اللغة العربية، وإن كان قسم مهم منها يكاد أن يكون مجهولا حتى لدى المتخصصين، فهى أكمل من عمله المذكور وأعجب، فان الترجمة عن الفارسية سهلة على الألمان نسبيا من الترجمة عن العربية.

كان روكرت اثناء دراساته خاصة في أوائل أمره يشتغل بدراسة القرآن الكريم، وقد نشر بعض آياته في ترجمة جميلة في إحدى المجموعات الأدبية الألمانية سنة ١٨٢٤. وكان يسعى عام ١٨٤٢ الى طبع الترجمة بأسرها ولم يوفق في ذلك وهكذا بقيت على حالها حتى نشرها المستشرق «أوجوست مولر» بعد وفاة المترجم باثنى وعشرين سنة؛ وقد ذكر في مقدمته أنه لا يوجد في الدنيا من استطاع القيام بترجمة مساوية لتصنيف روكرت هذا، مع أن شاعرنا لم ينقل متن كتاب الله بتمامه بل اكتفى بترجمة نحو ثلاثة أرباعه، وحافظ في الصياغة الألمانية على الأسلوب الخاص للقرآن الى حد ما وإن لم يتبع النص الأصلى كلمة بكلمة. ويقال بلا مبالغة أن هذه الترجمة أقرب الى الجمال الإعجازى لألفاظ القرآن من كل التراجم التى صدرت في أوروبا. وبجانب ذلك انتخب الشاعر بضع آيات وصنف منها أشعارا وأمثالا وأبياتا ألمانية.

صيفة من مخطوطة لترجمة روكرت للقرآن (سورة البقرة).

وهى محفوظة في مجلات مدينة شفاينفورت، مسقط رأس الشاعر المترجم.

وفي الفترة نفسها لفت روكرت اهتمامه الى مقامات الحريري التي نشرها «سيلفسترده ساسي» في باريس عام ١٨٢٢. وكل ناطق بالضاد يعلم أن هذا المصنف من نوادر الآداب العربية التي لم يسبقها يراع شاعر مثله، وأنه شبيه بفؤارة مشعشة من الألفاظ، إذ «لم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله». وكان المستشرق الفلمنكي «جوليوس» (المتوفى ١٦٦٧) قد اشتغل لأول مرة بهذه المقامات، وكذلك نشر «ألبرت شولتنس» في جامعة ليدن مقامة أخرى، وترجم يوهان يعقوب رايسكه المقامة السادسة والعشرين عام ١٧٣٧. ثم نجد ترجمة للمقامة الثامنة بقلم «الكونت رزويسكي» والمقامة الثانية عشر بقلم الدكتور «بيساني» وكلاهما نشر في مجلة «معادن الشرق» في فينا. ولكن لم يكن لهذه التجارب قيمة علمية لأن مؤلفوها لم يستندوا الى متن عربي يوثق به. لذلك اهتم الأستاذ «سيلفسترده ساسي» الفرنسي بنشر النص الصحيح مستفيداً من مخطوطات شتى ومن المتن المطبوع في كالكوئا بين عامي ١٨٠٩ و ١٨١٤. وصدر متنه سنة ١٨٢٢ بعد أن أخذ مواطن الأستاذ الكبير «كوسين ده برسه فال» على عاتقه إصدار المقامات في طبعة جديدة عام ١٨١٨. ويعد هذا التحقيق العلمي الذي يحتوي على ٦٦٦ صحيفة وهزمزود بحواش عديدة مرجعاً معترفاً به.

أما روكرت فكان إذ ذاك يعيش منزوياً في قريته البافارية حيث اشترى هذا الكتاب الثمين على رغم ثمنه الهائل وفقره هو المدقع ... وبعد عامين تجراً على نشر ثمانى مقامات في ترجمة ألمانية تعد في مرتبة الاعجاز: قلد فيها أجناس الجناس والتجنيس من جناس لاحق وجناس زائد وتجنيس الإشارة وحافظ على ألعاب الألفاظ وعلى العبارات الشاذة، وإن أصاب في متن الحريري عبارات لا يمكن نقلها الى الألمانية كلمة بكلمة فقد ابدع هو في لغتنا الألمانية ما يشبه المعنى الاصلى ويظهر من الفنون ما يحير العقول، ويسلم كل من أجاد اللسانين العربي والألماني أن المقامات الألمانية أكثر صنعة وابدع من أصلها العربي ... فلنعطى مثالا لطريقة روكرت في ترجمته: في المقامة الطيبية حيث يعالج الحريري مسائل فقهية كل منها مبهم مزدوج المعنى اخترع روكرت مثلها في الألمانية، مثل:

Ist ein Gelddieb, wer eine Katze stahl? — Ja, eine gespickte zumal.

ومقابل ذلك بالعربية: «هل يعتبر سارق هرة سارق مال؟ — أجل، وبالأخصه إن كانت الهرة محشوة بالسمن».

ولكن المراد من «هرة» هنا «صرة» وهذا معلوم في اللهجات الألمانية القديمة، و gespickt محشو بالسمن هو الحيوان النحيف الذي يحشى قبل ان يشوى ومعناه ايضاً «الصرة المملوءة بالدراهم...»

وعلى هذا الطرز ترجم شاعرنا المستشرق المقامات كلها الا اربعاً او خمساً، وزاد فيها ملاحظات وحواشياً مأخوذة من المراجع العربية، فنتعلم من ترجمته هذه كثيراً من عادات العرب ومن أمثالهم المأثورة، وهي في الوقت نفسه مفيدة لمن قصد التحقق في الكلمات الألمانية النادرة والعبارات الصائبة والمعميات الغربية، وإن قرأها وداومت على الاطلاع عليها انشرح صدرك وانبسط قلبك وسبحان من أنعم على شاعر ألماني بهذه الموهبة الفريدة! وعندما اطلع «سيلفسترده ساسي» على ترجمة روكرت لمصنفه المذكور اثني عليه عاطر الثناء قائلاً:

«بفضلكم صار لا ينبغي على من عرف اللغة الألمانية أن يتعلم العربية كي يتمكن من الإدراك الصحيح لكل ما يوجد من الآثار الشرقية من هذا اللون الأدبي!»

ومما يجدر بالذكر أن روكرت في تراجمه كلها افتقر الى قواميس جيدة للغات الشرقية، لأنه لم يوجد في ذلك العصر معجم كاف للغة الفارسية ولا للعربية، وكان المستشرق مجبوراً على استنساخ بعض القواميس الموجودة (كما فعل نفس الشيء بالجلدين الضخمين السانسكرتيين...) مضيفاً اليها ما وجدته من العبارات والمعاني في اثناء درسه دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين، فيصعب علينا ان نعلم كيف أمكن روكرت على الرغم من كل هذا القسط العلمي لإكمال تراجمه الرائعة التي لم يتجرأ على مثلها أحد منا نحن معشر المستشرقين المعاصرين مع وفرة القواميس وكثرة الكتب النحوية في الغرب!

وأضاف روكرت بعد مدة قصيرة جوهراً جديداً الى ذخيرة العلوم وهو ترجمته لحماسة أبي تمام. طلب الى ناشر كتبه إصدار هذا المؤلف سنة ١٨٣١؛ ثم أراد قبل نشره تحقيق المتن المنشور على يد المستشرق «فرايتاج» Freytag أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة بون، ولذلك تأخر نشر هذا التصنيف الى أن لاحت له الفرصة للطبع عام ١٨٤٦. وصف هامر — بورجستال هذه الترجمة في تقريره «كولد عملاق مولود من الاجتهاد الإستشراق وآلهة الشعر الألمانية» ونعترف أنه لا يسهل على قارئ غير واقف على أصول العربية تقدير هذه الأشعار الألمانية مع أنها كانت (او قل بالاحرى: لأنها كانت) امينة النقل للأصل العربي أمانة كاملة، لم يهمل المترجم فيها تشبيهاً غريباً ولا يحل

Die geliebte Girt.

(Dinan XXVII, 1-2-19.)

(Krafft'sche Map Müller's (b).)

O Gareth Wen Amru, ich bin wie berauscht,
Der Mann überall ist vom Schicksal belauscht.
Auf Herzen der Männer macht Jagd mit dem Pfeil
Die Girt, und entgangen ist Hoo'scher mit Geil.
Sie hat mit dem Pfeile das Herz mir versetzt
Am Morgen des Abschieds, ich war unbewusst.
Da rollten die Thränen mir über die Wang,
Mäule ausgegangener Perlen ein Strang.
Die zarte, die weiche, die schmelzige nicht,
Wie Zweige von Myrobalanen geknickt.
Erschlaffend im Aufstehn und stockend im Wort
Ihr Racheln erschließt eine glänzende Wort.
Alle wäre der Wein, und von Wolken die Flut
Und Sauch der Wälen und Moeglut.
Demüth um den felschen, den duffigen Bachn,
Zur Stunde, wann anflut den Morgen der Sachn.
Ich habe die längste der Nächte durchwacht,
Und Furcht hat das Herz mir schaudern gemacht.

وهير تصيد قلوب الرجال
وافلت منها ابن عمرو حُر
رمتني بسهم أصاب الفؤاد
غداة الرّحيل فلم انتصير
فأسبل دمي كفص الجثمان
أو الدّر رقراقه المبتحدر
بترهته رخصة رودة
كخرطوبة ألبانة المنفطر
فتور القيام قطع الكلا
م تفتّر عن ذي غروب خير
كان المدام وصوب النمام
وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برّد أنيابها
إذا طرب الطائر المستحير
فبيت أكابد ليل التما
م والقلوب من خشية متشتير

صحيفة من ترجمة لإحدى قصائد امرؤ القيس مرفق بها الأصل العربي لهذه القصيدة، وكان المترجم قد ابدع في محاكاة بحر المتقارب في ترجمته الألمانية.

لم يحصل روكرت لترجمته هذه التي تشتمل على نحو ألف قصيدة وقطعة ما كان يتوقعه من مدح زملائه ولا من ثناء الجلم الغفير من القراء لأن الموضوع كان خشنا غير مألوف لم يتذوقه الا من جد في قراءته وصبر على مطالعته. ولسنا ندرى متى قام روكرت بترجمة الأمثال العربية الألف والستمائة التي ظلت غير مطبوعة حتى الآن، وليس من المعلوم كذلك متى اشتغل بترجمة بضعة المعلقات التي نشرت سنة ١٨٧٧ في مذكرات تلميذه «لاجارد»، ومن الممكن ان تكون قد دونت قبل عام ١٨٤٧ حين زاره تلميذه المذكور. فمن بينها معلقة طرفة ومعلقة عمرو، وهناك أيضا ترجمة عبقرية لمعلقة زهير. ولو سأل القارئ الصابر هل من مزيد؟ قدمنا اليه قصيدة «بانث سعاد» المشهورة لكعب بن زهير في ترجمة الأستاذ الكبير، ترجمة تليق بهذه القصيدة المؤثرة. وبين أوراق الشاعر المستشرق قصيدة أخرى اشتهرت في الشرق والغرب معا وسعى في ترجمتها الكثير من المستشرقين الألمان في القرن الماضي منهم كوسه جارتن Kosegarten وفايل Weil وهامر ورويس Reuss وغيرهم؛ وهي لامية العرب لشنفرى. اما ترجمة روكرت لهذا الشعر العظيم فهي عندنا

عقود الجمل المتشابكة، وأحيانا ما كان يسعى في المحافظة على الوزن العربي فترجم ما ترجم في بحر البسيط او الطويل او الوافر، او، إن لم يكن ذلك مستطاعا لأسباب جالية، تبنى وزنا قريبا من البحر الأصلي. وزاد ذلك في صعوبة فهم الأشعار، اما القارئ الألماني غير المتخصص فربما يأخذ العجاء بإزاء تلك الأسماء الغريبة وصفات الحيول وأنساب الإبل ... أما المستشرق فيصاب بالحيرة والعجب لهذه الترجمة الفريدة التي علق روكرت عليها من الحواشي ما يمكن جعله موسوعة خاصة لتاريخ العرب وآدابهم في القرون الأولى للهجرة. وما كان مقصد المترجم من هذا المصنف الشامل على مجلدين ضخمين الا القيام بالبرهان القاطع على أن سكان العالم بأسرهم متشابهون في الفضائل والهمم العالية، وقصد الشاعر أن يعرض أمام شعبه الألماني صورة من الأفكار والأحاسيس التي كان الشعب العربي يميز بها قبل ألف سنة أو أكثر، وهي العشق والحماسة والحلم والإكرام الضيف ... وعبر عن هدفه هذا في شعر تمهيدى لترجمته يعبر فيه عن عقيدته في أن الشعر في كافة اللغات لسان واحد منشأه الحقيقي الجنة قبل ان تفرق الأقوام وتختلط الألسنة ...

أنه لفت اهتمامه الى آثار عمر بن أبي ربيعة وأحضر
ترجمة لأبياته الغرامية، (مازالت بدورها غير كاملة ولا
مطبوعة) ولم يهمل قصة عنتره بن شداد ...

وعسى ان يفهم القارئ سعة عبقرية روكرت من هذه
الأسطر القليلة التي لم يذكر فيها ما فعل في حوزة اللغات
الهندية وهي آلاف من الصحف من السانسكرتية واللغات
الشعبية الهندية او الصينية او ترجمته لأجزاء من التوراة.

توفى روكرت وهو يقارب الثمانين من عمره، وكان بلغ
منه التعب والارهاق حداً بليغاً بعد حياة حافلة أطفالاً فيها
جذوة يومه وأحرق فحمة ليله في العمل، على ما قاله
زهير :

سثمت تكاليف الحياة ومن يعيش
ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

Ich bin der Lebensmühsal geworden satt, und wer
Gelebt hat achtzig Jahre, o glaub mir, satt wird der!

اشتاق الى الراحة الأبدية والى الرجوع الى بلاد الحب
الأزلى الذى لم يشك أبداً في وجوده، وهكذا عاد شاعرنا
الى منشأ اللغات السابوى والى منبع الشعر السمردى ...

Sagt meinen Brüdern, die mich Toten sehen:
Ich bin nicht dieser Tote, den ihr seht.
Ich bin der Vogel, und der Käfig das,
Dem ich entfloge und der nun öde steht.
Ich bin der Schatz, und mein Verschluss ist hin
In Staub, da auf nun die Verklärung geht.
Ich danke Gott, daß er mich frei gemacht
Und meine Wohnung hat zu sich erhöht!

أحسن ما كتبه في حوزة الشعر العربى القديم، ولا أظن
أن أحداً فاقه في وصفه للذئاب الجائعة، وإن كانت
ترجمته للمعلقات كلها جميلة رشيقة وأحياناً ما كانت أحسن
من الأصل، وكأنها كانت في الأصل شعراً ألمانيا لأحد
فحول الكتاب. ولكن لم تنشر هذه القصائد الا بعد وفاته
هذا المستشرق بكثير، ولم ير هو منها في شكل مطبوع
الا واحدة ألا وهي ترجمته لديوان امرؤ القيس الى
نشرت سنة ١٨٤٣ عندما كان روكرت استاذاً في برلين
واستفاد في إحضاره من المتن المطبوع ومن مخطوطة
محفوظة في مكتبة مدينة جوتا، وألحق بترجمته هذه الحواشي
المأخوذة من كتاب الأغاني وتاريخ أبى الفداء، ونعجب
مرة أخرى لسهولة ترجمته وعدوبة أسلوبه في نقل هذه
الأشعار، وكل هذه التراجم من الشعر العربى القديم وهي
التي لا يشق لها غبار. زد على هذا كله أن مستشرقنا
الشاعر ترجم ماترجم من الأشعار الموجودة في كتب
المؤرخين العرب مثلاً الأبيات المروية في وفيات الأعيان
لابن خلكان (وهي لم تنشر كذلك بل ما زالت محفوظة
بخطه الصغير المطموس ضمن تركته العلمية وهي في
انتظار من يرفع عنها ستار النسيان) والأشعار في المجموعة
المدونة بقلم العالم الألماني «كوسه جارتين»؛ ومن الطبعي

١٨٠٣-٣٦
Sagt meinen Brüdern, die mich Toten sehen:
Ich bin nicht dieser Tote, den ihr seht.
Ich bin der Vogel, und der Käfig das,
Dem ich entfloge und der nun öde steht.
Ich bin der Schatz, und mein Verschluss ist hin
In Staub, da auf nun die Verklärung geht.
Ich danke Gott, daß er mich frei gemacht
Und meine Wohnung hat zu sich erhöht!

قل لأخوانى رؤى ميتاً ليس هذا الميت والله أنا
أنا مصفون وهذا قفصى طرقت منه وبقي لى رحنا
أنا كمن وجاى طلسم من تراب قد تجلى بالفتا
أحمد الله الذى خلصنى ومعنى لى فى السالى ولما

ترجمة روكرت لشعر عربى، محفوظة في سجلات مدينة شفاينفورت التي
صرحت لنا بنشر هذا الشعر الذى لم يسبق نشرها.

عن ترجمة فريدريش روكرت ملقومات الحريري

DIE BEIDEN GULDEN

المقامة الدينارية

Mich hielt mit frohen Genossen — ein trauter Kreis umschlossen, — von welchem eingeschlossen war Geselligkeit — und Gefälligkeit — und ausgeschlossen Mißhelligkeit. — Und während wir nun die Fäden der Reden hin und wider spielten — und im Schwanken der Gedanken uns unterhielten — mit Gedichten — und Berichten — und Geschichten; — trat herein ein Mann mit gebrechlichem Mantel — und schwächlichem Wandel, — der den einen Fuß schleifte — und auf einen Stab sich stiefte; — der sprach: O ihr köstlichen Steine der Schreine! — o ihr tröstlichen Scheine der Reine! — Froh gehen euch auf die Tage — und unter ohne Klage! — Freundlich weck' euch der Frühschein, — und lieblich schmeck' euch der Frühwein! — Seht einen Mann, der einst besessen — Haus und Hof, Esser und Essen, — Weiden und Weidende, — Kleider und zu Kleidende; — Gabe, zu schenken, — Labe, zu tränken, — Äcker und Äste, — Feste und Gäste. — Doch es stob der Sturm des Leides, — und es grub der Wurm des Neides, — und der Einfall der Unfälle, — brach über des Glückes Schwelle; — bis mein Hof leer ward — und dünne mein Heer ward, — mein Brunnen erschöpft, — mein Wipfel geköpft, — mein Lager staubig, — mein Barthaar straubig, — mein Gesinde murrend, — meine Hunde knurrend; — im Stalle kein Rossegestampfe, — in der Halle kein Feuersdampf; — daß mir der Neider — ward zum Mitleider, — und der Schadenfroh — vor meinem Schaden floh. — In des Unglücks Klammer, — in der Armut Jammer — ward unser Schuh die Schwiel' am Fuß — und unsre Speise der Verdruß. — Wir schnürten knapp den Leib zusammen, — um zu ersticken des Hungers Flammen. — Ausging uns des Stolzes Befiederung, — und wir wohnten in der Niederung. — Statt Rosse blutig zu spornen, — gingen wir uns wund auf Dornen. — Der Tod bleibt unsre Zuflucht vor Bedrängnis; — wir klagen an das säumende Ver-

رَوَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ نَظَّمَنِي وَأَخْدَانًا لِي نَادٍ * لَمْ يَخْبُ فِيهِ مُنَادٍ * وَلَا كَبَا قَدَحُ زِنَادٍ * وَلَا ذَكَّتْ نَارُ عِينَادٍ * فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَجَادِبُ أَطْرَافَ الْأَنَاشِيدِ * وَنَتَسَوِّدُ طُرْفَ الْأَسَانِيدِ * إِذْ وَقَفَ بِنَا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ * وَفِي مِشِيَّتِهِ قَزَلٌ * فَقَالَ يَا أَخَايِرَ الْأَذْخَائِرِ * وَبِشَائِرِ الْعَشَائِرِ * عِمُوا صَبَاحًا * وَأَنْعِمُوا أَصْطَبَاحًا * وَأَنْظُرُوا إِلَى مَنْ كَانَ ذَا نَدَى وَنَدَى * وَجَدَقَ وَجَدًا * وَعَقَارٍ وَقُرَى * وَمَقَارٍ وَقُرَى * فَمَا زَالَ بِهِ قُطُوبُ الْخُطُوبِ * وَحُرُوبُ الْكُرُوبِ * وَشَرَّرَ شَرِّ الْحَسُودِ * وَانْتَابَ الثُّوبُ السُّودَ * حَتَّى صَفِيرَتِ الرَّاحَةُ * وَقَرَعَتِ السَّاحَةَ * وَغَارَ الْمَنْبَعُ * وَبَا الْمَرْبِعُ * وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ * وَأَقْصَى الْمَضْجَعُ * وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ * وَأَعْوَلَ الْعِيَالُ * وَخَلَّتِ الْمَرَابِطُ * وَرَحِمَ الْغَابِطُ * وَأَوْدَى النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ * وَرُئِيَ لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ * وَآلُ بَنِي الدَّهْرِ الْمُوقِعُ * وَالْفَقْرُ الْمُدْفِعُ * إِلَى أَنْ أَحْتَدَيْنَا الْوَجَى * وَأَغْتَدَيْنَا الشَّجَا * وَاسْتَبَطْنَا الْجَوَى * وَطَوَيْنَا الْأَحْشَاءَ عَلَى الطَّوَى * وَاکْتَحَلْنَا السُّهَادَ * وَاسْتَوَطْنَا الْوَهَادَ * وَاسْتَوَطْنَا الْقَتَادَ * وَتَنَاسَيْنَا الْأَقْتَادَ * وَاسْتَبَطْنَا الْحَيْنَ الْمُجْتَاحَ * وَاسْتَبَطْنَا الْيَوْمَ الْمُتَّاحَ * فَهَلْ مِنْ حُرٍّ آسٍ * أَوْ سَمَحٍ مُؤَاسٍ * فَوَالَّذِي آسْتَخْرِجَنِي مِنْ قَبِيلَةٍ * لَقَدْ أُمْسِيَتْ أَخَا

hängnis. — Oder ist hier ein Beirätiger, — Menschenfreundlicher, Guttätiger — der einen Kraftlosen, Haftlosen stütze, — ein Tröpflein der Milde auf einen Saftlosen sprütze? — Bei dem, der mich hat entsprossen lassen von Kaile! — der den Mangel gab mir zu theile! — ich habe nicht, wo ich die Nacht verweile. —

Hareth ben Hemmam spricht: Um seine Notdurfte zu letzen — und zugleich seinen Witz auf eine Probe zu setzen, — nahm ich ein Goldstück und wies es — und sagte: Dein ist dieses, — wenn du uns in Versen sein Lob lässest hören. — Und auf der Stelle ließ er sprudeln seine Brunnenröhren:

Gesegnet sei der Gelbe mit dem lichten Rand,
Der wie die Sonne wandelt über Meer und Land,
In jeder Stadt daheim, zu Haus an jedem Strand,
Gegrüßt mit Ehrfurcht, wo sein Name wird genannt.
Er geht als wie ein edler Gast von Hand zu Hand
Empfangen überall mit Lust, mit Leid entsandt.
Er schlichtet jedes menschliche Geschäft gewandt,
In jeder Schwierigkeit ist ihm ein Rat bekannt.
Er pocht umsonst nicht an die taube Felsenwand,
Und etwas fühlt für ihn ein Herz, das nichts empfand.
Er ist der Zaubrer, dem sich keine Schlang' entwand,
Der Schöne, welchem keine Schönheit widerstand,
Der Held, der ohne Schwertstreich Helden überwand;
Der Schwachen Kräfte gibt und Törichtern Verstand,
Und Selbstvertraun einflößet, das mit Stolz ermannt.
Wer ihn zum Freund hat, ist dem Fürsten anverwandt,
Wenngleich sein Stammbaum auf gemeinem Boden stand.
Der trifft des Wunsches Ziel, dem er den Bogen spannt.
Er ist des Königs Kron' und seiner Herrschaft Pfand,
Er ist der Erde Kern, und alles sonst ist Tand.

Und wie er war am Ende, — streckt er seine Hand nach der Spende — und rief: Wer verspricht, muß segnen; — die Wolke, die donnert, muß regnen. — Da gab ich ihm das Goldstück hin und sprach:

عَيْلَةً * لَا أَمْلِكُ بَيْتَ لَيْلَةٍ * قَالَ الْحَارِثُ بْنُ
هَمَّامٍ فَأَوَيْتُ لِمَفْقِيرِهِ * وَلَوَيْتُ إِلَى اسْتِنْبَاطِ فَقِيرِهِ *
فَأَبْرَزْتُ دِينَارًا * وَقُلْتُ لَهُ اخْتِبَارًا * إِنْ مَدَحَتْهُ نَظْمًا
* فَهُوَ لَكَ حَتْمًا * فَانْبَرَى يُنْشِدُ فِي الْحَالِ * مِنْ
غَيْرِ انْتِحَالِ :

أَكْرِمَ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهُ
جَوَابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفَرَتُهُ
مَأْثُورَةٌ سُمِعَتْهُ وَشُهِرَتُهُ
قَدْ أَوْدِعَتْ سِرَ الْغِنَى أُسِيرَتُهُ
وَقَارَنْتُ نَجْجَحَ الْمَسَاعِي خَطَرَتُهُ
وَحُبُّبْتُ إِلَى الْأَنَامِ غُرَّتُهُ
كَأَنَّمَا مِنَ الْقُلُوبِ نُفِرَتُهُ
بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهُ
وَإِنْ تَفَانَتْ أَوْ تَوَانَتْ عِثَرَتُهُ
يَا حَبْدًا نُضَارُهُ وَنُضِرَتُهُ
وَحَبْدًا مَغْنَانُهُ وَنُصِرَتُهُ
كَمْ أَمِيرٍ بِهِ اسْتَقْبَبَتْ إِمْرَتُهُ
وَمُتَرَفٍ لَوْلَاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهُ
وَجِيْشٍ هَمَّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهُ
وَبَدْرٍ تِيمٍ أَنْزَلَتْهُ بَدْرَتُهُ
وَمُسْتَشْيِطٍ تَتَلَطَّى جَمَرَتُهُ
أَسْرًا نَجْوَاهُ فَلَانَتْ شِرَّتُهُ
وَكَمْ اسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهُ
أَنْقَدَهُ حَتَّى صَفَتْ مَسَرَّتُهُ
وَحَقُّ مَوْلَى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهُ
لَوْلَا أَلْتَقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ * بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ * وَقَالَ أَنْجَزَ
حُرًّا مَا وَعَدَ * وَسَحَّ خَالٌ إِذْ رَعَدَ * فَتَبَدَّنْتُ
الْدِينَارَ إِلَيْهِ * وَقُلْتُ خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ *

Sei es dir zum Gewinn! — Er schob es in seinen Mund — und sprach: Gott erhalte mir's gesund! — Dann macht' er sich auf, von dannen zu wanken, — mit Grüßen und Danken. — Doch der Duft des Geistes, den er verstreute — berauschte mich so, daß ich nicht Aufwand scheute. — Ein zweites Goldstück nahm ich aus der Tasche — und sprach: Da haschel — Dieses ist dein, wenn du nach seinem Adel — uns nun auch hören lässest seinen Tadel. — Da ließ er auf der Stelle — noch einmal rauschen die Welle:

Verflucht der Heuchler mit dem doppelten Gesicht,
Dem kalten Herzen und dem Lächeln, das besticht.
Er ziert sich wie ein Liebchen, und wer liebt es nicht?
Und wie Verliebte schmachtet er, der Bösewicht.
Er stammt vom Abgrund, aus den Finsternissen dicht,
Doch überstrahlt sein falscher Schein der Sonne Licht;
Die Wahrheit dringt nicht durch das Trugnetz, das er flicht.
Er gibt der Welt in allem Bösen Unterricht,
Lehrt, wie man falsche Eide schwört und Treue bricht.
Er ists, um den man streitet, tobt und kämpft und ficht,
Er ists, der aus des Richters Mund dein Urteil spricht,
Um den der Dieb die Hand verliert am Hochgericht.
Für ihn verkauft man seinen Glauben, seine Pflicht,
Für ihn erkaufte der Schlechte sich ein Lobgedicht.
Er ists, um den das Herz aus Furcht dem Geiz'-gen bricht;
Er ists, um den des Neides Blick den Reichen sticht.
Das schlimmste ist: Wer ihn bewahrt, dem nutzt er nicht;
Und wer ihn nutzt, der tut dadurch auf ihn Verzicht.
Darum verachtet ihn ein edler Mann und spricht:
Du Taugenichts, hinweg von meinem Angesicht!

Ich rief: Gott müsse deinen edlen Mund vergulden! — Doch er rief: Versprechen macht Schulden; — und ich gab ihm den zweiten Gulden — und sprach: Verwend' ihn zum Erwerb von Gottes Hulden! — Er schob ihn mit Dankgeflüster — in

فَوَضَعَهُ فِي فِيهِ * وَقَالَ بَارِكْ أَللَّهُمَّ فِيهِ * ثُمَّ شَمَّرَ
لِلْإِنْشَاءِ * بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ * فَتَشَاتُ لِي مِنْ
فُكَاهَتِهِ نَشْوَةُ غَرَامٍ * سَهَّلْتُ عَلَى أَتْتَنَافِ أَغْتِرَامِ *
فَجَرَدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ لَهُ هَلْ لَكَ فِي أَنْ
تَذُمَّهُ * ثُمَّ تَضُمَّهُ * فَأَنْشَدَ مُرْتَجِلًا * وَشَدَا
عَجِيلاً:

تَبَّأَ لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَازِقٍ
أَصْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
يَبْدُو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ
زِينَةُ مَعْشُوقٍ وَلَوْنُ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ
يَدْعُو إِلَى آرْتِكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تُقَطَّعْ يَمِينُ سَارِقِ
وَلَا بَدَتْ مَظْلِمَةٌ مِنْ فَاسِقِ
وَلَا أَشْمَأَزَّ بِاخْلَافٍ مِنْ طَارِقِ
وَلَا شَكَا الْمَمْطُولُ مَطْلَ الْعَاقِقِ
وَلَا أَسْتَعِيدَ مِنْ حَسُودٍ رَاشِقِ
وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَاقِ
أَنْ لَيْسَ يَغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَابِقِ
إِلَّا إِذَا فَرَّ فِرَارَ الْآبِقِ
وَاهَا لِمَنْ يَفْقِدُ فُتً مِنْ حَالِقِ
وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الْوَامِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ الْحَقِّ الصَّادِقِ
لَا رَأْيَ فِي وَصْلِكَ لِي فَفَارِقِ

فَقُلْتُ لَهُ مَا أَغْزَرَ وَبَلَكَ * فَقَالَ وَالْشَّرُّ أُمْلَكَ *
فَتَفَحَّطَهُ بِالْدِينَارِ الثَّانِي * وَقُلْتُ لَهُ عَوْدُهُمَا بِالْمَثَانِي *
فَالْقَاهُ فِي فَمِهِ * وَقَرَنَهُ بِتَوَامِيهِ * وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ
مَغْدَاهُ * وَيَمْدَحُ النَادِي وَنَدَاهُ *

den Mund zu seinem Geschwister — und hinkte ab am Stabe, preisend Geber und Gabe. — Hareth ben Hammam spricht: Mir sagte das Herz, es sei Abu Seid — und seine Lahmheit ein angelegtes Kleid. — Ich hielt ihn an und rief: Bei Gottes Gnade! — dein Witz verriet dich; warum gehst du nicht grade? — Er sprach: Und bist du der Hareth? — so bleibe mir ewig schwarz gehaaret, — der Lust gepaaret, — den Frohen und Edlen gescharet! — Ich sprach: Ich bin der Hareth ben Hemmam; — wie geht es mit dir und deinem Kram? — Er sprach: Bald frisch, bald lahm; — ich segle mit zweierlei Winden, — gelinden und ungelinden. — Ich sprach: Du solltest dich schämen, — Zuflucht zu einem Gebrechen zu nehmen. — Da verfinsterten sich seine Mienen — und er sprach: Laß dir dienen!

Ich hinke, doch nicht aus Vergnügen am Hinken
 Ich hink', um zu essen, ich hink', um zu trinken.
 Ich hinke, wo Sterne der Hoffnung mir winken,
 Ich hinke, wo Gulden entgegen mir blinken.
 Was man nicht ersiegen kann, muß man er-
 hinken,
 Viel besser ist hinken, als völlig versinken.
 Die Schrift sagt: Es ist keine Sünde, zu hinken.

أرنست ترامب

(١٨٢٨ - ١٨٨٥)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

أرسل الى جامعة توبينغن Tübingen. ولما اتفقت رغبته وميله، حينذاك، مع رغبة والديه وميولهما في أن يصبح الابن قسيساً، التحق أرنست بكلية اللاهوت المعروفة بـ«شتيفت» Stift. ولقد كانت تلك الكلية تتمتع بشهرة واسعة، إذ كانت مركز الاشعاع الثقافي، والمقل الروحي للمذهب البروتسنتي في ذلك الجزء من البلاد. ومن نافلة القول أن نذكر هنا، أنه ولعدة عقود سبقت التحاق صاحبنا بتلك الكلية، فقط، كان كل من الفيلسوف الكبير هيغل Hegel والشاعر الملهم هولدرلين Hölderlin ينتظان فيها. ونظراً لتعلق العبرية باللاهوت، شرع أرنست بدراستها، علماً بأنه كان قد أتقن اللاتينية واليونانية قبل مجيئه الى هذه الكلية. راح بعد ذلك يدرس السنسكريتية واللغات السامية على يد كل من البروفسور روث Roth والبروفسور إيwald.

بيد أن عملية القمع والارهاب، التي مارسها حكومات الولايات الألمانية المختلفة ضد «دعاة الحرية» عام ١٨٤٨، أدت الى زج الكثيرين من المثقفين، اساتذة وطلاباً، في السجون. فقد انحطت الطليعة المثقفة في هذه الحركة منذ عام ١٨٣٠ محاولة العمل على تغيير الأوضاع الألمانية، هادفة توحيد البلاد التي راحت تنقسم حينها الى ممالك، وايلات، ومقاطعات صغيرة. وهكذا فما ان حلت سنة ١٨٤٨ حتى تكللت الجهود بأول اجتماع لمجلس الأمة الألماني. إلا انه سرعان ما انقلبت الحكومة وراحت تقوم بحركة قمع واسعة ضد «دعاة الحرية»، وانطلقت تزج بأتباعها في السجون. لم يستثنى أرنست، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء فألقى به في السجن لفترة من الزمن، انقطع خلالها عن الدراسة، لم يلبث حتى استأنفها وعمل على إنهاؤها بعد الافراج عنه.

توجه العلامة الشاب، بعد أن أقام فترة وجيزة في بازل Basel الى لندن. ولما كان قد حصل هناك على وظيفة مساعد أمين مكتبة في «مركز الهند الشرقية» East India House، فقد تسنت له من خلال عمله هذا فرصة إثراء ثقافته بقضايا اللغات الهندية الحية وآدابها. ولم يفكر أرنست

تحفيل الحركة الألمانية للدراسات الشرقية بأعلام كبار يعتبر أرنست ترومب أحد أقطابهم. لقد برع هذا العلامة في العديد من اللغات، وخلف آثاراً لم تقتصر في مضمونها على العربية وغيرها من اللغات السامية، بل شملت الى جانب ذلك العديد من اللغات الأخرى. فترك لنا، فيما ترك، دراسات وافرة في لغات الهند الحية، أو هي، وبتعبير أكثر دقة، لغات ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذي يعرف اليوم بباكستان الغربية. ولعل في اعادة نشر كتابين، من مجموعة مؤلفاته مؤخرًا، أحدهما في نحو لغة الباشتو Pashto والآخر في نحو اللغة السندية، ما يدل على قيمة هذين المرجعين لدارس تبنك اللغتين بالغنى الصعوبة. بل وعسى أن يكون في ذلك إشارة الى عدم ظهور ما يجاريهما جودة واصالة على الرغم من مرور قرن من الزمان ونيف على نشرهما لأول مرة.

ويجد المرء، في حياة المترجم له، تفاصيل وطرائف هي غاية في الغرابة. ولد أرنست في اليوم الثالث عشر من شهر آذار لسنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف للميلاد، في قرية ايلسفلد Ilsfeld في مقاطعة Württemberg الشمالية، لأب مزارع امتهن النجارة. واتسم الوسط الذي نشأ فيه على وجه العموم بالعوز والفاقة. لم يكن ذلك حال قرينته فحسب، بل حال القرى والمدن المجاورة أيضاً، مما حدا بقطاع كبير من السكان الى الهجرة سعياً وراء الرزق. هذا وما زالت جماعات منهم تقطن جنوب روسيا، بلاد القوقاز على وجه التحديد، وما برحت فئة تعيش في ولاية تكساس الأمريكية حتى يومنا هذا. وانعكست في شخصية أرنست سيجتان، امتاز بهما سكان جنوب غرب ألمانيا عموماً منذ عدة قرون، ألا وهما سجية الجلد وصفة التقوى. ولعل السجية الأخيرة قد نشأت وتطورت عن اعتناقهم للمذهب اللوثرى والتي كانت تبلغ بهم حد التزم أحياناً. بدأ أرنست حياته الدراسية في الرابعة من عمره. وظهرت بوادر ولعه الشديد باللغات واهتمامه بها، أول ما ظهرت، حين انبرى يحلل لغة بعض غجر كان قد صادفهم. بعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية، في سن السابعة عشر،

B. Winkler

Living in 29 Jan
1893.

-gegrüßter jun. Professor!

[illegible]

De. he would pay a suitable price,
with his as much money under his
finger thumb, as if he had copied
in an honest way. He would not
with.

and blue the up rich musical
and green the down for the up
the down the up
L. Thompson

بالرجوع الى المانيا في تلك الأثناء، وذلك نظراً لما كانت تبث عليه الحالة السياسية فيها من الشعور بالقرف واليأس. وما أن عرضت عليه «الجمعية الكنسية للتبشير» Church Mission Society أمر الذهاب إلى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو في لغاتها الحية، حتى استجاب غير متردد. وقد شجعه على ذلك الوعد الذي قطعه الحكومة البريطانية على نفسها بنشر كل ما يقوم بتأليفه. ولا ريب بأن مثل هذا العرض ومثل ذلك الوعد ليدل على المكانة التي بلغها أرنست في ذلك العهد المبكر من حياته.

تختلف الروايات حول تاريخ ارتحاله لأول مرة الى الهند. بيد أن سنة ١٨٥٤ هي أكثر السنوات قبولا لدينا. نزل بادئ الأمر مدينة بومباي Bombay. توجه بعدها الى كراتشي Karachi حيث مكث فيها عدة شهور. وفي مدة تدعو في قصرها الى العجب، أتقن أرنست اللغة السندية، تلك اللغة التي تتميز بالصعوبة المتناهية. كما أتقن في الوقت عينه اللغة الفارسية. وسرعان ما طبقت شهرته آفاق الأوساط السندية والبريطانية. فنحنه الفنستون Elphinston حاكم بومباي بلقب مواطن شرف، كما رسم قسيساً للكنيسة الانجليكانية وذلك اعترافاً بفضله، إذ انه قام وقتذاك بترجمة «كتاب المراسم الدينية العامة» Common Prayer Book من الانجليزية الى الفارسية. الا أن الحال لم يلبث على ما هو عليه طويلاً، إذ راح أرنست يعاني من صعوبات الطقس هناك، ودبت فيه علة خطيرة، علها الملازيا، فنقل على أثرها الى بيت المقدس، بفلسطين، للمعالجة. أقام اثناء وجوده في هذه المدينة بصحبة علم رائد من أعلام الإستشراق في القرن الماضي الا وهو القنصل الألماني في ذلك الحين هناك جيورج روزن Georg Rosen (الذي قام بترجمة مجلدين من عمل جلال الدين الرومي «المثنوى المعنوى» الى الألمانية لأول مرة). كما انكب يعمل على تعميق درايته باللغة العربية. هذا وقد أتيح له هناك التعرف على شابة ظريفة هي باولين لندر Pauline Linder والتي راحت تشاركه حياته الزوجية منذ شهر تشرين الأول لسنة ١٨٥٦.

عاد أرنست، بعد قضاء فترة النقاهة وشهر العسل، قافلاً الى كراتشي تصحبه عروسه. وهناك وفي شهر أيلول من العام التالي للزواج (١٨٥٧)، من البارى عليهما بمولود ذكر، بيد أن الأم الشابة لم تلبث سوى ثلاثة أيام عقيبت الميلاد حتى فارقت الحياة. وربما كان طقس كراتشي الرديء وراء هذا الحادث الأليم، أو عساه

أن يكون أيضاً، الفرع والتوتر العصبي اللذان ألما بها مغبة وصول أنباء الثورة والاضطرابات العسكرية في الهند الشمالية، وعلى اثر ذلك لم يجد صاحبنا مخرجاً لحنته سوى السفر الى أوروبا يسعى لتوفير ظروف ملائمة لوليد. لم يمض عليه في سبيل ذلك طويلاً، إذ وافته فرصة التعرف على آنسة تنحدر من أسرة كريمة، من مدينة شتوتجرت Stuttgart فتزوج منها، وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

قفل أرنست وعروسه الجديدة عائدين الى كراتشي. ثم قصدا من هنالك هدفهما المرسوم ألا وهو بيشاور Peshawar بالقرب من الحدود الأفغانية. كانت رحلتها هذه عبارة عن مغامرة شاقة كادت أن تودي بحياتهما. فلقد كان عليهما ان يبحرا خلال ذلك، لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، في نهر «اندوس» (او نهر السند) Indus. وان يركبا، ولثلاثة ايام، عربة تجرها الجاموس، الى لاهور Lahore ثم أنهما قد نقلا على محفة تناوب حملها اثنان وعشرون من الخدم إلى ان وصلا بيشاور قاطعين بذلك خمسمائة كيلومتراً.

استقبل البريطانيون، والسكان المحليون، الباتان Pathan، صاحبنا وزوجته استقبالا حاراً. وانبرى أرنست، في الحال يدرس لغة الباشتو Pashto، والتي لا تقل صعوبة عن اللغة السندية بشئ، فأتقنها بسرعة مدهشة بل إنه راح يمارس الوعظ والإرشاد بها بأقرب فرصة ممكنة. وعلى الرغم من معاودة إصابته بين الفترة والاخرى بحمى الغب، لم يأل جهداً في محاولته البحث عن لغة حية جديدة. فما ان أتاحت له فرصة لقاء ثلاثة أشخاص من أهالي «كافرستان» حتى تعلق بهم واعتبرهم «عينات ممثلة لدراسة لغة اهالي تلك المنطقة». (لقد تغير اسم منطقتهم من كافرستان الى نورستان فيما بعد). انبرى صاحبنا يهين لهم الظروف الملائمة ويعمل على اغرائهم بالبقاء عنده مدة كافية تنسنى له خلالها دراسة لغتهم. ويصف لنا أرنست الموقف فيقول: «لقد كنت أحتفظ بهم ثلاث أو أربع ساعات كل يوم، مقدماً لهم بين الفترة والاخرى وجبات من الحلوى عاملاً على تسليتهم كي لا ينفذ صبرهم». ويضيف قائلاً: «إن ظنه قد خاب» فيما يتعلق بمظهرهم. فقد توسم فيهم امتشاق القوام وبياض الوجه وملاحظته، فوجدهم داكني البشرة، «رغم الحمرة التي راحت تكسو وجوههم والتي إن عادت الى أمر فإنما عادت إلى الحمرة المعتق الذي راحوا يحتسونه». وحرى بنا أن نشير هنا، إلى ان توسم أرنست ما توسمه ارتكز على ما كان يشيع

بين الناس من أن أهل «نورستان» ينحدرون من اليونانيين الذين صاحبوا الإسكندر الأكبر حين قدم هذه البلاد. ثم انطلق بعد ذلك يدرس لغة البراهوى Brahui، تلك اللغة التي تتكلمها أقلية تعيش في «بلوتستان» ولقد نشر بحثاً قيماً في هذه اللغة عام ١٨٨٠. (ليس لهذه اللغة صلة بالإيرانية أو بلغات شمال الهند، كما هو الحال بالنسبة للباشتو والسندى، ولكنها تتصل بلغات جنوب الهند الغير آرية). كما أنه درس لغة ونحو كل من «الكشميري» و«النيبالي». هذا ولا زال كتابه في نحو اللغة الأخيرة مخطوطاً.

أضطر أرنست، على أثر معاودة المرض له، الى مغادرة بيشاور، مما خلف اللوعة والأسى في النفوس. ولما عادت له صحته، عكف في شتوتجارت Stuttgart يدرس المواد التي كان قد جمعها خلال وجوده في الباكستان. كان ذلك ما بين سنتي ١٨٦٠-١٨٦٣. ثم أخذ يعمل قسيساً في قرية فولينغن Pfullingen، التي تقع على مقربة من القرية التي شهدت مسقط رأسه، ما بين عامي ١٨٦٤-١٨٧٠. هذا ولم يتوقف خلال ذلك عن متابعة بحثه العلمي بل راح ينشر الكتب والمقالات العديدة، باللغتين الألمانية والإنجليزية. لم يكن أمر تعيين صاحبتا كأستاذ للغات الشرقية في جامعة توبينغن Tübingen التي نال منها درجة الدكتوراه، بمستهنج؛ بيد أنه ولما كان شريط الذكريات في أذهان زملائه في تلك الجامعة، ما انفك يسجل نشاط أرنست السياسي خلال ثورة ١٨٤٨، لهذا السبب بل ولأسباب أخرى نجهلها، فقد حيل دون بلوغه ذلك الهدف. فبقى هذا العلامة الأوربي، علامة اللغات السامية واللغات الهندية الحية، يعمل قسيساً في تلك الأبرشية المتواضعة. ومع ذلك فيمكن القول بأن أرنست، ورغم كل الصعوبات، قد نعم خلال تلك الفترة، بحياة عائلية هنيئة.

وفي عام ١٨٧٠ عادت الحكومة البريطانية تعرب عن اهتمامها ببحرته، فطلبت منه العودة الى الهند ليقوم بترجمة كتاب السييك المقدس «آدي غرانت» Adi Granth نظراً لما تتمتع به تلك الديانة من أهمية سياسية في حياة الهند. وما أن شرع في مهمته الجديدة حتى أدرك استحالة الاضطلاع بها دونما مساعدة من متكلمي تلك اللغة، فهي لغة معقدة عويصة. التفت الى جهابذة السييك ينشد امدادهم له، بمعرفتهم ولكن ظنه سرعان ما خاب. فهم، على حد قوله «لم يستطيعوا أن يزودوني

الا بتفسيرات تقليدية أثبتت مقارنتها بالنصوص المختلفة تناقضها وفسادها، بل انهم قد عجزوا، في كثير من المناسبات، عن تقديم أى شرح أو تفسير». فلم يجد بداً حينها من التعويل على نفسه. فراح يعد بطاقات مفهومة للكلمات وللقواعد النحوية القديمة ويقوم بدراستها وتمحيصها. كل ذلك بطبيعة الحال يهدف التمكن من دراسة واستيعاب ذلك الكتاب المقدس، والذي يزيد حجمه على حجم القرآن الكريم بعدة أضعاف. هذا ولعله من الطريف أن نذكر، في هذه العجالة، بأن السييك لم يأبها لعمل أرنست لا ولم يقدره حق قدره، بل وعلى النقيض من ذلك فانهم ما انفكوا يذكرّون «سوء التصرف والإثم الكبير الذي كان يرتكبه بالتدخين بحضرة الكتاب المقدس»! غير أن السلطات في لاهور، ولا عجب، قد قدرت تلك الجهود حق قدرها. وعمل البريطانيون قسارى جهدهم لإقناعه بالبقاء.

لقد تكبد أرنست في تحليل خطوط كتاب السييك المقدس جهداً أعياء وأضعف عينيه، فلم يقو على البقاء في تلك البلاد. فل هذه الأسباب الصحية وبسبب حنينه الى الوطن، الذي راح يتأجج، فقل أرنست عائداً الى ألمانيا في سنة ١٨٧٢. وهناك عمل على إنجاز ترجمة الكتاب، آنف الذكر، فنشر في مجلد ضخم عام ١٨٧٧. كما ألحقه بعدة دراسات عن ديانة السييك.

لم يبارح أمل الحصول على كرسي الأستاذية في جامعة توبينغن مخيلة صاحبنا. ولعل ما جاء في رسالة له مؤرخة في ١٨٧٣/١/٢٤ ما يعكس المرارة التي كان يعانيها وهو ما زال في سن الخامسة والأربعين، فهو يقول: «ولما كنت أعلم بأن الجهود كلها تبذل في سبيل لإظهارى امام الملأ بالعجز، فسأرفق بطلب استخدامى قائمة بالمولفات التي تمت طباعتها؛ كمثال كتاب قواعد السندية وكتاب قواعد الأفغانية ... الخ؛ رغم مخالفة ذلك لطبعي».

بعد أن عمل أرنست كمحاضر Privatdozent في قسم اللغات السامية في جامعة توبينغن، ولفترة قصيرة، في أواخر العام المذكور سالفاً، انتقل الى جامعة ميونخ ليشغل كرسي الأستاذية في قسم اللغات السامية فيها. وأمل وقتذاك أن يتمكن من القيام بأعمال نافعة في كل من اللغة العربية والأثيوبية وسواهما. وهكذا فقد نشر، اثناء وجوده في ميونخ، «مقدمة لدراسة قواعد اللغة العربية». كما حقق وترجم «أجرومية» محمد بن داوود الى الألمانية، وكان ذلك

wichtig für die richtige Auffassung der passiven Construction, wie wir gleich sehen werden.

Wie das **فَاعِلٌ** so ist auch das **نَائِبُ الْفَاعِلِ** doppelter Art, entweder **مُظَهَّرٌ** (ein offenbares Nomen), oder **مُضَمَّرٌ** (ein Pronomen); das letztere kann wieder **مُنْفَصِلٌ** (absolutes Pronomen), oder **مُتَّصِلٌ** (angehängt) sein, und als solches wieder **بَارٌّ** (offenbar, wie in **ضُرِبَتْ**), oder **مُسْتَتَرٌ** (verborgen, wie in **ضَرَبَ**).

Aus dem Bemerkten ergeben sich im einzelnen folgende Regeln:

I. Die passive Construction ist im Arabischen nur da anwendbar, wo der Thäter nicht genannt wird, z. B. **ضُرِبَ زَيْدٌ**, „Zaid wurde geschlagen“.

Dadurch unterscheidet sich das Arabische speciell von seiner Schwestersprache, dem Aethiopischen, welches sich die Möglichkeit bewahrt hat, bei der passiven Construction auch das active Subject durch Hilfe von Praepositionen (wie **በ**, **ለ**, etc.) einzufügen, z. B.: **ለ-ገጥሙ ተሰፋረዘው**, „da wurde erfüllt, was gesagt worden war durch Jeremias, den Propheten“ (Matth. 2, 17). Auch das Hebräische ist in dieser Hinsicht noch freier und kann das handelnde Subject, wo es nöthig ist, vermittelt einer Praeposition (**ל**), stärker noch durch (**מ**) dem passiven Satz unterordnen, z. B.: **מִיְהוָה מֻצְלָחַי נֶכְרַח בְּיָמָיו**, „von Jehovah werden die Schritte eines Mannes richtig gestellt“ (Ps. 37, 23), während im Syrischen diese Construction (mit Hilfe

صحيفة عن مقالة إرنست ترنب عن النحو العربي:

Beiträge zur arabischen Syntax, Sitzungsberichte der Kgl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philos.-philol. Classe, 5. Mai 1877.

مفعمتين بالتعليقات والشروح، حرى بدارس نحو العربية عدم اغفال الإطلاع عليها. كما راح ولعه بالأثيوبية يتبدى، وقد استمرأ لمعجتها على وجه الخصوص. ففي خلال أقصر وقت بات يتقنها ويميز أدق دقائق اللحن فيها. ومن الطريف أن نذكر هنا، بأن تجربته انحصرت في هذا المجال، بدراسة رجل أثيوبي، كانت قد أحضرته إحدى

عام ١٨٧٦. ويعد عمله هذا محاولة ممتازة حقيقة بالتقدير، رغم النقد الذى وجهه له، فى حينه، الأستاذ فلايشر H. L. Fleischer، علامة اللغة العربية. (وقد ندر أن يفلت بحث فى هذا الحقل من نقد الأستاذ المذكور، وذلك لبراعته وتفوقه فيه.) كما قام أرنست بدراسة «كتاب المفصل» للزخشرى دراسة وافية، ظهرت فى مقالتين طويلتين

البعثات الدينية، الى اوربا. هذا وقد تمخضت تلك التجربة عن عدة مقالات تعالج الأبعاد المختلفة لتلك اللغة كتبها ما بين عامى ١٨٧٨-١٨٨١.

بيد أنه، ولما كان لكل أجل كتاب، ولكل طاقة حدود، لم يعد بمقدور أرنست أن يتحمل المزيد. فدراسة لغات شبه القارة الهندية العويصة، وقضاء ربح من الزمان يصارع صعوبات المناخ أثناء اقاماته المتقطعة فيها، ودأبه الخثيث على دراسة لغات أخرى كالعربية التي تتصف بتعقيدها وصعوبتها... كل ذلك عمل على إرهاق قوى صاحبنا وإعياء صحته. فلم تلبث عيناه، التي قرأت ونفحست الآلاف العديدة من الصفحات المختلفة، بما كتته بين ثناياها من غامض الخطوط ومعقدها، لم تلبث هاتان العينان حتى تردت في حمأة جحيم الظلمة، فحرم المسكين من نعمة البصر وحرم من القدرة على القراءة والكتابة، عدته وعتاده في الحياة. هذا ولم تفتأ الظامة الكبرى أن حلت حين راحت تلك الظلمة الدامسة ترحف الى عقله الجبار فتشلله. وينتقل، على أثر ذلك، الى أحد المستشفيات يمضيها أياما حزينة حتى يوافيه الأجل المحتوم. وهكذا يعود أرنست، بعد تطوافه الكبير في عالم اللغات، وبعد حياة لم يكن للإستقرار فيها مكان، يعود الى دار الخلود، الى منزل السلام الدائم يوم عيد الفصح المجيد الذى وافق فى الخامس من شهر نيسان لعام خمس وثمانين وثمانماية وألف للميلاد، بالغاً من العمر سبع وخمسين سنة.

إننا اليوم لنقف عاجزين عن الإحاطة بكل ما خلفه هذا المستشرق الكبير من آثار، وذلك لغزارته وتعدد جوانبه. لقد اهتم باللغات كلغات، وليس كأدب، وراح يسبر غور قطاع هام فى عالم هذه اللغات، ألا وهو عالم شبه القارة الهندية، فعبء طريقه ومهد سبيله أمام اللاحقين من العلماء والذين راحوا يقتفون اثاره ويتبعون خطاه.

ونحن إن حاولنا استعراض جزء من أعمال هذا اللغوى العظيم، فانه يمكن القول بادئ ذى بدئ، إن عشقه للسندية وتعلقه بها قد فاق تعلقه ولعه بسواها من اللغات الحية. لقد انطلق، كما تشير كتاباته، يتتبع اثارها فى طول البلاد وعرضها. فهو يذكر، مثلاً، هضبة مكلى Makli Hill التى تقع بالقرب من العاصمة القديمة للسند، والتى تبعد مسافة ستين ميلا عن كراتشى قائلا: «لعل المعابد والأضرحة فى هضبة مكلى أروع ما يمكن مشاهدته من الآثار فى بلاد السند والهند. (ونحن هنا لا يسعنا

إلا أن نوافقه على ذلك، إذ ان هذه المقبرة، والتى تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة، عبارة عن آية فى جلال الهندسة المعمارية الاسلامية وكثر رائع من كنوزها، بنيت أصرحتها ما بين عامى ١٥٠٠-١٧٥٠).

يعتبر «كتاب القراءة السندية» باكورة انتاج أرنست فى هذه اللغة. وقد استعمل الحروف العربية والسنسكريتية فى كتابته. ولا نعتقد أن هذا الكتاب قد نال تقدير أهل السند، وذلك لما يتضمنه من نصوص فى اللاهوت المسيحى. فهو قد كتبه اصلا ليستعمله المبشرون الذين يرغبون فى الذهاب الى تلك الديار.

نشر بعد ذلك مقالات عديدة فى «قواعد اللغة السندية». راح يقارن فى هذه المقالات اللغة السندية باللغات الحية الأخرى التى تطورت عن البراكريت.

وفى أواخر عام ١٨٧٢ نشر كتابه الهام «قواعد اللغة السندية» والذى ألحت الحاجة اليه، فأعيد طبعه مؤخرًا. ولما كان أرنست قد عاش البيئة السندية بأبعادها المختلفة، وعایش الناس على اختلاف مستوياتهم، فقد تسنى له التعرف على آدابهم الشعبية، وبالذات أغانيهم واساطيرهم. وتمخضت معرفته وجهوده فى هذا المضمار عن اثني عشر مجلد، ما برحت مخطوطة، لتلك الآداب. ويعتقد أرنست، كما يعتقد الرحالة البريطانى الشهير السير ريتشارد برتن Richard Burton، بأن السندية تملك أكبر مجموعة شعرية شعبية أصيلة بين لغات الهند، «إن حادى العيس فى فيافى الصحراء، والزوج المكوم الذى راح يقف وراء محراثه، ذلك المحراث الذى إن هو الا غصن شجرة انحنى طرفه، ليحفظا عن ظهر قلب ابياتا وابياتا من ذلك الشعر، ينشداها بين الفينة والأخرى عملا على قطع ساعات النهار. إن استمرار وشيوع هذا النوع من الادب الشعبى بين هؤلاء الناس، حتى يومنا هذا، ومنذ عهود هى غاية فى القدم، أمر ساعد عليه تجوال أولئك المنشدين والشعراء القبليين عبر البلاد». إلا ان أرنست نفسه، لم يستغ قصائد ذلك التراث الهائل. فهو يقول، «إن الناس لا يحسنون سوى ترداد القوافى والتلاعب بالكلمات حتى ولو كان ذلك على حساب الإتساق المنطقى للأبيات»! هذا ولم يمقت فى حياته أمراً كما مقت ذلك النثر «الجاف الممض» الذى جاء فى أعمال المفكرين الدينيين من أمثال مخدوم محمد هاشم، الذى ما عنمت شهرة ترجمته لأجزاء من القرآن الكريم الى اللغة السندية ولأول مرة، فى مطلع القرن الثامن عشر، تعم

الأوساط السندية. إنه كملغوى رفض تكرار استعمال الألفاظ العربية والفارسية في هذه النصوص. إلا أن سعادته كانت تبلغ الذروة حين كان يصدف قصائد سندية خالصة.

ويعتبر تحقيق «الأعمال الشعرية» لشاه عبد اللطيف، الإنجاز الرئيسى لأرنست في حقل الدراسات السندية. (إن أعمال هذا المتصوف الكبير وشاعر القرن الثامن عشر مازالت تستهوى أفئدة الناس في مختلف بقاع تلك الديار) ولقد اختار صاحبنا بادئ ذي بدئ إحدى حكايات هذا العمل الضخم، ألا وهي حكاية «سورات»، وراح يقدم للقارئ الألماني تحليلاً لها، نشرته إحدى المجلات العلمية الألمانية. هذا ويبقى أمر اختياره لهذه الحكاية بالذات، والتي هي أقل أجزاء مجموعة «الرسالو» Risalo بهجة، كما أن نصها قد تشوه وتقطعت أوصاله بما يصعب علينا فهمه. ثم أنه وكتوطئة لتحقيق هذا العمل، والذي اكتملت طباعته في ليزريك عام ١٨٦٦، فقد ترجم «سر سورات» إلى الألمانية. وكان ذلك في سنة ١٨٦٢. ولقد استعمل أرنست، في اخراج هذا الكتاب إلى حيز الطباعة، الحروف الهجائية العربية بعد أن أجرى تعديلات طفيفة عليها. غير إن استعمال هذه الحروف بما أجراه عليها أرنست من تعديلات، اتفقت وفهمه اللغوى، ليجعل أمر قراءة السندية أكثر صعوبة على الفرد السندى المعاصر، علماً بأن حروف الهجاء العربية كان قد شاع إستعمالها رسمياً منذ عام ١٨٥٢ في البلاد. ومع هذا فإننا لتتفق مع أرنست «بأن المرء الذى يجهد في قراءة أعمال شاه عبد اللطيف (في أى صورة كانت) سيجد جزاءه متعة يحظى بها بقراءة النصوص الجميلة المنتشرة في كل مكان». إنه لمن الطريف أن نجد أرنست هنا، وقد أعرب عن استمائه لشعر شاه عبد اللطيف. فهو في مناسبات أخرى راح يعمم ويصدر الأحكام بأن التناقض والتتابع المخطوء هي من صفات شعر السند. كما أنه اعتقد جازماً بأن ظاهرة التصوف أن هي إلا تشويه لحقيقة الإسلام الحنيف متأثراً بعوامل هندية!

وإذا ما كان لأرنست الحق كل الحق بأن يقول كل ما يريد، فإن ذلك لا يعنى بحال أن نوافقه على كل ما يقول. فما لا ريب فيه لدينا، هو أنه في أحكامه لم يخرج عن منطق ونظرة أولئك المبشرين البروتستانتين الضيقة، والذين كانوا يرغبون عن أى شكل من أشكال التصوف. فكيف يكون الحال إذن حين راحوا يصدفونه وقد تطور إلى أشكال وأنماط شعرية محملة بالرمزية،

في ذلك الجزء الشرقى من ديار الاسلام؟ يضاف إلى هذا حقيقة أن الالمام بتاريخ ظاهرة التصوف أمر لم يكن شائعاً في عهد صاحبنا. لا ولم يكن استخراج ودراسة المصادر الأولية قد جرى بعد. وما كان قد حقق حتى عهده لم يكن يمت إلى المصادر المتقدمة من تاريخ التصوف بصلة، مما حال دون الدراية بآراء الكثيرين من أعلام التصوف الأولين؛ أمثال الجنيد وتابعيه، كما حال دون التمكن من سبر غور التجربة الصوفية. وثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا ألا وهي عدم تبحر أرنست نفسه في دراسة القرآن الكريم أو تمكنه من إدراك معانيه. فهذه الأسباب مجتمعة كفيلة بأن تبرر لصاحبنا عجزه وترديه في مرارة الحيرة كلما كان يصدف أية قرآنية أو نصاً شعرياً تكتنفه الاستعارات والتشبيهات القرآنية. ولم يقف عجزه عند فهم القرآن الكريم فحسب بل امتد في أحيان كثيرة إلى الأحاديث النبوية الشريفة الشائعة، هذا إن لم نذكر عجزه عن فهم كتاب «مشوى» لجلال الدين الرومى.

وكتاب «نحو اللغة السندية»، والذي سبق ذكره، يعتبر خاتمة ثمرات أرنست في مجال اللغة السندية. ويضاهى هذا العمل كتابه «نحو الباشتو» الذى تم نشره في سنة ١٨٧٣، والذي يشكل أنموذجاً حياً لعقلية أرنست الثاقبة، وقدرته على فهم أدق دقائق نحو اللغة. هذا على الرغم من ربطه للباشتو باللغات الهندية لا بالإيرانية، وهي فكرة مردودة، عفى عنها الزمان.

وثمة حقيقة تدعو للأسف الشديد ألا وهي أن عدداً من دراساته في لغات بعض قبائل جبال الهملايا ما زال مخطوطاً ولما يخرج إلى حيز الطبع بعد. ينسحب هذا القول أيضاً على بحثه في نحو اللغة النيبالية. كما أنى لعل ثقة من أنه لو تحققت له، فرصة اخراج ذلك البحث، الذى أعرب، في إحدى رسائله، عن رغبته الأكيدة بالكتابة فيه، في اللهجة الإيرانية، لحظينا بأثره من الطرافة والقيمة بمكان كبير، ولشكل مدخلاً طيباً لدراسة لفظ اللغة الفارسية، كيف لا وهو الذى كان قد أتقنها في لهجتها الإيرانية والهندية عن طريق الممارسة. كما قام بتدريسها، في صيف عام ١٨٧٣، في جامعة توينغتن. كما لم تكن الملاحظات التى أبدتها وقتذاك علامة اللغة الفارسية خودسكو Chodzko حول لفظ هذه اللغة لتلقى قبولاً أو قناعة لديه. وكان أرنست قد أعرب، في نفس الرسالة، أيضاً عن رغبته في متابعة دراسة نحو لغة البراكريت

الوسيلة، أو الهندي القديم، تلك الدراسة التي كانت ستغطي منطقة شمال الهند في العصور الوسطى. وهو عمل لم يضطلع به أحد بعد، رغم مرور مئة عام على محاولة أرنست.

ولا يفوتنا، قبل أن نختتم هذه الترجمة العاجلة لحياة أرنست ترومب الأكاديمية، من أن نذكر أن الجهود التي بذلها، في السنوات الأخيرة من حياته، في دراسة اللغة الأثيوبية، لم تثمر عن نتائج فيها من ابداع واصالة البحث ما تعودناه منه وما كان من شأن لغات الهند الحية، في منطقة باكستان الغربية على وجه التحديد.

لا ريب بأن مجال الترجمة الكاملة لحياة هذا المستشرق الكبير، والعرض النقدي الشامل لأعماله، هو غير هذا. فلقد انحصر هدفنا هنا في تقديم عرض سريع يتسنى من خلاله للقارئ المهتم التعرف وتكوين فكرة عاجلة عن أبعاد هذا العلامة المبدع، والانسان المسئول. لقد

تفوق أرنست ترومب كعلامة لغة، ولقد زهد وتواضع في حياته كإنسان. كان يفضل عزلة العلم عن مخالطة الناس. هذا ولعل فيما كتبه يوم كان في ميونخ، وفي سنة ١٨٧٥ على وجه التحديد، ما يوضح لنا موقفه هذا، فهو يقول: «وحتى هنا، في ميونخ لا أخرج إلى الناس ولا أختلط بأحد، وأنا لى الوقت أو القدرة العقلية لمثل ذلك...». إن من عرف عالمنا الكبير عن كثب ليؤكد لنا خصلة الخير فيه وشكيمة التواضع، فهو لم يغتر بعلمه لا ولم يتردد في مساعدة المحتاج. لقد قام احساسه بالمسؤولية أصلا على أساس من حياته الدينية وقوة إيمانه الروحي، ومن وجيها راح يتصرف. إن طبقات المثقفين في السند ان تنسى، ما حيت، فضل هذا العلامة، تماما كما لن ينسى الهنديوس فضل علامة الهندية الالماني ماكس مولر Max Müller، فاليهما يعود فضل سبق في تعريف الغرب على كنوز تراث تلك الديار. ترجمة: احمد شركس

* * *

ZUHAIR SPRACH:

*Ich sah das blinde Schicksal umtasten nach dem Fang,
Wen's greift, der stirbt, und wen es verfehlt,
der altert lang.
Wer sich nicht in die Leute vielfältig schicken kann,
Den wird ein Huf hier treten, und beißen dort ein Zahn.
Wer seine Ehr bewahret mit Huld, der mehret sie,
Und wer nicht Tadel scheuet, entgeht dem Tadel nie.
Wer in die Fremde wandert, verliert den Freund zu Haus,
Und wer sich nicht auszeichnet, den zeichnet niemand aus.*

قال زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تُميته، ومن تخطى يعمر فيهرم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب، ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

DEUTSCH VON FRIEDRICH RÜCKERT

الرحّالون الأمّات إلى البلاد العربّية

بقلم : الأستاذ محمد علي حشيشو

فحسب، بل وكذلك على ما قدموه من معلومات جديدة تماماً، واكتشافات جغرافية واثنولوجية بالغة الأهمية بالنسبة لأجزاء كبيرة من اليمن والحجاز وشرق الأردن. وقبل الخوض في موضوع أولئك الرحّالين الثلاثة، رأينا من المجدى ذكر مقدمة موجزة عن حركة الرحّلات الألمانية إلى الشرق الأدنى مع استعراض نماذج منها حتى رحلة نيبور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

كان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة عليه، وما ندعوها اليوم بالشرق الأدنى، مناطق ذات جاذبية خاصة لدى قدماء الرحّالين والحوالة من الإغريق والرومان. فكان من مفاخر الرحالة المقتدر الطموح أن يتمكن من زيارة مصر ومشاهدة آثارها الهائلة، ومن التعرف إلى النيل الخالد وسر فيضانه الصيفي المعجز. ولكن بانهيار العالم الروماني أمام غزوات البرابرة من الشمال والشرق، وبانتشار نظام الاقطاع في أوروبا،

إن للرحلات التي قام بها الأوروبيون في بلاد الشرق، ولما قصوه عن مشاهداتهم فيها أثراً بالغاً في تاريخ الإستشراق، ودوراً لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضاراتها. وللألمان من هذه الرحّلات وما كتب عنها نصيب يستحق أن يذكر بكونه جديدة في تاريخ الاستشراق الألماني. وسنتعرض في هذه المقالة إلى ذكر ثلاثة رحّالين ألمان، أو ناطقين بالألمانية، زاروا البلاد العربية في القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الأدنى، وبدأت بحملة نابليون إلى مصر وسوريا، تلك الحملة التي كشفت النقاب عن أسرار كثيرة كانت مجهولة عن مصر وبلاد العرب. أما أولئك الرحّالون فهم: كارستن نيبور، وأولريش زيتسن، ويوهان لودفيج بوركهارت. ولا تقوم شهرتهم على غرابة التجارب والمجازفات التي مروا بها

للتحصينات العسكرية في سوريا. فتدهشه صور، أقوى قلعة للصليبيين آنذاك، بتحصيناتها سواء من البحر أم من البر، خلافاً لصيدا التي كان الألمان قد دمروها في حملة عام ١١٩٧ وأبادوا حصونها شرباً لإبادة. واشتد إعجاب أولدنبورغ ورفاقه عندما شاهدوا قصرًا في بيروت، أرضه مبلطة بالمرمر وجدرانه مغطاة بالرسوم الرائعة، وحدائقه غناء تنوسطها النوافير. وكانت القدس بأيدي المسلمين آنذاك؛ ورغم أنه كان يسمح للنصارى بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المقدسة بصحبة رسول سلطاني كان يأخذ ضريبة عن كل شخص، إلا أن أولدنبورغ لم يستطع أن يخفى استيائه وشعوره بالمدلة والخضوع تجاه هذا الحال. وكانت خاتمة حجه زيارة إلى نهر الأردن عبر بيسان وأريحا حيث شوهدت كنيسة مدمرة في المكان الذي قام يوحنا بتعميد السيد المسيح فيه. وعندما أراد الحجاج الاستحمام بماء الأردن، أثاروا بذلك سخرية البدو المحيطين بهم الذين راحوا يعكرون الماء ويقذفونه بالحجارة.

هذه رحلة يمكن أن تكون نموذجاً لعدد من الرحلات أثناء حكم الصليبيين في سوريا وفلسطين. ولكن عندما عاد المسلمون فاستعادوا البلاد قلت بطبيعة الحال حركة الأسفار الأوروبية في المنطقة طيلة قرن كامل. فلما أطل القرن الرابع عشر، وتغير موقف الحكام المسلمين وأصبحوا أكثر تسامحاً تجاه الحجاج المسيحيين عاد سبيل الرحالين يتدفق إلى البلاد المقدسة من جديد. ومن أطرف هذه الرحلات تلك التي قام بها فيلهلم فون بولدنزيله، من مدينة مندن بوسفاليا، تكفيراً عن نذر قطعه على نفسه وتقرباً من الرب، والتي صورها في رواية ممتعة للغاية تفوق بما تتنازبه من دقة الوصف وقوة الملاحظة كثيراً من قصص الرحلات المعاصرة لها.

بدأ بولدنزيله مع مرافقيه رحلته عام ١٣٣٢ من إيطاليا إلى آسيا الصغرى حيث تعرف على ساحلها وعلى جزر الأرخبيل الهامة ثم وصل ليلة عيد الميلاد إلى صور التي وجد ميناءها في حراسة المسلمين، وجميع تحصيناتها المسيحية مدمرة تدميراً تاماً. وكانت خطته أن يزور مصر أولاً، ثم يعود إلى الأراضي المقدسة. ولذا فقد عبر الصحراء من غزة إلى القاهرة على ظهر الجمال في سبعة أيام. وفي رواية الرحلة يسترسل رحالتنا في وصف مصر وتاريخها القديم ونيلها الخالد، «نهر الفردوس»، الذي يخضب البلاد كل عام ويصب بالقرب من الاسكندرية. ولذا فالأمطار نادرة في مصر، الغنية بالحيوانات والنباتات

ونشوء الإسلام وفتوحاته في شمال أفريقيا وفي الشرق. بدأ عهد جديد في حركة الرحلات من أوروبا إلى الشرق الأدنى. ومع أن الاقطاع خلق عراقيل كثيرة في سبيل التنقل الحُر، إلا أن المسيحية ساعدت على تنشيط السفر وتوسيع حركة التجول. إذ أن الدوافع الدينية التي أدت بالأتقياء إلى زيارة الأماكن المقدسة المنتشرة في الشرق الأدنى والبلاد المقترنة بتاريخ الكتاب المقدس هي التي سادت حركة الأسفار الأوروبية إلى الشرق في القرون الوسطى. فبينما كان الرحالة الوثني سائحاً فضولياً، كان سائح القرون الوسطى في الغالب حاجاً إلى بيت المقدس وبلاد الأناجيل. ولذا فإن مذكرات الحجاج إلى فلسطين هي أقدم ما خلفه لنا الرحالون الأوروبيون من آثار مخطوطة عن الشرق الأدنى في أوائل العهد الإسلامي. وقد ظل سيل الأوروبيين يتدفق على سوريا وفلسطين من القرن التاسع الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر، عندما انتقل الحكم إلى أيدي السلاجقة فأخذوا يضيقون الخناق على الحجاج المسيحيين، مما أدى فيما بعد بطريق غير مباشر إلى شن الحملات الصليبية المختلفة. ويضيق بنا المجال هنا لوقمنا بتعداد الحجاج الألمان الذين أمروا الأراضي المقدسة قبل الحملات الصليبية وأثناءها. ولكن القارئ يستطيع الرجوع إلى المؤلفات المختصة التي تتناول هذا الأمر^(١).

وتمشياً مع روح العهد الصليبي والقرون الوسطى فإن روايات رحلات تلك الفترة لا تخمل شيئاً من الود للعرب والإسلام وتزخر بالغيرة على الأراضي المقدسة والخوف عليها من عبث الأيدي المعادية للمسيحية. ومع ذلك فبالرغم من التشابه في لهجة تلك الروايات الأولى إلا أنها ذات قيمة خاصة حيث أنها تقدم معلومات أساسية قيمة عن التاريخ الحضاري للشرق الأدنى في تلك العهود المبكرة، كما أنها تختلف باختلاف شخصيات الكتاب ووجهات النظر التي انطلقوا منها. فهناك مثلاً الرحلة التي قام بها عام ١٢١١ أحد كبار رجال الدين واسمه فيلبراند فون أولدنبورغ على رأس بعثة دبلوماسية من الإمبراطور الألماني أوتو الرابع إلى ملك القدس الأرمني ليوبخنصوص الورثة على عرش القدس. فإلى جانب وصف مدن سوريا وفلسطين وكل من الأماكن المقدسة بالتفصيل يبدأ أولدنبورغ إلى جانب مهمته الدبلوماسية اهتماماً خاصاً بدراسة الشؤون العسكرية في الشرق، مما يتضح من وصفه الدقيق، الفريد من نوعه في تلك الفترة،

(١) انظر إلى المراجع في نهاية المقالة.

الغريبة. ويذكر أنه رأى في القاهرة ثلاثة أفيال حية يصف شكلها وخرطومها وأنيابها بدقة، كما أنه شاهد زرافة بلغ عنقها من الطول بحيث أنها كانت تلتهم طعامها من سطح أحد البيوت المرتفعة. ولكن أكثر ما أدهشه في القاهرة الأماكن التي يفقس فيها البيض بالطرق الاصطناعية. ويدهش صاحبنا لمنظر الأهرام التي شاهد عليها كتابات كثيرة بلغات مختلفة. وقال له بسطاء الناس إن الفراعنة كانوا يستخدمونها كخزانات للمونة، ولكنه اقتنع بعدم إمكان صلاحيتها لذلك، إذ وجد باطنها عند انحداره إليه مليئاً بالحجارة. وتمكن بولدنزليه في القاهرة من مقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي أسبغ عليه حماية خاصة وسلمه إذناً (فرمان) يوصى جميع رعاياه به خيراً، ويسمح له بزيارة الأماكن المقدسة، ويعفيه مع مرافقيه من دفع أية رسوم عن ذلك. وهكذا استطاع رحالتنا أن يتنقل مع حاشيته في ربوع بلاد المسلمين بأمان واطمئنان أكثر منهما في بلاد النصرانية، على حد قوله. فكان في كل مكان يصل إليه يبرز إذن السلطان، فيقف المسلمون ويقبلون التوقيع ويضعونه على جباههم احتراماً، ثم يأمرهم بالحضار الطعام والشراب وتقديم الحراس والمرافقين. وكانت هذه التسهيلات حقاً أمراً نادراً لم يكن رحالة القرون الوسطى ليحلم به.

وفي مسيرة ثلاثة عشر يوماً وصل بولدنزليه سوريا. وفيها جذب البدو اهتمامه، فيصفهم بأنهم قوم رحل يقطنون الخيام ويحملون التروس والرماح ويمتطون الجمال ولا يعبأون كثيراً بالسلطان ولا بتوقيعه، وإن بوسعهم لو اتحدوا أن يحتلوا مصر وسوريا معاً. وعند بلوغ القدس لوحظ الجفاف الذي يحيط بالمدينة، فكانت مشكلة الماء تحل بخزانات يجمع فيها ماء المطر وينقل بقناة من الجيرون إلى المدينة. ورأى بولدنزليه أن المسلمين كانوا يتزعون أحديتهم عند دخول قبة الصخرة، حيث كان يقوم معبد سليمان، وأنهم كانوا يقبلون الأرض مرات عديدة (قاصداً الركوع)، وكان يتمنى الدخول إلى المسجد أيضاً لولا منع ذلك على النصارى. وعومل بولدنزليه في القدس أيضاً بعناية خاصة، حتى أن أمير المدينة ترك له مفاتيح كنيسة القيامة حيث أقام رجال الدين من حاشيته القداس، وتناول بعض أتباعه القربان المقدس. وبعد انتهاء القداس رفع اثنين من رفاقه إلى مرتبة الفروسية، وهذه أول إشارة إلى بدء التقليد في منح لقب فروسية القبر المقدس. وراعى الأمير العربى هذه المراسم حتى أنه لم يكن يسمح

لأحد بدخول الكنيسة دون موافقة بولدنزليه. إن ما كتبه رحالتنا هذا عن فلسطين ومدنها يفيض بالعاطفة الدينية بسبب ما كانت تأثيره هذه الأماكن المقرنة بقصص العهد الجديد في نفسه من أحاسيس، سواء في بيسان أم أريحا أم غور الأردن أم الناصرة. وعندما وصل ورفاقه دمشق أدهشته المدينة بموقعها الجميل ونشاط حركتها وكثرة سكانها. ويصف الحركة التجارية المزدهرة فيها ويذكر القوافل القادمة من بغداد والهند والحملة بالحجارة الكريمة وأصناف الحرير والتوابل والعمود، والمتجهة بهذه السلع غرباً إلى موانئ البحر الأبيض السورية. وهو يشهد في روايته على براعة الصناعات اليدوية الفنية في دمشق، كما يشير بالثناء إلى مهارة أطبائها. واجتاز بولدنزليه جبال لبنان حتى بلغ الساحل بعد ركوب ثلاثة أيام. وقد أثارت مناظر لبنان الساحرة وأصابه العجب لوفرة خيراته وتنوع ثرواته الزراعية، فأراضيه حسنة الفلاحة وجباله غنية بالنباتات، تكسوها أشجار الأرز والصنوبر، وأغلب سكانه من الموارنة الذين، على حد قوله، ينتظرون الحملة الصليبية التالية لمحاربة المسلمين إلى جانب الفرنجة. ومن بيروت ركب بولدنزليه وحاشيته متن البحر وعاد أدراجه إلى أوروبا.

لقد أثارت قصة بولدنزليه منذ صدورها اهتماماً شديداً. فقد كانت شخصية الرحالة مثيرة في غرائبها وتنوع جوانبها. وفي روايته أيضاً تبرز العاطفة الدينية الحياشة امتزاجاً عجيباً بفضل المؤلف وحبه للمغامرة وابتهاجه لمشاهدة عالم جديد غريب. وقد بلغ من قوة تأثير أسلوبه الوصفى أن السير جون مانديفيل، الرحالة الانجليزى الوسيطى الذى تثار التساؤلات حول حقيقة شخصيته، نقل أجزاء كبيرة من قصته نقلاً حرفياً وأدجمها في روايته المتنازع عليها حتى اليوم، التي ظلت أكثر من قرن كامل أحب قصة أسفار في العالم الغربى إطلاقاً. وقد توفي الفارس الرحالة بولدنزليه عام ١٣٣٩ في كولونيا، قبل أن يتمكن من تحقيق تصميمه على دخول نظام الرهبنة.

ومن تأثر برواية بولدنزليه واستند إلى ماورد فيها من معلومات عن الشرق الأدنى حاج وستفالى آخره ولودلف فون زودهايم، كان قد قضى خمسة أعوام متتالية في الشرق وزار بيت المقدس عام ١٣٣٦. وقد كتب هذا روايته باللاتينية ثم ترجمت إلى الألمانية وطبعت عام ١٤٦٨. ولم تكن غايته أن يعطى وصفاً مفصلاً لأسفاره وإنما قصد أن يكون كتابه على نسق دليل سياحى يعطى الحجاج

تعليمات وارشادات مفيدة حول كيفية الاستعداد للرحلة، وأفضل الطرق، ووصف البلاد الواقعة عليها. وقد اشتهر كتابه حتى اعتبر افضل مرجع سياحي للبلاد المقدسة في القرن الرابع عشر.

وفي عام ١٤٨٣ قامت جماعة من الألمان يرأسها زعيم ديني من ماينتز يدعى برنارد فون برايدنباخ بالحج إلى الأراضي المقدسة تكفيراً عن الذنوب مع رحلة طويلة في ربوع الشرق طبعت نفاصيلها عام ١٤٨٦ باللاتينية في كتاب اجتاحت شهرته جميع اوروبا آنذاك^(٢). وكانت جماعته تتألف من نبيلين شابين هما الفارس فيليب فون بيكن والكونت يوهان فون زولز، بالإضافة إلى اثني عشر فارساً وباروناً آخرين، والرسام ايرهاردت رويقتش، الفنان بالنقوش الخشبية، وخمسة قسس ورهبان، ورجالة خبير هو فيليكس فابري، مع عدد من المترجمين والخدم والطهارة والاتباع. وبعد الاستعدادات الواسعة، كان من العسير على افراد هذه المجموعة الكبيرة أن يبدأوا الرحلة الشاقة سوية دفعة واحدة. لذا فقد انقسموا إلى فئات غادرت ألمانيا في مواعيد مختلفة واتفقت على اللقاء في البندقية. ثم اقلعت سفينتهم من البندقية، وبعد رحلة في البحر المتوسط دامت عدة أسابيع وصلوا يافا في أول تموز (يوليو)، ثم فرض أهل المدينة عليهم عزلاً صحياً لمدة اسبوع، سمح لهم بعده بالسفر إلى القدس. وبعد الزيارات التقليدية إلى كنيسة القيامة وبيت لحم وبيسان ونهر الاردن، انقسمت الجماعة ثانية إلى عدة فئات عاد أغلبها إلى يافا، بينما اتجه برايدنباخ واثنان من رفاقه إلى دير القديسة كاترين في جبل سيناء، ومنه انحدروا إلى البحر الأحمر حتى وصلوه في الثالث من تشرين الأول (اكتوبر). وفي القاهرة حصل لهم حادث غريب، فقد ظنهم بعض تجار الرقيق عبيداً فارين، فقبض هؤلاء عليهم وأرادوا بيعهم لولا أنهم نجحوا في مقابلة السلطان الاشرف قايتباي، سلطان مصر، الذي أمر بالافراج عنهم. وفي القاهرة كذلك أدهشتهم «معجزة» فقس البيض بوضعه في روث الحيوانات الحار داخل افران خاصة. وهذا أمر ظل يذكره الرحالون الاوروبيون باستمرار حتى اواخر القرن الثامن عشر. ثم انتقلت جماعتنا هذه منحدره نهر النيل عبر رشيد إلى الاسكندرية حيث مات الكونت فون زولز الشاب من وعثاء السفر وعناء الترحال. وفي الثامن من كانون الثاني (يناير) عام ١٤٨٤ وصل برايدنباخ البندقية.

إن الكتاب الذي يضم قصة هذه الرحلة لا يحتوي على تسجيل وصفي دقيق لمراحلها مع صور من رسم رويقتش فحسب، وانما يقدم وصفاً مفصلاً للأراضي المقدسة وتعليقات وملاحظات طريفة عن عادات وتقاليد البلاد، مع ترجمة لحياة النبي محمد وعُنتصر للتشريع الاسلامي وقاموس موجز للكلمات والتعابير اليومية العربية بالإضافة إلى ارشادات متنوعة للحجاج، ونصائح عملية لاتقاء ومعالجة الامراض المحلية. وقد نالت الرسوم التي حفرها رويقتش شهرة واهتماماً أكثر من النص المخطوط، فهناك خريطة مفصلة للأراضي المقدسة وصور للحيوانات المختلفة كوحيد القرن والزرافة والتساح وقد هائل لم يستطع الرحالون أن يعرفوا اسمه. وهناك رسوم اخرى توضح الأزياء التركية والعربية واليهودية واليونانية والسريانية والهندية. كما أن صورة رويقتش المحفورة بالخشب التي تمثل كنيسة القيامة هي اول صورة مطبوعة لهذه الكنيسة اطلاقاً. وقد احرز الكتاب نجاحاً كبيراً عند صدوره حتى ترجم إلى الألمانية والانجليزية ولغات اخرى. واستخدمه واستند اليه عدد كبير من الرحالين الاوروبيين فيما بعد. واستقى عدد من الرسامين المعروفين مواضيعهم من رسومه. ويذكر لامبرت^(٣) أنه عندما فتح قبر برايدنباخ في كاتدرائية ماينتز عام ١٥٨٢ وجدت جثته محفوظة على أحسن حال بفضل مواد التحنيط التي كان قد احضرها معه من الاسكندرية إلى ألمانيا.

وقبل أن نختم ذكر هذه المجموعة من رحالي القرون الوسطى نود أن نضيف إليها رحلة نبيل ألماني ظلت قصته موضع تساؤل وشك حتى اليوم، رغم صدق ودقة مقاطع كثيرة منها. أما هذا الرحالة فهو آرنولد فون هارف، نبيل من يولش بالقرب من كولونيا، قام برحلة لمدة ثلاثة اعوام كتب قصتها بلهجة الراين الأسفل واكسبته شهرة كبيرة. غادر فون هارف كولونيا عام ١٤٩٦ بدافع زيارة الاماكن المقدسة، ولكن الحماس الديني ليس وحده هو الذي حفزه إلى السفر والتجوال، بل إن حبه للاكتشاف والبحث والتنقيب كان له نصيب كبير في ذلك أيضاً. وبعد أن وصل إلى البندقية أبحر إلى الاسكندرية ومضى إلى القاهرة، ومن ثم إلى جبل سيناء. وهو يودنا أن نصدق بأنه قطع شرفى شبه الجزيرة العربية كله إلى عدن، وأنه أبحر إلى سيلان حيث زار الهند ومدغشقر وجزيرة سقطرة،

(٣) انظر الى المراجع.

(٢) انظر الى المراجع في نهاية المقالة.

وتساق جبال القمر واكتشف منابع النيل، وأنه اتبع مجراه حتى عاد إلى القاهرة ثانية. ويزعم بعد ذلك أنه عاد إلى أوروبا عبر فلسطين وسوريا وتركيا. وفون هارف، ككثير من رجال القرون الوسطى، يمكن أن يصدق في أجزاء من أقواله ولكن ليس في كل ما يرويه. فقصةه تحتوي على الكثير من الخرافات ووحوش البحار العجيبة والخيالات المحاربات. وهناك أحد احتمالين: فاما أن نرفض مغامرة فون هارف عبر شرق الجزيرة العربية، وأن نفترض انه مضى من مصر إلى فلسطين رأساً، ولكنه فضل ابتكار قصة رحلة خيالية تعيده إلى مكان يمكنه، ابتداء منه، أن يسرد حقائق جديدة بالتصديق. أما الاحتمال الثاني فهو أن نصدق زيارته للجزيرة العربية، وفي هذه الحالة لابد لنا من الافتراض بأنه عند بلوغه عدن عاد إلى مصر عن طريق لم يذكرها في روايته، مفضلاً أن يبتكر طريقاً أطول، بحيث أنه لم يصف إلى رحلته شيئاً جديداً فحسب، بل أخفى جزءاً منها في الوقت نفسه أيضاً. ولأسباب فصلها بيكنجهم في مقال له حول أوائل الرحلات إلى الجزيرة العربية،^(٤) يميل المرء إلى تصديق الاحتمال الأول، والقول بأن فون هارف لم يزر الجزيرة العربية ولا الهند ولا أعلى النيل. فالى جانب أسماء مدن لا وجود لها في الجزيرة العربية، فان وصفه لمكة غريب يبعث على الريبة الشديدة في صدقه. فبالرغم من سفره علانية كنصراني، يزعم فون هارف أنه رافق الحج مع عدد من النصارى واليهود حتى بلغوا مشارف المدينة. وإنه لمن المستبعد جداً أن يسمح لغير المسلم بمرافقة الحجاج بعد الاحرام، فكيف بمشاهدة مكة لإطلاقاً. ويود فون هارف أن يقنعنا بأن مكة «مدينة خصبة تحيط بها الحدائق الغناء ذات الثمار الوفيرة النادرة» وأنه كان يجرى إلى جانبها «نهر كبير جميل» يصب في البحر الأحمر. أما المسجد، على حد زعمه، فعلى ارتفاع يفوق أى مسجد آخر في العالم. ويزعم رحالتنا أنه تقدم وجماعته إلى الكعبة «الواقعة في نهاية الجهة الشرقية» من ساحة المسجد «حيث يقوم ضريح النبي». ويمكن الاعتقاد بأن فون هارف كان قد سمع أو قرأ وصفاً للمدينة المنورة وغيرها من مدن الجزيرة العربية، فاختلط الأمر عليه، وجعل ذلك وصفاً لمكة. ولكن رغم اجزاء روايته المشكوك في صحتها، إلا أنه، حيث يصف أماكن زارها بالفعل، يثبت أنه عميق المعرفة دقيق الملاحظة خليق بالثقة. وباحتكاكه بأهل مصر وفلسطين من التجار وجامعاه بالألمان الذين رأهم منتشرين

(٤) ذكر مقاله مع المراجع.

في كل مكان على اختلاف مهنهم، فقد جمع فون هارف معلومات لا يستهان بها عن الشرق الأدنى، بحيث ان وصفه لحياة القاهرة ومشاغليها وأوجه نشاطها وتفاصيل ما كتب عن مصر يفوق كل ما رواه معاصروه. ونذكر من روايته بكل دقة أحوال الطرق والسفر في أوروبا والشرق في تلك الآونة. إذ يولى فون هارف اهتماماً خاصاً بظروف السياحة ويذكر في كتابه كل ما يحتاج إليه المسافر من كلمات وعبارات شائعة وأرقام بلغات البلاد التي يمر بها. كما أنه أولى عناية خاصة بالرسوم التي تبين الملابس والأزياء الوطنية المختلفة.

من كل ما تقدم نذكر أن الدافع الديني الذي اشتد بانتشار الإسلام ظل حتى القرن الخامس عشر هو السائد في حركة سياحة الأوروبيين، بما فيهم الألمان، إلى منطقة الشرق الأدنى. وحتى ذلك الحين ظلت معرفة الأوروبيين عن بلاد العرب مقتصرة على سواحل سوريا والأراضي المقدسة ومصر، كما أن طرق السفر البحرية والبرية ظلت إلى حد بعيد هي نفسها، تطرق دون تغيير اساسي عبر الأجيال. ولكن نتيجة لاكتشاف الطريق البحري إلى الهند حول أفريقيا في القرن الخامس عشر، والاحتكاك بمراكز تجارة الهند والشرق الأقصى الغنية، فقد أخذت الدول البحرية الأوروبية في التنافس على سيادة المنطقة، فقامت مستعمرات برتغالية، واعتقبها الإنجليزية وهولندية وفرنسية في الهند وما حولها، ولعب الدافع التجاري دوره في زيادة أهمية البحر الأحمر وبلاد الشرق الأدنى كجسور موصلة بين أوروبا والهند. وبرزت أهمية سواحل الجزيرة العربية جميعاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأصبحت موضع تنافس شديد بين القوى الأوروبية لأهميتها بالنسبة للتجارة وحماية السفن والطرق التجارية. وكان جميع الأوروبيين الذين ارتادوا سواحل الجزيرة العربية أو اخترقوها خلال هذين القرنين إما مسلمين ارتدوا عن المسيحية، أو غزاة أو رسلاً متكرين كانوا يحملون أنباء هامة إلى أوروبا، أو بحارين انتشلوا من سفن محطمة، أو أسرى معارك بحرية. ونظراً لعجز الألمان آنذاك عن الخوض في ذلك المعترك التجاري، فانه لم يكن لهم نصيب يذكر مما كتبه أولئك الرحالون الأوروبيون المغامرون أمثال فارتيا وألفونسو دالبوكرك والانجليزى مدلتون والفرنسيين باربيير ودي لاغريلوديتير عن الجزيرة العربية من روايات ومذكرات كان لها اثر كبير، رغم ضحالة محتواها العلمي، في إثارة الفضول لمعرفة المزيد عن هذه البلاد وكشف

النقاب عن جغرافيتها ومدنها وسكانها وتاريخها الطبيعي. وإذا حرم الألمان من أى نصيب تجارى فى المحيط الهندى والبحر العربى، إلا أنه كتب لواحد منهم أن يكون الرائد فى تأليف أول كتاب علمى عن اليمن والساحل الغربى للجزيرة العربية فى أوروبا، وأن يكون العضو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من بعثة استكشافية علمية هى الأولى من نوعها إلى بلاد العرب، ليقوم بتسجيل هذه الرحلة. وليصبح كتابه حجر الأساس الذى بنى عليه كل من أعقبه من رحالين ومكتشفين أوروبيين فى ربوع شبه الجزيرة العربية.

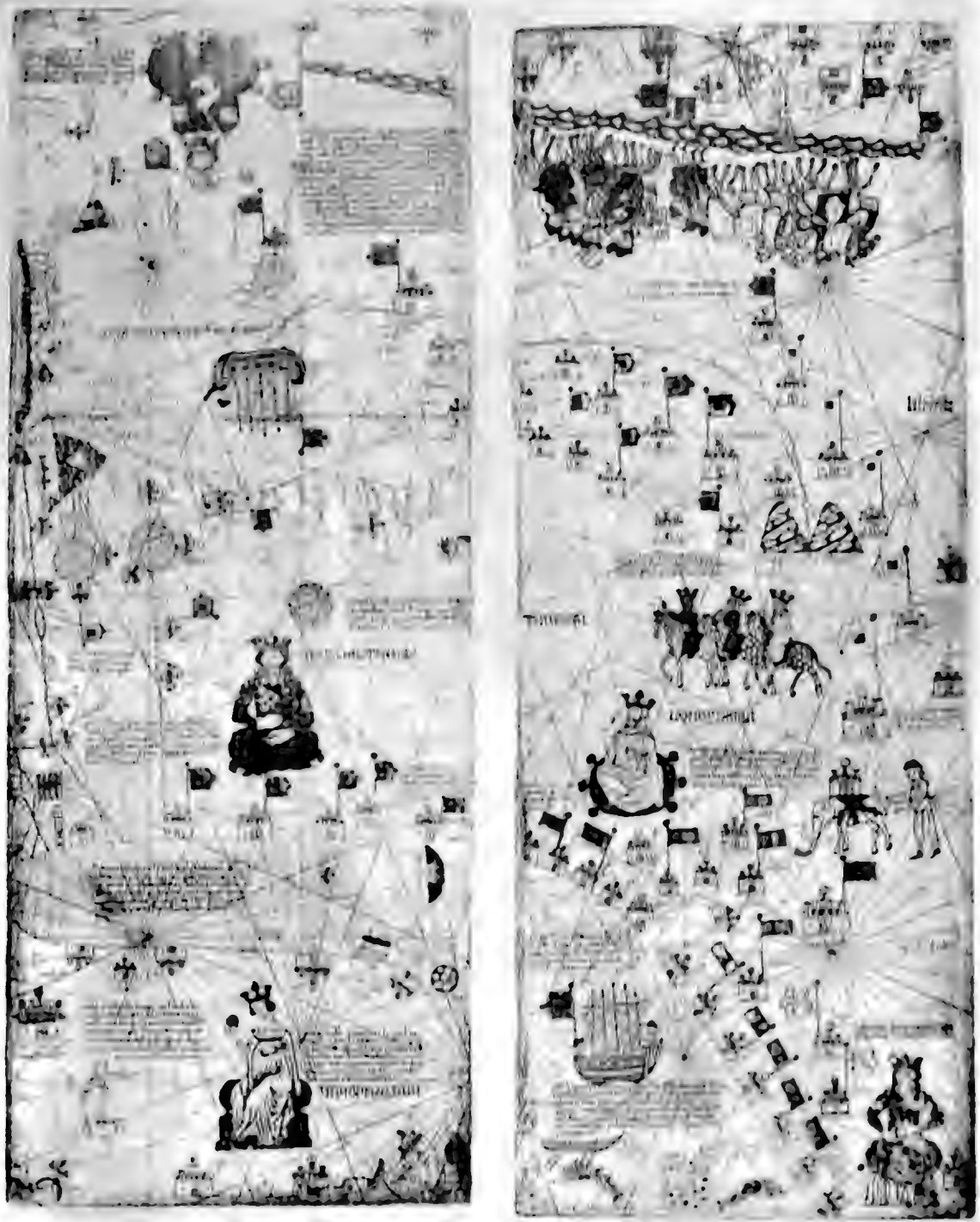
فى منتصف القرن الثامن عشر اقترح استاذ اللغة العبرية فى جامعة جوتنجن الألمانية ومستشار البلاط الدانمركى آنذاك ميشائيلس على ملك الدانمارك فريدريك الخامس ايفاد بعثة علمية إلى شبه جزيرة العرب للقيام بأبحاث جغرافية وأخرى تتعلق بالكتاب المقدس. واختير أعضاء البعثة كل حسب اختصاصه بحيث يتم التعاون فيما بينهم جميعاً دون رئاسة أحد منهم. أما أعضاء البعثة فكانوا: بيتر فورسكال، عالم نباتى، وكريستيان كرامر، جراح وعالم حيوان، وفريدريك فون هافن، عالم لغوى ومستشرق، وجيورج فيلهلم باورنفايند، رسام وفنان، وخادم سويدي يدعى برغ غرن، وأخيراً كارستن نيبور، مهندس المانى ولد عام ١٧٣٣ بالقرب من هانوفر، ودرس المساحة والرياضيات فى جامعة جوتنجن، وشاء القدر أن يكون الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أعضاء البعثة، وعاد بمفرده ليكتب التفاصيل نيابة عن رفاقه الراحلين.

غادرت البعثة كوبنهاجن عام ١٧٦١ واتجهت إلى القسطنطينية ومنها إلى الاسكندرية فالقاهرة. ثم اجرت من السويس على البحر الأحمر عابرة ينبع حتى بلغت جدة. وكانت الرحلة لا تخلو من الخطر بسبب الصخور المرجانية والتنوءات الكثيرة وازدحام السفينة بالمسافرين. ويسجل نيبور أن التحصينات القديمة التى بنيت فى جدة لمقاومة البرتغاليين كانت مدمرة، وكانت بيوت جدة معظمها من الخشب وينقل الماء إليها على ظهور الجمال من خزانات على التلال المجاورة. ولم يكن ميناء البلدة أكثر من سوق تجارية بين الهند ومصر، يسيطر عليها الانجليز. وبعد انتظار شهرين فى جدة، حيث عومل الرحالون الأوروبيون بكثير من الود والتساهل، ظهر فى الميناء مركب متجه إلى الحديدة، فاستقلوه رغم صغر حجمه وغرابة شكله. وبعد ستة عشر يوماً بلغوا لهما، وكان حاكمها رجلاً مهيباً، مستقيماً، حسن الطباع. وأخفى الرحالون عن

حاكم لهما غايتهم من استكشاف اليمن. واخبروه أن وجهتهم مخا حيث سيلتحقون بسفينة انجليزية إلى الهند. كانت لهما بلدة فيها عدد قليل من البيوت الحجرية. أما أغلبها فقد بنى بالطين، بينما نمت الأعشاب الكثيفة على سقوفها. وكان اقرب مكان لماء الشرب يبعد ثلاثة أميال عن البلدة البائسة فى ميناها، والتى تعيش بالدرجة الأولى على تجارة القهوة. وكانت بلدة بيت الفقيه المركز الداخلى لتجارة القهوة فى طريقها من جبال اليمن إلى لهما والحديدة ومخا. وكانت الحديدة ذات مرفأ صغير افضل بقليل من مرفأ لهما. أما مخا فكانت الميناء الرئيسى لتجار القهوة القادمين من مصر وسوريا وايران وشمال افريقيا.

وعندما زار أعضاء البعثة بيت الفقيه استقبلهم الحاكم المحلى بكرم وود، وسمح لهم بالتنقل فى كل مكان، فالتقوا هناك بعدد من المثقفين العرب الذين لم يكن منظر الأوروبيين امراً غريباً عنهم. ومن بيت الفقيه قاموا بجولات عديدة عبر اليمن، فزاروا تعز وصنعاء والقرى الجبلية، ووجدوا أن السياحة فى اليمن اقل خطراً منها فى أى بلد آخر. ولتجنب اللصوص واستبعاد الشكوك اتخذ نيبور زى رجل فقير بسيط وامطى حماراً وراح يحول فى ربوع تهامة حتى تعرف إلى جميع بقاعها. وفى المرتفعات الداخلية اكتشف مزارع القهوة، حيث كانت الصخور البركانية تستخدم كجدران داعمة لمزارع القهوة التى جعلت شرفات مدرجة. ورغم ثروة البلاد بزراعة القهوة، إلا أن هذا المنتج الزراعى كان عاجزاً عن كفاية كثير من القرى التى كانت تضمحل تحت وطأة الفقر وسوء الحال، والتى كانت الذرة تشكل الطعام الرئيسى لسكانها.

وفى مخا اسبثت معاملة رحالينا فى بادئ الأمر، ثم أحسن اليهم بعد أن نجح كرامر فى معالجة حاكم المدينة. ويصف نيبور تجارة مخا التى يحتكرها الانجليز، كما يذكر الامتيازات التى كانت تمنحها لهم سلطات الجمارك والمكوس خلافاً لغيرهم من التجار العرب والأتراك والهنود. وخلال فترة اقامتهم فى مخا فجعوا بموت فون هافن بعد مرض شديد ثم دفن فى مقبرة الأوروبيين هناك. ثم غادرت الجماعة مخا تلبية لطلب الإمام بالمثل بين يديه فى صنعاء، وفى منتصف الطريق مات فورسكال بعد مرض شديد أيضاً، بحيث خسرت البعثة بهاتين الضحيتين أفضل مستشرق وأبرع نباتى بينهما. ولما وصل الرحالون صنعاء استقبلهم الامام بالترحاب والود. ويصف نيبور القاعة الكبيرة ذات السقوف المقوسة حيث كان الامير يجلس



الخريطة الخامسة في «الأطلس القتالاني» الذي رسمه «كريسكس» في مدينة بالمّا على جزيرة مايوركا الإسبانية عام ١٣٧٥.
 Safari-Verlag, Berlin. نشر سافاري لتصرييحها لنا بنشر هذه اللوحة.

متربعاً على الوسائد الوثيرة، وعليه ثياب خضراء فاخرة موشحة بالذهب. وبعد تقبيل يديه وأطراف ثوبه، أخبره الرجالون بأنهم في طريقهم إلى الهند وأنهم مروا ببلاده لينقلوا وصف ثروتها ورخائها وأمنها إلى أبناء بلادهم. وعندها سمح لهم الامام بالبقاء ما شاءوا. ولكنهم لم يمكثوا أكثر من عشرة أيام حاولوا أن يجمعوا فيها أكثر ما يمكن من معلومات عن المدينة وما جاورها. ويذكر نيبور أن صنعاء كانت محاطة بسور من الطابوق وأنه بنيت اقنية في الجبل المجاور لنقل المياه الوفيرة إليها. وكان في المدينة سبع بوابات، واثنان عشر حمماً وعدة قصور فخمة. وكان السكان أقل عدداً مما كان مظهر المدينة ينم عليه لأول وهلة، إذ كانت الحداثي تغطي معظم مساحتها المترامية الأطراف. وبني بعض البيوت بالحجارة، بينما بنى معظمها بالطابوق الخفيف بحرارة الشمس. ولم تكن الاخشاب المستخدمة في التجارة وفيرة بل كانت تجلب من مكان يبعد بمقدار رحلة ثلاثة أيام من صنعاء. ولكن الفواكه كانت وفيرة، فمن الاعناب وحدها كان يوجد عشرون صنفاً بحيث كانت تصدر كميات كبيرة من الزبيب. ويصف نيبور كثيراً من مظاهر المدينة الاجتماعية بحيث قدم في ذلك معلومات جديدة تماماً بالنسبة لابناء عصره، كوصفه لعادات اهل البلد وحياتهم اليومية واصحاب الحرف اليدوية الذين كانوا يعملون في الطرق العامة، وخانات المسافرين والتجار، والحمامات العامة، ومازالت الصورة الزاهية التي رسمها نيبور لصنعاء تمتع القارئ حتى اليوم.

وعندما غادرت الجماعة صنعاء بعث الامام لكل من افرادها بمجموعة من الملابس الوطنية كهدية منه، كما جهزهم برسالة إلى حاكم نجا ليرسلهم ببعض المال. ويذكر نيبور ان الامام كان من السخاء والحدود تجاه الغرباء بحيث كان الأتراك كثيراً ما يستغلون طيب معدنه فيمكثون الشهور الطويلة في صنعاء يتسكعون وينفقون على حسابه. وتحت وطأة شمس آب مرض نيبور وكرامر وباورنفايند في طريقهم إلى نجا. وحين غادروها واتجهوا إلى الهند مات باورنفايند وبرغ غرن أثناء الطريق، وفي بومباي مات كرامر بعد بضعة شهور. وهكذا فقد فرض مناخ اليمن الحار ضريبته على أرواح الجميع باستثناء نيبور الذي ظل أربعة عشر شهراً في بومباي عاد بعدها إلى أوروبا عبر مسقط وخليج البصرة والعراق وسوريا. وكان من نصيب نيبور، الذي قاوم حتى النهاية، وأبدى نشاطاً وهمة وقوة احتمال لاحد لها خلال الرحلة كلها، أن يكتب قصة

هذه الحملة الاستكشافية وحده. وقد حاول بنجاح كبير أن يسجل الاكتشافات التي قام بها جميع افراد البعثة، لا مغامراته وحدها فقط، لا بل إن قصته تكاد تخلو من أى طابع شخصي يتعلق بذاته هو، ويمكن اعتبار كتابه خلاصة نتائج هذه البعثة وتنصهر فيه اعمال جميع اعضائها، رغم أن البعثة انتهت قبل موعدها المرسوم ولم تحقق كل المهمات التي كان ملك الدانمارك قد حددتها لها.

وكجميع كتب رحلات القرن الثامن عشر، فإن رواية نيبور حافلة بكل ما يمكن تسجيله من ملاحظات ومعلومات كانت تعتبر ذات أهمية لإنسان ذلك القرن، الذي يدعى بحق عصر التفتح العقلي. فيحتوي كتابه على وصف كل ما يمكن أن تقع عليه عين اوروبى متعطش للمعرفة، كما أنه يحاول الجواب على كل ما يدور برأسه من اسئلة : فمن وصف عام لمصر ومدنها وسكانها وتجارها، مع تفاصيل ممتعة عن آلات الري والفلاحة والطواحين وعصارات الزيت وأفران تفقيس البيض، إلى وصف حياة أهل مصر وأزيائهم ومبازلهم ولهولهم في ساعات الفراغ، إلى وصف عام لموانئ الجزيرة العربية وحركة تجارتها النشيطة، وبحث مناخها وجغرافيتها وسكانها، وتعليقات عن الدين الإسلامى ومذاهبه وتعريف بالعرب الحاضرة والبدو وعاداتهم وتقاليدهم. ولكن ما يميز كتاب نيبور عن أمثاله من كتب الرحلات في عصره أن الصفة الغالبة في أسلوبه هي روح البحث العلمى المجرد عن التحيز والحكم المسبق، فعقله المتزن، وتفكيره الهادئ الذي لا يعرف التغرض لم يؤديا به إلى التسرع في اصدار احكام سطحية حول البلاد وسكانها. ولعل لأصله الرينى الألماني، والغاية العلمية من رحلته الفضل في خلو لهجته من «الروح الامبريالية» التي تميز الكتب الاوروبية الاخرى عند الحديث عن العرب وسكان بلاد الشرق الأدنى. فهو لم يعتبر نفسه قطعاً أسمى من اولئك الذين جاء ليدرس أحوالهم، بل كان ينظر حوله بعين الفيلسوف الذي يرى الكل من خلال الجزء، ويدرك الأمر الأساسى من الحدث العارض. وكانت الصفات الانسانية العامة هي التي تجذب اهتمامه، وروح الانصاف هي التي تملى عليه احكامه، كما أنه لم يكن متأثراً بوهم التفوق الاوروبى العنصرى بحيث يحرمه ذلك من الشعور بالود تجاه شعب شرقى. ولذا فقد تكيف لتقاليد اليمن فوراً، دون أن يخطر على باله أن في ذلك أى مس لكرامته ولسمعة بلاده؛

وانحنى لامام اليمن وقبل يديه كعاهل لا يقل في بلاده
قدراً عن الملك فريدريك في الدانمارك .

لقد ظل كتاب نيبور لأكثر من قرن ونصف قاعدة
ونموذجاً أصيلاً لكل من يريد أن يعرف شيئاً عن بلاد
العرب، ومرجعاً لكل رحالة جاب الجزيرة العربية بعده.
وإن ميزته العظيمة كمرجع علمي تعود بالدرجة الأولى
إلى شدة نيبور في ضبط نفسه وكبح جماحها. وإن هذه
الموضوعية التي تميز كتابه تملأ القارئ كذلك بالثقة في صدق
ودقة ملاحظات المؤلف وتعليقاته. وقد ثبت صدق هذه
الملاحظات أمام امتحان الأجيال القادمة من الرحالين
بحيث يحار القارئ في أيهما يمتدح أكثر : الدقة والصدق
في وصف ما رآه نيبور بعينه، أم التمهيص والصحة في
ذكر ما جمعه سماعاً أثناء تحرياته الشخصية عن البقاع
التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه. فقد كانت مهمته
أن يخبر ملكه ومواطنيه عن الجزيرة العربية كلها، وليس
عن اليمن وحدها فقط. ولذا كان ملماً بأهم المؤلفات
العربية والأوروبية عن جغرافية الجزيرة العربية، فقد كان
حريصاً على سؤال كل من كان يصادفه من العارفين
وجمع كل ما كان يسمعه من أقوال المتعلمين المثقفين
في الخانات والمقاهي والأسواق العامة من جدة حتى
صنعاء. وكان يقارن ويمحص ويدرس حتى ينتهي إلى القول
الأكثر صدقاً والأقرب من الحقيقة؛ وإن ذلك القسم
من كتابه الذي يتناول فيه بقاع الجزيرة التي لم يزرها
بنفسه هو الأكثر قيمة، حتى يمكن القول بأنه قدم
أوروبا من مرتبة التخمين إلى مرتبة المعرفة عن شبه
الجزيرة العربية .

أما أهم ما سجله نيبور بعد تمحيص وتحقيق فهي الحركة
الوهابية بعد أن أدرك بعد نظره خطورتها وطاقها النامية
في الجزيرة العربية. ولو اعتبرنا ملاحظاته عن الاسلام
عموماً لوجدناها تميل إلى الإيجابية أكثر من التجريح.
فقد أدرك أن المبادئ الأساسية والأركان الأصلية للاسلام
ليست عداوية بطبيعتها، وأن المسلمين عموماً لا يضطهدون
اتباع الأديان السماوية الاخرى إلا إذا شعروا في ذلك
بتهديد مباشر لهم. وعرف أن النبي دعا إلى الايمان بدين
أكثر بساطة في الأصل مما أضاف إليه المفسرون والمؤولون
فما بعد من بدع وتعتيدات. وفي الكلام عن الحركة
الوهابية يقول :

«منذ حين من الزمن نشأت حركة دينية جديدة ...
أشعلت ثورة في أرجاء شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل

فيما بعد أن يزداد نفوذها في البلاد ... فقد علم عبد الوهاب
أن الله وحده هو الخلق بالعبادة والدعاء، كخالق الكون
وسيد العالم ... واعتبر محمداً وعيسى المسيح وموسى
وغيرهم من الأنبياء عند السنة مجرد عظماء يمكن قراءة
سيرهم وتواريخهم مع التصحيح، وأنكر أن يكون أى كتاب
قد كتب بالوحي الالهي، أو انزل من السماء على يد
جبريل ... إن دين عبد الوهاب الجليل يستحق إذن
أن يعتبر اصلاحاً للدين الحمدي، معيداً إياه إلى بساطته
الأصلية. ولعله ذهب في ذلك إلى ابعد مما فعله غيره
من المصلحين ... »

ورغم أن نيبور لم يتعرض إلى ذكر آل سعود من الدرعية،
الذين ناصر المصلح الديني وكتب لهم أن يلعبوا دوراً
تاريخياً كبيراً، إلا أن ما ذكره عن الوهابية في أوائل
عهدهما وعن سيرة المبشرين بها محمد بن عبد الوهاب
موضوعي وصائب إلى حد بعيد .

لقد صدر كتاب نيبور «رحلات خلال جزيرة العرب»
بالألمانية عام ١٧٧٢ ثم ترجم إلى الفرنسية والانجليزية
وظل المرجع الوحيد عن اليمن والجزيرة العربية لأكثر
من نصف قرن. أما نيبور نفسه فقد عاد عام ١٧٦٦
وقوبل بما يستحقه من تكريم علمي واجتماعي وأصبح
عضواً لعدد كبير من الجمعيات العلمية حتى مات عام
١٨١٥.

منذ صدور كتاب نيبور عام ١٧٧٢ حدثت أمور كثيرة
في منطقة الشرق الأدنى مما زاد من فضول الأوروبيين
لزيارة هذه البقاع ومعرفة المزيد عن قلب الجزيرة العربية.
فقد تحققت نبوءة نيبور بشأن حركة الوهابيين التي أخذت
تحتاج أرجاء الجزيرة العربية. ولا يتسع المقام هنا لسرد
الوقائع التاريخية التي حدثت في المنطقة حتى بداية القرن
التاسع عشر بالتفصيل، ولكن يكفي القول بأن نهضة
الوهابيين واستيلاءهم على مكة ثم تدخل الأتراك وحملة
نابليون في مصر وانتصار محمد علي على ممالك مصر،
كل ذلك ساعد على مضاعفة اهتمام أوروبا بالشرق
الأدنى. وقد جاب عدد لا يستهان به من الأوروبيين
بلاد العرب في المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر
وكتبوا قصص رحلات لا تخلو من الأهمية، ولكن رحالة
ألمانياً جريئاً جمع بين العلم والمغامرة يجذب اهتمامنا بوجه
خاص، إذ يشكل حلقة الوصل بين نيبور المدقق الأمين،
وبوركهارت الفقيه المتبحر في علوم الدين الإسلامي واللغة
العربية، وكاشف النقاب عن مكة والمدينة. أما هذا
الرحالة فهو اولرش ياسبر زيتسن.

العلمي، فهي زاخرة بالمعلومات القيمة في حقول الحيوان والنبات والتعدين والزراعة والجغرافيا والتاريخ القديم. وقام عدد من العلماء باصدار مذكراته بعد موته بعدة أعوام^٥). وهكذا فإن المأساة التي حُرمت أوروبا من اكتشافات عظيمة الأهمية ومن ثمرة أبحاث هذا العالم الجريء المغامر في الحجاز واليمن قد حرمت كذلك من بعض الشهرة التي كتب لها أن تكون من نصيب رحالة من أصل سويسري عريق.

ولد يوهان لودفيج بوركهارت عام ١٧٨٤ في لوزان ودرس منذ عام ١٨٠٠ في لايبزغ، ومنذ ١٨٠٤ في جوتنجن. ولما رفض الخدمة تحت راية نابليون فقد سافر عام ١٨٠٦ إلى إنجلترا ودرس اللغة العربية والعلوم الطبيعية في لندن وكامبردج بتعمق ومثابرة. استعداداً للقيام برحلة إلى الشرق وأواسط أفريقيا بتكليف من الجمعية الأفريقية البريطانية. وفي ١٤ شباط (فبراير) عام ١٨٠٩ أبحر إلى مالطة ومنها إلى حلب متنكراً كتاجر مسلم هندي باسم الشيخ إبراهيم بن عبد الله. ليستطيع بذلك تبرير أية لكنة أجنبية قد تلاحظ في نطقه العربي. واستغل إقامته في سوريا (ما بين حلب ودمشق) في التبحر في دراسة لغة وتاريخ وجغرافية بلاد العرب والإسلام. وكان يقنع سائليه من السوريين إذا طلبوا إليه أن يتكلم الهندستانية بالتحدث بالألمانية السويسرية التي تمتاز بالأصوات الحلقية. غير أنه تمكن أثناء إقامته في سوريا من إتقان العربية والتحدث بها بطلاقة ونطقها على الوجه الصحيح، ومن التضلع في اصولها، حتى أن بعض فقهاء حلب كانوا يستعينون بمعرفته أحياناً على تفسير بعض النصوص والمسائل المعقدة. وسافر بوركهارت خلال الفترة ما بين ١٨١٠ و ١٨١٢ إلى لبنان وحوارن وشرقي الأردن، وأهم كثيراً بما شاهده من آثار وكتابات من عهد تراجان وماركوس أوريلوس. وأثناء طريقه إلى القاهرة في منتصف عام ١٨١٢ اكتشف آثار البتراء القديمة مما أذاع شهرته بين علماء الآثار في كل مكان في العالم. وكانت خطة بوركهارت أن يبدأ رحلته الاستكشافية الأفريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة في القاهرة، تمكن من مقابلة محمد علي باشا، الذي أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمهده بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبة. وإذا اعتبر هناك جاسوساً لباشا مصر فقد منع من مواصلة رحلته، فألتحق بقافلة كانت تسير كل عام

(٥) ذكر الكتاب مع المراجع.

ولد زيتسن عام ١٧٦٧ في قرية صوفينغروند في شمال ألمانيا ودرس في جامعة جوتنجن الطب والعلوم الطبيعية والهندسة وساهم منذ حداثة سنه بنشاط علمي كبير ببحث أشهر اسمه في أوروبا بفضل مقالاته العلمية في حقول الحيوان والنبات والاقتصاد. وتوجت جهوده العلمية عام ١٧٩٥ بتعيينه عضواً في جمعيتي الأبحاث الطبيعية في برلين وفيينا. ونظراً لصلاته الوثيقة بأهم علماء الفلك والطبيعة والجغرافيين والرحالين فقد صمم على القيام برحلة إلى الشرق وأفريقيا يقطع فيها الشرق الأدنى حتى يصل أفريقيا الغربية لاكتشاف منابع النيجر. وتعهد الدوق فون غوتا بحماس برعاية رحلته وتأمين كل ما يحتاج إليه من آلات فلكية وجغرافية. وفي ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٨٠٢ غادر زيتسن منطقة ييفر إلى غوتا ثم فيينا. وعبر البلقان إلى القسطنطينية حيث مكث فيها ستة شهور. وبعد جولة في جزر الأرشipel انتهى في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٠٣ إلى حلب ومكث فيها عاماً ونصف العام ليتعلم العربية. ثم سافر إلى دمشق ومكث فيها وقتاً طويلاً وعبر جبال لبنان، ومر بصور، ثم انحدر إلى القدس ووصلها في ٧ نيسان (أبريل) عام ١٨٠٦. وتجول في أرجاء فلسطين ثم انحدر بعد عام إلى منطقة البتراء وعبر صحراء سيناء واجتاز السويس إلى القاهرة. وهنا مكث من مائس عام ١٨٠٧ حتى آذار (مارس) ١٨٠٩. وبعد جولة إلى الفيوم عاد إلى السويس وأبحر منها إلى جدة، ومضى منها إلى مكة التي بلغها في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٠٩ وبقي فيها مدة يرسم خطة دقيقة للكعبة. وبعد الحج زار زيتسن صنعاء وعدن، ثم اتجه من الساحل إلى مرتفعات اليمن مع عدد من الجمال متنكراً كطبيب شرقي باسم الحج موسى. ولكنه قتل بالقرب من تعز ولم يعرف القاتل ولا سبب القتل حتى الآن، ولكن الغالب أنه لم يقتل طمعاً في أمواله وقافلته وإنما بايعاز من إمام صنعاء الذي شك بحقيقة إسلامه والغرض من رحلته. وعلى أي حال فقد سبق لزيتسن أن مر بامتحن دقيق على أيدي الوهابيين في مكة وأثار الشكوك حوله هناك، وكان خطوه أنه سافر عبر الطريق نفسها. وكان زيتسن أثناء رحلته قد بعث بعدة مخطوطات وقطع أثرية إلى غوتا وهي تشكل المحفوظات الأساسية للمتحف الشرقي هناك، كما أنه كان قد بعث برسائل وأبحاث نشرت في عدة مجلات معاصرة. ولكن أغلب مذكراته وكتابه وحاجاته فقدت، ولم ينقذ منها إلا ما كان قد أرسله إلى أوروبا. ومن هذه المذكرات يتضح مدى اهتمام زيتسن باستخدام رحلته لأغراض البحث

ut in eis erudiret israelitem et ut consuetudinem haberent prestandi ꝛc. Sic fortassis id ipsum non incongrue dici potest in proposito ut scilicet et sarracenos dimittat dñs vel in flagellum vel exercitui populi xp̄i m. Sed ego nichil temere diffiniens id doctoribus relinquo. Hoc unū scio psallim ista testante quia iudicia dei abissus multa ꝛc. Quis autem nouit sensum dñi aut quis consiliarius eius fuit. Apostolus etiā clamat. Valtitudo diuitiarū sapientie et scientie dei. q̄ incōprehensibilia sunt iudicia eius et inuestigabiles vie eius. Et tantū de Sarracenis.



Sarraceni lingua et littera vniuer Arabicā hic inferiūs subimpressa.

Dal	Dal	Kel	Heid	Gym	Tech	Te	Be	Aleph
د	د	ك	ه	ج	ت	ت	ب	ا
Ayn	Daab	Ta	Daab	Bad	Badym	Gym	Zaym	Fe
ع	ب	ط	و	و	ل	ل	ز	ف
hehe	Nun	Mym	lam	lam	capl	Enbl	ffa	Saym
و	ن	م	ل	ل	ك	ع	ف	س
Waf	ye	lam	Waf					
Waf	ي	ل	و					

من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى سجندي وسنار. وفي سجندي تحول مع قافلة أخرى عبر طريق لم يطررها أوروبي بعد، تمر ببر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة.

وهنا لابد من ذكر عرض موجز لما حدث في الجزيرة العربية من تطورات على يد الوهابيين وبسببهم منذ غادر نيبور اليمن حتى دخول بوركهات الحجاز. فحين مات ابن سعود عام ١٧٦٥ الذي كان قد ناصر محمد بن عبد الوهاب، واستطاع بسيفه وعشيرته أن ينشر الفكرة الجديدة ويوطد أركانها، كان الوهابيون يسيطرون على جميع أرجاء نجد. وواصل ابنه عبد العزيز مهمة أبيه فهدد مكة، وبعث بابنه سعود إلى خليج البصرة فاكتمل الكويت، ثم اجتاحت كربلاء وهدد حدود بغداد. وفي عام ١٨٠٣ دخل الوهابيون مكة ولكن أهلها قتلوا رجال حاميتهم فيها بعد حين. وباءت محاولة الوهابيين في الاستيلاء على المدينة وجدة بالقتل. ولكن بعد مقتل عبد العزيز في العام نفسه جدد ابنه سعود الهجوم على الحجاز فاستولى على المدينة المنورة عام ١٨٠٤ وعلى مكة عام ١٨٠٦ وعلى جدة بعد ذلك بقليل. وفي الأعوام التالية تخلى غزاة الوهابيين حدود الجزيرة العربية فهاجموا النجف ودمشق التي قاومتهم بنجاح. وفي عام ١٨١١ كانت امبراطورية الوهابيين تمتد من حلب شمالاً حتى المحيط الهندي، ومن خليج البصرة والعراق شرقاً حتى البحر الأحمر. وبلغ ذعر الحكومة العثمانية حداً بعيداً، حتى حث محمد علي باشا والحت عليه مراراً في القضاء على نفوذ الوهابيين. وأرسل محمد علي ابنه طوسون على رأس جيش لم يستطع الصمود في بادئ الأمر، ولكنه تمكن بعد تعزيزه من استرجاع المدينة عام ١٨١٢، ومكة عام ١٨١٣. ورغم قيام محمد علي بنفسه بقيادة جيش مصري أواخر عام ١٨١٣، إلا أنه أصيب بخسائر جسيمة؛ غير أن المقادير شاءت أن تضرب الوهابيين بموت قائدهم سعود في أول مايس عام ١٨١٤، أي قبل دخول بوركهات إلى جدة بشهرين. وبعد أربعة أعوام تم القضاء على الامبراطورية الوهابية الأولى عام ١٨١٨ عندما اعتقل ابن سعود وخليفته عبد الله على يد ابراهيم باشا وتم اعدامه في القسطنطينية.

وهكذا فقد كان من حسن طالع بوركهات، ومما ساعد على تحقيق زيارته إلى مكة والمدينة أن وافى المنية سعود قبل دخوله جدة بشهرين، وأن كان محمد علي، المنحدر المتسامح، الذي سبق أن قابله في القاهرة موجوداً في الطائف آنذاك. ولم ير بوركهات في جدة أكثر من بلدة

ذات بيوت حجرية مرتفعة، وجدران تحطف الابصار لشدة بياضها، وتحصينات مهذمة، ومدفع كبير وبضعة أشجار نخيل، وصحراء جرداء تحيط بها من كل جانب. وكانت جدة قد اضمحلت تحت حكم الوهابيين بسبب ضعف مواسم الحج، وخوف التجار من إرسال بضائعهم إلى بلاد يعوزها الاستقرار. أما سكان البلدة فكانوا خليطاً من العرب الحجازيين الاقحاح، واليمنيين والحضارمة والمصريين والسوريين والأتراك والهنود وأهل الملايو. وكان كثير من هؤلاء من يتزوج من الجوارى الحبشيات. وكانت جدة ميناء الجزيرة العربية ومصر، وسوق البضائع الهندية وقهوة اليمن. وكان مدى رخاء البلدة يتوقف كلياً على نشاط تجارتها. ولم تقم فيها صناعة بناء السفن لافتقارها إلى الاخشاب اللازمة. ولم تكن حرفها لتتجاوز الحاجات المحلية كالخياطة وصناعة النعال. ويختتم بوركهات وصفه المفصل لجدة بالتنبؤ التالي:

«عندما ستضمحل سلطة الأتراك في الحجاز، وهذا ما سيحدث عندما تنقطع موارد مصر عن التدفق على ذلك البلد بفضل حكم قدير مستقر كحكم محمد علي لمصر، فسيأخذ العرب بثأرهم للخضوع الذي يتقبلونه مرعفين تجاه قاهريهم؛ ومن المحتمل أن ينتهي حكم العثمانيين في الحجاز بعد مشاهد كثيرة من سفك الدماء.»

ثم واصل بوركهات رحلته من جدة إلى الطائف، حيث كان محمد علي قد أقام مقراً لقيادة جيشه، وعبر الطريق فوق سلسلة من التلال والصخور الجرداء تتخللها الوديان الحصبة. وكجدة، فقد كانت الطائف قد انهارت كذلك تحت حكم الوهابيين، فبدت خرائب تكاد تكون مهجورة، بينما كانت في السابق سوق القهوة اليمنية عبر الطريق البري. وكانت تمتد فوق سهل رملي تحيطه تلال منخفضة تنتشر على سفوحها البساتين وحقول الحنطة والشعير ترونها الجداول المنحدرة من المرتفعات.

وفي الطائف استطاع بوركهات، بفضل تبحره في اصول الدين والفقه الإسلامي وقواعد اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير أن يزيل كل شك حول حقيقة اسلامه بعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً أمام قاضي مكة الذي كان موجوداً في الطائف آنذاك. ولا تخلو مقابلاته مع محمد علي في الطائف، وما كان يدور بينهما من أحاديث، من أهمية تاريخية ومن طرافة في لقاء أضواء على جوانب من دهاء ذلك الحاكم الكبير وطريقة تفكيره السياسي.

وغادر بوركهات الطائف في بداية أيلول (سبتمبر) متجهاً إلى مكة حتى وصلها بعد رحلة يومين في جو عاصف.

وفي مكة قام قبل كل شيء بفرائضه الدينية داخل بيت الحرام. وحضر مراسيم الحج على جبل عرفات، وأمضى ليلته في مسجد المزدلفة واشترك في مراسيم الرجم والتضحية في وادي منى. وأطلق موكبا الحج السوري والمصري مدفعين إعلانياً بفجر يوم الحج وايداناً بموعده الصلاة. ومن قمة عرفات أشرف بوركهارت على السهل الممتد دونه واستطاع أن يعد حوالى الثلاثة آلاف خيمة، الفان منها للموكبين السوري والمصري والمرافق محمد على وجنوده وألف لعرب الحجاز. أما أغلب الجموع فقد كان بدون خيام. وعندما خيم الليل حملت آلاف المشاعر، ورفع أربعة وعشرون منها أمام باشا مصر، محمد على، ومثلها أمام باشا دمشق، سليمان. واطلقت المدافع والصواريخ في السماء وراحت الفرق الموسيقية تعزف، وانتقلت جموع الحجاج في هرج صاخب إلى المزدلفة. وبعد خطبة الامام أدى الحجاج فريضة صلاة العيد ثم انتقلوا إلى وادي منى. إن وصف بوركهارت لتفاصيل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة وزيارة العمرة وعرفات ووادي منى وملاحظاته عن مكة عموماً واهلها ومظهرهم وعاداتهم ونفسياتهم وتجارتهم ادق واتم ما كتب لإطلاقاً حتى أنه لم يترك شيئاً جديداً يوصف لمن جاء بعده من الأوروبيين إلى بيت الحرام. ومن ملاحظاته المهمة أيضاً وصف قوافل الحج المختلفة وطرق تحركاتها، واهمها الموكبان السوري والمصري، وتليهما قوافل حجاج إيران التي تمر ببغداد ثم يتصل قسم منها بالموكب السوري وقسم يواصل السفر عن طريق البصرة، وقوافل شمالي أفريقيا التي تمر بتونس وطرابلس ثم تلتحق بالموكب المصري.

بعد القيام بما تبقى من الفرائض في وادي منى وفي مكة سافر بوركهارت في كانون الثاني (يناير) عام ١٨١٥ إلى المدينة المنورة وزار ضريح الرسول. ولكنه أصيب في المدينة بحمى اطرحته الفراش. ولما تحسنت صحته قليلاً انحدر إلى ينبع ومنها إلى القاهرة حيث انشغل بمراجعة مذكراته واتمامها لنقلها إلى الجمعية الافريقية، وفي الوقت نفسه أخذ ينتظر قافلة فزان طويلاً ليرافقها ويواصل رحلته إلى أفريقيا. ولكن قواه التي انهكها المرض خائته، ففاضت روحه في الوقت الذي كانت القافلة قد استعدت فيه للسفر في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨١٧. ودفن في المقبرة الإسلامية بعد أن اقيمت له جنازة خليقة بابرهم بن عبد الله، الحاج التقي الورع، والعلامة الضليع.

وكالرحالة نيبور، فان بوركهارت عالج جزءاً محدوداً،

ولكن هاماً في الوقت نفسه، من شبه الجزيرة العربية. إذ أن المنطقة التي استكشفها نيبور كانت هامة بالنسبة للأوروبيين بسبب شهرتها العريقة بالتجارة والخصب. ولكن المناطق التي استكشفها بوركهارت في الحجاز كانت لاتزال سرّاً عميقاً مبهماً، ولم تكن علاقتها بالتجارة بمقدار ارتباطها بتعاليم ومراسيم دين غريب عن الأوروبيين. مثير لدهشتهم بقوته وثباته. وهكذا فقد غادر بوركهارت الحجاز وهو يحمل معه أدق تفاصيل سجلت قط عن الكعبة ومراسيم الحج وتجارة الحجاز وسكانها. وكان اهتمامه الرئيسي مركزاً على دراسة العرب، بدوهم وحضرهم. وتحليل مجتمعهم وطبائعهم وتعاليمهم الدينية. ورغم أنه لم يساهم كثيراً في توسيع المعارف الجغرافية الدقيقة عن الحجاز إلا أنه قدم دراسة مفصلة واسعة عن المدن الرئيسية كمكة والطائف وجدة، ومن هذه المراكز راح يتحرى بدقة نيبور وتمحيصه عن كل ما يتعلق بالجانب الغربي من قلب الجزيرة العربية وتكوينه السكاني، بحيث قدم معلومات جديدة شيقة عن قبائل هذه البقاع وتعدادها وعاداتها وأسلحتها ونظم معيشتها ومناطق استيطانها وحيولها وجمالها.

ويعتبر بوركهارت البدو من أنبل الشعوب التي عرفها. وهم، رغم كل أخطائهم، أرفع من الأوروبيين في كثير من الصفات، كما أنهم أرقى من الأتراك في كل اعتبار. وقد يحبون السلب والنهب، غير أنهم يعوضون عن ذلك بفضائل أخرى، أما الأتراك، في نظره، فيشتركون في صفات البدوى السيئة ولا يتمتعون إلى جانبها بأية صفة حسنة. والبدوى يحب الحرية بطبعه، وقد جعله هذا الحب يفضل خيامه في الصحراء على حياة الاستقرار الناعمة. والقبائل البدوية، رغم نزاعاتها القبلية، إلا أنها جميعاً تتمتع بكبرياء قومية تجمع بينها، كما اتضح من استيائها لانتصارات محمد على وألمها لأية خسارة تصيبها على أيدي قوات أجنبية. ويرى بوركهارت أن من أرقى صفات الخلق البدوى عطفه ومعروفه وإحسانه وسلوكه المسالم عندما لا تثار كبرياؤه وتجرح كرامته.

لقد ابدت الجمعية الأفريقية البريطانية اهتماماً كبيراً بما كتبه بوركهارت من مذكرات وملاحظات وتعليقات أثناء سفره فنشرت على التوالي جميع كتبه الموضحة في نهاية هذه المقالة. وقد كتب بوركهارت جميع مؤلفاته بلغة انجليزية سليمة تمتاز بالأسلوب الرفيع، رغم أنه لم يبدأ في تعلمها إلا في الخامسة والعشرين، ورغم أنه كان يسجل مذكراته سرّاً وعلى عجل تحت عباءته أو خلف جملة،

التعصب والخرافة. ولقد رسم اوائل الرحالين صورة غامضة غريبة للشرق الأدنى، فراح من جاء بعدهم يصححونها ويضيفون إليها حجراً بعد حجر، حتى أصبحت أقرب إلى الحقيقة. وإذا ترك امر دراسة الشرق وحضارته وتاريخه وأديانه للعلماء المتخصصين في فروع الاستشراق المختلفة، فيكفي الرحالين المنصفين عموماً، والألمان الذين كنا بصددهم خصوصاً، فخر المساهمة في إزالة كثير من سوء الفهم والتغرض والتعصب، فالمعرفة الصحيحة تزيل الخوف والعداء، وتقيم اسساً جديدة للتفاهم والصدقة.

خوفاً من اكتشاف أمره واثارة شكوك مرافقيه في حله وترحاله. وقد خلف بوركهارت في وصيته كل ما جمعه من مخطوطات عربية تبلغ الثمانمائة مجلد بجامعة كامبردج، التي بدأ فيها دروسه العربية الأولى.

من كل ما سبق ندرك أهمية الدور الذي لعبه الرحالون الألمان، أو الناطقون بالألمانية، منذ العهود المبكرة حتى اوائل عصرنا الحاضر، في تطوير الاستشراق في أوروبا، وجعله موضوعاً دراسياً خاضعاً للبحث العلمي بدلا من

مراجع البحث

من اهم الكتب التي تبحث في سير الحجاج الأولين إلى الأراضى المقدسة التالية:

H. von Wissmann, Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Stuttgart 1965.

Lahrkamp, Helmüt: Nordwestdeutsche Orientreisen und Jerusalemwallfahrten im Spiegel der Pilgerberichte. (Oriens Christianus, Bd. 40, 1956).

Riezler: Jerusalem-pilger und Kreuzfahrer aus Bayern. (Forschungen zur deutschen Geschichte, Bd. 18, Göttingen, 1878).

Röhrich, R.: Die Deutschen im Heiligen Lande, Innsbruck, 1894.

Tobler, Titus: Bibliographia geographica Palaestinae, zunächst kritische Übersicht gedruckter und ungedruckter Beschreibungen der Reisen ins Heilige Land. Leipzig, 1867.

وبالنسبة لرحلة برايدنباخ، انظر:

Lambert, R. S.: The Fortunate Traveller, London, 1950:

Breidenbach, B. von: Perigrinationes in: وكتابه باللاتينية: Montem Syon, 1486.

وبخصوص فون هارف انظر:

Beckingham, C. F.: Some Early Travels in Arabia: (The Journal of the Royal Asiatic Society, 1949).

وكتابه ظهر بعنوان:

Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff von Cöln durch Italien, Syrien, Ägypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palästina, die Türkei, Frankreich und Spanien, wie er sie in den Jahren 1496 bis 1499 vollendet, be-

schrieben und durch Zeichnungen erläutert hat, herausgegeben v. Dr. E. v. Grootte, Cöln, 1860.

أما بشأن نيور وزيتسن وبوركهارت فانظر:

Hogarth, D. G.: The Penetration of Arabia, London, 1904.

Kiernan, R. H.: The Unveiling of Arabia, The Story of Arabian Travel and Discovery, London, 1937.

Pirenne, Jacqueline: À la découverte de l'Arabie. Paris, 1958.

وقد صدرت كتبهم التالية:

Niebuhr, K.: Beschreibung von Arabien, 1772.

— Reisebeschreibung von Arabien und andern umliegenden Ländern, 2 Bde., 1774—78.

— Reisen durch Syrien und Palästina, 1837.

انظر أيضاً:

Thorkild Hansen: Reisen nach Arabien. Die Geschichte der königlich-dänischen Jemen-Expedition. Hamburg 1965.

Ulrich Jasper Seetzen's Reisen durch Syrien, Palästina, Phönizien, die Transjordan-Länder, Arabia Petriä und Unter-Ägypten, Herausgeber: F. Kruse, Berlin, 1854—59.

Burckhardt, J. L.: Travels in Nubia, 1819.

— Travels in Syria and the Holy Land, 1822.

— Travels in Arabia, 1829.

— Notes on the Bedouins and Wahabys, 1830.

— Arabian Proverbs, 1831.

الأبحاث العربية الجنوبية :

إدوارد غلار

(١٨٥٥ - ١٩٠٥)

بقلم : الأستاذة ماريّا هوفتر

العربي وأوجه حياتها الثقافية. وفيما يتعلق بأقدم العصور خاصة نعرف وثائق قليلة نسبياً، وهي في الغالب لا تحتوي على تفاصيل كثيرة. ولكنها تزداد عدداً في الأزمنة التالية وتصبح أكثر إفصاحاً وتقدم عدة تفصيلات في غاية الأهمية. ومع ذلك فإننا لا نعرف دوماً إلا على مقاطع متفرقة لا بد من جهد جهيد لإتمامها والربط فيما بينها؛ وكثيراً ما نكره على الاكتفاء والتوقف عند نقاط قلقة غير أكيدة.

وقامت في الجنوب العربي قبل الإسلام ممالك أربع : سبأ وقحطان ومعين وحضرموت. وكانت أقدم هذه الممالك وأطولها بقاء مملكة سبأ. وكان شكل الدولة في بادئ الأمر ثيوقراطياً، أى أن إله البلاد كان في الوقت نفسه ملكها؛ وكان نائبه الديني يلقب بالمكرب. وفيما بعد، أى ابتداء من ٤٠٠ ق.م. فصاعداً، نجد في سبأ مملكة دينوية؛ ومع ذلك فقد ظلت الصلة بالدين إلى عهود متأخرة وثيقة جداً. وكان على المملكة السبئية خلال عهد طويل أن تخوض معارك حامية وخاصة مع الدول الأخرى في الجنوب العربي، وكان الخطر يهدد وجودها أكثر من مرة. ولم تتحقق وحدة مجموع بقاع الجنوب العربي القديمة إلا حوالي ٣٠٠ ميلادية وذلك تحت سيادة ملك واحد هو شمّر يهر عرش الثالث. وفي عام ٥٢٥ ميلادية فقدت هذه المملكة استقلالها وخضعت أولاً للسيادة الاثيوبية، وفيما بعد للسيادة الفارسية، إلى أن تم فتح هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية أيضاً تحت راية الإسلام في القرن السابع.

ومع أننا نستطيع أن نحدد نهاية استقلال الجنوب العربي زمنياً، إلا أن وجهات النظر تختلف اختلافاً كبيراً إلى حد ما فيما يتعلق بتحديد التسلسل التاريخي. ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى طبيعة النقوش التي كانت — وخاصة في العهود

تشير عبارة «الجنوب العربي» في الحقل العلمي إلى جزء صغير نسبياً من شبه الجزيرة العربية، وهو ما يدعى اليوم باليمن وحضرموت. وقد نشأت في هذه البقاع قبل ظهور النبي محمد بزمان طويل حضارة راقية مازالت شواهدنا — إلى حد ما على الأقل — بادية للعيان حتى اليوم. فهناك خرائب اسوار عظيمة وحصون ومعابد وقنوات للري تشير جميعها إلى مقدرة تكنولوجية عالية وإحساس فني دقيق جداً كان يتمتع بهما سكان الجنوب العربي القدماء، كما تشير إلى المستوى الذي بلغوه من الثروة والرفاه. ويتحدث عن ذلك الكتاب المقدس والمؤرخون اليونانيون والرومانيون الذين كانوا يطلقون على تلك البقاع اسم «بلاد العرب السعيدة». أما مصدر تلك الثروة فكانت التجارة. إذ كانت السلع القادمة من الشرق، من الهند والصين، والمتجهة إلى مصر وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط، تمر، خاصة في الأزمنة القديمة، «بطريق البخور» التي كانت تبدأ من مينائى عدن وقنا وتتحرق شبه الجزيرة العربية كلها إلى الشمال. واشتهرت تلك الطرق التجارية بهذا الاسم بسبب السلع التي كانت تنتج في الجنوب العربي نفسه وتصدر بكميات كبيرة كالبخور وغيره من الأفاويه.

ويمكن الإطلاع على الأوضاع السياسية والثقافية للجنوب العربي القديم من النقوش الحجرية العديدة التي انتهت إلينا. فهي الوثائق الكتابية الوحيدة المتبقية من عهود الحضارة الرفيعة القديمة والتي يعود أصلها إلى البلاد نفسها بحيث تكون بهذه الصفة أكبر قيمة وأعظم أهمية من جميع ما انتهى إلينا من روايات المؤلفين اليونانيين والرومانيين والعرب المتأخرين. ورغم عدد هذه النقوش الكبير — إذ بلغ ما نعرفه منها عدة ألوف — غير أنها لا تعطى صورة خالية من الثغرات عن الدول القديمة في الجنوب

الأقدم — إما لا تحمل تواريخ إطلاقاً أو مؤرخة حسب أعوام حكم ملوك العصور البارزة دون أن تعرف تواريخها المطلقة على وجه التحديد.

لقد قدمنا للمقالة بهذه المعلومات القليلة لنعطى فكرة تقريبية عن البقاع والحضارة التي تتناولها دراسات الجنوب العربى بالبحث. وللمسا نصيب حاسم فى استكشاف البلاد التى دعاها استاذ جامعة جوتنجن ميشائيلس فى القرن الثامن عشر بحق «إحدى أغرب البلاد»، كما لها نصيب قاطع فى حل رموز نقوشها التذكارية وبذلك كشف النقاب عن لغتها وتاريخها وحضارتها؛ لا بل يمكن أن نقول بأن الدراسات السبئية أنشئت هنا كعلم قائم بذاته.

وكان استكشاف الجنوب العربى دوماً ومازال مجازفة جريئة. إذ أن الظروف المناخية وطبيعة الأرض تفرض أقصى المطالب على المسافرين وذلك حتى اليوم رغم استخدام الطائرة والسيارة لتغلب على المسافات. ويضاف إلى ذلك تهيب السكان ورفضهم لكل دخيل أجنبى. كما أن الخلافات الدائمة بين القبائل المختلفة تجعل السفر فى غاية الخطورة وتحول دون المضى فى اتباع طريق معينة. وإن أهم المناطق التى يمكن أن تعطى أغلب وأطرف المعلومات عن الأوضاع القديمة هى بالذات الأصعب بلوغاً للمسافر. وإزاء كل ذلك يزداد إعجابنا بشجاعة وصمود وتضحية الرواد الأوائل فى استكشاف الجنوب العربى بوجه خاص. وأول نمسوى بين هؤلاء الرجال الذين لا يهابون المخاطر «زيغفريد لانجر» Siegfried Langer. ويعود منبته إلى تشيكوسلوفاكيا الحالية التى كانت آنذاك جزءاً من المملكة النمساوية - المجرية. ولد لانجر عام ١٨٥٧ فى ميرن Mähren ودرس فى فيينا من جملة ما درس اللغات الشرقية وعنى خاصة باللغة العربية. ومكنه وجود بعض العرب السوريين من التمرن على التحدث بالعربية أيضاً. ورغم أنه كان يعيش تحت ظروف خارجية صعبة إلا أنه تمسك بجتهاد ومثابرة شديدين بدراسته التى كانت آنذاك لا تبث بكبير أمل فى النجاح المادى. وفى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٨٨١. بدأ رحلته إلى الجنوب العربى. وكان قد حصل على إعانات مادية من عدة جهات بحيث كان حسن العدة من هذه الناحية. وبعد إقامة ستة شهور فى سوريا بدأت رحلته الحقيقية خلال شبه الجزيرة العربية. واضطر إلى التخلّى عن خطته فى بلوغ الجنوب من خلال عسير بسبب ثورة كانت ناشبة فى تلك المنطقة. ومضى بالسفينة إلى الحديدية وانتقل من هناك عبر زران

وضف إلى صنعاء، عاصمة اليمن، التى كانت تحت السيطرة التركية آنذاك. وإذ وصل هناك لم تسمح له السلطات التركية بمواصلة سفره داخل البلاد؛ بل أجبر على العودة إلى الحديدية. وهكذا واصل سفره إلى عدن؛ ومن هناك بعث إلى أوروبا بالرسوم التى أتمها حول رحلته حتى تلك المرحلة وبنسخ عن نقوش عربية جنوبية استطاع أن ينقلها هناك، بحيث أمكن بذلك إنقاذها والحفاظ عليها للباحثين فيما بعد. وعلى أثر ذلك بحين قصير لاقت رحلة لانجر الجريئة نهاية فظيعة مؤلمة. إذ بينما كان يحاول اختراق قلب حضرموت متكرراً بزي بدوى، قتله مرافقوه من أهل البلاد. وقيل أنهم أطلقوا عليه الرصاص من سلاحه نفسه بينما كان يستحم فى أحد الأنهار.

بعد موت زيغفريد لانجر المفجع بحين قليل بدأ نمسوى آخر عمله الاستكشافى فى الجنوب العربى، ونعنى به إدوارد جلازر E. Glaser. وكان هو أيضاً من أهل تشيكوسلوفاكيا الحالية. وولد فى دويتش - رست Deutsch-Rust عام ١٨٥٥ وكان عليه أن يقضى أعوام دراسته، كـلانجر، فى حرمان شديد وشظف من العيش. وبعد انتهاء دراسته الثانوية التحق أولاً بجامعة براغ، ثم انتسب فيما بعد إلى جامعة فيينا حيث حصل على وظيفة فى المرصد. وفى فيينا أهتم كذلك بكثير من الاجتهاد بدراسة اللغة العربية، إذ كان قد عزم منذ سنى المدرسة على أن يصبح رحالة استكشافياً، واختار فيما بعد شبه الجزيرة العربية خاصة هدفاً له. وكان استاذة فى العربية أول الأمر فارموند Wahrmond ثم تلاه داوود هاينرش مولدر David Heinrich Müller. وأيقظ الأخير اهتمام جلازر بالجنوب العربى حيث نجح فيما بعد بأعماله الاستكشافية. ولإعداد خطته على أحسن وجه ممكن توجه إلى مصر وتونس. وعمل هناك معلماً منزلياً ونال فى ذلك فرصة إتقان اللغة والعادات العربية تماماً. ومكنته هذه المعارف الدقيقة بالإضافة إلى شجاعته وبراعته الخارقة فى معاشرّة الناس من بلوغ نجاحاته الفريدة فى رحلاته وهى نجاحات لم تفقها، لا بل لم تبلغها، أية رحلات استكشافية فى الجنوب العربى حتى يومنا هذا.

وتقع رحلات جلازر إلى الجنوب العربى فى الأعوام ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤. ومن رحلته الأولى التى مولّها فيينا وباريس احضر معه ما يقارب الـ ٢٨٠ نسخة من النقوش مع أربعة نقوش حجرية أصلية طالبت بها الاكاديمية فى باريس مقابل ما أسهمت به لتحويل الرحلة. وكان جلازر قد أصيب لإصابة شديدة بالحمى بعد وصوله

الحديدية. وحين بلغ صنعاء كان عليه أن يظل هناك عاماً بطوله في انتظار وصول جواز سفر من استانبول، لم يسمح له الحاكم التركي بدونه أن يواصل سفره. ومع مرور الوقت تمكن جلازر من كسب ثقة هذا الرجل بالذات الذي أصبح صديقاً وعوناً له في مناسبات تالية. وقام جلازر من صنعاء بثلاث جولات استكشافية تفحص خلالها خرائب ونسخ ما شاهد فيها من نقوش. وعرض حياته اثناء ذلك عدة مرات للخطر ولكنه تمكن من النجاة في كل مرة من دسائس مرافقيه.

وفي العام التالي بعد عودته، أى في ١٨٨٥، بدأ رحلته الثانية إلى الجنوب العربي. ومول رحلته هذه كلها تقريباً من حسابه الخاص. وهنا أيضاً توجه في بادئ الأمر إلى صنعاء وراح ينقب باحثاً ومستكشفا المنطقة الممتدة بين صنعاء وعدن. واستطاع هذه المرة أن يجمع عدداً كبيراً جداً من النقوش الحجرية، انتقل جزء منها إلى المتحف البريطاني في لندن وجزء إلى برلين حيث باع كذلك ٢٥٠ مخطوطاً عربياً. ومن الأرباح التي درتها عليه هذه المواد العلمية تمكن جلازر إلى اكبر حد من تمويل رحلته الثالثة والناجحة نجاحاً خاصاً.

وفي هذه المرة، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٧، مضى من عدن في رحلة دامت ٤٤ يوماً إلى صنعاء قام فيها بدراسة ورسم ونسخ كل ما بدا له هاماً وشيقاً اثناء الطريق. ولكن هدفه الحقيقي كان العاصمة السبئية القديمة مأرب، التي تقوم على انقاضها اليوم قرية صغيرة غير هامة، يصعب الوصول إليها كثيراً مع ذلك. ولم يتمكن من قبله إلا الفرنسيان آرنو Arnaud وآليني Halévy من التغلغل إليها. واستطاع جلازر، متذكراً في زى فقيهه عربى وبصحة أصدقاء له من أهل البلاد، أن يبلغ مأرب وأن يجمع هناك خلال ستة أسابيع مواد نفيسة كثيرة. ونسخ عدداً كبيراً من النقوش، منها ما هو مهم جداً، وزار السور البيضوى الكبير بالقرب من مأرب، وهو ما يدعى اليوم بمحرم بلقيس، والذي كان في الماضي أهم معبد لإله القمر والمملكة السبئية، وزار كذلك بقايا السد الهائل الذي كان يتمتع في الماضي بشهرة عالمية مع ما يتصل به من قنوات للرى أحالت في الماضي السهل الممتد على جانبي وادى ذنه إلى أرض خصبة معطاء. ويعتبر وصف ومقاييس هذه المنشآت وكذلك بقية نتائج أبحاث جلازر في مأرب ذات أهمية لا حد لها حتى اليوم، رغم أعمال الحملة الاستكشافية الضخمة التي قامت بها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان عام ١٩٥٢. وكان

بوسع جلازر في رحلته الثالثة هذه بالذات أن يقوم بأبحاث وإنجازات أعظم للحقل العلمى لوائه لم يضطر إلى إنهاها قبل الأوان بسبب افتقاره إلى المال؛ ومما لا يفهم حتى اليوم، رغم أنها حقيقة مرة، أن بلاده رفضت أن تقدم له أى عون مالى. أما قصة رحلته إلى مأرب فقد قام مولر وروودوكاناكيس N. Rhodokanakis بنشرها حسب مذكراته عام ١٩١٣ («مجموعة ادوارد جلازر ١: رحلة ادوارد جلازر إلى مأرب»).

وفما بين عام ١٨٩٢ و ١٨٩٤ قام جلازر برحلته الرابعة والأخيرة إلى الجنوب العربي. ومضى هذه المرة أيضاً من عدن إلى صنعاء، ولكنه اتجه في طريقه أكثر غرباً عابراً تعز. وكان وضعه في صنعاء كالمعتقل عملياً، إذ أنه لم يستطع مغادرة المدينة بسبب الثورات في جميع أرجاء البلاد. وعند ذلك وجد لنفسه مخرجاً، وهو أنه علم بعض البدو فن طبع الألواح المنقوشة على نوع معين من الورق بطرقها عليه بحيث تنشأ صورة مطابقة تماماً للأصل. وهكذا انتشر البدو الذين درهم على ذلك في ضواحي المدينة القريبة والنائية بحثاً عن النقوش واحضروا من أماكن لم يصلها رحالة بعد مواد كثيرة غنية. وبذلك عرفت لأول مرة النقوش القتبانية بوجه خاص. واشترى متحف تاريخ الفن في فيينا ما جمعه جلازر في هذه الرحلة من نقوش حجرية وغير ذلك من النفائس الأثرية.

مات جلازر عام ١٩٠٨ في ميونخ. ولا يمكن تقدير لإنجازاته وخدماته في سبيل العلم كما لم يتفوق عليه في ذلك الحقل أحد بعد. وبفضل ما جمعه من كميات هائلة من النقوش والقطع الأثرية ومعلوماته الطبوغرافية الدقيقة ووصفه المسهب التفصيلي للخرائب الأثرية أمكن لأول مرة إنشاء الدراسات السبئية كعلم قائم بذاته. ولم ينته العمل على ما جمعه حتى اليوم بعد، بل هناك كنوز من الآثار مازالت تنتظر البحث والدراسة والنشر. أما ما خلفه جلازر من تركة علمية واسعة فقد اشترته أكاديمية العلوم في فيينا.

وكانت «بعثة الجنوب العربى الاستكشافية» التي اوفدتها أكاديمية العلوم في فيينا العمل العلمى التالى الذى قامت به النمسا في الجنوب العربى. وكان أعضاء البعثة د. ه. مولر وأ. سيمونى O. Simony وف. كوسمات F. Kossmat وأ. يان A. Jahn وطبيب، بالإضافة إلى الكونت السويدي لاندبرغ Landberg، الذى سرعان ما انفصل عن الآخرين، وسكرتيره ج. ف. بورى G. W. Bury ومع أن البعثة لم تستطع أن تبلغ هدفها الاصلى، وهو



نيكولاس رودولف كانيكيس

الأكاديمي كعالم جغرافي. وأدى به عمله الجامعي فيما بعد إلى الانتقال إلى الصين ومن ثم إلى توبنجن بألمانيا، حيث يعيش حتى اليوم كاستاذ متقاعد. وتمت رحلته الأولى بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وذلك بصحبة ك. راتينز G. Rathjens، واتجهوا فيها من الحديدة إلى صنعاء، ومن هنا سعى كل منهما إلى استكشاف جهة مختلفة من المنطقة المجاورة. ومع أن الاهتمام الجغرافي احتل مكان الصدارة، إلا أن علمي الآثار والنقوش الحجرية فازا بمعارف ومكاسب غنية بفضل أبحاث العالمين المتعددة الجوانب، كما يحق لهما أن يشهرا بالقيام بأول حفريات أثرية في الجنوب العربي كان من نتائجها كشف النقاب في حقه عن معبد الإله تألب.

وقام فون فيسمان بالرحلات الثلاث الباقية في الأعوام ١٩٣١ و ١٩٣٩ و ١٩٥٨ جاعلاً حضرموت هدف أبحاثه. واخترق في ذلك مناطق لم تستكشف بعد كما جاء كذلك بنتائج غنية متعددة الوجوه كما في الرحلة الأولى. وكان بصحبة فون فيسمان في هذه الرحلات بالإضافة إلى الهولندي د. فان در مويلن D. van der Meulen. وزوجة الدكتورة بيتينا فون فيسمان وهي سيدة من فيينا، والدكتور فون فاسيلفسكي v. Wasielewski. و. لايدماير A. Leidlmair، وهو نمسوي أيضاً. إن العالم الاثنولوجي ف. دوستال W. Dostal هو في

استكشاف حضرموت، لامتناع السلطات عن إعطائهم ترخيصاً بالدخول، إلا أنها اتجهت نحو جزيرة سوقطره وفيما بعد انتقلت إلى المكلا، على الساحل الشرقي من حضرموت. واعطى هذا التغير غير المقصود في هدف الرحلة نتائج هامة: فبالإضافة إلى ملاحظات علمية طبيعية وجغرافية سجل ما يدعى بلغات مهرا (المهرية والشخرية والسوقطرية) وهو عمل بالغ الأهمية نظراً لبدء زوال هذه اللغات المنتشرة في ساحل مهرا وفي الجزر المحيطة. وقام ج. ف. بوري بجمع النقوش العربية الجنوبية تحت رمز SE وهما الحرفان الأولان لعبارة «بعثة الجنوب العربي» باللغة الألمانية. وقد نشرت جميعها.

وقام فيلهلم هاين Wilhelm Hein كذلك برحلة عام ١٩٠١ جاب فيها كذلك المناطق الشرقية من حضرموت ومكث بضعة شهور في فشن، أهم قرية في بلاد مهرا، وجمع مراجع لغوية (المهرية والحضرية) ومعلومات احصائية واسعة عن سكان فشن واقنع عند عودته رجلاً من حضرموت وآخرين من سوقطرة أن يصطحباه إلى فيينا، حيث قدما أجل الخدمات كمراجع لغوية وسيطة. وبعد فترة طويلة تلت ذلك رحلات ه. فون فيسمان H. v. Wissmann إلى الجنوب العربي. ومع أن فون فيسمان ليس نمساوياً بالولادة إلا أنه قضى حياته منذ الطفولة في النمسا، كما أن صلته وثيقة بقيينا بفضل بداية عمله



إدوارد جلازر

القديمة وكذلك بأعماله الخاصة بلغات بلاد المهرا أن يبلغ شهرة علمية رفيعة. وفيما يتعلق بالحقل الأخير نذكر كذلك منشورات ا. يان وف. هاین، وخاصة ما قدمه ماكسميليان بيتر Maximilian Bittner من دراسات نحوية ومعجمية خاصة بالمهرية والشخرية والسوقطرية وكانت مجموعات النصوص التي نشرها العلماء المذكورون القاعدة التي استندت عليها هذه الدراسات. وخلق بيتر بذلك اساساً لا بد لكل عمل قادم في هذا الحقل أن يقوم عليه. كما أن دراساته ذات أهمية كبيرة للعلوم السبئية كمواد مقارنة.

أما أهم تلامذة مولر واكبر مساعد له فيما بعد فهو نيكولاولس رودوكاناكيس Nikolaus Rhodokanakis الذي يمكن أن يعتبر بحق كامل المؤسس الحقيقي للدراسات السبئية كعلم مستقل يجب أن يؤخذ بمأخذ الجد. ولد رودوكاناكيس في الاسكندرية عام ١٨٧٦ وهو من أصل يوناني - وكان أجداده يعيشون في جزيرة خيو، واضطروا إلى مغادرتها فراراً من الأتراك - ومنذ نعومة أظفاره ترعرع رودوكاناكيس في النمسا وامضى بقية حياته فيها وشعر بانتمائه الكامل لهذه البلاد. ودرس في بادئ الأمر الحقوق غير أنه سرعان ما انكب على دراسة الاستشراق في جامعة فيينا ثم أصبح استاذاً نظامياً عاماً لمدة طويلة في غراتز حيث توفي في نهاية عام ١٩٤٥. وبعد بضعة

الوقت الحاضر آخر نمسوى زار الجنوب العربي، وعلى وجه التحديد حضرموت. وقام بدراسات تتعلق بتاريخ القبائل وبحوث اثنوغرافية عامة لدى كثير من القبائل القاطنة هناك وعنى في ذلك عناية خاصة بقضايا مراحل البداوة الأولى المبكرة.

وكما يتضح مما أوردناه حتى الآن فقد اسهمت النمسا بنصيب كبير في بحث ودراسة مناطق حضارة الجنوب العربي. ولا يقل عن ذلك ضخامة، إن لم نقل أكثر أهمية وأبعد أثراً، ما قدمه العلماء النمسيون من خدمات وأعمال في تقييم النقوش والمواد التي جمعها الرحالون المستكشفون تقييماً علمياً دقيقاً. ومن الرحالين انفسهم من عمل في هذا الحقل كأعمال جلازر مثلاً؛ وقد يكون الكثير مما توصل إليه من نتائج باطلا اليوم، أو مشحوناً بالخيال البعيد عن الحقيقة، إلا أنه أصاب في بعض ما توصل إليه بنظرة عبقرية. ولن نقسو بالحكم على جلازر بسبب «شطحاته» وحواشيه التي غالباً ما تبدو على جانب من الغرابة ولا تمت للموضوع بصلة، إذا ما اعتبرنا كثرة تجارب خيبة الأمل المريرة التي مر بها هذا الرجل المثالي الذي كرس كل جهوده وقواه في خدمة الواجب المقدس الضخم الذي اختاره لنفسه.

ومن رواد الدراسات السبئية د. ه. مولر. إذ استطاع بعمله على حل ونشر عدد كبير من نقوش الجنوب العربي

الجزيرة العربية، بحيث أصبح في متناول يدنا مرجع مهم، كذلك بالنسبة لدراسات الجنوب العربي.

وقام أحد تلاميذ رودوكاناكيس وهو كارل ملاكر Karl Mlaker بنشر بحث أساسي حول ما يدعى بقوائم الرهائن الإلهية في معين توصل فيه الى نتائج هامة في ميدان علم التأريخ، ما زال جزء منها هاماً حتى اليوم رغم جميع التطورات في هذا القطاع بالذات من الابحاث السبئية. وهو مقنع فيما يقدمه من تفصيلات حول طبيعة ومكانة «الرهائن الإلهية» في الجنوب العربي، وهم، كما يفسرهم، أشخاص رهنوا لسداد نذور قطعت لإله أو لمعبود. ومما يؤسف له أن العمل المهني كان يستنزف كثيراً من وقت وجهد ملاكر بحيث لم يتمكن من وضع معلوماته التاريخية واللغوية الغنية في خدمة العلم كما كان يرغب. ثم انتزعه الموت قبل أوانه بكثير.

وكان من حسن حظي أيضاً، أن تتلمذت على رودوكاناكيس. وحتى اطروحتي التي تقدمت بها للدكتوراه اختصت بالنقوش الحجرية، وما زال هذا العلم حتى اليوم الميدان الرئيسي الذي أبحث وأعمل فيه. وبعد نشر ما لم ينشر بعد من نقوش بعثة الجنوب العربي المذكورة سابقاً، والعمل على نقوش حجرية أخرى، قمت بتأليف كتاب في قواعد العربية الجنوبية القديمة التي اعتبرتها لا غنى عنها للبحوث السبئية وكذلك للغات السامية المقارنة. وبعد الانتهاء من طبع الكتاب احترقت جميع نسخته تقريباً عام ١٩٤٣ أثناء غارة جوية على لايبزغ، ولكنه أعيد طبعه فيما بعد استناداً إلى إحدى النسخ القليلة التي امكن انقاذها. وكجزء تكميلي للكتاب كان قد قرر منذ البداية وضع منتخبات للمطالعة مع مفردات مشروحة وكان على ملاكر أن يقوم بتأليفها. ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك؛ فقررت أن يكون هذا العمل مع ملحق وتصحيح جزئي للقواعد على أساس النصوص الجديدة المكتشفة حديثاً جزءاً من برنامجي القادم.

وبدأت في العمل على القواعد في جراتز وبعد الحصول على إجازة التدريس الجامعي أنهيت في فيينا. ودرست العربية الجنوبية القديمة والاثيوبية في جامعة فيينا لبضعة أعوام. وكنت أقطع التدريس عدة مرات أثناء هذه المدة واتجه إلى توبنجن لدراسة أهم لغات اثيوبيا السامية على يدي الأستاذ إينو ليتمان. وبما أنه لم تكن للمدرس الجامعي في النمسا أى امكانيات معيشية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد بقيت في توبنجن، كضيف في بادئ الأمر، ثم طلبت نقل الاذن بالتدريس إلى هنا ورحلت أحاضر

أبحاث لغوية عربية كرس نفسه بولاء كامل ومثابرة حديدية للدراسات السبئية. وكان يتمتع بموهبة خارقة لذلك. وتمتاز أعماله بنظرة عبقرية تدرك الشيء الجوهرى وبطريقة علمية صارمة. ومن مجموعات نقوش جلازر الوفيرة اختار أصعبها وقام بنشرها ضارباً مثلاً أعلى بأسلوبه العلمى الدقيق. وإذا استدعت لاكتشافات جديدة في النقوش وغيرها من الآثار اليوم تصويماً في بعض وجهات النظر آنذاك، وخاصة فيما يتعلق بعدد من التفاصيل التاريخية التي لم تعد صحيحة - فإن ذلك لا يقلل شيئاً من خدمات رودوكاناكيس العلمية الجلية. وقد قام في ميدان الدراسات المعجمية والنحوية كذلك بإنجازات طليعية ناجحة كما فعل كذلك في ميدان دراسة واقع الجنوب العربي. وفي تفسير النصوص المتعلقة بالحقوق العقارية باصطلاحاتها الموجزة الغامضة استعان بدراسته الحقوقية السابقة ومعرفته الجيدة للأوضاع في مصر أثناء عهد البطالسة. وترجمة وتفسير هذه النقوش العسيرة الفهم تمكن رودوكاناكيس من رسم صورة حية للاقتصاد العقارى والزراعى وما يتعلق به بأوثق الصلات من ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية عامة كانت سائدة في الجنوب العربى القديم، وهى صورة ما زالت يحتفظ بصحتها حتى يومنا هذا.

وكانسان يتمتع بطيبة قلب كبيرة ومزاج رقيق شديد الحساسية، إلا أن رودوكاناكيس لم يكن ليترك في العلم مجالاً للشهاودة. فهنا كان تجاه نفسه وتجاه زملائه وتلاميذه أشد ما يكون حزمًا وصرامة. وكان قبل أن يقدم مخطوطاً للطبع، يعيد كتابة بعض الصفحات مرتين وثلاثاً، لأنها لم تكن لتجتاز امتحانه العسير في اليوم التالى، رغم أنها لم تكن تكتب إلا بعد تمحيص وتدقيق طويلين. وليس من السهل قراءة أعمال رودوكوناكيس، إذ أن اصطلاحاته واسلوبه التعبيرى تكاد تذكر في كثير من الحالات بنقوش الجنوب العربى. ولكن أعماله محكمة دقيقة كهذه أيضاً، وإذا بذل المرء جهده لدراستها باهتمام وانتباه حقيقيين، لأفاد من ذلك كثيراً.

ومن أغنى الأبحاث السبئية بعدة دراسات كبيرة وعدد كبير من المقالات في المراجع العلمية أيضاً أدولف غرومان Adolf Grohmann فدراسته حول رموز الآلهة والحيوانات الرمزية ما زالت اساساً لبحث ديانة الجنوب العربى القديمة. ومنذ حين قريب نشر العالم الذى بلغ الثمانين من عمره في كتابه «شبه الجزيرة العربية» (المختصر في علم التاريخ القديم ٣/٣) معلوماته الوفيرة عن تاريخ وحضارة شبه



حجر مخفور عليه كتابة ، من اليمن ، مدون عليه اسم شخص ...

الطريقة غير المباشرة تفرض على المرء العمل بكثير من الحذر والنقد الصارم إذا ما أراد أن يتجنب ضلال السبيل والتهيه في ببداء الوهم الكاذب. ومن السهل أن ندرك أيضاً أن النتائج التي سنتوصل إليها في ذلك غالباً ما تكون أقل من العمل المبذول. ولكن المهمة في حد ذاتها على جانب كبير من السحر وهى تستحق كل جهد، وإنى لأرجو أن أتقدم خطوة أخرى إلى الأمام في طريق البحث في دين الجنوب العربى القديم. وقد وجدت عوناً قيماً لهذا العمل بالذات في نتائج أبحاث فيسمان التاريخية الجغرافية. فهى تعطى أولاً عرضاً لأماكن عدد كبير من المعابد، وبذلك تمكن من تحديد انتشار الآلهة المختلفة، كما أنها تعطى فكرة، وذلك بوجه عام على الأقل، عن التطور التاريخى للدين.

وإلى جانب الاهتمام الذى امتد عبر عدة اعوام بدراسة قضايا الدين العربى الجنوبي القديم، فإن القطاع اللغوى من الدراسات السبئية ظلت وما تزال شغلى الشاغل. إذ على هذا الاساس وحده يمكن القيام بعمل مثمر في حقول البحث الأخرى. وهذا هو مبدئى كذلك بالنسبة للتدريس الجامعى؛ وإنى لأرجو بذلك أن أواصل التراث النسوى الطيب الثابت في الأبحاث السبئية وأن أسلمه كذلك إلى أيدي الجيل الصاعد.

في أثناء اقامتى التي دامت عدة اعوام في توبنجن،

في حقلى الاختصاصى في إطار قسم الدراسات الشرقية في الجامعة، إلى أن استندعت عام ١٩٦٤ إلى جراتز لاحتلال مقعد الدراسات الشرقية الذى خلا هناك.

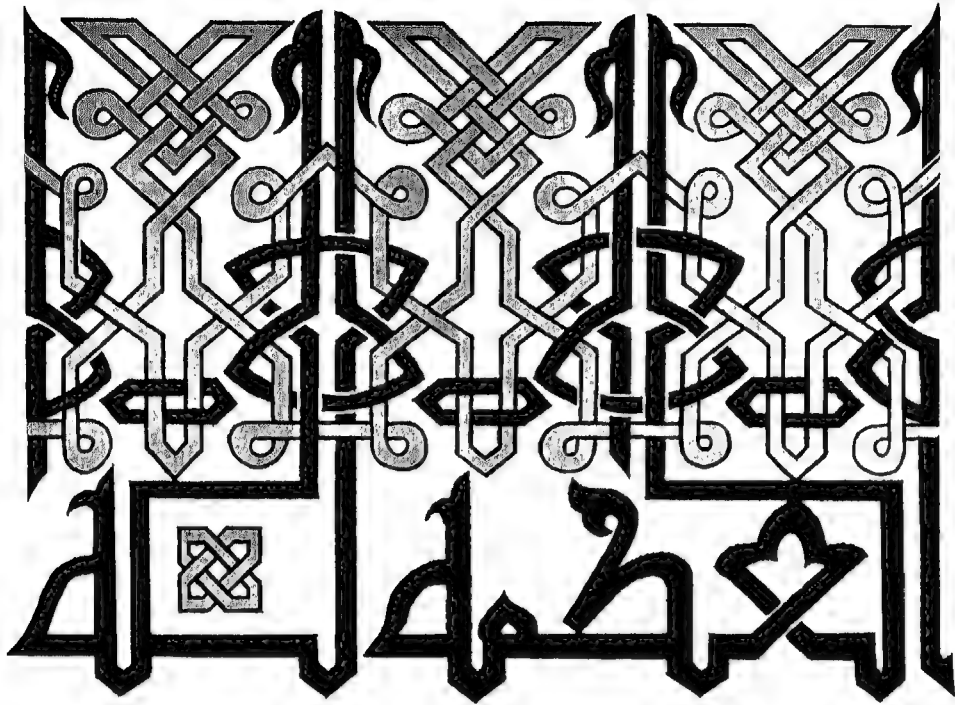
وفي توبنجن بدأت بتكليف من أكاديمية العلوم النمساوية بنشر ما لم ينشر بعد من مخلفات جلازر العلمية، وهو عمل مازال مستمراً وسيستغرق بعض الوقت أيضاً. وفوق ذلك فقد أوليت اهتماماً شديداً بأديان ما قبل الاسلام في شبه الجزيرة العربية، حيث تركز اهتمامى بالدرجة الأولى على الجنوب العربى. وبين الالاف العديدة من النقوش العربية الجنوبية لأ يوجد نص واحد يعالج اموراً دينية بالذات، كأن يحتوى مثلاً على اساطير أو مراسيم دينية أو تراويل. ويبدو هذا أكثر غرابة عندما تكشف النصوص من الجهة الأخرى بوضوح عن مدى الاهمية المركزية التى كان يتمتع بها الدين في الحياة العامة والخاصة. ومما تقدمه النقوش من مادة لدراسة الدين القديم إلى جانب بضع نقاط انطلاق قليلة نسبياً، أسماء الآلهة بالدرجة الأولى. وفي هذا العدد الغفير من الأسماء كانت المهمة الرئيسية التى تتطلب الحل: فرض نظام معين لهذه الأسماء، وإدراك كل من الصور الإلهية الكبيرة على اختلاف اشكال ظهورها، والتي يحمل كل منها اسماً خاصاً، وأخيراً محاولة معرفة شىء عن طبيعة ووظيفة المسمى من الاسم نفسه. ومن البديهي طبعاً أن مثل هذه

وعوناً لا غنى عنهما، والذي يعتبر تطويراً حاسماً للبحوث السبئية، فقد كرس فون فيسمان نفسه كذلك لعدد من البحوث الهامة الأخرى في هذا العلم، وإننا لندرج أن يزيد الدراسات السبئية غنى بأعمال كثيرة أخرى.

من هذا العرض يتضح بما لا يقبل الشك أن الزعم الذي تقدمنا به في بداية المقال حين قلنا بأن النمسا أسهمت في استكشاف ودراسة الجنوب العربي من كل ناحية بنصيب حاسم، إنما هو قول بررناه وأثبتنا صحته كاملاً وبالتمام. وفي ذلك لا يجوز أن ننسى خدمات وأعمال العلماء الآخرين ولا أن نقلل من شأنها. أما السبب في عدم ذكر اسمائهم وتقدير أعمالهم هنا فليس أكثر من أن موضوع هذا المقال اقتصر على الأبحاث النمسية للجنوب العربي دون غيرها.

اتاحت لي الفرصة عدة مرات للعمل في تعاون مثمر مع فون فيسمان، كان من نتائجه أيضاً اشتراكنا في تأليف ونشر كتاب: «أبحاث حول الجغرافية التاريخية للجنوب العربي قبل الإسلام». وإلى جانب ذلك قام فون فيسمان برسم خريطة الحقبة بتصديري لمجموعة من النقوش من مخلفات جلازر («مجموعة ادوارد جلازر-٢»). ومن عمل كان مقررًا في الأصل كتعليق على هذه الخريطة فقط نشأ أخيراً أهم كتاب في الأبحاث السبئية لفون فيسمان وهو: «مجموعة ادوارد جلازر-٣: حول تاريخ وجغرافية الجنوب العربي القديم». وفي هذا الكتاب المفصل الشامل لا يظهر فون فيسمان كجغرافي ومؤرخ متبحر في العلم غنى في الأفكار فحسب، بل إنه خاض بطريقة تثير الدهشة مسائل الدراسات السبئية نفسها على اختلاف أنواعها. وإلى جانب هذا الكتاب الذي أصبح مرجعاً

ترجمة : محمد علي حشيشو



«العظمة له» - عن مدرسة قراطاي بقونيا ، تركيا .

فيلهلم آلفورد

(١٨٢٨ - ١٩٠٩)

بقلم : الأستاذ مانفريد أولمان

كان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر في منتصف القرن الماضي إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه في بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوي. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق فيلهلم ألفارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أما مدينة غرايفسفالد التي لا تبعد عن جزيرة روغن Rügen على الساحل الألماني من بحر البلطيق فمعروفة كمسقط رأس كاسبارد فايد فريدرش (١) C. D. Friedrich رسام الرومانطيقية الألمانية الكبير. والمدينة صغيرة إلا أن جامعتها عريقة في القدم. فقد أسسها الدوق فراتيسلاف فون بومرن-فولغااست Herzog Wratisslaw von Pommern-Wolgast عام ١٤٥٦. وعمل فيها كأستاذ للتاريخ إرنست موريتز آرندت (٢) Ernst Moritz Arndt، الشاعر الوطني لحروب التحرير. وقد ارتبطت أسيرة ألفارت كذلك بجامعة غرايفسفالد منذ عدة أجيال. فقد برز بيتر ألفارت Peter Ahlwardt المتوفى عام ١٧٩١ كفيلسوف ولاهوتي، بينما قام ابنه كريستيان فيلهلم ألفارت Christian Wilhelm Ahlwardt المتوفى عام ١٨٣٠ وأستاذ الأدب الأغريق بترجمة أعمال كالاماخوس (٣) Kallimachos وپندار (٤) Pindar. وقبل وفاته بعامين، في الرابع من يوليو (تموز) عام ١٨٢٨، رزق بابن سماه تيودور فيلهلم، سنسرد سيرة حياته بإيجاز.

درس فيلهلم ألفارت اللغات الشرقية في مدينته من ١٨٤٦ حتى ١٨٥٠ على يوهان غوتفريد كوزغارتن (٥) Johann

وكان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر في منتصف القرن الماضي إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه في بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوي. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق فيلهلم ألفارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أما مدينة غرايفسفالد التي لا تبعد عن جزيرة روغن Rügen على الساحل الألماني من بحر البلطيق فمعروفة كمسقط رأس كاسبارد فايد فريدرش (١) C. D. Friedrich رسام الرومانطيقية الألمانية الكبير. والمدينة صغيرة إلا أن جامعتها عريقة في القدم. فقد أسسها الدوق فراتيسلاف فون بومرن-فولغااست Herzog Wratisslaw von Pommern-Wolgast عام ١٤٥٦. وعمل فيها كأستاذ للتاريخ إرنست موريتز آرندت (٢) Ernst Moritz Arndt، الشاعر الوطني لحروب التحرير. وقد ارتبطت أسيرة ألفارت كذلك بجامعة غرايفسفالد منذ عدة أجيال. فقد برز بيتر ألفارت Peter Ahlwardt المتوفى عام ١٧٩١ كفيلسوف ولاهوتي، بينما قام ابنه كريستيان فيلهلم ألفارت Christian Wilhelm Ahlwardt المتوفى عام ١٨٣٠ وأستاذ الأدب الأغريق بترجمة أعمال كالاماخوس (٣) Kallimachos وپندار (٤) Pindar. وقبل وفاته بعامين، في الرابع من يوليو (تموز) عام ١٨٢٨، رزق بابن سماه تيودور فيلهلم، سنسرد سيرة حياته بإيجاز.

درس فيلهلم ألفارت اللغات الشرقية في مدينته من ١٨٤٦ حتى ١٨٥٠ على يوهان غوتفريد كوزغارتن (٥) Johann

أن تلقته من قوى دافعة. ويجب أن يكشف أمام القارئ عن مجرى تطور فروع الأدب وسط الحركات السياسية والتقدم أو التخلف الاجتماعي، كتعبير عن الأفكار الحرة للزمن». غير أن آفارت لم يستطع بطبيعة الحال تحقيق هذا الهدف. فقد كان لا يزال يفتقر إلى جميع الشروط اللازمة آنذاك، وحتى اليوم يبدو أن الزمن لم يمن بعد لوضع مثل هذا التاريخ الأدبي. ولم يستطع آفارت أكثر من جمع أحجار بناءية تؤدي إلى هذا الهدف الأسمى. إلا أنه ركز جهوده على نقاط أساسية، فأبدع مؤلفات أعطت حقل اللغة العربية وآدابها دوافع حاسمة.

وفي بادئ الأمر ظهر كتاب في نظرية الأدب بعنوان: «حول الشعر وفن القريض عند العرب»، غوتا ١٨٥٦، وهو مؤلف تذكاري قدمه بجامعة غرايفسفالد بمناسبة الاحتفال بمهرجاني اليوبيلي لمروار اربعائة عام على تأسيسها. وأراد به أن يشرح مبادئ الشعر العربي لفئات واسعة من المثقفين. وكتبه بلغة تفيض حساساً وعاطفة جياشة. وسعى فيه إلى إظهار المكانة الرفيعة التي يحتلها الشعر العربي في انظار العرب أنفسهم، وإلى عرض المبادئ والمقاييس التي يعتمد عليها العرب في تحديد قيمة قصائدهم الشعرية. وبحث كل المسائل التي تتعلق بموقف الشاعر من الطبيعة والبشر والله، كما أراد أن يفسر السبب الذي جعل هذا الشعب الشعري يحجم عن تطوير الشعر الملحمي أو الدرامي. ويمكن السبب، كما يعتقد آفارت، في الذاتية الفردية عند العرب، وفي «عجزهم عن التخلي عن الروح الفردية بحيث يتمكنون من فهم الأوضاع والأشخاص موضوعياً ووصف ذلك بصورة موضوعية أيضاً». ولم ينشأ الشعر الملحمي لأن القبائل كانت متفرقة منقسمة على بعضها، بحيث لم يتوفر لديها ماض قومي موحد. ولم ينشأ الشعر الدرامي لأن العرب لا يفقه الماضي إلا كمجموعة من الحوادث المنفردة. ولا يفهمها فيما تحدثه من تأثيرات متبادلة، ولأنه لا يستطيع إبداع شخصيات منتزعة من الحياة وعرضها في أداء تمثيلي. إن الذاتية الفردية تعيق الممثل المسرحي عن فن تكمص طابع الشخصية التي يمثلها. ومقابل ذلك فإن الشعر الوجداني الذي تجدد فيه الحياة النفسية الباطنية للفرد اكتفاءها الكامل قد قطع مراحل واسعة من التطور.

وفي عام ١٨٧٠ نشر آفارت دواوين شعراء الجاهلية: النابغة الذبياني وعنترة وطره وزهير وعلقمة وامرئ القيس حسب مراجعة إلى الحجاج الأعلم الشنتمري. ومع أن هذه الطبعة أصبحت اليوم بحاجة إلى المراجعة والتنقيح،

كما أن طبعات جديدة حلت محلها، إلا أنها ظلت حتى اليوم، وبعد مرور مائة عام على صدورهما، الطبعة النموذجية التي مازال المستشرقون الأوروبيون يستخدمونها ويعتمدون عليها. وفي مقدمة طبعته طرح آفارت مسألة صحة هذه القصائد ومدى أصالتها. وكرر هذه المسألة في كتابه الذي صدر عام ١٨٧٢ «ملاحظات حول صحة الشعر العربي القديم». ويسجل آفارت هنا التباين في تسلسل الأبيات والاختلاف في أطوال القصائد ونسبة أبيات متشابهة تماماً لعدة شعراء مختلفين والافتقار إلى أي ذكر للآلهة القديمة والطقوس الدينية الوثنية. وبنظر ثاقب راح يناقش جميع الاحتمالات التي يمكن أن تكون قد سببت هذا التشويه في النقال والرواية. فقد تكون هذه القصائد، خلال فترة القرن ونصف القرن التي مرت منذ نظمها وتدوينها، قد مرت بتحوير شديد إما بسبب أخطاء في ذاكرة الرواة أو لتزوير متعمد من طرفهم. وفي تشكيكه الخاص في روايات حماد الراوية وخلف الأحمر فإن آفارت يحكم بكثير من الشك والريبة على مدى صحة الشعر الجاهلي وسلامته ككل. ويقول في ذلك: «في التاريخ القديم، لا بل وأكثر من ذلك في تاريخ الأدب يلعب الجنون وسرعة التصديق وحسب التلقيح والسذاجة دوراً يثير القلق، كما أن الشخصيات الاسطورية الفاتنة بسحرها تراقص حولنا وتطاردنا خطوة خطوة». وفي القسم الثاني من كتابه يجمع آفارت ما بين النداء الحار للاهتمام بدراسة الشعر العربي القديم والتحذير من الاستخفاف بما ينطوي عليه ذلك من مشقة وصعوبات. وقد تلاشى نداؤه: فحتى اليوم، وبعد مائة عام، يجب أن نتمنى مع آفارت «أن تنشأ دراسة الشعر من الاهمال الذي تعاني منه فترة طويلة وعلى أيدي الغالبية». وكان تحذيره موجهاً إلى طبعة ديوان النابغة الذبياني التي أصدرها هارتفيغ ديرنبورغ (٧) Hartwig Derenbourg وطبعة ديوان علقمة لألبرت سوسين (٨) Albert Socin، وقد وصف هذين العاملين دون وجل بالفجاجة وعدم النضوج.

وإلى جانب هذه المؤلفات النظرية والنقدية قام آفارت بنشر نصوص من الشعر العربي: كالخمريات من ديوان أبي النواس (١٨٦١) والأصمعيات (١٩٠٢) وهي المجموعة الشعرية التي وضعها الأصمعي للأمير الأمين لتعريفه قليلاً بأعجاد الماضي العربي.

وفي سن الشيخوخة عالج آفارت أصعب مادة وأجفها في الشعر العربي: فقد نشر ديوان شاعري الرجز، العجاج والزيفان (١٩٠٣) ثم ديوان روبة بن العجاج (١٩٠٤).

ولم تكن هنالك أية أعمال سابقة في هذا الموضوع سوى المجموعة الصغيرة التي أصدرها محمد توفيق البكرى في القاهرة عام ١٣١٣ هجرى بعنوان «كتاب أراجيز العرب» وسوى قصيدة للعجاج طبعها ماكسيميليان بتر (٩) Maximilian Bittner في فيينا عام ١٨٩٦. ورغم اعتماده على نسخة حديثة فقط في كل مرة فقد أصدر ألفارت نصاً يستحق الثقة والتقدير، ولم يستطيع إصدار ملحقات له إلا النمساوى رودلف فاير (١٠) Rudolf Geyer. وحتى اليوم لم يستطع الرجاز أن يجدوا ناشرين جديدين لهم: وهذا دليل على الانجاز الخارق الذي حققه ألفارت في هذا المجال. غير أن ألفارت لم يكتف بنشر النص العربي فقد كان قال في عام ١٨٧٢: «إن الشعر نبات وطني مرتبط بالبلاد التي نشأ فيها ويقتصر في نموه على التربة التي أنبتته بخصب وازدهار بحيث يبدو تقويمه وتقديره في أية تربة أخرى مستحيلاً». وعلى رغم ذلك ترجم الآن ديوان رؤبة إلى الألمانية (برلين ١٩٠٤)، واختار تفعيلات من عشرة مقاطع وأحد عشر مقطعاً، أى مقلداً الوزن الأصلي تقريباً مع استغنائه في ذلك عن القافية. ويثير في اخلاصه اللغوي دهشة القارئ، حيث لا يتلشى الطابع الشعري العربي للآيات في ذلك. وكالمثلن الأصلي فان الترجمة أيضاً صعبة القراءة، إذ يغتصب ألفارت اللغة تماماً كما فعل الرجاز. فما الذي دفعه إلى هذا التقليد الشعري في الترجمة؟ هل كان يريد تجربة براعته وفنه الكلامي؟ وهل انتقلت إليه عدوى روح رؤبه الهزلية الغربية؟ لا شك في هذا؛ وأكثر من ذلك: أنه تمنى لو أن الشعراء الألمان تفكروا كذلك في هذه القوافي «بحيث يدركون منها لصالحهم الخاص ما يصلح للتقليد وما لا يجوز اتباعه».

وبالإضافة إلى أعمال ألفارت حول الشعراء، هناك طبعتان لعلمين تاريخيين: في عام ١٨٦٠ أصدر «كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية» لمحمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الذي أبدى إعجابه الشديد بروعة أسلوبه وجلائه وإيجازه. وفي عام ١٨٨٣ أصدر نصاً كان قد اكتشفه في مخطوط بدون عنوان أو مؤلف، مدرج تحت رقم: Berlin Petermann II 633 ويتعلق بجزء من فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان وبتحليل ثاقب للمضمون أثبت ألفارت أنها كانت المجلد الحادى عشر من كتاب الأنساب والأشراف لأحمد بن يحيى البلاذرى.

إلا أن ألفارت قدم انجازاً فاق في أهميته جميع ما نشره من مخطوطات: فقد قام بترتيب وفهرسة المخطوطات العربية

للمكتبة الملكية في برلين التي أصبحت فيما بعد المكتبة البروسية الحكومية. وكان في مكتبة برلين سابقاً ما يقارب ٦٠٠٠ مجلد من المخطوطات العربية، أضيف إليها عام ١٨١٧ مجلدات أخرى من ممتلكات القائم بالأعمال البروسى لدى الباب العالى، هاينرش فريدرش. بارون فون ديتز. ونمت هذه المجموعة المتواضعة نسبياً نمواً سريعاً في عهد الملك فريدرش فيلهلم الرابع، الذى كان محباً راعياً للفنون والعلوم، كما اهتم الامبراطور فيلهلم الاول بشراء مخطوطات أخرى. ثم ساهم القنصل البروسى في دمشق يوهان غوتفريد فترشتاين (١١) Johann Gottfried Wetzstein في ١٨٥٢ و ١٨٦٢ بـ ٢١٠٠ مخطوطة؛ وباع البروفسور هاينرش بيتزمان (١٢) Heinrich Petermann للمكتبة بين ١٨٥٣ و ١٨٥٧ وكذلك عام ١٨٧٠ ما يزيد على الألف ومائة مجلد؛ وخلف المستشرق ألويس شبرنغر (١٣) Alois Sprenger عام ١٨٥٧ كذلك ١١٠٠ مجلد؛ وابتيع عام ١٨٨٤ من شركة بريل في لايدن بهولندا ما يزيد على الألف مجلد من مجموعة الكونت لاندبيرغ (١٤) Graf Landberg Eduard Glaser؛ وفي عام ١٨٨٧ انتقلت ٢٤٠ مخطوطة كان قد احضرها معه ادوارد غلازر (١٥) Eduard Glaser من رحلاته في جنوبى الجزيرة العربية عام ١٨٨٥-١٨٨٦ إلى حوزة المكتبة، وبالإضافة إلى مقتنيات صغيرة أخرى من المخطوطات بلغ مجموع ما في حوزة مكتبة برلين ٦٤٥٠ مجلداً، وهى مجموعة لا تقل في أهميتها عما في امهات المكتبات الأوروبية الأخرى الاقدم عهداً في باريس ولايدن ولندن واكسفورد، وتضم في محتوياتها جميع فروع الأدب العربى. وقد حصل ألفارت عام ١٨٦٣ على التكليف بترتيب هذه المخطوطات وفهرستها. وقد أقر بأنه كان يكرس لهذا العمل للذى كان يقوم به في منزله في غرايفسفالد كل يوم عشر ساعات على الأقل ولمدة عشرين عاماً. واحتاج طبع بيان الفهارس وحده إلى اثنى عشر عاماً أخرى. وعندما ظهرت المجلدات العشرة السميكة من القطع الرباعى عام ١٨٩٩ كان ألفارت قد أنجز عملاً كان فريداً من نوعه في اتساع مواده ودقة ضبطه وذا أهمية راسخة ثابتة بالنسبة لحقل دراسة اللغة العربية وآدابها.

لقد كان على ألفارت أن يتخلى عن المشروع الذى خطط له في شبابه: وهو تأليف تاريخ للأدب العربى يبعث الحياة في القوى الباطنية الداخلية للفكر العربى. والآن فقد كان قد وضع الأسس التى يمكن أن يقام عليها الهيكل الخارجى لتأريخ الأدب العربى على الأقل. وقد

الحماس وتفانيه في البحث وحياته في صومعة الدرس والتحصيل كان يجسد لودعية علمية تبدو وكأنها أخذت تتلاشى في عصرنا المتحيز المسعور، رغم أنها يجب أن تظل قسماً مضيئاً عبر كل العصور

ترجمة: محمد علي حشيشو

العلوم في فيينا. كان عالماً لغوياً فذاً وقام بنشر مخطوطات في عدة لغات شرقية.

(١٠) رودلف غاير: مستشرق نمسوي ولد في فيينا في ١٨٦١ وتوفي فيها عام ١٩٢٩. درس اللغات الهندية في جامعة فيينا في بادئ الأمر ثم تحول إلى اللغات السامية وتفرغ لدراسة اللغة العربية بالذات. أصبح عام ١٩١٥ استاذاً نظامياً للغات السامية ورئيساً للمعهد الشرقي في جامعة فيينا. كان اهتمامه يدور بوجه خاص حول الشعر الجاهلي والبيئة الجاهلية. قام بنشر كتاب الوحوش للأصمعي وديوان أوس بن حجر وعالج ديوان رؤية بن العجاج وغير ذلك.

(١١) يوهان غوتفريد فترشتاين: مستشرق ورحالة بحاث ولد عام ١٨١٥ في أولزنيست وتوفي عام ١٩٠٥ في برلين. درس منذ عام ١٨٣٦ اللاهوت في لايبزغ وبعدها تفرغ للغات الشرقية. واصل دراسته في أكسفورد وختتمها في برلين عام ١٨٤٦ حيث نال اجازة تدريس اللغة العربية. أصبح عام ١٨٤٨ قنصلاً بروسيا في دمشق وتوصل إلى عقد اتفاقية صلح بين الحكومة التركية والدروز وتمهد أمر المسيحيين في سوريا عام ١٨٦٠. سجل ملاحظاته حول حوران وبدو سوريا في مؤلفات هامة وجمع عدة مخطوطات من الشرق.

(١٢) هاينرش بيترمان: مستشرق ولد عام ١٨٠١ وتوفي عام ١٨٧٦. أصبح عام ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية في برلين. قام من ١٨٥٢ حتى ١٨٥٥ برحلات إلى تركيا وإيران ثم زار فلسطين وسوريا بين ١٨٦٧ و١٨٦٨. كتب عدة مؤلفات في قواعد اللغات الشرقية كما دون قصة رحلاته في كتاب خاص.

(١٣) ألويس شيرنغر: مستشرق ولد عام ١٨١٣ في قرية بجبال التيرول وتوفي عام ١٨٩٣ في هايدلبرغ. ذهب عام ١٨٣٦ إلى لندن وعام ١٨٤٢ إلى الهند حيث عمل رئيساً للمعهد العالي في دلهي وكالكوتا حتى ١٨٥١. وحين عاد إلى أوروبا أصبح استاذاً في برن من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. نشر مخطوطات عربية وفارسية هامة كما ألف كتاباً عن حياة الرسول وتلاميذه وآخر عن جغرافية الجزيرة العربية.

(١٤) الكونت لاندبرغ: مستشرق سويدي أصبح إيطالياً منذ عام ١٨٨٤. ولد عام ١٨٤٨ في غوتنبورغ بالسويد وتوفي عام ١٩٢٤ في نيزا. قام منذ عام ١٨٧٢ بمدة رحلات إلى الشرق لتعلم اللهجات العربية. أصبح بين ١٨٨٨ و١٨٩٣ قنصلاً عاماً للسويد والنرويج في القاهرة وترأس عام ١٨٩٨ البعثة العلمية إلى جنوبي الجزيرة العربية التي أوفدها أكاديمية العلوم في فيينا. كتب عن اللغة العربية ولهجاتها ونشر مخطوطات عربية أيضاً.

(١٥) إدوارد غلازر: رحالة ألماني ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٠٨ في ميونيخ قام برحلات في جنوبي الجزيرة العربية عام ١٨٨٣ وكذلك من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٤ وجمع نقوشاً ومخطوطات هامة. وكتب عن تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها منذ أقدم المهود حتى عهد الرسول.

(١٦) كارل بروكلمان: مستشرق متخصص باللغات السامية والتركية ولد في روستوك عام ١٨٦٨. عمل منذ عام ١٩٠٠ استاذاً للغات الشرقية في بريسلاو وكوفنيزبيرغ وهاله وبرلين. اشتهر بانجازته العظيم الفريد «تاريخ الادب العربي» وكتبه الاخرى عن تاريخ اللغات السامية وتاريخ الشعوب الاسلامية وكتب قواعد اللغة العربية.

اعترف كارل بروكلمان (١٦) Carl Brockelmann بامتنان أنه ما كان بمقدوره أن يكتب مؤلفه «تاريخ الأدب العربي» لولا بيان الفهارس الذي أعده آلفارت.

لقد أصبح قبلهم آلفارت في سكون عزلته واحداً من عظماء المستشرقين الألمان المختصين بالعربية. فبقدرته على إثارة

ملاحظات المترجم

(١) كاسپر دافيد فريدريش: ولد في غرايفسفالد في ١٧٧٤ وتوفي في دريسدن في ١٨٤٠. أشهر مثل الرسم الرومانتيكي للمناظر الطبيعية في ألمانيا. اشتهر برسم الظواهر الطبيعية الخلابة على ساحل بحر البلطيق.

(٢) إيرنست موريس أرلدت: شاعر ألماني عاش من ١٧٦٩ حتى ١٨٦٠ اشتهر بأشعاره الوطنية الحماسية. اشتغل في التأريخ والصحافة وناضل بقلبه ضد نابليون ومن أجل وحدة ألمانيا تحت دستور ألماني. عمل عام ١٨١٨ استاذاً للتاريخ في برن ثم عزل من منصبه من ١٨٢٠-١٨٤٠ بتهمة الديماغوجية. أصبح عام ١٨٤٨ نائباً في برلمان فرانكفورت.

(٣) كاليهاخوس: شاعر يوناني عاش بين ٣١٠ و٢٣٨ ق.م. ويعتبر مؤسس تاريخ الأدب اليوناني.

(٤) پندار: شاعر وجداني يوناني عاش بين ٥٢٢ و٤٤٢ ق.م.

(٥) يوهان غوتفريد كوزغارت: مستشرق ومؤرخ ولد في جزيرة Rugen على بحر البلطيق عام ١٧٩٣ وتوفي في غرايفسفالد عام ١٨٦٠. درس اللاهوت واللغات القديمة في غرايفسفالد وأصبح عام ١٨١٧ استاذاً نظامياً للغات الشرقية في جامعة بينا ثم انتقل ليحتل نفس المقعد في جامعة غرايفسفالد عام ١٨٢٤. اشتهر باهتمامه الرئيسي باللغة العربية وآدابها فأصدر دراسة عن ابن بطوطة ونشر معلقة عمرو بن كلثوم (١٨١٩) كما نشر جزئين من تاريخ الطبري (١٨٣١-١٨٣٧) وديوان بني هذيل.

(٦) هاينرش ايغال: لاهوتي بروستنتي ومستشرق ولد في غوتنغن عام ١٨٠٣ وتوفي فيها عام ١٨٧٥. عمل من ١٨٣١ حتى ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية في غوتنغن. عزل من منصبه لأسباب سياسية ثم انتقل عام ١٨٣٨ استاذاً في قسم الفلسفة في جامعة توبنغن. وبعد خلافات فكرية عاد إلى غوتنغن عام ١٨٤٨. واشترك عام ١٨٦٣ في تأسيس الاتحاد البروتستانتي. عزل عام ١٨٦٧ من قسم الفلسفة بسبب نشاطه المعادي للحكومة البروسية. لقد كان ايغال أحد الممثلين الرئيسيين لعلم اللغات السامية وخاصة العبرية في القرن التاسع عشر.

(٧) هارتفيج ديرلبرغ: مستشرق فرنسي من الطائفة الاسرائيلية ولد في باريس عام ١٨٤٤ وتوفي فيها عام ١٩٠٨. درس على المستشرق فلايشر في لايبزغ وعلى ايغال في غوتنغن. وبعد أن عمل في تدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية الحية في باريس عين عام ١٨٧٩ استاذاً في المعهد نفسه. أهم أعماله إصدار كتاب النحولسيويه (باريس ١٨٨١-١٨٨٩).

(٨) ألبرت سوسين: مستشرق ولد في بازل عام ١٨٤٤ وتوفي في لايبزغ عام ١٨٩٩. درس منذ عام ١٨٦٢ اللغات الشرقية في بازل وجنيف وغوتنغن ولايبزغ. قضى مدة عامين من ١٨٦٨ حتى ١٨٧٠ في مصر وسوريا والعراق حيث قام بأبحاث هامة حول اللهجات العربية وحول السريانية والكردية. أصبح عام ١٨٧٦ استاذاً نظامياً في توبنغن وفي ١٨٩٠ في لايبزغ. أصدر عام ١٨٦٧ «قصائد علقمة» كما ألف عدة كتب حول اللهجات العربية والآرامية الحديثة وكتابات لقواعد اللغة العربية.

(٩) ماكسيميليان بتر: مستشرق نمسوي ولد في لوبوونز عام ١٨٦٩ وتوفي في مودلينغ عام ١٩١٨. كان استاذاً للغات الشرقية في جامعة فيينا منذ عام ١٩٠٦ وكذلك في الأكاديمية القنصلية وكان عضواً في أكاديمية

الملك المحتاج أقبل ذلك واجتنب الحرم والزلا الطائف
 فسار المحتاج حتى نزل الطائف ثم إنه كتب إلى سيد الملك
 إنك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ولا تأمر برجمه
 ومصادمته بكفر مدد مدد وسلاحه فأذن له في
 قتله ومناجزته وكتب إليه أقبل ما تري فامر أصحابه
 أن يجهزوا للفتح ثم أقبل من الطائف وقدم مقدمته
 فنصبوا المنجنيق على أبي قبيس فلما عطلوا إلى بني
 رأي من في سكر المحتاج المنجنيق منصوبة فقال الأصيل
 ابن شهاب الكلبي وهو ينسب في القين من حسن بن جندب
 فقال القيني

الطويل

لعمري أبي المحتاج لو خفت ما أرى

من الأمر ما أفيئت تعدلني نفسي

فلم أزعجنا نزع بالجمع قبلنا

ولم أزعجنا نزع ما حرس

خرجنا لبيت الله نرعى شورة

وأجارة زعن الوليد في العرس

دلفنا له يوم الثلاثاء من ربي

320-11-11
 (المختار من عبد الله الأصيلي)
 نسخة من
 مكتبة
 دار
 الكتب
 القاهرة



يُولْيُوسُ قِيلْهَاوزِن

(١٨٤٤ - ١٩١٨)

بقلم: الأستاذ انطوأت شال

وقد كان فلهاوزن سعيداً بهذه التركة فيما بعد، مع راتبه الضئيل عندما أصبح استاذاً خارج الملاك في هاله. لم يكن فلهاوزن طفلاً معجزة على الإطلاق. فقد كان هزيراً متحفظاً، كما أن معلماً كتب في شهادته المدرسية أنه يفتقر إلى كل قدر من الخيال. وفي سن الخامسة عشرة انتقل إلى المدرسة الثانوية (الليسيوم) في هانوفر، ولم يكن هناك طفلاً معجزة أيضاً؛ إلى أن بدأ عام ١٨٦٢ دراسة اللاهوت في جوتنجن كما كان ينتظر من ابن القسيس آنذاك. وراح يدرس في البداية دون لذة واهتمام حقيقيين، وكان التأمل اللاهوتي والفلسفي بالنسبة له في سنواته الدراسية الأولى شيئاً مقيتاً ككل ما يفرض بالإكراه. وراح ينتظر الرجل الذي لم يكن قادراً على تعليمه بعض العلم فحسب، بل وقادراً على إرشاده أيضاً. ولم يكن هناك فائض من أمثال هؤلاء الرجال في جامعة جوتنجن وخاصة في كلية اللاهوت فيها، إلى أن وقع بين يديه في فصح عام ١٨٦٣ كتاب إيفالد حول تاريخ بني إسرائيل فلاقي في نفسه هوى شديداً حتى أنه عزم على تعلم اللغة العبرية التي لم يكن قد تعلمها حتى ذلك الحين بعد. ويقول في ذلك: «لأنني لم أكن أفهم المشاكل اللاهوتية؛ ولكن ما همني كان إيفالد وكذلك الكتاب المقدس، الذي كنت ملماً بدقائقه بحكم نشأتي». ويكتب فلهاوزن في مكان آخر: «لقد أنقذني إيفالد، أنا الذي كنت أقابل بالسخرية غالباً آنذاك».

وهكذا فقد كسب هاينرش إيفالد (١٨٠٣ - ١٨٧٥)، الذي أصبح غريب الأطوار في سني عجزه، وأحد «كبار جوتنجن السبعة»، تلميذاً آخر استطاع بغريزته التي لا تخطئ أن يدرك ويستخلص لنفسه ما في تفكير إيفالد

إذا تجرأ كاتب هذه السطور، الذي لم يولد في فترة حياة يوليوس فلهاوزن، أن يكتب عن فلهاوزن في هذه المجلة، فإنه لا يفعل ذلك إلا لأنه أتيح له من خلال اتصاله الوثيق المستمر بأستاذه الجامعي خلال اثني عشر عاماً أن يعرف تفاصيل شخصية كثيرة عن سلفه في الوظيفة الجامعية وصديقه الشخصي الحميم^(١). وبهذه المعرفة حول شخص فلهاوزن التي انتقلت بالاتصال الانساني المباشر وبالمعرفة التي تتناول مؤلفاته وأعماله والتي تمت بمواصلة الاطلاع الدائب، فإنني سأحاول فيما يلي أن أرسم معالم سيرة يوليوس فلهاوزن كرائد طليعي في ميادين أبحاث الكتاب المقدس والدراسات الإسلامية والعربية.

ولد يوليوس فلهاوزن في السابع عشر من مايو عام ١٨٤٤ في مدينة هاملن في سكسونيا السفلى على نهر القيزر وكان أبوه قسيساً لتلك البلدة الهانوفرية الريفية بحيث أتيح للابن أن يتعرع في اتصال مباشر بالشعب. وقد علق على ذلك مرة بقوله: «لأنني مدين لذلك الوضع بالكثير، وربما بأفضل ما عندي».

وعاش فلهاوزن مع الطبيعة هنا كأبناء الريف، فكان يشعر مباشرة وبدون وساطة بتغير فصول السنة، ويستمتع ببداية مطاردة الأبقار والأغنام وكأنه عيد بهيج. وكان مزارع عمجوز قد أحاط الصبي بحبه ورعايته الشديدين، حتى جاءه ذات يوم وأسرله بأنه أعد وصيته ثم قال له بلهجته الريفية العامة: «وقد ذكرتك بشئ فيها أيضاً»^(٢).

(١) انظر رثاء أدوارد شوارتز Eduard Schwartz لفلهاوزن، ص ٣٢٧ من مجموع المؤلفات، المجلد الأول، برلين ١٩٣٨.

(٢) "Da stehst du ok in"



تصوير يوليوس فلهاوزن.

عام ١٨٧٢ استدعى فلهاوزن إلى جامعة غرايفسفالد كاستاذ نظامي للعهد القديم. وهناك عقد قرانه على الابنة الكبرى للكيميائي لمبرشت Limpricht. وظل زواجه السعيد بدون أطفال. وفي عام ١٨٧٦ جاء أولريش فون فيلاموفيتس Ulrich von Wilamowitz إلى غرايفسفالد، وبذلك حصل على زميل كان في مستواه. وبفضل فيلاموفيتس أثر اهتمامه باللغات الكلاسيكية كواقع مثير. وفي عام ١٨٧٤ نال فلهاوزن درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة غوتنجن بدراسة حول الفريسيين والسدوسيين. وفي هذا العمل المبكر يتضح أن صورة التاريخ اليهودي قد اتخذت لديه أشكالا معينة خاصة. وبعد ذلك بفترة قصيرة، أي عام ١٨٧٦، بدأت سلسلة الأعمال الكبيرة التي اكسبت فلهاوزن مكان القيادة في أبحاث العهد القديم والديانة الإسرائيلية. وفي دراسته حول تأليف ال-Hexateuch أي التوراة مع كتاب القضاة، فصلت الطبقات الأدبية بصورة محددة بعضها عن البعض الآخر. وكان الحديث حول اليهوديين والإيلوهيين وحول الكتاب الأصلي دائراً منذ زمن طويل، كما أن فرضية أجزاء المخطوط الأصلي وما أعقبها من تتمات كانت أمراً مقطوعاً فيه

من عظمة وعمق وكنية. وكان إيفالد لا يظل عالماً في التفاصيل الجزئية، بل كان همه الرئيسي إدراك الترابط الحيوي والعلاقات الأساسية. ومن إيفالد تعلم فلهاوزن هذا الفن الذي كان يمارسه بالنسبة لأدق المواضيع وأصعبها ببراعة لا تجارى. وبعد إنهاء دراسته اللاهوتية تجرأ فلهاوزن ابتداء من عام ١٨٦٧ على حضور الحلقات الدراسية التي كان إيفالد يعقدها عصرًا حول النصوص الشرقية. ثم حدث شقاق بين المعلم وتلميذه حول الاحتجاج القلبي لعام ١٨٦٦، ضد ضم هانوفر إلى بروسيا. فقد رفض إيفالد بروسيا رفضاً باتاً، بينما رفض فلهاوزن أن يتبعه في ذلك، ولم تنقش أسباب هذا الشقاق فيما بعد أيضاً بينه وبين معلمه.

وقبل اندلاع الحرب الألمانية الفرنسية في ١٨٧٠/١٨٧١ بوقت قصير أنهى فلهاوزن سنى دراسته بالتقدم إلى درجة اللسانسية في التاسع من يوليو (تموز) عام ١٨٧٠. وكشفت اطروحته مبكراً عن مواهبه وكانت تحمل العنوان اللاتيني : De gentibus et familiis Judaeis quae 1. Chron. 2,4 enumerantur أي : «حول القبائل والأسر العبرية، كما جاءت في سفر العدد ٢، ٤». وفي

من حيث الأساس. أما فلهاوزن فقد كان أول من قام بأعماله هذه بدراسات تحليلية تستند إلى النص الحى نفسه. فبغريزة العبقرى كان يستخرج الجوهر الأساسى من المتن، ذلك الجوهر الذى يخضع للبرهان والدليل القاطع، ويترك الباقي، الذى لا يهم كثيراً فى الوقت الحاضر، لأولئك الذين يملكون الجلد والأناة الكافيين لتحرى أمره. وهكذا تبرز له فى الـ Pentateuch أى التوراة الطبقات الكبيرة الثلاث دون أن يصبح التقسيم شديد الدقة والتشعب بحيث يصبح بذلك غامضاً وباعثاً على الشكوك.

إن على أبحاث التاريخ الخليفة بهذا الاسم أن تستند إلى التقاليد المتوارثة التى تتناولها هذه الأبحاث. فإذا ما انتقلت هذه التقاليد المتوارثة المتسلسلة بالدرجة الأولى بوساطة تراث أدبي، فإن القضايا والمسائل الأدبية والتاريخية ترتبط بعضها ببعض الآخر وتتشابك بحيث يصعب الحل فيما بينها. وإنه لمن أخطر الأشياء على البحث التاريخي أن يظل عالفاً بالمسائل الأدبية. وقد حالت طبيعة فلهاوزن الخاصة بالباحث وراء الحقائق والوقائع دون اتخاذه من نقد الـ Pentateuch أى التوراة (كتب موسى الخمسة) هدفاً نهائياً للبحث والدراسة. إذ لم يكن هدفه تأريخ الأدب ولا نقد الأدب وإنما كان التأريخ نفسه. ويتضح ما أراده فى الحقيقة من عنوان كتابه الشهير الذى ظهر عام ١٨٧٨ : «تاريخ بنى إسرائيل، المجلد الأول» والذى أُلحق وتمم فيما بعد بكتاب «مقدمة لتاريخ بنى إسرائيل» (١٨٨٣ - ١٨٨٦). وبذلك بعث عالم منسى ضائع بعثاً جديداً. وتحولت التوراة من معضلة تاريخية إلى ما كانت عليه قديماً: إلى نهج كهنوتي منبعث من الحياة ولخدمة الحياة. وعرض كل ذلك بلغة واضحة شفافة كالبلور خلت من كل صقل لغوى علمي متكلف.

وبعد هذا المؤلف لم يعد فلهاوزن يتوقع أن تستدعيه كلية لاهوت لمنصب الاستاذية، وكان عليه أن يتقبل فكرة البقاء فى جامعة كانت امكانيات التطور والارتقاء محدودة فيها، والاكتفاء بالمحافظة على الأفضل والأصيل لنفسه. وادى به هذا إلى التخلي عن استاذية اللاهوت فى غرايفسفالد عام ١٨٨٢. وإذ تخلى عن كليته الخاصة، منحته كلية الفلسفة الدكتوراة الفخرية. وعينه الحكومة استاذاً خارج الملاك للغات السامية فى هاله. ولم يعجبه الحال هناك، وكان سعيداً حين استدعته بعد ثلاثة اعوام كلية اللاهوت فى جامعة ماربورغ ليصبح استاذاً نظامياً فيها. وكانت اعوام ماربورغ فى مناح كثيرة أسعد أوقاته اطلاقاً. وحين سئمت نفس فلهاوزن حقن العهد القديم

بعد حين، لم تستهوه دراسة الكتابة المسماة التى أصبحت أكثر شهرة آنذاك بقدر ما استهواه الوجه الآخر لدين يهوه وقانونه الذى انتهى أخيراً إلى يسوع المسيح، ونعنى بالطرف المقابل: الإسلام كما نشأ فى الجزيرة العربية وبالقدر الذى ظل يرتدى قالباً عربياً خالصاً فيه. وحين كان لا يزال فى غرايفسفالد ألقى مرة محاضرة عامة عن محمد. وخلال زيارته إلى إنجلترا بدعوة من ويليام روبرتسون سميث آنذاك اقتبس من مخطوط كتاب المغازى للواقدي أقدم وأرصن رواية متوارثة عن محمد فى المدينة، كما اقتبس من ابن سعد الوثائق الهامة المتعلقة بانتشار الإسلام. وفى فترة هاله وماربورغ، حيث اهتم بالعربية بالدرجة الأولى، نشأت المشاريع والأعمال الأولية لمؤلفاته التالية، أو القسم الأكبر منها على الأقل. وفى غوتنجن أنهى تاريخ الدولة العربية وانهيائها (١٩٠٢). وكذلك الشروح والمقالات التى نشأت من الحواشى والتعليقات الخاصة ببحثه المذكور.

ومنذ الآن راح فلهاوزن ينكب بكل قوته واهتمامه على الشعر العربى والاحاديث والروايات العربية المتوارثة. ولم يمض وقت طويل حتى ألم بالأنساب العربية كمحدث عربى. ولم يبق عالفاً فى شباك الشعر العربى الذى ذهبت عدة مواهب ضحية له. ومن خلال اهتمامه بالعالم العربى القديم انتقل رأساً إلى صيرورة ونشوء آخر دين منزل فى أفق الكتاب المقدس. وحتى قبل ظهور النبى محمد كانت الديانة الوثنية التى تدين بها القبائل العربية والقائمة على تعدد الآلهة فى سبيلها إلى الانحلال، وكانت قد بدأت تعم بينهم ديانة توحيدية غربية تجريدية، وكان قد ظهر التساؤل حول هدف الوجود على الأقل. وقد ولدت نفس تأثيرات التفرعات البرية الفطرية للمسيحية فى الولاياتين الرومانييتين جزيرة العرب وفلسطين، ولدت فجأة عملية اختارغربية فى العالم العربى، كانت تصعيداً للحس الحياتى يتفوق على نمط الحياة الطبيعية المعتاد بحيث قدمت بذلك عجيبة الاختيار للإسلام. واكتفى فلهاوزن بالتأكد أولاً من تحديد ومعرفة التربة التى نشأ عليها الإسلام وبإدراك التناقض بين الديانة الساذجة التقليدية، أى الوثنية، وبين عناصر الدين الجديد.

وبينما نجعل تفاصيل فترة الرسول المكية تتوفر معلومات أكثر حول العمل التنظيمى الذى تطور ونشأ فى المدينة: فمن خضم الروايات والاحاديث التى سرعان ما نمت وأصبحت كالأساطير اختار فلهاوزن الروايات المباشرة وخاصة تلك التى اشتملت عليها الوثائق التى كان السباق إلى نشرها

والتي تظهر كيف توصل النبي إلى إحلال السلام في البلاد بتوجيه طاقات الشعب الفتية المتدفقة إلى الخارج بدلا من تضاربها الواحدة ضد الأخرى. وبذلك مهد فلهاوزن من الأمام ومن الخلف الطرق التي تؤدي إلى المسألة التاريخية لنشوء الاسلام وصيرورته. ولكنه افتقد إلى الطريق الكامل الذي أدى بالعرب بعد وفاة الرسول إلى السيادة على مملكة عالمية لمدة تزيد على القرن. ولحسن الحظ، فقد بدأ تاريخ الطبري الضخم في الظهور في هذه الأعوام، وقد اقتبست فيه كتب التاريخ القديمة كل على حدة، بحيث أصبح من الممكن متابعة تطور الاحاديث والروايات والسير المتوارثة. وأدرك فلهاوزن خلافاً للحكم الذي كان سائداً أن ثروة القصص المتوارثة حول الفتوحات الكبيرة الأولى ما هي إلا مظهر خداع، ولكنها في رواياتها حول نشوء الخلافات المذهبية والفرق الكبيرة تقدم مجموعة وافرة من المعلومات المباشرة الأصلية. ومن دراسة الروايات المتوارثة نمت بصورة عضوية فكرة عرض الخلافة الأموية. وكان تعاقب الخلافة في الاسرة الاموية ابتداء من معاوية الداهية حتى الكارثة الختامية المريعة خليفاً باغراء قصاص على سرد هذه الوقائع. ولكن كتابة تاريخ من نوع رفيع تحتاج إلى قطبية تولد حركة إيقاعية منتظمة في المادة التاريخية. ووجد فلهاوزن هذه القطبية في التوتر القائم بين الدولة والدين، بين سياسة الحكم التي ولدها الدولة، والديموقراطية التي يحتمها الدين. وكانت التناقضات بين عرب الجزيرة ذوى المراسم الصعب والذين يصعب اخضاعهم للنظام وبني جلدتهم في سوريا وفيما بين النهرين الذين نشأوا نشأة سياسية وعسكرية بفضل انتابهم الطويل للدولة الرومانية وللكنيسة المسيحية، لقد كانت هذه التناقضات سبباً في انهيار العروبة الحرة الأصلية أمام استبداد العباسيين الخاضعين للتأثير الإيراني. ورغم أن أمثال هذا العمل قليلة في مكتبائنا، إذ يعتبر في حجمه الضخم أروع عرض مملكته للتاريخ السياسي للاسلام حتى انهيار الدولة الأموية، إلا أنه لا يقروء إلا القليلون فقط.

ثم انتهت فترة ماربورغ السعيدة قبل الموعد الذي كان فلهاوزن يتمناه. فبعد وفاة پاول دى لاكارد Paul de Lagarde في ٢٢ ديسمبر ١٨٩١ استدعى فلهاوزن إلى غوتنجن كخلف له، وكان رودلف سمند Rudolf Smend يحتل مقعد الاستاذية لأبحاث العهد القديم في كلية الفلسفة. وفي غوتنجن تحول كتاب «مقدمة في تاريخ بني اسرائيل» إلى مؤلف عظيم بعنوان «التاريخ الاسرائيلي واليهودي» (١٨٩٤)، وصلت طبعاته حتى عام

١٩١٤ إلى السبع، وظهر عام ١٩٥٨ في طبعته التاسعة. وبما أن فلهاوزن عرض مؤلفه تحت هذه العبارة: «يهوه إله اسرائيل واسرائيل شعب يهوه»، فقد نال عرضه التاريخي بالمفهوم العلمى والفنى قوة تعبير لم يبلغه مؤلف قبله في حقل التاريخ القديم.

وبعد إنهاء المؤلفات العربية اتخذ فلهاوزن لنفسه مهمة تفسير الأناجيل الثلاثة الأولى، وانكب على عمله حتى انتهى منه بالسرعة التي امتاز بها. وظهرت ترجمات وتفسير أناجيل مرقس ومتى ولوقا بسرعة، الواحدة تلو الأخرى في ١٩٠٣ و ١٩٠٤. وكان من ميزات فلهاوزن أنه لم يعالج الأمر من زاوية اللغة اليونانية الكلاسيكية، التي لم تكن ستفيد كثيراً بالنسبة للعهد الجديد، وإنما جاء الأمر من زاوية اللغات السامية: فما كان آرامياً في التفكير وطريقة التعبير أدركه فوراً بمجرد سماع اليونانية المجردة من المرونة والحالية من قوة التعبير. وقد علمنا على فهم لغة الإنجيل مرقس فعلاً وبوجه خاص وأظهر من خلال ثغرات عديدة أن أقدم رواية متوارثة، ليس الشفوية فحسب، بل وكذلك المخطوطة، كانت آرامية الأصل.

ويوجد فلهاوزن في تفسيره للأناجيل الثلاثة الأولى علاقاتها التاريخية بعالم أفكار وأحاسيس العهد القديم. ثم أتبع ذلك بتحليل لكتاب الرؤيا وبحث حول تاريخ الحوارين. وفي عام ١٩١٤ ظهر التحليل النقدي لتاريخ الحوارين، وكانت حالته الصحية قد أعاقت طبع الكتاب عدة مرات. وفي السابع من يناير عام ١٩١٨ أنقذت المنية يوليوس فلهاوزن من استشهاد حقيقى. إذ بلغ حداً لم يعد عنده قادراً على العمل، وبما زاد من شعوره بقسوة ذلك أن فكره ظل صافياً يقطاً حتى النهاية.

لقد كان لأعمال فلهاوزن الخاصة بالتاريخ الاسرائيلي اليهودي أبعد الأثر. ولكن كاتب سيرته كارل هاينرش بيكر محق حين يقول عن فلهاوزن: «ولكن ربما كانت عبقرية الانجاز الفردى أقوى في حقل الدراسات العربية. ففي ميدان العهد القديم كان له سابقون، بحيث كانت الاسئلة قد أثريت هناك، وكانت المشكلة في تناول اليد، رغم أن دخوله الميدان هو الذى أدار عجلة البحث. ويختلف الأمر تماماً بالنسبة لعرضه لتاريخ الخلافة العربية. فهنا شق بقوة لا مثيل لها حتى الآن سبل سير في ادغال

صحيفة من الترجمة الألمانية التي قام بها فلهاوزن لديوان الهديلين والتي لم تنشر حتى الآن.
نشكر الأستاذ أنطون شال لوضعه هذا التصوير تحت تصرفنا.

كان لا يمكن اختراقها، كما بدأ في تحويل أجزاء منها إلى منتزهات منسقة منظمة»^(٣)

وحتى ما قام بنشره من مخطوطات يدل على قدرة الناشر على الحكم التاريخي. ففي الملاحظات السابقة لترجمة الواقدي^(٤) يقارن الواقدي بابن اسحق في بحث مختصر غنى بالمضمون والفائدة. وقد يقدم الواقدي في بعض الحالات المادة الأصلية، ولكن في اغلب الحالات التي يفتقر فيها الواقدي وابن اسحق، يقدم لنا الاخير ما هو أفضل وأكثر أصالة. ومع أغاني الهذيلية، التي أصدر فلهاوزن قسمها الأخير بالعربية والترجمة الألمانية عام ١٨٨٤^(٥)، وذلك تتمه للقسم الأول الذي أصدره كوزيغارتن Kosegarten عام ١٨٥٤، ألحق فلهاوزن تقييماً تاريخياً بالإضافة إلى رسائل محمد والسفارات التي وفدت عليه والتي أصدرها فيما بعد كقسم ثالث في الكراس الرابع من «دراسات وأعمال أولية» في برلين عام ١٨٨٩. وعلى وجه العموم فليس هناك ما يدعو إلى الشك في أصالة الرسائل الأخيرة. فغالبا موجه إلى قبائل بعيدة لا أهمية لها. وهي لا تمشي وروح الرسائل التالية، ولكنها لا تظهر محمداً كنبى حازم لا يعرف الهوادة، وانما كسياسى عملى لا ينظم مراكز معتنى الاسلام حسب مبادئ عامة ثابتة، وانما حسب اتفاقات مختلفة تقريبا، وأنه يتفاوت في مطالبه وفي عروضه كثرة وقلة بتفاوت الأشخاص والظروف.

أما كتاب «بقايا الوثنية العربية، مجموعة ومفسرة» (برلين عام ١٨٨٧)، وهو أول عرض تاريخي في حقل دراسات اللغة العربية لفلهاوزن فيتعلق بتاريخ الأديان. وكل ما نملكه تقريباً من أخبار عن الوثنية العربية يعود في مرجعه إلى العهد الاسلامى، بحيث صبغت جميعها بالصبغة الإسلامية. فالوثنية تشوه باظهار الناحية السلبية عندما تتناول أموراً يرفضها الإسلام، بينما تشوه باظهار الجوانب الحسنة في الحالات التي ورث الاسلام فيها أموراً وثنية. ويحاول فلهاوزن تطهير الجذور الوثنية من الجانبين ليتعمق في الاصول

(٣) انظر Carl Heinrich Becker, Julius Wellhausen Islamstudien, المجلد الثاني، لايبزغ ١٩٣٢، ص ١٧٤-٤٨٠.

(٤) Muhammed in Medina. Das ist Vakidi's Kitab al Maghazi in verkürzter deutscher Wiedergabe, herausgegeben von Julius Wellhausen. Berlin, 1882.

(٥) هناك ترجمة ألمانية للقسم الأول موجودة على شكل مخطوط. وقد استخدمت في قاموس اللغة العربية الكلاسيكية، Wörterbuch der Klassischen Arabischen Sprache، راجع فهرس الموضوعات ص XI من الكراس الأول، فيسبادن ١٩٥٧. وترى صفحة من المخطوط إلى جانب هذا الكلام.

الوثنية الحقيقية؛ وبذلك ينفخ الحياة في الآلهة والقرابين الوثنية وفي الأعياد والأسواق العربية القديمة، وفي الايمان بالأرواح والسحر. وبذلك يلقى أضواء شديدة على دين بنى اسرائيل، ومن الجهة الأخرى يساعد على تفهم ما هو عربى في العهد القديم.

وتعالج دراسته «المدينة قبل الاسلام» (في دراسات وأعمال أولية، الكراس الرابع، القطعة الأولى، برلين ١٨٨٩) كذلك تاريخ ما قبل الاسلام، مؤكداً على الناحية السياسية أكثر من الناحية الدينية. وفي دراسته «مقدمة إلى اوائل تاريخ الاسلام» في دراسات وأعمال أولية، الكراس السادس، برلين ١٨٩٩، يتفرغ فلهاوزن للإسلام نفسه. وفي هذه المقدمة يعالج تاريخ الاسلام، باستثناء فترة محمد نفسها، حتى وقعة الجمل (٦٥٦ ميلادى). ومنذ الصفحات الأولى من هذه الدراسة تتضح المشكلة الرئيسية. إذ تتناول الأمر خيطين من الروايات المتواترة الواحد منهما يستبعد الآخر، أحدهما سيف ويمثل الاتجاه العراقى المتحيز، والثانى ابن اسحق، والواقدي، والمدائني وابن الكلبي ويمثلون اتجاه المدينة القديم الرشيد. وهناك روايتان لرجلى دين مسيحيين معاصرين للاحداث تؤيدان أمانة الاحاديث المدنية بالمقارنة بالاحاديث العراقية. وبالتحقق من تفوق الاحاديث المدنية يتحقق العمل الرئيسى لتأريخ هذه الفترة.

وبعد مقالتي «الفرق الدينية السياسية المتعارضة في اوائل عهد الاسلام» و«معارك العرب والروم في عهد الأمويين» اللتين نشرتا في أبحاث وأنباء جمعية جوتنجن للعلوم عام ١٩٠١، توج فلهاوزن أعماله جميعاً بتأليف ذروة اتجاhe في التاريخ الإسلامى وهو: «المملكة العربية وسقوطها» الذى نشر في برلين عام ١٩٠٢، والذى يتناول التاريخ الإسلامى حتى نهاية الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ميلادى. وهناك عرض مختصر يتناول المصادر المتوفرة لهذه الفترة وميولها وأهميتها. فأبو مهنف يمثل الاتجاه العراقى الكوفى، وهو يميل بعواطفه إلى العراق ضد سوريا، وإلى جانب على ضد الأمويين. أما أبو معشر والواقدي فيمثلان الاتجاه العلمى المدنى وهما يتابعان، على تقاليد رواة المدينة الثقة، تاريخ العهد الاموى بموضوعية علمية دون ابداء ميل عاطفى ملموس للأمويين. أما الروايات السورية التي تميل إلى الامويين فقد اندثرت، ولكن آثاراً منها بقيت محفوظة في التاريخ المسيحي. أما المدائني فقد كان موالياً للعباسيين. ويتمسك فلهاوزن في تقييمه للمصادر بهذه الأسس، دون أن يتخلى من حين لآخر عن إصدار حكمه من حيث وجهات النظر الموضوعية. وكما يؤكد كارل هاينرش بيكر

في رثائه^(٦)، فإن هذا الكتاب الذي لم يلق اعتباراً يذكر في بادئ الأمر «أصبح انجيلا لا غنى عنه بالنسبة لمؤرخ بواكر العهد الاسلامي».

لقد كانت طبيعة قلهاوزن الاساسية تتسم بالبساطة. فحين كان يكتب، كان يضع أمام عينيه هدف التعبير عن رأيه بأبسط شكل ممكن، فكان لا يتخلى مع ذلك عن الجلاء والوضوح. وكان يتمتع بطبع مستقل ولا يعرف الغطرسة الفكرية. وكان له خصوم كثيرون دون أن يوجد بينهم عدو شخصي واحد. وأدى صممه إلى عزله دون أن يصبح شديد الارتباب والحساسية. لقد توحدت في يوليوس قلهاوزن ميزات المؤرخ وعالم اللغات، وصفات الحدس الشديد والدقة اللغوية في كل متكامل لا مثيل له. وكان ملماً بجميع تفاصيل الفترة التاريخية التي يعالجها كالأوضاع السياسية فيها، والأحوال الاقتصادية، وطرق المسكن والمعيشة والغذاء، وأزياء الملابس والرأس، والمسائل الحقوقية والعادات. ولكن هدف أبحاثه ظل دائماً التأكيد على خطوط التطور الكبيرة والرئيسية، واكتشاف العوامل

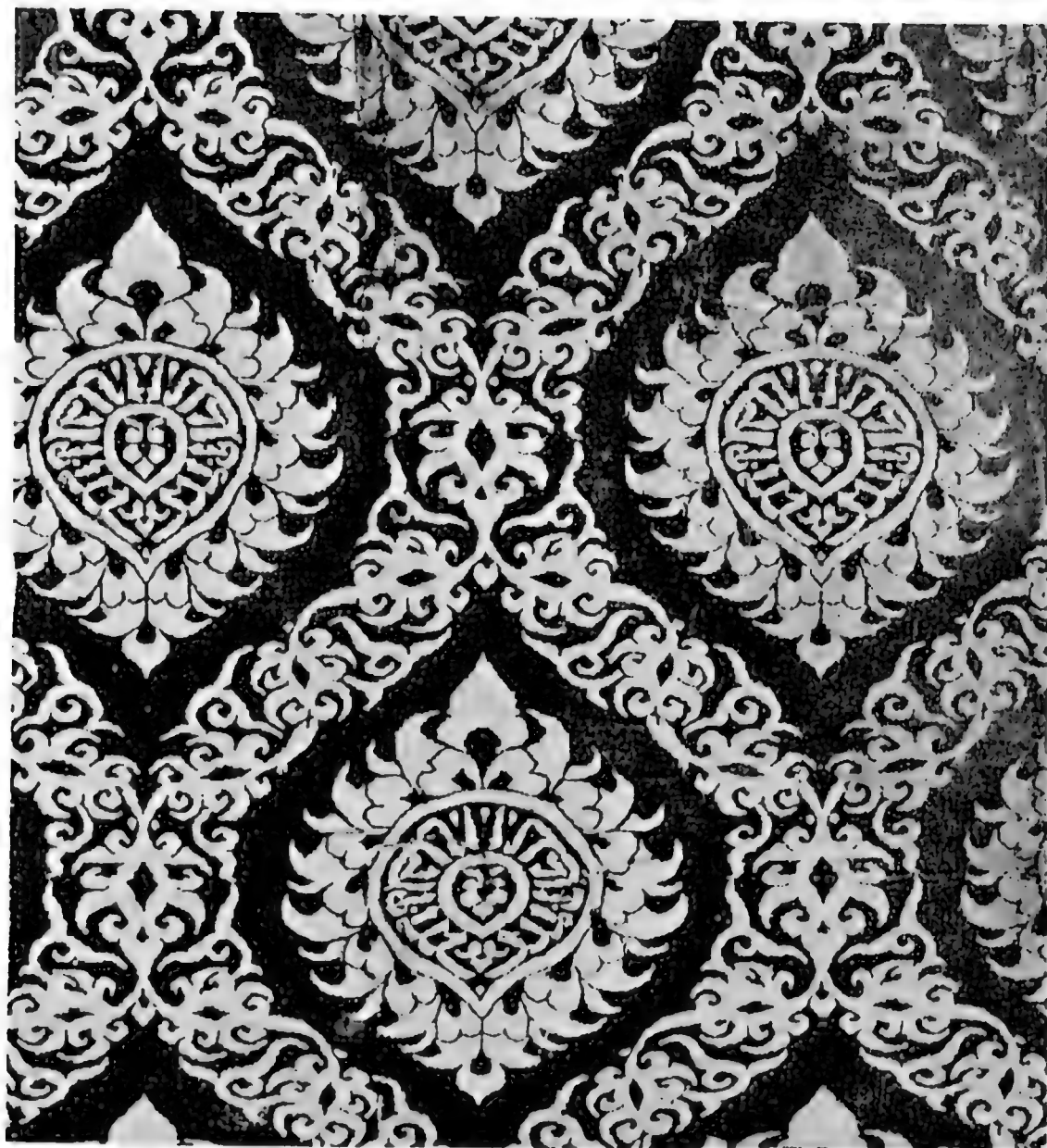
(٦) راجع C. H. Becker, Islamstudien، المجلد الثاني، لايبزغ، ١٩٣٢، ص ٤٧٥.

والقوى الرئيسية للتحويل والتطور التاريخيين. وكان يسعى بنجاح إلى إدراك وعرض تضارب القوى الداخلية للحدث التاريخي.

لقد كان أستاذي إينوليمان، الذي استدعى عام ١٩١٤ إلى جامعة جوتنجن كخلف لقلهاوزن، شديد السعادة بصداقته لأكثر مستشرق في عصره. وكان لا يذكره إلا بأسمى آيات التقدير والاعجاب وكان هو الذي ألقى كلمة الجنازة عند تشييع جثمانه^(٧). لقد قدر لتيودور نولدكه ويوليوس قلهاوزن أن يرفعا لواء زعامة الاستشراق في ألمانيا دون أي منازع. أما السؤال عن الأعظم بين الاثنين فقد أجاب عليه نولدكه بتواضع رقيق وثقة أكيدة بالنفس حين وصف نفسه بالموهبة، وربما بالموهبة العظيمة، بينما وصف قلهاوزن بالعبقرية نفسها^(٨).

(٧) راجع هذه الكلمة الجنازية مختصرة في مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG، المجلد ١٠٦، ١٩٥٦، ص ١٨-٢٢ تحت عنوان Erinnerung an Julius Wellhausen.

(٨) كذلك إينوليمان Enno Littmann في كتابه: نصيب الألمان في علوم ودراسات الشرق الأدنى: - Der deutsche Beitrag zur Wissenschaft vom Vorderen Orient، شتوتجارت وبرلين ١٩٤٢، ص ٢٠.



تِيودُور نُولْدِيكِه

(١٨٣٦ - ١٩٣٠)

بقلم: الأستاذ ايتو ليتمات

ولد المستشرق إينو ليتان في أولدنبرج في ١٦/٩/١٨٧٥ ودرس في جامعات برلين وهاله وجرايفزفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كمحاضر للغات الشرقية في جامعة برنستون في الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية في جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفي جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبون عام ١٩١٦، وأخيراً في توبنجن من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً في بعثات الآثار الأمريكية إلى سوريا والحبشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبشة. ومن أهم مؤلفاته: «حول تفسير النقوش النوبدية (١٩٠٤)». و«تاريخ الأدب اللاتيني (١٩٠٧)»؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبشة» في أربعة أجزاء (١٩١٠ - ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية في اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و ١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» في ستة أجزاء (١٩٢١ - ١٩٢٨ و ١٩٥٢/١٩٥٤).

والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمية غريبة عن العالم، ولم تكن محدودة الأفق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه في سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين ممن عاشوا الأعوام الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملي في اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلاً بالتركية في فيينا، كما كان في لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التي كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أي شخص آخر من زملائه المختصين. وفي الخامسة عشرة من عمره اضطر إلى التوقف عن الدراسة مدة ربع عام لاصابته بفقر في الدم. وعندها انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى اعفائه من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية في المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التي راح يدرسها بانجتهاد تحت إشراف والده في هاربورج، وكذلك في لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفي خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوي دراسة اللغات القديمة والشرقية، غير أن شخصية الأستاذ إيفالد^(٢) الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

رغم الهدوء الذي كان يسود بوجه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعت حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة^(١) بطابع شخصيته المؤثرة، ولولا ذلك لما أمكن تصور أي تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه في الثاني من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ في مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عميداً للمعهد الثانوي المتوسط. وقد خلدت المدينة ذكره بتنصيبه مواطناً فخرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين. وأسرة نولدكه واسعة الانتشار في شمالي غربي ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلدسهايم، كان يعيش في بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه في هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا للتفاني في أداء الواجب، كما أيقظ فيه، كعالم للغات القديمة، حب علوم الأوائل، ذلك الحب الذي لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه في مطلع حياته صبيّاً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك في الألعاب الرياضية لفدية هاربورج، ويتحدث بلهجتهم، غير أن اشتراكه في ذلك لم يتسم بالحيوية والقوة الكافية. وقد عوض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعمق الاحتكاك الشخصي بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة

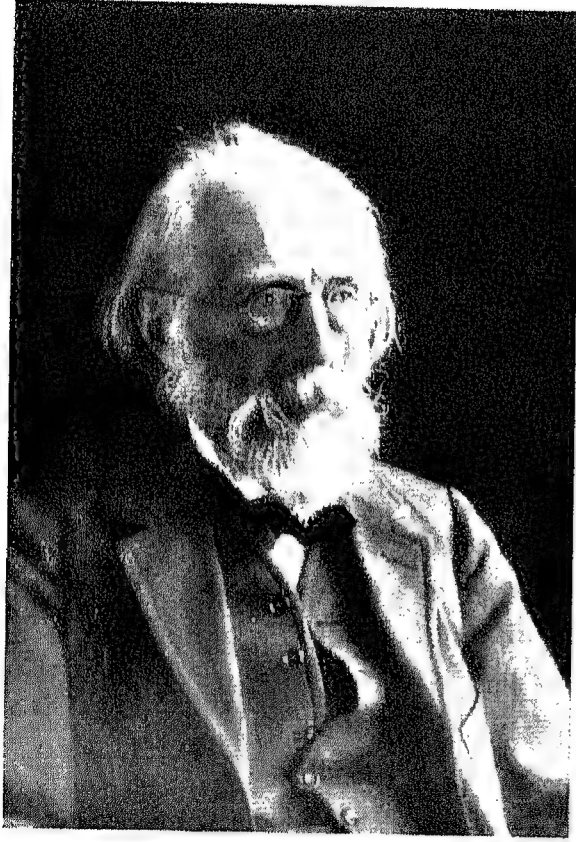
حياته، رغم أنه اضطر فيما بعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير إيفالد الرئيسي كان يكمن في أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه أكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة الفارسية والتركية، ثم تعلم السنسكريتية بإشراف الأستاذ بنفائى^(٢).

وفي عام ١٨٥٦ ظهر أول مؤلف لنولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، فطبع مؤلفه واعتبر في الوقت نفسه أطروحة الدكتوراه بحيث نال في أغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: "De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Qorani" وترجمة ذلك بالعربية: «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما نولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتائج فتوة لا يتسم بالنضوج، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز في كتابه «تاريخ القرآن» الذي نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و ١٨٦٠ أعوام «تجواله وترحاله». فقد اتجه أولاً إلى فيينا للتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار أستاذ علوم اللغة العربية الشهير فلايشر^(٣). وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأم عينيه. وفي خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيجة في العمل المجد على المخطوطات العربية الموجودة هناك في حلقة من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك أواصر صداقة عميقة مع ميشائيل يان دى خويه^(٤)، المستشرق الهولندي العظيم. وفي تلك الأثناء أقامت أكاديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان نولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذي كان مقرراً، ليدرس في غوتا وبرلين مخطوطات كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفي ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللغة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما: الألماني شيرنجر^(٥) والإيطالي أماري^(٦). وما كان من الأكاديمية إلا أن ضاعفت الجائزة ووزعت المبلغ بالتساوي على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذي لم يتجاوز سنه الاثنين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز في

الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانا أكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على إتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفائز أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشرنا إليه سابقاً: «تاريخ القرآن»، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب مبكراً جميع خصائص طريقة نولدكه فى البحث؛ معرفة شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض ما لا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لابد منه أن تسبب طريقته هذه تنافراً بينه وبين استاذة إيفالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عاتياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذة الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث نولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بمحقول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جائراً مس كرامته وحرية الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

وقد كتب عن أعماله وتجاربه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسائله إلى استاذة إيفالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تخلو كذلك من اهتمامه الحيوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد نولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم أطروحة الكفاءة التدريسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتخلّى عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن أبحاثه ودراساته العلمية. واهتم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة لهجاتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدعى إلى جامعة كيل ليخلف الأستاذ ديلمان^(٨). وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كيل، كما اعتقد نولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاكارد^(٩)، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بائسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول



*Noch einmal meinen besten Dank und besten
sollen Anerkennung Ihrer Leistung!*
Der ergebene W. Völkel

الاستاذ تيودور نولدكه قبيل وفاته.

الايمن والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة، التي يلجأ إليها حتى مؤمنونا الراشدون أكثر فأكثر». إذ أن «عقلانيته» كانت من عود قوى، كروحه، التي كانت تعمر في جسد ضعيف كجسده. وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة. إذ أن مكتبة جامعة كيل، التي كانت لا تملك من الكتب الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا النزر القليل، حصلت من مخلفات آدلر (١٢)، الذي توفي عام ١٨٣٤، وهو في منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيغ-هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب السرياني. وكانت هذه الكتب هي الدافع إلى اهتمام نولدكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة في كتابه «تاريخ القرآن»، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات السريانية، والسريانية الحديثة والمنشدية. وظهر

على كرسي الاستاذية في كيل. ولكن نولدكه لم يدعه يعاني طويلاً من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ إيفالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغم أنه كان يود أن يكون خليفة استاذة في منصبه العلمي، إلا أنه كتب إلى جوتنجن قائلاً: إنه لا يعرف أحداً يرغب في التخلي من أجله عن منصب إيفالد الشاغر أفضل من لاكارد، الذي يعتبره واحداً من أنيق المستشرقين وأمتن العاملين لحقاً. حقاً، لقد كان محزوناً ذلك القدر الذي كان يبعد شخصياً أولئك العظماء الثلاثة: إيفالد ولاكارد ونولدكه، الواحد منهم عن الآخر. ومن المسلم به أن طبائعهم كانت متباينة جداً. إذ لم يكن إيفالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء التي تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولدكه فكان يؤمن بحق الرأي الحر لكل إنسان، وكان يناقش الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاكارد رومانتيكياً، كان نولدكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان إيفالد ولاكارد ينساقان بطريقتيها العاطفية إلى إصدار أحكام جائرة. أما نولدكه فقد كان في القضايا العلمية مفعماً بروح العدل المجردة من العاطفة. وفي الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى إيفالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات بالكلام القاسي. وقد كانت رسالة قصيرة، وجيزة، حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم لاستاذة بأسلوب يملك الحواس. وكان نولدكه قبل ذلك قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيفالد في رسائل إلى صديقه الأبوى فيزير (١٠)، دون أن يفقد في أي منها أسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاكارد يهاجم نولدكه كثيراً في مؤلفاته، هجوماً علمياً وشخصياً. ويختتم نولدكه دفاعه في وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية: «أما أن أجيب على اتهامى بالتجنى المقصود على الحق، فهذا ما لا تقبل به كبريائي».

وفي الفترة التي قضاه في كيل اهتم نولدكه بالعهد القديم، الذي كان عليه شرحه في محاضراته، كما اهتم باللغة الآرامية بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابي: «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» و«أبحاث في نقد العهد القديم». وكان الأول عرضاً شعبياً، والثاني يشكل الأساس العلمي لذلك. ومع أن هذين الكتابين قد أصبحا قديمين في معلوماتهما إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات فلهاوزن (١١) الطليعية في هذا الحقل، فقد كانا عمليين ممتازين في عصرهما كافيين لإسباغ آيات الفخار على أي عالم مختص بشئون العهد القديم. ولم يكن نولدكه يعرف حلاً وسطاً بين

السامية باستثناء اللغة البابلية - الآشورية والنقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشتمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان، كأستاذه إيثالد، يفرض على تلامذته مطالب عالية؛ فتعلموا منه أن يكونوا أمناء في أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرهم إلى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات القلقة التي لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحجة والبرهان. وحين كان أحد التلاميذ يلحن في القراءة أو يخطئ في أحد بحور الشعر أو في الترجمة، كان جسم الاستاذ الصغير الشديد الحركة يهتز بقلق يمتد ويسر، كما كان، في الحالات الشديدة، يتعالى فجأة من مكانه المعتاد في زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتي الخاصين يشتركون في ساعاته التدريسية أيضاً. ولما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنتظمة. ورغم السهولة والسلاسة التي كانت بهما تنصاع له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والثروة الفكرية التي كانت تتصف بها أحاديثه - إلا أنه لم يكن يحب إلقاء الخطب العامة. وقد تخلى عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم في ستراسبورج عن قصد، إذ كان الاستاذ القدير ادوارد رويس (١٤) يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد أُلّف نولده في ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة في حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان في جوتنجن قد اشتغل على دراسة الشعر العربي القديم. وفي ستراسبورج أُلّف ترجمات وشروح خمس معلمات واعطى بذلك مثلاً فريداً من نوعه في وضوح التفسير، لغة وممتناً. ولغرض الدقة في تحديد الحيوانات والنباتات التي وردت في النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وبيحثه حول «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» كان أول من عالج العربية مغالطة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخي. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته التامة للمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له في جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك في ترجمته لكتاب تأريخي سرياني، وبوجه خاص في كتابه «تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين. مترجم من

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لا يزال في كيل، بينما ظهر كتابا قواعد السريانية والماندية اثناء وجوده في ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات طليعية من الدرجة الأولى إطلافاً. ولتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منقّباً في مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التي تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لا لفهم الأدب الآرامي الشرق فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذي صدر فيما بعد في طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الإنجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحي. وفي ربيع ١٨٧٢ استدعى نولده إلى الجامعة الألمانية التي انشئت آنذاك حديثاً في ستراسبورج؛ وفي خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان من المفروض أن يستدعى في عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب في عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولايبزج وجوتنجن، حيث كان مركزه في ستراسبورج ثابت الجذور. ومع ذلك فقد ابتهج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يخلف لاگارد.

ومنذ عام ١٩٠٦ أُحيل نولده على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار ألمانيا، أراضى الألزاس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأوا أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذي اشتهر اسمه في جميع أنحاء العالم. فغادر في ربيع ١٩٢٠ المدينة بمحض اختياره واتجه إلى كارلزروه ليقم مع ابنه هناك. وظل هنا مدة أحد عشر عاماً قضاها في يقظة فكرية تامة، إلى أن فارق الحياة في صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متكى على كرسي الشيخوخة؛ بعد أن كان في اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كونراد فردينااند ماير (١٢).

وفي ستراسبورج صدرت كتب نولده الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تعمد ألا يؤسس لنفسه «مدرسة» خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه عدتهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التي كان يعقدها في غرفة عمله تتناول مجموع حقول اللغات

Karlsruhe 21/8. 27. September 53.

Lieber geschätzter Herr Vorstand!
Bedenken Dank für die Übersendung Ihres Schrifts, die ich
mit großem Interesse gelesen habe. Die großen Erzählungen, durch
die Sie sich. Dichterschlagen haben, sind mir zum Teil nur wenig, zum
Teil so gut wie gar nicht bekannt. Auch die Geschichte des Tilius und des
Reichs von Mafaranti's ersten Auftreten die in die Zeit, wo das Altkönigreich
Chalifat alle Kraft verlor, hinein ist leider nicht wertvoll, aber
was sich die Stärker arabische Sprache, wenn auch vielfach nicht
arabische Herkunft, über das Bedauern und die großen
Taten der alten Muslime erzählen, das hat sich mir nicht
vergangen. Natürlich ist es nicht immer leicht, die
Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Ausgestaltung
zu sondern. Es glückte mir in der alten Überlieferung über den
Tod des künftigen Husein ziemlich das wirklich Geschehene
zu erkennen, namentlich das die Regierung sich die größte Mühe
gab, den Tod zum Aufgeben eines hoffungslosen Widerstandes
zu veranlassen, und das die Führer der Regierungstruppen des Thron
Agitation und Kinoswegs die bedauerlichen Widerstände waren, wie es
die Legende darstellt. Diese sind in Erzählungen über Arabische
so ziemlich alles unhistorisch ist, dass es den Verfasser ist

من رسالة الأستاذ نولدكه إلى الدكتور رودي بارت. (يوجد امضاء نولدكه لهذا المخطوب على ص ٣٥).
نشكر الأستاذ بارت في جامعة توبنجن لتصريحه لنا بنشر هذه الرسالة، ولما افادنا به من معلومات قيمة عن تيودور نولدكه.

الفارسية القديمة بينما ترك الشعر الوجداني الفارسي الحديث
جانبا بسبب ازدواج معناه.
وقد كرس نولدكه لأبحاثه في اللغات السامية المقارنة
مؤلفين هما: «أبحاث في علم اللغات السامية» و«أبحاث
جديدة في علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة،
ومعرفة اللغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس،
وانما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية
الهامة، متمسكاً في ذلك دوماً بما هو قائم فعلاً، ومجتنباً

تاريخ الطبري ومرفق بايضاحات وتبانات تفصيلية». وقد
أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الحماسيات
القومية الإيرانية، التي قرأ من أجلها اسطورة الفردوسي
المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى
أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) وأدبها، وهي
تمتاز بالصعوبة الشديدة، وفي هذه الدراسات حدد نهائياً
وبصورة قاطعة الطابع الحقيقي لهذه اللغة، تماماً كما فعل
صديقه أندرياز (١٥). وقد اهتم كذلك بدراسة النقوش

الفرضيات القلقة. وقد ساعد بعدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة باللهجات العربية والحشية، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد.

وفي حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها: «بحث حول تاريخ رواية الأسكندر» و«دراسة حول رواية أحيقار». وساهم كذلك في إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث في مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتضياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب.

لقد كان نولدكه سيد الأسلوب العلمي والأسلوب الشعبي معاً. وإن خمسة من كتبه، وهى «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» الذى ذكرناه سابقاً، و«حياة محمد»، و«مقالات فى التاريخ الفاريسى»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية تراثاً عاماً للعالم المثقف.

وفى عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكارى بمجلدين، اشترك فى تأليف صفحاته الألف والمائتين مستشرقون عن الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا فى ذلك على مبايعته وتقديره. وفى عيد ميلاده الثمانين سرنى أن احمل إليه فى ستراسبورج كتاباً تذكاريًا من جمعيتنا (١٦) مع كلمة إهداء من السيد إيلز (١٧) ومنى. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالى :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا من بعدنا إلى الآثار

ولكننا نحن الذين كنا مقربين إليه لا يمكن أن نفكر بمؤلفاته وأعماله دون الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين تعرفوا إليه عن كُتب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام. فى كيل هناك عالم اللاهوت لبيسيوس (١٨)، واستاذ التاريخ القديم فون كوتشمت (١٩). أما بين تلاميذه فى ستراسبورج فهناك خصوصاً ي. بارت (٢٠)، الاستاذ السابق فى برلين، وييفان (٢١) الاستاذ الحالى فى كامبردج، وبيتزولد (٢٢) وبرونو (٢٣)، الاستاذان السابقان فى هايدلبرج، وفرينكل (٢٤) الاستاذ السابق فى برسلاو، وجيورج ياكوب (٢٥)، الاستاذ الحالى فى كيل، ورودوكانا كيس (٢٦)، الاستاذ الحالى فى غراتس، وسنوك هرغرونيه (٢٧)، الاستاذ الحالى فى لايدن، وتورى (٢٨)، الاستاذ الحالى فى نيويش، كونكيكت بالولايات المتحدة الامريكية. وكانت تربطه بالعلماء دى خويه فى لايدن، وجويدى (٢٩) فى روما، وجولد-تسيهر (٣٠) فى بودابست، وراينش (٣١) فى فيينا، وج

هوفان (٣٢) فى كيل صداقة متينة. وكان كل من نولدكه وفلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أهم منه نفسه بكثير. وكان يتبادل الرأى بنشاط مع إدوارد ماير (٣٣) وإدوارد شقارتز (٣٤). وكان يكرس وقتاً طويلاً للاتصال الخطى مع أصدقائه وزملائه. وكان فى مراسلاته أميناً منتظماً.

وإنه ليشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الهزيل الجسم، الذى بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب السبعمئة بحث، والذى كان يساهم بنصيب فعال فى أعمال كليته وجامعته ومصير وطنه، والذى كان قارئ صحف نشيط، والذى كان يحضر كل محاضرة وكل تقرير علمى للكتب الجديدة تحضيراً فى غاية الدقة والتمحيص والتفصيل كان يجد رغم كل ذلك متسعاً من الوقت لكتابة عدة آلاف من الرسائل. وفى الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله تبدأ غالباً بالشكوى من ضعفه الجسدى، ولكن سرعان ما كانت تتلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأرادته الحديدية فى رفض كل ما كان يعوقه عن العمل. وكانت تساعده فى ذلك بكل حرص وعناية زوجه الخلفة التى اختطفها يد المنية منه عام ١٩١٦.

وكثيراً ما كان نولدكه يدعو نفسه بالعقلانى؛ ولكنه لم يكن كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه بدلا من ذلك ممثلاً للعقل الإنسانى السليم فى الشئون العلمية؛ أما فى المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصبح عاطفياً تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكى وصوفى.

ولذا فانه لم يهتم كذلك بدراسة التصوف الشرقى، الذى لعب من دون شك دوراً هاماً جداً فى الإسلام. وقد رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب على كثير من المصاعب والمزعجات. وقد كان بوده أن يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد غمرته السعادة الكبرى حين أظهر له تيودور مومسن (٣٥) اعترافه بعلمه، عندما اعترض نولدكه على بعض ما جاء فى بحث لمومسن حول السياسة الرومانية فى الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور نولدكه يمثل العالم الألمانى من الطرز القديم فى ذرى كماله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم معرفته التامة للحقة بنفسه، متواضعاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى؛ فقد كان ينفر من كل جعجعة فارغة وغرور وحب للظهور.

لقد ولى بفقده عهد عظيم من عهود العلم البشرى.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعلقات.....

لمحمد على حشيشو

(١٠) فريدرش يوليوس أوغست فيزير (F.J.A. Wieseler) عالم آثار ولغات قديمة. ولد في ألتنبورغ في شمال ألمانيا في ١٨١١/١٠/١٩ وتوفي في جوتينجن في ١٨٩٢/١٢/٣. كان من تلامذة الأستاذ إيفالد، ثم مال إلى دراسة اللغات الكلاسيكية والآثار. أصبح منذ عام ١٨٥٤ استاذاً للآثار واللغات القديمة، وقام برحلات علمية كثيرة ونشر عدة أبحاث تظهر اهتمامه بالجمع بين الآثار القديمة وعلم اللغات الكلاسيكية.

(١١) يوليوس فلهاوزن (J. Wellhausen) مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي، ولد في هاملن في ١٨٤٤/٥/١٧ وتوفي في جوتينجن في ١٩١٨/١/٧. ويعتبر أهم عالم مختص بالمعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً لللاهوت في غرايفزفالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتينجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاف ذات أصول آرامية. وكمال باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الإسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام».

(١٢) يعقوب جيورج كريستيان أدلر (J. G. C. Adler) عاش بين ١٧٥٦ و ١٨٣٤، وأهم بدراسة القرآن والكتاب المقدس.

(١٣) كونراد فريدنانه ماير (Conrad Ferdinand Meyer) من أكبر شعراء سويسرا، ولد عام ١٨٢٥ وتوفي في زيوريخ عام ١٨٩٨.

(١٤) ادوارد رويس (Eduard Reuss) عالم لاهوت انجيلي ولد في ستراسبورج عام ١٨٠٤ وتوفي فيها عام ١٨٩١. أصبح استاذاً منذ ١٨٣٤ وكان من ابرز ممثلي طريقة البحث التاريخي النقدي في علم اللاهوت.

(١٥) فريدرش كارل أندرياز (Friedrich Carl Andreas) مستشرق مختص بالدراسات الايرانية ولد عام ١٨٤٦ في باتافيا وتوفي عام ١٩٣٠ في جوتينجن. ألف عدة أبحاث حول النقوش الفارسية الوسطى وحول اللهجات الايرانية الحديثة.

(١٦) جمعية العلوم في جوتينجن.

(١٧) لا تعرف هويته.

(١٨) ريشارد أدلبرت ليسيوس (R. A. Lipsius) عالم لاهوت انجيلي ولد في جيرا عام ١٨٣٠ وتوفي في بينا عام ١٨٩٢. كان استاذاً في فيينا وكيل وبيننا وساهم بأبحاث هامة في تاريخ العقائد الدينية وفلسفة الدين وكذلك في تفسير العهد الجديد.

(١٩) ألفرد فون غوتشميت (Alfred von Gutschmid) باحث تاريخي ولد بالقرب من دريسدن في ١٨٣١ وتوفي في توبنجن عام ١٨٨٧. كان استاذاً منذ ١٨٦٣ في كيل وكوليكسبرج وبيننا وتوبنجن. اخصت بدراسة تاريخ الشرق القديم وخاصة إيران.

(٢٠) يعقوب بارت (Jakob Barth) عالم باللغات السامية من الطائفة الاسرائيلية ولد في إقليم بادن عام ١٨٥١ وتوفي في برلين عام ١٩١٤.

(٢١) أنتوني آشلي بيثان (Anthony Ashley Bevan) مستشرق وعالم لاهوتي بريطاني مختص بدراسة الكتاب المقدس واللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي عام ١٩٣٣. (ان كلمة «الحالي» في مقالة الاستاذ ليتمان تشير الى ان دونت المقالة بعد وفاة تولدكه بقليل، اي في عام ١٩٣١).

(٢٢) كارل كريستيان إيرست بتزولد (C. C. E. Bezold) مستشرق وعالم باللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي في هايدلبرج عام ١٩٢٢. اهتم خاصة بدراسة اللغة والحضارة الاشورية.

(١) اقتبس المقال عن خطاب تأييدي ألقاه العلامة ليتمان عام ١٩٣٠.

(٢) هاينرش إيفالد (H. Ewald)، مستشرق وعالم مختص بالمعهد القديم، ولد في جوتينجن في ١٨٠٣/١١/١٦ وتوفي فيها في ١٨٧٥/٥/٤. ظل استاذاً في جامعة جوتينجن من عام ١٨٣١ الى ١٨٣٧، ثم انتقل إلى جامعة توبنجن، وعاد إلى جوتينجن ليحال على التقاعد عام ١٨٦٧ بسبب معارضته لإقسام عين الولاء لملك بروسيا. وكان لمؤلفاته حول اللغة العبرية وتفسير العهد القديم وتاريخ بني اسرائيل أثر بارز عظيم في الدوائر العلمية المختصة بهذه الحقول.

(٣) تيسودور بنفسي (T. Benfey) عالم باللغة السنسكريتية وباحث في اللغات والأساطير الشرقية، ولد في نورتن في ١٨٠٩/١/٢٨ وتوفي في جوتينجن في ١٨٨١/٦/٢٦. كان استاذاً في جامعة جوتينجن وأسس بأبحاثه علم القصص الخرافية المقارنة.

(٤) هاينرش ليبرشت فلایشير (H. L. Fleischer) مستشرق شهير ولد في شانداف في ١٨٠١/٢/٢١ وتوفي في لايبزج في ١٨٨٨/٢/١٠ حيث عين منذ ١٨٣٥ استاذاً للغات الشرقية، وبرز كأحد رواد البحث في اللغة العربية في ألمانيا. ومن أشهر أعماله إصداره تفسير البيضاوي في مجلدين، بالإضافة إلى أبحاث كثيرة في اللغة العربية.

(٥) ميشائيل يان دي خويه (M. J. de Goeje) من أشهر المستشرقين وعلماء العربية في هولندا. ولد في دورنرب (في فريسلند) في ١٨٣٦/٨/١٣ وتوفي في لايدن في ١٩٠٩/٥/١٧ حيث كان استاذاً للغات الشرقية منذ ١٨٦٦. ومن مؤلفاته الأولى: «مذكرات في تاريخ وجغرافية الشرق». أما أهم أعماله فأصداره للمؤلفات الجغرافية العربية تحت عنوان: «المكتبة الجغرافية العربية» في سبع مجلدات، ويعتبر مرجعاً هاماً للجغرافيين العرب ومؤلفاتهم.

(٦) ألويس شبرنجر (Aloys Sprenger) مستشرق ولد في التيرول في ١٨١٣/٩/٣ وتوفي في هايدلبرج في ١٨٩٣/١٢/١٩. أقام منذ ١٨٤٣ في الهند وترأس من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٧ المهاد الإسلامية العليا في كالكوتا ثم عين استاذاً للغات الشرقية في برن بسويسرا من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. من أشهر كتبه «حياة ومحمد وتعاليمه» و«طرق البريد والسفر في الشرق» و«جغرافية الجزيرة العربية القديمة».

(٧) ميشيل آماري (M. Amari) مؤرخ ومستشرق ايطالي ولد في بالرمو في ١٨٠٦/٧/٧ وتوفي في روما في ١٨٨٩/٧/١٦. قضى وقتاً طويلاً من حياته في المنفى ثم عاد عام ١٨٥٩ إلى إيطاليا وأصبح وزيراً للتعليم من ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤. أشهر لأبحاثه القيمة حول جزيرة صقلية أثناء الحكم العربي.

(٨) آرغوست ديلمان (A. Dillmann) مستشرق وعالم لاهوتي بروتستانتي. ولد في ولاية فورتنبرج بألمانيا في ١٨٢٣/٤/٢٥ وتوفي في برلين في ١٨٩٤/٧/٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً في كيل، وعام ١٨٦٤ في غيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الإثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

(٩) بول ألتون دي لاغارد (P. A. de Lagarde) مستشرق وفيلسوف حضاري ولد في برلين في ١٨٢٧/١١/٢ وتوفي في جوتينجن في ١٨٩١/١٢/٢٢. عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية في جوتينجن ومازال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحليله لنصوص العهد القديم. أشهر كذلك بمقالاته السياسية التي تتناول النقد الحضاري والمشبعة بالروح القومية الرومانتكية.

٢٣) رودلف برونو (R. Brünnow) ولد في الولايات المتحدة من عائلة ألمانية سنة ١٨٥٨؛ ثم أتم تحصيل اللغات السامية وبالخاصة العربية في ألمانيا؛ عين استاذاً في جامعة برنستون في الولايات المتحدة عام ١٩١٠، وتوفي هنالك سنة ١٩١٧.

٢٤) زيجموند فرينكل (Siegmond Fraenkel) مستشرق مختص باللغات السامية ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٠٩. اشتغل بدراسة اللغة الآرامية وساهم في العمل على تاريخ الطبري.

٢٥) جيورج ياكوب (Georg Jacob) - مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الإسلام ولد عام ١٨٦٢ في كونغزبيرغ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل وأهم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبيكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب.

٢٦) نيكولاوس رودوكاناكيس (N. Rhodokanakis) مستشرق نمسوي ولد عام ١٨٧٦ وتوفي عام ١٩٤٥. أهم بدراسة اللغة العربية وآدابها وأصدر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات مع ترجمة له. وساهم كذلك في دراسة حضارة جنوب الجزيرة العربية.

٢٧) كريستيان سنوك هيرغرونيه (Ch. Snouck Hurgronje) مستشرق هولندي ولد عام ١٨٥٧ وتوفي عام ١٩٣٦ وأهم بالدرجة الأولى بدراسة الفقه الإسلامي. يعتبر بالنسبة لهولندة كنولده بالنسبة لألمانيا. أصبحت أبحاثه وأعماله أساساً للدراسات الإسلامية الحديثة حيث أنها قدمت نظرة تاريخية لحقول الدين والتشريع والحضارة الإسلامية. ظل استاذاً في لايدن، مركز الاستشراق الهولندي الشهير، من ١٩٠٦ حتى ١٩٢٧.

٢٨) تشارلز كلتر تورى (Charles Cutler Torrey) مستشرق أمريكي اختص باللغات السامية ولد عام ١٨٦٣ وعمل استاذاً في جامعة ييل من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢، وتوفي عام ١٩٥٦.

٢٩) اجنازيو جويدى (Ignazio Guidi) مستشرق ايطالي بمستوى تيودور نولده ولد عام ١٨٤٤ وتوفي عام ١٩٣٥. قدم أبحاثاً هامة في علم اللغة العربية وساهم في نشر مخطوطات في التاريخ الاسلامي وعلم اللغة. ٣٠) اجناز جولدزهر (I. Goldziher) مستشرق مجري من الطائفة الاسرائيلية ولد عام ١٨٥٠ وتوفي في بودابست عام ١٩٢١. بعد أن أتم دراسته في بودابست أقام مدة عام في مصر حيث كان اول اوروبي درس في الأزهر في القاهرة، مركز دراسة الفقه الاسلامي. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً في بودابست. وأهم في بادئ الأمر بالأبحاث المتعلقة باليهودية، إلا أنه عاد فتفرغ كلياً للدراسات الاسلامية. وأهم كتبه «دراسات محمدية» بمجزيين و«سائل في علم اللغة العربية» و«محاضرات في الإسلام» و«اتجاهات تفسير القرآن».

٣١) ليورائش (Leo Reinisch) باحث لغوي وعالم باللغة والحضارة المصرية القديمة ولد في النمسا عام ١٨٣٢ وتوفي في ١٩١٩.

٣٢) جيورج هوفمان (G. Hoffmann) ولد عام ١٨٤٥ وتوفي عام ١٩٣٣. خلف نولده في منصبه كاستاذ ومستشرق في جامعة كيل.

٣٣) ادوارد ماير (E. Meyer) مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و ١٩٣٠.

٣٤) ادوارد شوارتز (E. Schwartz) عالم باللغات الكلاسيكية ولد في كيل عام ١٨٥٨ وتوفي في ميونيخ عام ١٩٤٠. كان استاذاً في جوتينجن وفرايبورج وستراسبورج وميونيخ. أهم خاصة بالآداب الاغريقية.

٣٥) تيدور مومسن (Th. Mommsen) مؤرخ وحقوق كبير ولد في ١٨١٧ في شمال ألمانيا وتوفي عام ١٩٠٣ في شارلوتنبورج. اشترك عام ١٨٤٨ حين كان استاذاً في لايبزج في الحركة الديمقراطية آنذاك ففصل بسبب ذلك. ثم أصبح استاذاً في زيوريخ وبرسلاو وبرلين حيث درس التاريخ القديم. أصبح من ١٨٧٣ حتى ١٨٧٩ نائباً ليبرالياً في البرلمان البروسي، ومن ١٨٨١ حتى ١٨٨٤ عضواً في الرايخشتاغ. كان من خصوم سبارك وله عدة مؤلفات تاريخية هامة. وحصل عام ١٩٠٢ على جائزة نوبل للأدب.

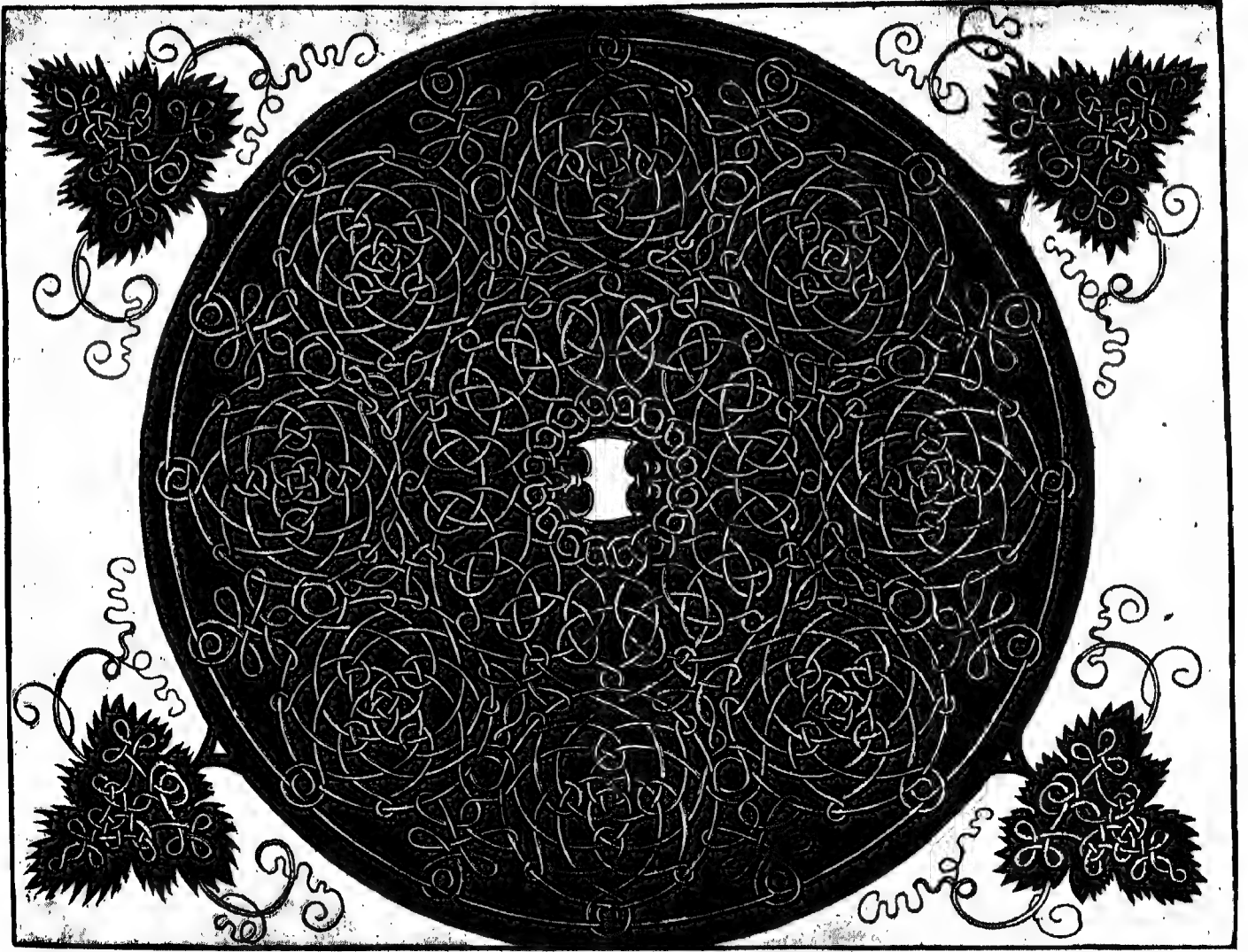
بعد اتمام هذا المقال تسلمنا نص بعض الذكريات للاستاذ الدكتور فؤاد حسنين على عن العلامة نولده، ويسرنا ان نضيف قسماً منها الى مقال الاستاذ ليمان.

تيودور نولده (٢ مارس ١٨٣٦ - ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠)

لن انسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونخ وكنت حديث عهد بألمانيا وجامعاتها، وشاء الله ان ارى واسمع نعي هذا المستشرق العظيم في معهد من اكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من اشهر رجالات ألمانيا الذين كرسوا حياتهم لخدمة الشرق والشرقيين، ونولده لم يكن غريباً علي، وانا الذي شغفت بدراسة الشرق العربي، لغاته وآدابه، حضاراته ودياناته، قديماً وحديثاً، فكان لزاماً علي ان اتعرف على آثار هذا العلامة كلما اتيت لي فرصة. وقد عرفته في مصر لا عن طريق المصادر الألمانية، فقد كنت اجهل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزيين عالمين، وهما دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس، وذلك لان المستشرقين الانجليز اسندوا اليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين في المرجعين السابقين.

في ذلك اليوم دخل (فريتز هومل) العالم المتواضع والشيخ الذي نيف على السبعين قاعة البحث عابساً مضطرباً، لقد كان اليوم عبوساً قمطرياً، وما كاد يصل الى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب «مات نولده» واستطرد في الحديث عنه ورثائه.

مات زعيم المستشرقين الذي وان كان في العالم القديم يذكر في الجديد لا ينكر. مات نولده الذي رفع لواء الاستشراق عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذي كان اما في فرد واجيالا في شخص. نولده هو المستشرق الذي خلق علوما لم تكن معروفة من قبل، وهجم على اعوص المشكلات فحلها لنا ووضع ايدينا على حقيقتها، فهو لم يمت الا بعد ان ترك للعالم اربعة وعشرين سفراً، واكثر من سبعمائة بحث في الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.



البرشت دورر: عقدة ثمانية.

.... والآن احب ان اضع بين يدي القارئ صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته، وهذه الصورة ليست من عمل ريشتي او من وحي خيالي بل هي حقيقة مسجلة في مقدسة الطبعة الثانية من الجزء الاول من كتابه في (تاريخ القرآن) الذي نشره (فريدريش شواللي). فقد ارسل ناشر هذا الكتاب الى (نولدكه) عام ١٨٩٨ بخطاب يرغب فيه اليه ان يعيد نشر هذا الكتاب او يقترح عليه عالما آخر يراه اهلا للقيام بهذه المهمة، فاجابه (نولدكه) «.... فرفضت انا لاسباب عديدة وذلك لانه لم يكن في استطاعتي ان اعيد نشر هذا الكتاب في ثوبه الجديد الذي قد يرضيني، لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زما طويلا تلميذي وصديق الاستاذ (شواللي) الذي اظهر ارتياحه واستعداده لتادية هذه الرسالة. فقد جعل من هذا الكتاب الذي الفته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المقتضيات العلمية الحديثة، اقول الى حد ما وذلك لان آثار تهوّر الشباب لا يمكن محوها جميعها الا باعادة تأليف كتاب جديد، وكثير من المسائل التي كنت اعتقد قليلا او كثيرا بصحتها، تبينت لي فيما بعد انها غير مؤكدة...»

فؤاد حسنين على

جيورج ياكوب

(١٨٦٢ - ١٩٣٧)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

الذين اشتغلوا، على ما قال، «بوضع اللغات السامية في عصر الجليلد». أما بالنسبة له فكانت تصح هذه الحقيقة : «إن مقياس علم خليق بالحياة يتوقف دوماً على مدى ما يقدمه هذا العلم بطريق غير مباشر من فائدة للمجال العملي أيضاً» - كما كتب عام ١٩١٧.

ولد ياكوب في السادس والعشرين من مايو عام ١٨٦٢ في مدينة كينكزبيرغ Königsberg، وفقد والده في سن مبكرة. والغالب أنه ظل يعيش فيما بعد مع أمه وأخواته دون أن يفكر في الزواج. وبدأ ككثير من معاصريه بدراسة علم اللاهوت والاستشراق؛ ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية وعلم أخلاق الشعوب بدلا من اللاهوت. وكان تيودور نولدكه استاذة في ستراسبورغ؛ وعلى يدى هاينريش ليبرشت فلايشر، العالم النحوى الكبير، تعمق في دراسة النحو العربى. ثم نال الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٨٨٧ ببحث رسم معالم اهتماماته المستقبلية وهو: «تجارة العرب الشمالية البلطيقية». وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التجارية التى كان يشتريها العرب من البلاد الشمالية البلطيقية، وذكر في ذلك بوجه خاص حجر الكهرباء الذى كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعرب. ثم اهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا في صيغ دائمة التجدد؛ ومن أخصب أعماله المقالات التى نشرها حول «رواية عربى عن فولدا وشليزفيغ وزوست وبادربورن ومدن ألمانية أخرى»، التى نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠، ثم وسعت وزيد عليها وأعيد طبعها عدة مرات حتى عام ١٩٢٧، وما زالت حتى اليوم عظيمة الأهمية لدراسة الاوضاع الألمانية في العصر الوسيط. ومن بين هذه الدراسات الشرقية - الغربية أيضاً محاضراته

توفى المستشرق الكبير جيورج ياكوب حينما بدأت أتعلم العربية، ومع ذلك كانت تربطنى به أكثر من علاقة روحية : فعلى يديه نال أستاذى الأول في اللغات الإسلامية، هانس إيلنبرج Hans Ellenberg، درجة الدكتوراه برسالة أعدها عن الفنون والصناعات عند القزوينى؛ وعلى يديه أيضاً نال أستاذى الذى حضرت عليه الدكتوراه، ريشارد هارتمان Richard Hartmann، درجة الأهلية للتدريس في رحاب الجامعة. ومن هنا أستطيع لنفسى أن أدون نبذة عن حياة وأعمال هذا المستشرق العالم الذى كان له الفضل الأكبر في شق آفاق جديدة كل الجدة على مناهج الدراسات الشرقية في ألمانيا حتى مطلع القرن. وإلى لأستند في هذا المقال على دراسة نشرها «إنوليمان» في دورية جماعة المستشرقين الألمان بمناسبة ذكرى وفاة صديقه ورفيق علمه.

وحقى نتفهم موقف ياكوب لا بد أن نعلم أن الثقافة الاغريقية والرومانية كانت لا تزال المعيار الحضارى الوحيد المعترف به في ألمانيا حتى أوائل هذا القرن، وكأن ماعداه لا يستحق العناية!

كما كان يوجد بين المستشرقين تيار لا يهتم إلا بالأبحاث والدراسات اللغوية البحتة، دون التفكير بالإنجازات الحضارية للإسلام (وكما كان يقال «فقد كانت عائشة بالنسبة لهم لا تعدى كونها اسم فاعل مؤنث من الفعل الثلاثى عاش») وكان علماء اللغات السامية يحاولون أكثر فأكثر سبر أغوار طبقات تاريخ اللغات السامية. وتصدى ياكوب لهذين الاتجاهين بكل ما لديه من طاقة؛ لا بل إنه مضى في مقاومته إلى حد نشر مقالة له بعنوان «التعصب للكلاسيكية على نهج حفارى قبور الثقافة الألمانية»، ولم يتورع عن استخدام أقسى العبارات ضد بعض زملائه

حول «العناصر الثقافية الشرقية في الغرب» عام ١٩٠٢، وكذلك كتابه الذى صدر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والذى يرجع ويشار إليه أكثر من جميع مؤلفاته الأخرى وهو: «تأثير الشرق على الغرب»، وخاصة خلال العصر الوسيط». وعلى هذا الكتاب تستند في كثير أو قليل جميع الأبحاث والمؤلفات التالية التى تعالج موضوع تأثيرات الشرق الحضارية على الغرب.

وبعد أن حصل ياكوب على درجة الدكتوراه في لايبزغ، راح يعمل فترة من الزمن في مكتبة الدولة في برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس في السلك الجامعي في كرايفزفالد تحت إشراف ألفارد، مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية في برلين والعالم الضليع الممتاز بالشعر العربي القديم وتاريخ العهود الإسلامية الأولى. وقد يكون من المحتمل أنه اتجه بتأثير من ألفارد إلى دراسة الشعر العربي القديم؛ وتلا بحثه «دراسات للشعراء العرب» عام ١٨٩٣ مؤلف يعتبر أساسياً في ميدانه وهو «الحياة البدوية في ضوء الشعر الجاهلي». ويقدم هذا العمل الذى وسع وغير وزيد عليه عدة مرات لونا جديداً تماماً في الاستشراق الألماني (ولذا فقد قام عدد من زملائه بتقريضه ونقده بتجريح لا رحمة فيه) إذ حاول ياكوب في هذا البحث لأول مرة أن يستخرج من الشعر الجاهلي معلومات عن طريقة حياة البدو ومعيشتهم. فبالنسبة له، لم يكن الشعر الجاهلي كنزاً للكلمات النادرة والأشكال النحوية الغريبة، وإنما مرآة تنعكس فيها طريقة حياة حلقة حضارية قد تبدو لأول وهلة شديدة الغرابة بالنسبة لنا. وبطريقة مشابهة قام عام ١٩٠٦ بوصف نخارة فارسية مع كل ملحقاتها في العصر الوسيط كما تبدو من خلال أشعار حافظ الغزلية. وحتى إذا أكد اليوم بشكل أقوى على الطابع الثابت الرتيب للشعر الجاهلي بحيث لا يعتبر انعكاساً للواقع بالقدر الذى فعله ياكوب، فإن مما لا شك فيه أنه من خلال الوصف والتعبير التى يزخر بها الشعر الجاهلي — كوصف مواقد النيران، والحيام وتوابعها وأثاثها، وأحاج قوافل الجبال — يمكن اكتساب عدة تفاصيل قيمة، ذات أهمية قصوى بالنسبة لعلم أخلاق الشعوب. وبعد كتاب «حياة البدو في الجاهلية» عام ١٨٩٧، تلت في فترة متأخرة دراسات عن الشنفرى الذى حاول ياكوب أن يقلد لاميته بالشعر الألماني — ولكنه بطبيعة الحال لم يلق النجاح الذى حققه روكرت من قبله. ومع ذلك فكثيراً ما كان ياكوب يهتم بنظم قصائد يقلد فيها الشعر الشرقى، سواء كان عربياً أم فارسياً أم تركياً.

ومن كرايفزفالد اتبحت لياكوب الفرصة للسفر إلى تركيا، حيث استيقظ اهتمامه بالتركية، وكتب لهذا الاهتمام أن يعطى ثماراً خصبة فيما بعد. وفي عام ١٨٩٦ ذهب كمدرس جامعي إلى هاله Halle وأصبح هناك في الوقت نفسه أميناً لمكتبة جمعية المستشرقين الألمانية. وفي عام ١٩٠١ استدعى ليحتل كرسيًا جامعيًا في إيرلانجن، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى كيل حيث بقى يعمل فيها حتى وفاته.

وفي استانبول اتبحت لياكوب فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان، وكانت تركيا تمتاز آنذاك بهذه الألعاب. وبدا هذا الفن لياكوب، العارف الخبير بالفن المسرحي الأوروبي والمعجب الكبير بمسرحيات شيكسبير، ذا سحر خاص، بحيث بدأ يهتم في بحث تاريخ ألعاب الظل، التى فتنه كثيراً، لأنها لم تقتصر على بلد واحد بل شملت الشرق بطوله وعرضه. أما امتيازه الخاص في هذا الميدان فهو اكتشافه لألعاب ظل للمؤلف المصرى ابن دانيال (المتوفى عام ١٣١١)، الذى قدم عام ١٩٠١ أولى المعلومات عنه. وكان يدرس ويفحص المخطوطات القليلة الخاصة بهذا النوع من الأدب بكل دقة وعناية، وكان يعيد الدراسة والتدقيق دوماً، رغم أن المتن كان يحتوى على صعوبات يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها. واستطاع عام ١٩١٠ أن ينشر عينات متفرقة من هذه الأعمال وأن يعرف العالم على «طيف الخيال». وفي العام نفسه كتب استناداً إلى ما كانت تحتويه تلك النصوص حول «سوق سنوية مصرية في القرن الثالث عشر». وإذ أدرك ياكوب أن ألعاب الظل أو طيف الخيال في البلاد الإسلامية لا يمكن أن توجد دون نماذج جاءت من الشرق الأقصى، فقد راح يدرس تقاليد الهند والشرق الاقصى في هذا الميدان، وتعلم في سن متقدمة السنسكريتية والصينية، ليتمكن من متابعة دراسة هذا الفن. وكان أول عمل كبير وشامل نجم عن دراساته الطويلة كتابه «تاريخ مسرح ألعاب طيف الخيال في الشرق والغرب» الذى صدر عام ١٩٢٥ في طبعة ثانية موسعة. وبالإشتراك مع ياكوب كاله Paul Kahle استمر على دراسة وبحث أعمال ابن دانيال وساهم في تأليف مقالات لأبحاث كاله. عن ألعاب طيف الخيال العربية، كما أصدر عام ١٩٣٠ مؤلفاً عن ألعاب الظل الهندية.

وكما واجه جيورج ياكوب مسألة مسرح الظل لأول مرة في تركيا، فقد كرس لمسرح الطيف التركي كتاباً خاصاً عرف الألمان فيه لأول مرة على قصص كاراغوز الهزلية الشعبية المحبوبة — وهو عمل تابعه هلموت ريتير بطريقة



جيورج ياكوب

نموجية. ولكي يتصور الانسان مدى الجهد المبذول في هذا الانجاز، فلا بد له أن يفكر بأن الدراسات التركية قلما كانت تجد مكاناً لها في حقول العلم في الجامعات الألمانية في مطلع القرن الحالى. وإنه لعمل ياكوب الكبير وامتيازه الخاص أن يتمكن من ايقاظ الاهتمام بتركيا العثمانية وجميع اوجه ثقافتها. وهنا — كما كان الأمر في العربية — اتسع ميدان اهتماماته اتساعاً مدهشاً، فقد كان اهتمامه بالغاً بالنحو التركى وبضرورة إعداد كتاب مساعد لتدريس اللغة العثمانية، وقد تعلمنا من كتابه المساعد — بين كتب أخرى — قراءة التمارين الأولى باللغة التركية العثمانية. إذ يضم كتابه قصصاً خرافية واشعاراً صوفية ونماذج باللهجات العامية ونصوصاً كلاسيكية بحيث يقدم للمبتدئ عرضاً جيداً ومختارات طريفة من الأدب التركى. وكما هو الحال في كل أعماله فقد ظهر هنا أيضاً حب

جيورج ياكوب لكل ما هو شعبى — إذ كان أول من شرح وحلل خطب القصاصين والمداحين الأتراك. ومن صفاته المميزة أنه لم يتردد في الحرب العالمية الأولى، عندما كانت ألمانيا وتركيا تحاربان جنباً إلى جنب، لم يتردد في تأليف معجم مساعد لرجال البحرية والمرضات، حيث كان في تلك الأعوام منهمكاً إلى حد بعيد في الدراسات التركية عموماً. ومع ذلك فانه لم يهمل العربية قطعاً بل إنه كان يحاضر كذلك في مسائل تتعلق بالعهد القديم .. ومن أعماله الكبيرة أيضاً احياء «المكتبة التركية»، وهي تلك المجموعة من النصوص والدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام الحضارى والتي تشتمل على أكثر من خمس وعشرين دراسة هامة منذ عام ١٩٠٤. وقد نشرها وحده أولاً، ثم اشترك في ذلك مع المستشرق السويسرى رودلف تشودى R. Tschudi فيما بعد، واخيراً معه ومع المستشرق الكيلى

قد تأثر بالقوس الإسلامى (كما يظهر مثلاً فى مسجد ابن طولون فى القاهرة). وإذا لم يعد ياكوب بنفسه إلى تناول هذا الحقل فيما بعد إلا نادراً — وكان خبيراً ممتازاً بالطنافس الفارسية — فقد كان يشجع كثيراً من طلابه على الاهتمام بمسائل الصنعة اليدوية، كما يرد ذكرها وتعرض فى المصادر الإسلامية. فقد كان ياكوب نفسه يتمتع بطبيعة فنية قوية، وكان «رومانسياً ناقداً»، كما وصفه كارل هاينريش بيكر فى مقالته التقديرية الجميلة بمناسبة ذكرى عيد ميلاد ياكوب الخامس والسبعين. وقاده ذلك الميل الفنى كذلك إلى موضوع يتعدى حدود ألعاب الطيف والأساطير — إلى موضوع الأحلام: فدراساته حول الأساطير والأحلام التى صدرت عام ١٩٢٣ — ١٩٢٤ فى هانوفر تعطى الدليل على مدى انجذابه لهذا الحقل الجانبى ما بين الواقع الملموس وما فوق العالم الحسى — وكثيراً ما فسر المفكرون والمؤلفون الإسلاميون لعبة طيف الخيال كرمز لعمل اللاعب الخفى، الله، على ما يقول ابن الفارض.

لقد كان كل ما كتبه ياكوب متجهاً إلى الحياة، فى جميع مظاهرها وأشكالها المختلفة. وسواء أعالج مؤلفات العرب الجغرافية، أم كتب حول ما نشر حديثاً عن فلسطين، وسواء أدرس النحواتركى، أم نشر أشعارسلطانين تركيين، وسواء أترجم اشعاراً صوفية فارسية إلى الشعر الألمانى، أم استخرج منها معلومات عن الحياة فى إيران فى العصر الوسيط — كان فى كل ذلك يبدى اهتمامه الدائم بكل ما هو نابض بالحياة. ومع أنه لم يسافر كثيراً، وكان يستقى شروحه فى الغالب من اختباراته الخاصة، إلا أن استعداده اللغوى الممتاز كان يعطيه سنداً وقوة كبيرين هنا. وقد دعاه بيكر فى مقالته التقديرية المذكورة أعلاه «بذى الفتوة المنفرد فى ميدان العلم» — رجل لم يكن من السهل دوماً الاتفاق والتعامل معه، إذ كان يعرب عن آرائه فى الغالب بنخونة ودون أى مراعاة؛ ولكن بيكر أكد كذلك على أن ياكوب كان يتمتع بمقدرة نادرة على رؤية العلاقات التاريخية الكبيرة وعلى الانغماس فى تقشف فى استقصاء وبحث التفاصيل بكل جهد وعناية. ولم يشتمل افقه على العالم الشرقى من الصين عبر الهند إلى البلاد الإسلامية فحسب، بل تناول كذلك دراسة الفولكلور والادب الأوروبي؛ ولكى يدعم دراساته جيداً فقد كان يهتم كذلك بالعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بها. وكان يعيد النظر دوماً على دراساته ويعيد العمل عليها، ويكيفها إلى أحدث مستوى علمى، ولكن مما يؤسف له

اللاحق تيودور منزل Th. Menzel، الذى تابع أعمال ياكوب حول المسرح التركى بنجاح كبير. وفى هذه السلسلة ظهر ذلك الكتاب الذى عرف الألمان لأول مرة على إحدى الطرق الإسلامية؛ ونعنى به دراسته للطريقة البكتاشية (١٩٠٨). ويعتبر هذا الكتاب عملاً طليعياً حقيقياً، إذ لم يكن أحد يعرف حتى ذلك الحين أى شىء عن تكوين الطرق الإسلامية وتاريخها؛ والبكتاشية بالذات — التى لعبت فى تركيا دوراً كبيراً جداً نظراً لارتباطها بالانكشارية — تتمتع بأهمية كبرى فى ميدان علم أخلاق الشعوب وكذلك فى دراسة تاريخ الأديان، فقد بقيت فيها عدة عناصر غير إسلامية، كما أنها تحمل معالم شيعية كثيرة. وحتى اليوم يعرف كل تركى القصص الكثيرة التى تدور حول إجابات شيوخ البكتاشية التى تمتاز بحضور البديهة وسرعة الخاطر. وبهذا العمل افتتح ياكوب دراسة التصوف الشعبى فى الإسلام؛ وإن قيامه بعد ذلك ببضعة أعوام بضم كتاب ريشارد هارتمان البديع «عرض القشبرى للتصوف» إلى المكتبة التركية، ليظهر مدى اهتمامه أيضاً بالتعريف بالأسس النظرية للتصوف الإسلامى فى قالب واضح سهل القراءة والفهم فى أوروبا.

وكما أبدى ياكوب اهتمامه منذ دراساته الأولى بالقضايا الموضوعية بعينها رافضاً أى رأى لا مبرر له حول المسائل اللغوية البحتة، فقد جذبه الفن أيضاً بجميع أشكاله — ابتداء من الفن المسرحى، الذى سبق أن ذكرناه أعلاه، حتى فن العمارة والبناء. ومما لاشك فيه أيضاً أن المتعة الفنية الخالصة قد لعبت دوراً هاماً كذلك فى انشغاله الطويل بدراسة هياكل ورسوم ألعاب الطيف الصينية. وكان الفن الإسلامى فى تلك الأعوام لا يزال ميداناً مجهولاً إلى حد بعيد، بحيث لم يحصل إلا تحت إدارة فيلهلم فون بوده W. v. Bode على مكان فى معرض الفنون العام لمتاحف برلين. ولم يبدأ التفهم الجديد للفن الإسلامى فى ألمانيا إلا بعد افتتاح المعرض الكبير لروائع أعمال الفن الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩١٠. وكان ياكوب أيضاً هو الذى اشتغل فى البيان الايضاحى على الفن السلجوقى والفن التركى والفن الإسلامى فى الهند — وكان كل من هذه الموضوعات جديداً تماماً ولم يخضه أحد بعد عملياً. ولكن هذا العالم الذى لا يعرف الكلل كان قبل ذلك قد نشر، فيما يتعلق بدراساته عن العلاقات الثقافية بين الإسلام وأوروبا، كان قد نشر عام ١٩٠٥ دراسة حول انتقال الأقواس المدببة والأقواس الشبيهة بمحذوة الحصان فى فن العمارة، ويعتبر أمراً محتملاً أن القوس المدبب الغوطى

Jul 28. 81. 11:7.

Gedachte noch, ich habe nicht für Ihre Antwort und Ihren
freundlichen Brief rechtzeitig danken, die ich meine
ganze Person über das Gedächtnis hat mit
sich zu setzen so viel Aufmerksamkeit hingeworfen, daß
ich oft bedauere, daß ich nicht so schnell geantwortet habe.
Ich habe die Person mit der ich über den Zustand der
Welt zu sprechen oder irgendwelche Bemerkung machen, so
wird das größte Hindernis der Kommunikation zwischen
den Menschen zu sein, die nicht begreifen können,
daß sie nicht die logische Entwicklung der Menschheit
sehen, wie sie sich entwickelt, aber damit was
nicht geht. So bin ich über das Gedächtnis
zu den Gedanken und schließlich zu den Gedanken

129

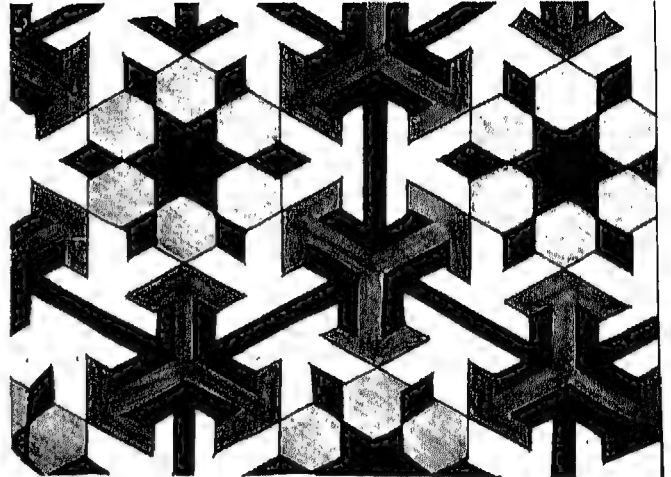
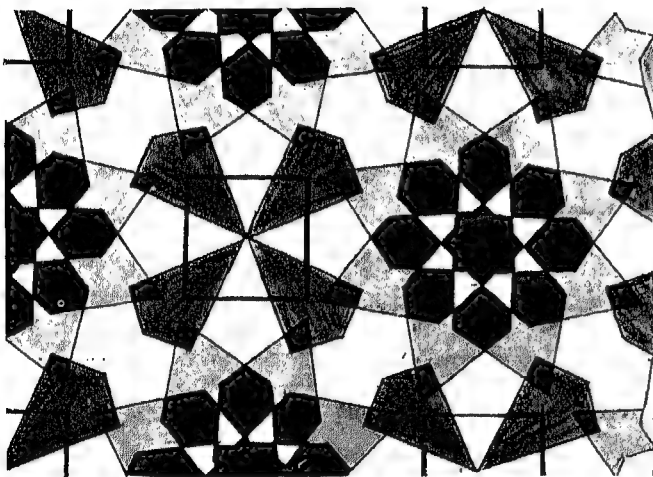
وتبدأ الحكاية الاسطورية صيرورتها بنقل تجربة الحلم إلى حالة الوعي.»

ألا يشبه بذلك الصوفيين الاسلاميين الذين يولون الاحلام دوراً كبيراً والذين كانوا دوماً يشيرون إلى الحد المتأرجح بين العالمين؟ وبهذه الصورة ينطق دوماً الشاعر التركي كشتري، الذي يرجع إلى غزله في لعب الكارا غوز منذ زمن طويل لتفسير اللعب تفسيراً صوفياً (وكان ياكوب في الحقيقة أول من درس ألعاب الكارا غوز دراسة علمية)؛ وبهذه الصورة أيضاً ينطق أعظم مغن في التصوف العربي بطريقته الخاصة التي لا يمكن تقليدها، ونعني به ابن الفارض:

فطيف خيال الظل يهدي اليك في
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
تري صور الأشياء تجلى عليك من
وراء حجاب اللبس في كل خلقه.

ترجمة: محمد علي حشيش

أنه كان يوزع أغلب نشراته العلمية في آخر سني حياته في عدد محدود من النسخ المطبوعة بالآلة الكاتبة. وكانت صفة الشمول والكلية التي امتاز بها تمتد لتتناول أبعد الميادين وأقصاها، ونشعر في جميع أعماله بطابع شخصيته القوية العنيدة. ولقد شق الطريق إلى دراسة الشرق الإسلامي دراسة تمتاز بطابع تاريخي حضاري وكذلك فولكلوري، مكافحاً في ذلك ضد العقلية اللغوية الضيقة القديمة، وكذلك ضد الاتجاه المتحجر في الدراسات السامية في عصره، ويمكن أن نلمس مدى نفوذه وأثره العلمي في مؤلفات كثيرين من أصدقائه وتلامذته وأعمالهم. ولعله كانت تكمن وراء جميع أعماله الرغبة «في التفهم العلمي لصيرورة الشعر»، أو بعبارة أخرى، تخطي ذلك الحد الذي يفصل بين العلم والفن. فقد كان ذلك الميدان الجانبي الجذاب المثير، حقل أبحاثه الخاص. وما أجمل قوله في كتابه «الاساطير والأحلام»: «إن الحلم هو شعر لا واع. والحالم يبدع مسرحية، تظهر فيها شخصيات يفرض عليها أدوارها.



أوغست فيشر

(١٨٦٥ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

جعل معهدنا الشرقى مركزاً لتدريس فقه اللغة العربية وبالخاصة النحو العربى ، فقد اهتم بمسائل النحو المجرد وكان صاحب علم غزير باحثاً فى المشاكل اللغوية والنحوية ولاشك انه استحق ان يدعوه زملائه أعلم المستشرقين وشيخهم فى الغرب كله بعد وفاة أستاذه الفرنسى حتى اننا نعتز على ثمار علمه فى التصحيحات العديدة التى أضافها الى قسم كبير من المصنفات فى مجال اللغة العربية وآدابها سواء أكانت قواميس ام كتب تأريخية ، ولكنه مما يثر الأسف انه مع تأليفه الملاحظات القيمة والحواشى المفيدة التى لاصحبها العدد فهو لم يقم بجمع نتائج أبحاثه ومحصول أعمال سلفه العظيم فى كتاب شامل لفقه النحو واللغة العربية ، ومع ذلك يعد فلايشير أستاذاً لكبار المستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إذ كان يحضر دروسه الطلاب من الأقاليم السبعة وأصبح معهد لايبزيغ مثلاً نموذجياً لدرس العربية حسب النهج العلمى فى الغرب .

أما أستاذنا أوغوست فيشر فأخذ كثيراً من علمه عن تلميذ لفلايشير يدعى هاينريش توربكه H. Thorbecke الذى توفى فى سنة وفاة أستاذه (١٨٨٨) : وهكذا عين فيشر فيما بعد فى منصب فلايشير فى جامعة لايبزيغ وصار أميناً على تراثه العلمى . والحق أن فيشر كان شبيهاً لأستاذه الكبير فى وجوه كثيرة ، الأمر الذى نستدل عليه من المقال الذى كتبه عن فلايشير سنة ١٩٣٠ ، وكان هو الآخر ينهج الفلسفة الوضعية للغة فى أبحاثه العلمية ويطبق فى درسه طرق البحث التحليلية ، فهو لم يقبل صحة افادة ما إلا بعد التثبت منها علمياً ، ولذا كان - رحمه الله - ناقداً لايرحم لكل من أهمل الأصول اللغوية والنحوية فى التراجم سواء عن العربية ام التركية إلى اللغات الغربية ولم يعرف التسامح مع من كان يقوم ببناء القصور العلمية فى الهواء دون ان يقيم اساسها النخوى على صورة لا غبار عليها ...

أذكر بوضوح لقاءنا الأول بأوجوست فيشر ، وكان ذلك فى أحد مؤتمرات المستشرقين الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ على وجه التقريب ... شاهدناه وهو الذى عرفنا أسمه منذ بدأنا دروس اللغة العربية ، وكان آنذاك شيخ قصير القامة ، يقارب الثمانين من عمره ، وإن لم تزل عيناه السوداوان تلمعان تحت جبينه العريض المتوج بالشعر الابيض كلما تحدث فروى من الكتب العربية ما روى أو نقد آثار زملائه - وكان شديد النقد لاذع اللسان ... أما نحن - «الأطفال فى عائلة المستشرقين» - فقد كنا نصغى الى حديثه وكأن على رؤوسنا الطير . فطالما تعلمنا من اللغة العربية وآدابها الكثير - بعد إتمامنا درس قواعد النحو الاولى - من الكتاب الذى نشره الأستاذ فيشر مجدداً فيه ومنقحاً لكتاب الأستاذ برونو وبذلك صار يدعى هذا المؤلف بالألمانية :

Brünnow-Fischer, Arabische Chrestomathie aus Prosaschriftstellern,

وعنوانه بالعربية :

«تسهيل التحصيل وهو كتاب مدرسى يتألف من نخب مختارة من الكتب العربية» ويعد هذا الكتاب من أهم مراجع دراسة اللغة العربية فى ألمانيا ، فكم من الطلاب اشتغل بحكاياته واستفاد من قاموسه القيم منذ ان صدرت طبعته الاولى سنة ١٩١٣

لم نكتف فى ذلك الوقت بالتعجب لأبحاث هذا الشيخ الجليل المتبحر فى النحو العربى بل رأينا فيه خفيداً روحياً لمؤسس الاستشراق العلمى فى أوروبا ألا وهو سيلفستر ده ساسى الفرنسى المتوفى عام ١٨٣٨ ؛ وكان التلميذ الأشهر لهذا المستشرق الشهير الأستاذ هاينريش لبرخت فلايشير H. L. Fleischer (١٨٠١ الى سنة ١٨٨٨) الذى كان استاذ اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيغ وهو الذى

لينج ١٦/٢/١٩٤٥

حضرة المستشرقة العالمة الاكثورة ا. شميل

عزيزتي وصلني خطابك الرفيق الذي تهنئتي فيه بعيد ميلادي
الثاني وتتمنين لي كل سعادة وخير وقد أضفت اليه شعرا
عربيا وزوجت صحيفتيه تزويقا فنيا جيلا. فتقبلته بيد السرور
وقرائته بلسان الفرح وأحميه بقلب سلوى بحبور. وإنني لأشكر
على ما أبديته نحوي من العطف وما تجلت عنه عبارتك
اللطيفة من حسن الظن بي.

ورجائي عدم المزاخلة في تأخير الشكر حيث كانت لاسي
سوانح قصيرة منها تحربه بعض منزلي بقبلة منغبر أميركايته

صحيفة من مكتوب لأوجوست فيشر بعث به الى مؤلفة هذا المقال في شهر شباط ١٩٤٥.

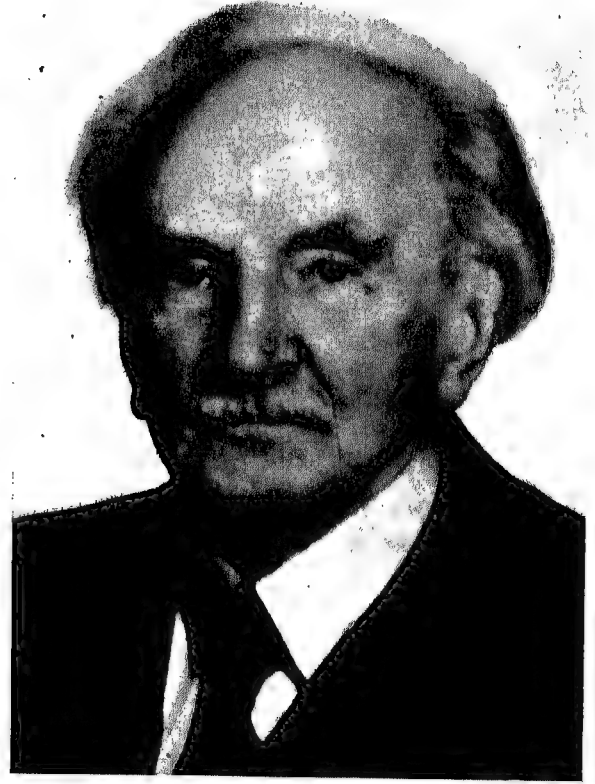
«درست فصلا دراسيا واحدا في مدينة ماربورج على يدي
ولهاوزن الذي صرفني عنه اذ لم استطع ان استزيد منه علما،
ولانه كان بصدد بناء دارا لنفسه مما عاقه عن إعداد الدروس
لي (فقد كنت تلميذه الوحيد في اللغة العربية). وأحب
مدينة ماربورج منذ ذلك زمان»...

ثم حصل فيشر على درجة الدكتوراه من جامعة هاله سنة
١٨٨٩، وكان موضوع أطروحته مأخوذاً عن «علم الرجال»
وقد برهن في هذه الأطروحة على غزارة علمه في اللغة
العربية، وعلى ان اطلاعه على المصادر التاريخية القديمة
يستحق كل تقدير وثناء، ونشاهد حتى في باكورة تأليفه
البحث المنقب عن الحقيقة العلمية المطلقة، فهو لم يدع
تعبيراً غريباً ولا كلمة مبهمه الا وسعى الى فهمها وايضاها
بكل اجتهاد، مستعينا بكافة المصادر اللغوية والتاريخية.

كان هذا هو اسلوبه العلمي، فهو لو أراد ان يحقق
معنى جملة واحدة او ينقب عن تعبير نادر استعان بكل
المتون والشواهد التي كانت لديه او كانت محفوظة في متاحف
الغرب والشرق (ولا اظن انه يوجد من متن عربي قديم إلا
وعرفه معرفة خبيراً) ولذلك الوانع الملتص بلبلوغ الحقيقة العلمية
اشهر فيشر فيما بعد كناقد لا تغمض عيناه عن هفوات

ولد أوجوست فيشر سنة ١٨٦٥، ودرس اللغات الشرقية
قاصدا في أول الأمر الاشتغال بالثورة واللغات السامية؛ ثم
ركز همته على درس العربية والتركية، واقام في فترة
دارسته لمدة فصل دراسي واحد في جامعة ماربورج على نهر
لان ليستفيد هناك من دروس ولهاوزن Wellhausen المؤرخ
العظيم (١٨٤٤ الى ١٩١٨) الذي كان قد اشتهر أولاً بنقده
لمتون الثورة من الوجهة التاريخية (فصار لذلك أحد مؤسسي
علم اللاهوت العصري في الغرب)؛ ثم نشر بعد ذلك ابجائه
في مجال تاريخ العرب في عصر الجاهلية وفي عهد الرسول
وعهد بني أمية، وكان هو العالم الواسع الصيت العميق
البحث الذي لم تزل كتبه عن خروج الخوارج وعن دولة بني
أمية مفيدة للغاية حتى يومنا هذا، خاصة لأنه سلك فيها
طريقة جديدة في البحث عن التاريخ الاسلامي وكانت
له موهبة خاصة لفهم الروابط الداخلية بين الحوادث
التاريخية وايضاح الوقائع وتمثيل خصوصيات الأشخاص
المشاركين في وقائع الدهور.

لذلك قصد فيشر في شبابه الى درس العربية على يدي
ولهاوزن. وكتب بعد ذلك بستين سنة في بطاقة بعث بها في
يناير عام ١٩٤٦ الى مؤلفة هذا المقال وهي اذ ذاك مدرسة
في جامعة ماربورج:



صورة الأستاذ اوجوست فيشر في أواخر أيامه .
نشكر الأستاذ الدكتور يوهان فوك الذى انعم علينا بهذا التصوير.

لتحقيق مسائل لغوية تتعلق باللهجات العصرية (فلندكر أنه توجد هناك مثلاً مقالة ذات أهمية له عن أسماء القط في اللهجة المغربية...) واستحث تلامذته إلى تدوين ملاحظاتهم في مختلف الاقطار العربية التي يزورونها.

بعد ان عاد فيشر من المغرب عينته الحكومة أستاذا لكرسى اللغات الشرقية في جامعة لايبزيغ سنة ١٩٠٠ ولم يتخل عن هذا المنصب العلمى الى ان توفي الى رحمة الله سنة ١٩٤٩، وبفضله أصبحت مدينة لايبزيغ مرة أخرى مركزاً لدراسة العربية في ألمانيا على نحو ما كانت عليه في عهد الأستاذ فلايشر؛ وكان فيشر حاضراً لمعاونة زملائه وتلامذته اذا طلبوا اليه مدداً في مسائل الصرف والنحو واللغة فاستفادوا منه، لأنه كان يعتبر النحو العربى قلب العلوم الاستشراقية، ولذلك نشر كثيراً من الملاحظات القيمة والمقالات الغنية التفردات في هذا المضمار، ومن ذلك ما ألفه حول مسألة النطق الصحيح باسم الشاعر امرؤ القيس، او عن مختلف صيغ القسم كما انه عالج مشاكل الترجمة في إجابته على مثل هذه الأسئلة: كيف نحصل على ترجمة صحيحة لبيت من ابيات الشاعر فلان بن فلان، او: ماهو المعنى الحقيق المقصود في سورة تبت، وهو قد أظهر في هذه المقالات على

زملائه اذا اخطأوا، وقال فيه الأستاذ يوهان فوك J. Fück في مقالة تذكارية أجاد فيها وصفه:

«لم يدع أبى حال أنه معصوم عن الخطأ بل كان بالاحرى يعلم تلامذته أن عليهم قبل البدء بالبحوث ادراك جهلهم الكلى، ثم كان يرشدتهم الى الطريق محاولاً أن يبين لهم ان أساس كل بحث في جميع فروع العلوم الاستشراقية لا يكون الا بمعرفة المسائل المطلوبة معرفة كاملة من جهة الصرف والنحو وبمساعدة القاموس والمصطلحات اللغوية».

بعد ان أتم فيشر درسه في مدينة هاله عين مدرسا للغة العربية في معهد اللغات الشرقية الجديد في برلين سنة ١٨٩٦، وجلبت اهتمامه هناك اللهجة المغربية التي درسها أولاً في برلين ثم في المغرب نفسه، ونشر فيما بعد مجموعة من الاشعار المغربية التي حصل عليها اثناء إقامته في المغرب في كتاب عنوانه Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers (اناشيد مغن مغربى، لايبزيغ ١٩١٨) ذلك أنه كان على اقتناع كامل بأن درس اللهجات العربية العصرية من اهم الواجبات على كل من قصد تعلم العربية الفصحى وأراد ادراك خصائصها والتعمق في تاريخ تطورها منذ قديم الزمان الى ايامنا هذه. ولذلك كرس جانباً كبيراً من أبحاثه

Aus der religiösen Reformbewegung in der Türkei
(عن حركة الإصلاح الديني في تركيا).

ترجم فيه رسالة للوزير الاعظم سعيد حليم باشا (١٨٦٣ الى ١٩٢١) الذي كان قد نشرها هذا المؤلف عام ١٩١٨ عند انهيار الدولة العثمانية، وتفصح هذه الرسالة المعنونة «اسلاملا شيق» عن امكانيات تجديد الافكار الاسلامية واصلاح حياة المسلمين الروحانية، كما ترجم فيشر في الكتاب ذاته بعض الاشعار لضياء كوك الب، عالم الاجتماعيات وواعظ النهضة التركية، وكذلك بعض الاشعار الاخرى لعبد الحق حامد الذي اعتبره اهم شاعر تركي معاصر. وقال العلامة فيشر في مقدمته لهذا الكتاب انه يتفق ورأى المستشرق الهولندي المشهور «سنوك هوركونيه» الذي اعتبر مسألة الاسلام من المسائل المهمة في عصرنا هذا وانها جديرة باهتمام العلماء وداعية لاجتهادهم. وأضاف فيشر الى هذه الكلمات انه من الواجب - في رأيه - على كل مؤرخ ومستشرق ان يهتم بالحالة الراهنة في العالم الاسلامي وان المهمة السامية التي يجب على المستشرقين الاضطلاع بها، هي تعريف الجمهور بالتيارات الأدبية الجديدة في أصح صورة ممكنة، اى في ترجمتها العلمية. لذلك قام فيشر بترجمة الاعمال التي تنطوي تحت هذه التيارات الأدبية الدينية التي انبثقت في تركيا. ومن العجيب ان كتابه هذا قد صار منبع الالهام لواحد من كبار المحجدين في عالم الاسلام الا وهو محمد اقبال الباكستاني الذي يتبادل الرسائل مع الاستاذ فيشر حتى أنه أوصى صديقا تركيا له (وهو المؤرخ خليل خالد، احد اساتذة معهد اللاهوت القديم في جامعة استانبول) ان يتصل بهذا المستشرق الاوروبي الجليل. وقد ترجم محمد اقبال نفسه الكثير من الافكار التي اوردها فيشر في تراجمه المذكورة واقتبسها في كتابه «تجديد الفكر الديني في الاسلام» دون ذكر اسم المستشرق الالماني أو عنوان كتابه. وما أعظم تأثير مؤلف فيشر - آنف الذكر - على تعليقات محمد اقبال في كل ما كتبه حول طرق التجديد الديني والاصلاح الروحاني في تركيا بعد الحرب العالمية الاولى! والحق يقال ان اوجوست فيشر قد لعب بواسطة هذا الكتيب دورا لا يستهان به في تجديد الفكر الديني في الهند والباكستان!

اما نحن فروقنا في كتاب فيشر هذا - جانبا من تراجمه العلمية - ألا وهو أنه بالمصادر الصوفية وتاريخ التصوف. ولم يزل الأستاذ يشغل بالآداب التركية حتى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما نشر في مجلة جمعية المستشرقين الالمان ترجمة للاشعار الاربعة الحسنى لعبد الحق حامد الشاعر

هذا الموضوع، ذلك أن ملاحظاته وحواشيه مشتتة في مختلف المراجع والمصنفات... كما نأسف أسفا أشد من ذلك إذ لم يأذن له القضاء باتمام قاموسه الكبير الذي انكب على تجميع شواهد أكثر من اربعين سنة، إذ كان قد اعلن مشروعه هذا في عام ١٩٠٧ هادفا الى اصدار معجم موسوعي يستمد عناصره من المتون العربية الكلاسيكية الممتدة حتى القرن الثالث للهجرة وبحيث لا يستند الى الكلمات المسرودة في القواميس العربية القديمة والتي يضمها قاموس «لن» Lane وغيره. وقد بقي هذا المعجم الشامل نصب عيني الأستاذ فيشر حتى آخر لحظات حياته، وكانت قد دعت الحكومة المصرية الى القاهرة ليعمل هناك بضعة أشهر من كل سنة في الإعداد لقاموسه المذكور، وهكذا أخذ معه ما كان قد جمعه من الكلمات والتعابير وحفظها في مصر منذ سنة ١٩٣٦، ولما ودع القاهرة للمرة الأخيرة عام ١٩٣٩ ترك مجموعاته في عهدة «مجمع فؤاد الأول» - سابقا - للغة العربية» الذي كان يتمتع بعضويته منذ سنوات، ولم يأتيه خبر من مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ولا بعدها حتى ظن أن مجموعاته كلها قد ضاعت في تلك الحقبة المبللة وقد كتب الينا «لانه من الطبيعي ان أتألم غاية الألم لأن قاموسى قد راح ضحية الحرب...» ولكنه أخطأ في ظنه، وليته تمكن قبل وفاته من السفر الى مصر على النحو الذي تمناه! فلا زالت هناك بطاقاته الستة والثلاثون ألفا التي كانت محفوظة في المجمع المذكور في القاهرة... كما قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشر نموذج لمتن قاموس فيشر بعد وفاته مع مقدمة المؤلف المكتوبة باللغة العربية (في عام ١٩٥٠)، وكان عنوان هذا المصنف «معجم تاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى». وذكر فيشر في مقدمته التي دونها قبيل الحرب طريقتيه في جمع الشواهد من المتون فهو لم يستغن تماما عن القواميس الشهيرة المعروفة من قبل. وهو قد وجه شكره الى «القراء والنساخين» المصريين الذين عاونوه في مطالعة المتون الهامة واستنساخ الكلمات والتعابير. ولزيد الأسى لم تمهله المنية لاتمام هذا المصنف العظيم أو استكمال مواده وجمعها في معجم يستفيد منه اهل العلم في الشرق والغرب..

والى جانب شهرة الأستاذ فيشر كمؤلف للقواعد اللغوية في مجال اللغة العربية وكناقد صارم في مضمار فقه اللغة لا يصبح ان ننسى أعماله الهامة حول الآداب التركية العصرية. فقد كان يجيد التركية حيث نشر ترجمات لاشعار محمد امين وكذلك، في سنة ١٩٢٢، كتيباً يحمل عنوانه العبارة التالية:

وهو يوهى بالتعبير الاخير الى بيت لشاعرنا جوتيه انه من
يقاوم الرزايا القوى والبلايا يستجلب المعونة الالهية:

Allen Gewalten zum Trotz sich erhalten
Rufet die Arme der Götter herbei ...

ولما توفي خليفته في معهد لايبزيغ - البروفسور اريش
برونليش Bräunlich - في شهر آب ١٩٤٥ بينما كان أسيراً
في الحرب، قام شيخنا الجليل بالتدريس على الرغم من
تقدم سنه ... وكان قد حل مكان الأستاذ برونليش في زمان
الحرب؛ ثم منعت الحكومة عن التدريس (ووقعت على ذلك
المرسوم المدينة لايبزيغ في منطقة الاحتلال الروسى آنذاك)
ولكنه داوم على التدريس الخاص مع انه قد فاق الثمانين
من عمره، حيث كتب يقول في سنة ١٩٤٨: «لا يزال عندي
بضعة طلاب أقوم بتدريسهم رحمة بهم اذ لا يوجد هناك معلم
للغربية ...»

ومما يثير الحيرة ان اوجوست فيشر لم تأخذ كيلولة ولا تعب
رغم ما مر به من ظروف عصيبة، بل أنه ألف من المقالات
والأبحاث الكثير حيث نجد من بينها رسالة يعالج فيها صيغ
القسم في العربية، مثل «آله، ها الله ذا، لا أبوك، تعمر،
عمرتك الله» وما الى ذلك.

وفي هذا العام - ١٩٤٨ - جاءت دعوة من جامعة
ماربورج وبذلنا مساعينا كي نجلبه الى مناطق المانيا الغربية
ليتمكن من هنا من السفر الى الديار المصرية، وكان يرجو
ان يلتقى في معهد الاستشراق بجامعة ماربورج «بعض
الحاضرات ريثما تدعوني الهاوية (كذا في الاصل الالماني!)
بلطف، اكثر او اقل، للولوج اليها...» إلا أن امنيته لم
تتحقق، وهكذا رحل الى السماء في ١٤ شباط ١٩٤٩.
وكان ذلك اليوم الذى سعدت فيه روحه الى بارئها يوافق
يوم ميلاده الذى اتم فيه الاربعة والثمانين من عمره.

نذكره - وسنذكره الاجيال القادمة - كلما قرأنا وقرأت كتابه
الدراسى الفريد: Arabische Chrestomathie، وكلما
استفدنا في استيضاح المتون العربية العسيرة من ملاحظاته
وتراجمه، عملاً بقول الشاعر:

ما الفخر الا لأهل العلم انهم
على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل أمرئ ما كان بحسنه
والجاهلون لأهل العلم اعداء
ففر بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى و أهل العلم أحياء

التركي المتوفى سنة ١٩٣٧، وفي الفترة نفسها قام فضلا
عن ذلك باصدار ترجمة لمسرحية ألفها هذا الشاعر تحت
عنوان «روحلر» (اى: الاشباح)

ونجد بالذكر ان الاستاذ فيشر على رغم شيخوخته في
ذلك الوقت وما اصابه من بلايا اثناء الحرب قد داوم على
اشتغاله باصعب المتون العربية، اذ نشر عام ١٩٤٢ رسالة
حول «كتاب الفصول والغايات» لأبى العلاء المعرى، ومن
المعلوم ان هذا المؤلف نادر جدا لصعوبة أسلوبه ولأن بعض
النقاد قد اعتبروه «معارضة للقرآن الكريم». وقد أثبت
فيشر خطأ هؤلاء النقاد من كلمات أبى العلاء نفسه عندما
تكلم في «رسالة الغفران» عن ابن الراوندى وكتابه «الدامغ»
قائلاً:

«واجمع ملحد ومهتد - وناكب عن الحجة ومقتد - ان
هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه كتاب بهر
بالاعجاز ولقى عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال - ولا
اشبه غريب الاثال، ماهو من القصيد الموزون - ولا
الرجز من سهل وحزون - ولا شاكل خطابة العرب - ولا
سجع للهنة ذوى الأرب، - وجاء كالشمس اللامحة -
نوراً للمسرة والبأحة ...»

وقد بن فيشر ان رأى المستشرقين الاوروبيين في معارضة
أبى العلاء المعرى للقرآن لا أساس له من الصحة وبرهن
كذلك على انه لم يراحدهم الكتاب نفسه وانما اقتبسوا ما
وجدوه في آثار العرب الذين لم يستحسنوا افكار المعرى،
ومنهم ابن الجوزى وياقوت الرومى والذهبي، مع ان اكثر
هؤلاء المؤلفين لم يشاهدوا مخطوطة لهذا الكتاب المختلف عليه.
وقد فسر الأستاذ فيشر الجزء المنشور في مصر سنة ١٩٣٨
وحقق أسلوبه وتحقق من قوافيه ودقق مناسبة الغايات
والأقسام المسجعة، وعلى كل من اراد التعمق في افكار
أبى العلاء وفن نظمه ان يطلع على كتاب فيشر هذا بكل
دقة كي يتعلم منه طرز البحث العلمى الأصيل.

وفي أواخر الحرب وبعد ما اصاب فيشر من المصائب ما
اصابه لما ضاع قسم كبير من كتبه وخربت كذلك مكتبة
الجامعة في مدينة لايبزيغ وانهدم نصف بيته بالقنابل، ومع
ذلك لم يستسلم لليأس بل كتب ويقرأ فيما تبقى له من
الكتب حتى في تلك الأيام المفجعة وقد كتب يقول في أول
رسالة بعث بها اليها بعد الحرب:

«لم نصب في العام الماضى الا بالكارثة تلو الاخرى ...
ولكن لأفائدة من اطالة الكلام عن ذلك بل من المهم الآن
ان نحافظ على بقائنا بمقاومة جميع القوى»

تاريخ الصيدلة العربية عند المستشرقين الألمان

الحمد لله
الذي خلق لكل داء دواء
ولكل مرض شفاء

بقلم : جيزلا كيرشر

ما سموه دوائيا، وبينها وبين السموم ما سموه دواء سميا، واعتمدها الأطباء بعد اصلاح قواها والاحتيايل لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها.

ويشير المؤلف إلى مسئولية الطبيب عندما يعد الدواء، ولذا تحتوى مؤلفات مشاهير الأطباء على مقالات طويلة في هذا الباب، ومنها «فردوس الحكمة» لعلي ريان الطبرى (المتوفى حوالى عام ١٢٤٦هـ/١٨٦٠م)، و«الحاوى فى الطب» للرازى (المتوفى عام ١٠٣٦هـ/١٢٢٥م)، و«القانون فى الطب» لابن سينا (المتوفى ٤٢٨هـ/١٠٣٦م)، و«كتاب التصريف» للزهراوى (المتوفى ٤٠١هـ/١٠١٠م)، و«كتاب العمدة فى صناعة الجراحة» لابن القف (المتوفى ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وقد بحث الأطباء فى الكتب المذكورة وأمثالها عن أفضل أنواع العقار بحسب درجة تأثيره، ثم عن الأمراض التى يعالجها مع إثبات كمية الدواء لكل من هذه الأمراض. ونستطيع أن نتبين أهمية إلمام الطبيب بخصائص العقار من كلمات أحمد الغافقى (المتوفى عام ١١٦٤هـ/١٥٦٠م) فى كتابه «الجامع فى الطب فى الأدوية المفردة» حيث يقول: «وإن كان أطباؤنا يرون أن هذا إنما يلزم الصيدلانى دون الطبيب لكان ظنهم صادقا لولا أنهم يتولون بأنفسهم عمل الأدوية المركبة وما أقبح بأحدهم أن يطلب أدوية مفردة فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هى التى ارادها أم غيرها فيركبها ويسقيها عليه مقلداً فيها الدجالين ومتعاطى الحشائش، قوم لا يقرئون الكتب ولا يعرفون من الأدوية إلا أقلها».

حتى إذا ما تعذر العلاج بواسطة الأدوية المفردة راح الطبيب يستعمل آنذاك الأدوية المركبة التى كانت تسمى «الأقرباذين» لأنه من المظنون أن قوى الأدوية المفردة المستعملة فيها ستبلغ حدا بعيدا من التأثير باكمال بعضها البعض. وقد بدأ الأطباء فى قديم الزمان يجمع نشرات خاصة بتحضير الأقرباذين وإعدادها، ونعد من هذا النوع

كان مسلمو القرون الوسطى يدعون العقاقير «عجائب المخلوقات»، ويريدون بذلك أن الله تعالى خالق السموات والأرض قد خلق أيضا هذه الأشياء كى تعود على الانسان بالنفع والخير.

وكانت «عجائب المخلوقات» هبة السماء إلى الطبيب الذى يقضى عليه واجبه أن يعرف كيف تشفى الأمراض وكيف تعالج وتنتقى.

وقد أخذ عرب العصور الوسطى فنون العقار عن «ديوسقوريدس» Dioskurides (المتوفى حوالى عام ٧٠م) وجالينوس Galen (المتوفى حوالى عام ٢٠٠م)، ولكنهم مالبثوا أن زادوا عليها واستكملوها بفضل خبراتهم الطبية التى أتوا بها من تملكة ما بين النهرين والهند والشرق الأقصى وشمالى أفريقيا. وجدير بالملاحظة أن عبارة «الطب والصيدلة العربية» وإن أطلقت على آثار الحضارة الاسلامية فى هذا الميدان، فضلا عن أن ما ألف فيها من أسفار كان بلغة العرب، إلا أن مصنفى تلك الكتب ومؤلفيها كانوا ينتمون إلى عديد من الشعوب التى تترامى من الهند والسند حتى الشرقين الأدنى والأوسط وشمالى أفريقيا.

صنف ابن البيطار (المتوفى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) فى موسوعته المسماة «الجامع فى الأدوية المفردات» عجائب المخلوقات وهى التى كانت، باعتبارها عقاقير نباتية ومعنوية وحيوانية، محط تصرف الطبيب العربى فى القرون الوسطى، إذ كان عليه أن يعرف مدى أثرها فى الجسم. ولكل عقار قوى وصفات تخصه، كما قال الاغريق. وقد أشار البحاثه الايرانى الفقيه المدعو البرونى (توفى عام ٤٤٠هـ/١٠٥٠م) فى مقدمة «كتاب الصيدلة» إلى ما للعقار من مكانة خاصة بين الأطعمة والسموم، فقال: «وجميع ما يتناول بقصد أو بجهل فنقسم فى أول الأمر إلى أطعمة وسموم، والأدوية واقعة فى البين لأنها بالاضافة إلى الأغذية مفسدة وإلى السموم مصلحة لا يظهر فعلها إلا الطبيب الحاذق المشفق لها، ولهذا توسط بينها وبين الأغذية

وَمِنْ أَلْفِ لُغَةٍ الرُّسْلَانِيَّةِ يُوضَعُ عَلَيْهَا ضَمًّا كَأَنَّ صَنْعَ
مِنْ رَأْيِ رُؤْيَا وَنَجْدٍ لَشَرَابٍ أَوْ مِنْ فُسْؤَيْ رُسْلَانٍ



عَدِي دَقُوقًا وَمِنْ رَأْيِ رُؤْيَا وَنَجْدٍ لَشَرَابٍ أَوْ مِنْ فُسْؤَيْ رُسْلَانٍ
وَتَبْعِي لِنَظَرِ الْجَرِيحِ بِمَالِحٍ أَوْ مَا يَطْبِخُ ذَوَانِدًا مَسْتَقْلُونَ وَفَعَلَ
مِنْ رُقَةٍ ضَمًّا أَدَا صَا وَدَخَلُوا الْحَمَامَ أَيْ بَابًا
نَاغًا وَتَقُولُ هَذِهِ الْأَدْوِيَّةُ شَهَابٌ يَزِيدُ بِكَ بِالرُّؤْيَا
حَادِ وَطُونَ وَالسَّرَائِدُ رُكْنَا وَنُسُونُ وَنَزْلَانُ

عمل مضمة لمعالجة لدغة الرتيلاء. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دوت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

أما الصيدلي فكان يحافظ على نوع «عجائب المخلوقات» وكييفيتها ويحضر الأدوية المركبة التي يوصى بها الطبيب، وكان له بذلك اليد الطولى في علاج المرضى وشفائهم. وهكذا ظل الحال حتى يومنا هذا. ومع ان المستحضرات الجاهزة التي تقوم بتركيبها معامل الأدوية الكبرى قضت على تحضير الاقرباذين في الصيدليات، فانه مما لا شك فيه ان قول الصيدلي كوهين العطار في كتابه «منهاج الدكان» (عام ١٢٥٨ هـ/١٢٥٩ م) لم يزل ساريا، اذ يخاطب ابنه قائلا: «الصيدلة أشرف الصنائع بعد صناعة الطب وهي آلة لصناعة الطب».

ولا عجب انه عندما تطورت الدراسات العربية والإسلامية وتعمق المستشرقون الألمان في تاريخ ثقافة الإسلام تطور كذلك اهتمامهم بتاريخ الطب العربي وما يتعلق به من

من العقار مثلا المراهم والشراب والربوب والمعاجين والحبوب وغير ذلك.

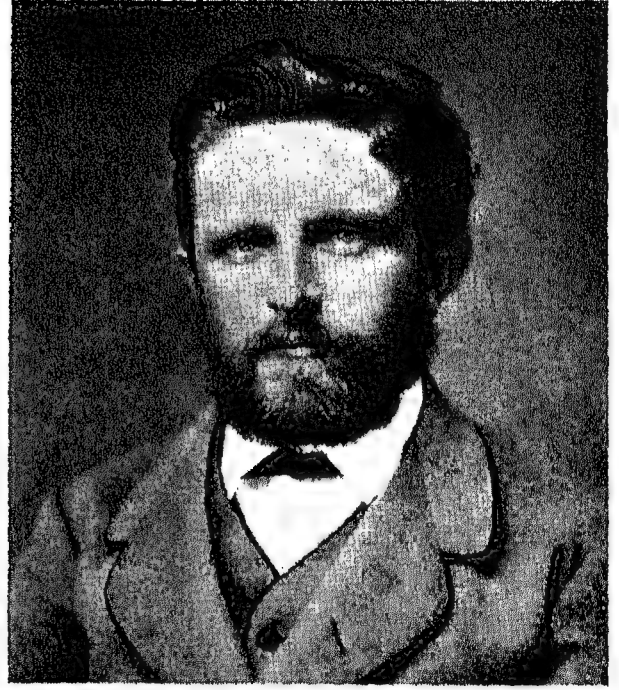
وكان إعداد هذه الأدوية المركبة وتحضيرها من وظائف الصيدالة؛ كما قال البيروني:

«الصيدلاني (الصيدلي) وهو المحترف بجمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها له مبرزواهل الطب».

وبعد، فقد عرف العالم الإسلامي الصيدليات منذ القرن التاسع للميلاد، اى منذ عصر العباسيين، كما وجدت في المدن الكبيرة مستشفيات ألحق بها في أغلب الأحيان صيدليات، وكانت لهذه المؤسسات كتب خاصة بطريقة تحضير الأقرباذين دعيت «بالدستور البيهراستاني» ومازالت العلاقة الوثيقة بين الطب والصيدلة قائمة عبر القرون.

إحضار أدوية لأمراض العين. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريديس، دونت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

محالات ، ونذكر من بين هؤلاء العلماء الألمان : أوجن
ميتفوخ Eugen Mittwoch (المتوفى عام ١٩٣٢)، وإرنست
ليبرت Ernst Lippert (المتوفى عام ١٩١١)، ويوليوس
روسكا Julius Ruska (المتوفى عام ١٩٤٩)، وأيلهارد
فيدمان Eilhard Wiedemann (المتوفى عام ١٩٢٨)،
وإرنست زايدل Ernst Seidel (المتوفى عام ١٩٢٢)، وكذلك
العالم الدائب البحث هلموت ريتير Hellmut Ritter
الذي كشف عن الكثير من المخطوطات الهامة الخاصة
بتاريخ الطب والصيدلة عند العرب والتي أخرجها من
المكتبات التركية والأيرانية والعربية. وما زال البحث عن
هذا الفرع المهم من فروع الدراسات الإسلامية يمضي
ويتطور في أيامنا هذه، ويكفي أن نشير إلى ألبرت ديتريش
Albert Dietrich وكرستوف برجل Christoph Bürgel



إرنست زيكنبرجر

بسيطا لا يركن إلى الراحة ولا يهتم بمتاع الدنيا، فهو لم يعرف سوى العلم وواجهه تجاه عمله.»

ولد إرنست زيكنبرجر في كراوتهايم/بادن Krautheim/ Baden عام ١٨٣١، ودرس العلوم الطبيعية والصيدلة في جامعتي هايدلبرج وبرلين، ثم قدم إلى مصر عام ١٨٧٦، حيث أصبح مديرا للصيدلة الألمانية بالقاهرة؛ وتولى بعدها في عام ١٨٨٣ إدارة حديقة النباتات بالقاهرة، نظرا لغزارة معلوماته في هذا الميدان. وفي عام ١٨٨٩ عين إلى جانب عمله هذا أستاذا ومدرسا لعلم الصيدلة ثم الكيمياء بمدرسة الطب بالقاهرة École de Médecine. وعندما سئل عام ١٨٨٧ عما إذا كان يريد البقاء في مصر أم لا أجاب القنصل الألماني بقوله: «لأنني أفضل الحياة في مصر ولأنني أرجح الجنسية المصرية على أية جنسية سواها.»

وقد امتدحه جورج شفاينفورت بكلماته التي قال فيها: «لم يهمل زيكنبرج مهامه العلمية خلال الأعوام الخمسة عشر المليئة بالعمل الجاد المجهد بمدرسة الطب ولا لحظة واحدة، فانه لم يكن يعرف الإجازات ولا العطلات الصيفية الطويلة في أوروبا للاستجمام من الحرارة القوية في الصيف المصري الذي يجعل العمل الذهني مرهقا.»

وبعد، فقد قدم الأستاذ زيكنبرجر لمصر - وطنه الثاني - أبحاثا مفيدة وهامة في مجالات الكيمياء والنبات والجيولوجيا

المصري Institut d'Égypte الذي كان قد أسسه نابليون الأول؛ كما توفي كلاهما بالقاهرة.

وعندما فاضت روح الأول لم يكن الثاني الا طالبا للعلم، حديث العهد بالحياة بعد، ولم يعرف أحدهما الآخر، ومع ذلك ربطت بين حياتهما صداقة العالم الكبير جورج شفاينفورت Georg Schweinfurth (المتوفى عام ١٩٢٥)، ذلك الباحث الدائب عن جغرافية افريقيا، وكان «زيكنبرجر» قد عاونه فترة ثم اتصل بالتعاون العلمي بعد ذلك بين شفاينفورت ومايرهوف.

في ١٠ ديسمبر ١٨٩٥ شيع الصيدلي إرنست زيكنبرجر إلى مقبره الأخير بالقاهرة. وقد ودعه حتى مقبرته عدد كبير من العلماء البارزين وممثلي الدولة المعروفين ومن بينهم نوبار (باشا) رئيس الوزراء في ذلك الحين، وكذلك جميع الطلبة الذين درسوا على زيكنبرجر. «لأن المصريين الذين اندفعوا إلى تشييع جنازته احترموها فيه الأوروبي المثالي الذي بذل كل اهتمامه في خدمة وطنه المختار» - هكذا قال الباحث جورج شفاينفورت عند تأييده لإرنست زيكنبرجر أمام أعضاء المعهد المصري؛ ثم استرسل قائلا: «يجب أن تشعروا بالفخر أيها السادة لأن واحدا منا قدم هذا المثل النبيل لحياة مليئة بالعمل؛ وكان أسلوب حياته



ماكس مايرهوف

الفضائل النادر وجودها من إخلاص تام في عمله وتواضع كامل وسيظل حيا بيننا كالمثل الأعلى لعالم بارز وأستاذ قدير.

«تغيب مصر عن النظر، ويستغرقني حزن وشوق عميق. عيشي يا أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان! إلى اللقاء!»

بهذه الكلمات ختم «ماكس مايرهوف» يومياته عن رحلته الأولى إلى مصر عام ١٩٠٠/١٩٠١، ولم يكن يتوقع حينذاك أن هذا البلد سيصبح عما قريب وطنًا ثانيًا له حيث سيقضي فيه أكثر من ثلاثين عاما من حياته.

ولد مايرهوف في مدينة هلديسهايم Hildesheim في شمالي ألمانيا عام ١٨٧٤، واستقر رأيه على دراسة الطب، ثم تخصص في طب العيون، وعند رحلته المذكورة إلى «بلاد الفراعنة» أتاحت له الفرصة للدراسة للأمراض الكثيرة للعيون، وهي التي كانت متفشية في ذلك الوقت في مصر. وقد عاد الدكتور مايرهوف عام ١٩٠٣ إلى «أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان» لكي يعمل «كحكيم للعيون» بالقاهرة، وسرعان ما انهال عليه سيل لا ينقطع من المرضى الذين أحبوا «الدكتور ماكس» وقدروه، وهو الذي لم يرد قط عن بابة فقيرا أو محتاجا إلى معونته، فقد كان يعالج الفقراء دون تعاب.

وعلم المعادن؛ والجدير بالذكر أنه قدم كذلك خدمات جليلة في أبحاث الصيدلة القديمة عند العرب، ووفق في كتابه الموسوم بعنوان «النباتات المصرية» Les Plantes Égyptiennes. إذ قام فيه بتعريف النباتات التي ذكرت أسماؤها في كتاب ابن البيطار «الجامع لفردات الأدوية والأغذية» فيما عدا قليل منها؛ وقد ابتداء قبيل موته بنشر ما سماه «المقتطف المختصر» لكتاب ابن البيطار الذي لا يعرف في الغرب إلا بترجمة ألمانية ركيكة، وترجمة فرنسية يصعب الحصول عليها؛ ذلك أن الأستاذ زيكنبرجر كان يعتقد عن حق أن مؤلفات ابن البيطار لم تنل في أوروبا ما تستحقه من التقدير. على الرغم من أن قيمة هذا الكتاب من الوجهة العلمية لا توازي الجهد الذي بذله المؤلف فإنه يحتوي على بعض الملحوظات الهامة التي نثرها زيكنبرجر الصيدلي في متن هذا البحث، ولعله جدير بنا أن نعجب بحسارته وجهوده التي كرسها لإداء مثل هذا العمل إلى جانب وظائفه ومسئوليته الجمة.

ولترك الكلمة مرة أخرى لجورج شفاينفورت الذي قال: «ولولم يكن لهذا العالم سوى هذا الكتاب لكفاه حتى يذكر اسمه بغاية التكريم والتبجيل في مصر وفي أوروبا».

ونختم السيد وزير المعارف المصري تأييده للأستاذ زيكنبرجر بالكلمات التالية: «إن هذا العالم الباحث الممتاز توحدت فيه

الصفحة الرابع التي قال له المسموم في وقت شب
بوقه المذنب في الدفوف في غله ليجت الانعادات
منه وان اعادته في له كنبان ابعده يمشد من اعداء



ب. يد طويلا من كذا من كذا. وقد انجبهه ابن
الشيت ومن كذا من كذا. وفيه هذا النبات
تستعمل في كذا من كذا. وفيه هذا النبات

قطع النبات المسمى بـ «ابليسقوين». صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دولت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

الشرق وكذلك للمستشرقين المهتمين بالطب العربي وتأريخه. ونجد في مؤلفاته التي يعالج فيها طب العيون عند حنين ابن إسحق ويحيى بن ماسويه ومحمد بن قسوم بن أسلم الغافقي، مادة غنية تتناول العقاقير التي كان يستعملها الأطباء العرب في القرون الوسطى لعلاج المرضى. وأعد الدكتور مايرهوف ملحقاً قيمياً لكتاب الغافقي «كتاب المرشد في الكحل» ذكر فيه الأدوية المختلفة التي كانت تستعمل على زمان المؤلف لمعالجة امراض العيون، ومنها الأكحال و«الشيقات» وغيرها. وسرعان ما انتقل مايرهوف الى دراسة علم العقار عند العرب. ولعله يحذر بالعلماء والباحثين أن يتأملوا أسلوبه في التفتيش

عاد الدكتور مايرهوف إلى مصر وطنه المختار، بعد أن قطع إقامته بها منذ ١٩١٤ حتى ١٩٢٢. وقد حصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٥، وعاش بالقاهرة حتى وافاه أجله بعد مرض تحمله بصبر وشجاعة في ٢٠ أبريل عام ١٩٤٥. وإلى جانب معالجته اليومية لأمراض العيون وأبحاثه العلمية في هذه الأمراض الخاصة بمصر وكيفية معالجتها، اهتم الدكتور مايرهوف بدراسة تاريخ أمراض العيون، ووجد في مجال دراسته هذا مواداً غنية من كتب الأطباء العرب في أثناء القرون الوسطى، كما مكنته خبراته العلمية ودراساته اللغوية التي بذل فيها ما بذل من الجهد، من تقديم معلومات هامة للأطباء الذين يهتمون بتاريخ الطب في بلاد

١. لما سفل دجس وهو الطين المحتوم .

مده تسخر من معاديل ذبيحة تحت الأرض اذا شرب الخمر



له قوة صاد الادوية القالة ع ع ع ع ع
٢. طمس وهو القلق

فمن خسر الاول ولا كنه رطب في عقد من الرطب والماء هو من خسر
الاول ولا كنه رطب وهو لثته اضاف منه ما يقطر ما يجف مثل الملح
وذلك يكون في ثمر من معاديل الخمر ومنه ما يخرج في معاديل الخمر
منها ما يصير جامدا مثل الملح ويكون ضيفا اخر في ارض اسبانية مثل هذا

استخراج الطين المحتوم. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دونت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

العقاقير المختلفة ايضاحاً علمياً واسعاً. وتعتبر المقدمة الشاملة التي ألفها الدكتور مايرهوف لهذا الكتاب من أهم النصوص واعمقها في موضوع تطور علم الصيدلة عند العرب. زد على هذا عدداً من الرسائل الصغيرة عن البنج والحشيش والششم التي تكمل أبحاثه الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة؛ أما مقالاته العميقة حول «سوق العطارين بالقاهرة» (عام ١٩١٨) فقد اشاد بها جورج شفاينفورت - الذي كان متخصصاً في دراسة النباتات المصرية - كل اشادة.

بلغ عدد مؤلفات مايرهوف الثلاثمائة، ويتبدى في كل منها العلم الموسوعي الذي امتاز به هذا العلم، وإذا لا يمكننا ذكر عناوينها فعلياً أن نشير الى بعض ماله قيمة خاصة

عن المراجع والمتون الهامة. ومنها أنه أشار لأول مرة الى وصف الأدوية المفردة للعالم المشهور «الشريف الإدريسي» (المتوفى عام ١١٦٦/٥٦٠م)؛ وأشار كذلك الى أهمية كتاب الصيدلة في الطب للبروني الذي يلقب «بأستاذ» حيث ترجم المقدمة المهمة التي اقتبسنا جزءاً منها على ص ٤٩. وقام بمساعدة جورج صبحي بنشر «كتاب الأدوية المفردة» المختصر لأحمد الغافقي، وفي ترجمته وإعداد الملاحق والشروح العديدة لهذا الكتاب، غير أنه لم يتمكن للأسف من إتمامها. أما مؤلفه الأهم في مجال علم العقار فهو نشر «كتاب شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون حيث يوضح كل واحد من أسماء

منها في تاريخ الطب، كأبحاثه التي تعالج الإرث اليوناني في الطب العربي، ثم تلك التي تبحث في مؤلفات جالينوس وترجمتها العربية، فضلا عن دراسته لكتاب «فردوس الحكمة» لعلي ربان الطبري وكذلك تعرضه لابن النفيس.

كتب جورج سارتون George Sarton، الإحصائي الشهير في تاريخ الطب، قائلا عن ماكس مايرهوف: «إن أحسن جزاء يمنح لذكراه يكمن في حقيقة بسيطة، هو أن تقرر أعماله في المستقبل على طلبة تاريخ الطب العربي، وهكذا ينال اسمه التخليد.»

وقد منحت كلية الآداب بجامعة بون الدكتور مايرهوف درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٢٨ لكونه «باحثا كبيرا في الطب والعلوم الطبيعية عند العرب ومشجعا دائما للأعمال العلمية.»

وعندما توفي عام ١٩٤٥ حزن لوفاته الكثيرون، وهم جميع من عرفوه وبخاصة العلماء المصريون وزملاؤه الأجانب الذين كانت تربطه بأكثرهم علاقة صداقة وطيدة.

وأمام أعضاء المعهد المصري الذي كان ينتمي إليه الدكتور مايرهوف التي كلمة التأيين بمناسبة وفاته الدكتور لودفيج كايمر Ludwig Keimer عالم الطبيعة والآثار المصرية، وكثر عدد مقالات النعي التي دونت بمناسبة وفاة مايرهوف؛ اما أعمقها وأشدها تأثيرا فهو ما كتبه عنه الأستاذ يوزيف شاخت Joseph Schacht، صديقه وزميله، حيث قال: «ستحيا ذكراه لمدة طويلة بين طلبة العلم في العالم بأسره كعالم متبحر في الطب والعلوم الطبيعية عند العرب؛ ثم بين الأطباء كباحث ممتاز لأمراض العيون بمصر، ثم بين المرضى الشاكرين كطبيب ناجح يستحق التكريم والتبجيل، وبين أصدقائه الكثيرين من أنحاء العالم كشخصية طيبة

محبة للجميع ... وبينما كان ينفر من كل تفاؤل مريح راخ يتدفق شعوره العميق بالمسؤولية الأخلاقية تجاه علاج مرضاه وفي تناول بحوثه العلمية الدقيقة. ومن بين المثل العليا التي كان يعمل ماكس مايرهوف على تحقيقها ويعيش من أجلها كان أن يبصر أهل الشرق بماضهم التليد، وأن يساعد على تشييد أسس مشتركة للتفاهم والتعاون المتبادلين بين الشرق والغرب والتغلب على التعصب والكراهية أينما كانت ...»

إرنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف — عالمان ألمانيان خدما العلم في الشرق. أحدهما طمست ذكراه الأيام: كان صيدليا وأستاذا لعلم الصيدلة والكيمياء في بلد ترجع تقاليده إلى جذور بعيدة العمق في هذا المجال .. في مصر، وقام بدوره في توضيح علم الأدوية والعقار عند العرب في القرون الوسطى.

أما الآخر فهو طبيب العيون الذي عرفته القاهرة واشتهر بين أهلها، كما اشتهرين العلماء عن طريق دراساته العديدة في علم العقار عند العرب، وهي التي أدى بها خدمة كبرى لميدان البحث في هذا المجال حتى اليوم.

كانا عالمان كرسا حياتهما لخدمة العلم، وفتحوا بابا جديدا لإدراك العلوم العربية على مصراعيه؛ ولقد أحب كلاهما وطنه الثاني — مصر — وأخلص له، وفهم قومه ومشاكلهم فهما عميقا. لذلك فإن إرنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف يستحقان احترامنا وتقديرنا لما قدما من مساهمات علمية قيمة وهامة ولما اتصفا به من خلال إنسانية عالية، بل نادرة الوجود.

ترجمة: عزيزه حمدي

يُولْيُوس رُوسْكا

(١٨٦٧ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذ محمد يحيى الهاشمي

ولد يوليوس روسكا في ٩ شباط ١٨٦٧ في مدينة بول Bülhl من مقاطعة بادن - بادن، فعدا عن الارث العلمي والفني فقد كان ينحدر من سلالة مقاومة للشدائد مجدة في العمل وكانت مقيمة في رايندورف - غرافنهاوزن - Rheindorf Grafenhausen من دائرة اتنهايم Amt Ettenheim وكانت والدته المرأة الرقيقة الاحساس محبة للأزهار وبمحنة نادرة عرفت توجيه اولادها.

بعد ان انهى يوليوس روسكا دراسته الابتدائية والثانوية زار الجامعة لدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبدون اية صعوبة وصل الى هدفه. ولم يكن مرتاحا نفسيا، لان التضارب بين العلم والايمان استيقظ في نفسه، شأنه في ذلك شأن جميع احرار الضمير في العالم. ومنذ ان كان طالبا في المدرسة كان باحثا عن الله وكان دوما يفكر بذلك السؤال: لماذا لم تتجاوز رسالة الخلاص المسيحية دائرة الشعوب الجرمانية والرومانية والسلافية؟ وكطالب جامعي اهتم كثيراً بالبحث النقدي لتاريخ الاديان، وكان يقبل على التعلم بعطش لا يرتوي، وكان يريد عمل الانسجام بين عيشه وعلمه. وبحماس زائد كان يهتم بمعرفة الامم وتاريخ الحضارات وتاريخ تطور البشرية. ولقد قاده حب الكشف عن لغز العالم الى المسائل الدينية، وهكذا اخذ ينمو في نفسه حب التعرف على الاديان العالمية وكتبها المقدسة بلغاتها الاصلية، لان الترجمة مهما كانت محكمة فقد تفقدها شيئا من خصائصها. وهكذا عزم عزمًا اكيدا على الاطلاع على اللغات التي كتبت بها هذه الوثائق الدينية الاصلية، ولقد نفذ المخطط بهمة لا تعرف الكلل والملل، وان العالم ليدن لعزومه على ذلك بالقاء

ينحدر العلامة يوليوس روسكا من اسرة عريقة، لعل منشأها ايطاليا، تهتم بالعلم والتربية بصورة خاصة، فقد كان والده فرديناند معلماً متعدد الجوانب في مدينة برناو في الغابة السوداء، وفي مدينة بول Bülhl من مقاطعة بادن، ومما يذكره الرسام هانس توما Hans Thoma بانه زار مدرسته للرسم ويملك حفيده الباحثة في المجهر الالكترونى هيلموت روسكا صورة من الغابة السوداء من رسم هذا الرسام وذلك بتاريخ ١٨٦٠/٩/٥، وفي كنيسة «غرافنهاوزن» بالقرب من جبل كايزرشتول (كرسي الامبراطور) يوجد سجل عقد قران الجدة الاعلى نيقولاوس روسكا في عام ١٧٤٨، ومن المظنون ان هناك صلات بين نيقولاوس روسكا ورسام الاشخاص كارلو فرانسيسكو روسكا الذي عاش (١٧٦٦-١٧٦٩)، وان اسم روسكا يتردد بين سويسرة الجنوية وايطاليا العليا. ولم يكن الجدة الاعلى الكبير هو الفنان الموهوب الوحيد، بل هناك اربعة عشر شخصا ممن ينتمون الى هذه الاسرة كانوا معمارين ونحاتين ورسامين والذين جاء اسمهم في قاموس الفنانين في سويسره. وقد قرأ كثيرون قصة حياة رئيس الواعظين نيقولاوس روسكا في قصص يناش Jürg Jenatsch العائدة لمؤلفه «كونراد فرديناند ماير» وقد ولد هذا الرجل الديني أعني روسكا في عام ١٥٦٠ ومات شهيداً في عام ١٦١٨. وقد كتب راهب يحمل اسم «روبيرتو» قصة حياته الى درجة وصل بها الى حد الاساطير، وان نسخة منها كانت توجد في مكتبة الدولة في برلين. وكان علامتنا يفتخر بحمله نفس الاسم الذي كان يحمله رئيس اساقفة كنيسة كومو Como اعني يوليوس روسكا.



الاستاذ يوليوس روسكا
إعارة : الأستاذ محمد يحيى، الهاشمي.

In diesem Sinne, mit einem
herzlichen "Gute auf", grüßt
Sie besten
Jhr
Ruska

خاتمة رسالة من الأستاذ روسكا Ruska إلى الاستاذ محمد يحيى الهاشمي.

عن اصل وانتشار العلوم العربية حتى انتقالها الى عالم الغرب.

لم يكن الطريق امام هذا العالم الفتي معبداً، فان المحافظ ومستشار المدينة قررا بان روسكا لا يمكنه ان يكون استاذاً رسمياً في المدارس الثانوية في هايدلبرغ الا اذا استغنى عن مسلكه الجامعي، وبقلب جريح ونفس حزينة خضع لهذا الامر، وودع الشرق، وكان آخر عمل قام به هذا المجال ان ترجم «كتاب الاحجار» من «عجائب في المخلوقات» لذكريا بن محمد القزويني وشرحه وذلك في عام ١٨٩٦.

لكن، كيف يمكن ايقاف الميول الاصلية في الانسان؟ هنا الخلق: فيضاً محتماً، يحول في النفس تواقاً للتدفق... وهل يقوى الينبوع على كبت الامواه المختزنة في احشائه، ام هل تستطيع الشمس ان تحول دون انبثاق الضياء؟ وهكذا ايضا فان هذا الرأس المشتعل بحب البحث لا يمكن اطفاء شعلته، فقد كان يكرس اوقاته خارجاً عن عمله الجبر على ادائه في البحث في تاريخ العلوم، ومع ذلك فقد كان يقوم في تفهيم ما اوكل اليه من تدريس العلوم الطبيعية على اساس تربوي نادر، لان تاريخ العلم يعطينا مقدرة تدريسية في تفهيم كيفية تطوره. وقد كان

انوار كشافة على تاريخ الكيمياء الذي لم يكن في بدء حياته العلمية ضمن تفكيره. وحتى قبل ان يبدأ عمله كمدرس للعلوم الطبيعية في مدينة هايدلبرغ درس اللغة العربية والعبرية عند رودولف برونوف Rudolf Brünnow ووسع معارفه اللغوية باللغات السريانية والآشورية والفارسية. وعندما غادر رودولف برونوف مدينة هايدلبرغ مغادرة نهائية بقي تدريس مثل هذه اللغات مدة من الزمن في هذه المدينة فارغاً، فولى يوليوس روسكا وجهه شطر البعثة الكبير في العهد القديم آدالبرت مركس Adalbert Merx الذي علم اي طير نادر قد حط عنده. بيد أن هذا الاستاذ اشار على تلميذه وصديقه الصغير تحويل اتجاهه من دراسة علم الاديان الى تاريخ العلوم بتقديمه اطروحة عن الرياضيات السريانية نظراً لمخطوطة في هذا الموضوع موجودة في مدينة غوتينغن، وقد اصغى روسكا للنصيحة وفي كانون الاول من عام ١٨٩٥ قدم الاطروحة المذكورة بعنوان «المربعات من كتاب محاورات لسرفيوس ابن شاكو "Quadrivium aus Servus bar Schaku's Buch der Dialoge"» عند الاستاذ بيتسولد Bezold وهذه الاطروحة سلك اتجاهها جديداً لاعماله العلمية من اجل المستقبل بصورة اساسية. وكانت تخامره فكرة البحث

يعلم علم المستعدنات Mineralogic والجيولوجيا والرياضيات ، وبعد سنين قلائل اهتم باللغات والفلسفة وفن التربية. ونظرا للدراسات العديدة والمتنوعة التي قدمها فن الصعب على من لم يكن يحمل نفس روح الشمول والهدف الفأوستي^(١) فهمه او تصنيفه ضمن اختصاص معين. ومع ان المعلم روسكا كان ناجحا في مهمته كمدرس للعلوم في المدارس الثانوية فلم يكن مرتاح الضمير، وبعد فراق العلوم القديمة مدة اثنتي عشرة سنة عاد اليها ثانية في دراسة ما يسمى كتاب الاحجار لارسطوطاليس، وكان يود متابعة دراسته في هذا الخصوص، ولكن توسع الاسرة ونمو الواجبات الملقاة على كاهله كانت المانعة من تفرغه.

من هذه الحقب ظهرت بعض الدراسات له اذكر منها «دليل المستعدنات» Leitfaden der Mineralogie الفه لطلاب التجهيز عام ١٩٢٠ يحوى جميع ما يلزم ان يعرفه الطالب الثانوى عن هذا العلم الجديد بتبسيط واضح ومع ذلك كان ملما بالموضوع جهد المستطاع، كما اطلعني على النماذج من المقوى التي قام بصنعها لطلابه لابرار الاشكال الهندسية للبلورات الطبيعية امام الاعين مع ما رافق ذلك من عرض نماذج من الفلزات جاذبا للتلميذ الى محبة هذا العلم، عدا عن الرحلات المدرسية من اجل المشاهدات الجيولوجية، فضلا عن ذلك فهناك دراسات عن العلوم الطبيعية بالذات كالحوانات الفقرية من وجهة التشريح المقارن وعلم الحياة، والمناسبات بين علم المستعدنات والجيولوجيا والكيمياء، وكما ان هناك دراسات اخرى مثل الكتاب الانكليزي من مجال الفلسفة، وبعض تقارير قدمت الى مؤتمرات اللغويين، ومقالات تربوية مختلفة، ومع ذلك تتخلل هذه الفترة التي دامت من ١٩٠٢-١٩١٨ مقالات ودراسات عديدة عائدة لتاريخ العلوم العربية بصورة مدهشة، ولقد احصيت في الخطاب الذي القاه «ويندريش» تكريما لعلامتنا عند بلوغه السبعين وذلك في عام ١٩٣٧، وهى تبلغ حتى عام ١٩١٨ مائة وثلاثة دراسة^(٢).

لقد حدث حادث محزن لم يكن بالحسبان هز حياته هزا مريعا، ان عمه والد زوجته العلامة الكبير المستشار ادا البرت مركس المارالذكروقع في حفرة القبر ميتا اثناء تأبين صديق له على قبره. كانت هذه المأساة ضربة كبيرة من اجل العلم، لان هذا العلامة مركس كان يقوم باخراج السفر العظيم ل«الأنجيل الاربعة الاساسية» ، ولا يمكن الثقة باحد لاجراج هذا السفر العظيم الا يوليوس روسكا، وان الدراسة الاخيرة التي انتهت من انجيل يوحنا هي باللغة السريانية ومفسرة بمخطوطة باليميسست Palimpsest وقد عثر عليها في دير سيناء، فكانت تنتظر من يتولى اخراجها ايضا الى الطبع بصورة صحيحة. من اجل ذلك منح اجازة للقيام بهذه المهمة الشاقة، بيد ان الاجازة لم تكن كافية فلما طالب بالتمديد ثانية رفض طلبه، ولكنه في هذه المرة لم يخضع للامر الواقع ولم يقطع عمله، فاستقال منه ومن التدريس بالثانوى وذلك عام ١٩١٠، واستغنى بذلك عن حقه في التقاعد وعن خدمة عشرين عاما. ولو كان روسكا من امة لا تقدر البحث العلمى لقضى على نشاطه واصبح نسيا منسيا. نعم لقد انسد امامه طريق ضيق، ولكن انفتح امامه طريق واسع، فأخذ يعمل بما تتوق اليه نفسه، وانكب على اخراج السفر المذكور لعنه، وقدم دراسة عن «كتاب الاحجار لارسطوطاليس» كدكتوراه ممتازة^(٣)، وقام بمحاضرة نموذجية في الجامعة في عام ١٩١١ وذلك عن علم المستعدنات عند العرب. وعلى ضوء مقارنة المخطوطات العربية واللاتينية تبين لروسكا بأنه يلزم البحث عن اصل هذا الكتاب في مراكز الدراسات الطبية السريانية الايرانية، وكبرهان لا يقبل الجدل على ذلك وجد معالجة المستعدنات لها طابع ايراني، وكثيرا ما جاء ذكر ايران وخراسان والهند والصين كمكامن لبعض الاحجار السحرية، ففي بعض الاحيان حسب دراسة روسكا يظهر لنا مؤلف كتاب الاحجار المذكور طبيا قد زاد في ذكر الاحجار التي لها تأثير طبي، وفي الاحيان الاخرى يترأى لنا كأنه مؤمن بالاعاجيب، وجمع اخبار الاحجار السحرية وغير ذلك.

berger Oberrealschule mit Realgymnasium, 9.2.1867—12.2.1949.

ر. ويندريش: يوليوس روسكا وتاريخ الكيمياء

R. Winderich: Julius Ruska und die Geschichte der Alchemie, Festgabe zu seinem 70. Geburtstage am 9. Februar 1937. Dargeboten von der Deutschen Gesellschaft für Geschichte der Medizin, Naturwissenschaft und Technik, Berlin 1937.

(٢) هى ما تسمى «هايليتاسيون» Habilitation والتي يحق لحاملها الترشيح لاستاذية الجامعة.

(١) الهدف الفأوستى: نسبة لفأوست في اثر غوته الشهير.

(٢) اتي مدين لهذا الخطاب الآتى الذكر، وذكرى مرور مائة عام على المدرسة الثانوية هايدلبرغ الذى حرره ابن علامتنا هيلموت روسكا رئيس معهد المجهر الألكترونى في جامعة دوسلدورف، وما ارسله لى ارنست روسكا رئيس معهد المجهر الألكترونى في جمعية ماكس بلانك في برلين من المعلومات:

هيلموت روسكا، ذكرى الأستاذ روسكا

Helmut Ruska, Zur Erinnerung an Prof. Dr. phil. Dr. phil. h.c. Julius Ruska, Festschrift zur 100-Jahr-Feier der Heidel-

كان روسكا يطرح دوماً على نفسه السؤال الآتي: عن أي طريق اخذ العرب علومهم؟ وكيف انتشرت كتاباتهم وخاصة في الغرب المسيحي اللاتيني الذي كان فقيراً في العلم؟ ولم تكن النتائج التي وصل إليها مرضية، بيد أنه بقي أميناً لنفسه، رغم أن في دروسه في الجامعة لم يعط إلا اللغة العربية للمبتدئين ودراسة القرآن. وكان سلفه في تدريس العلوم الشرقية كارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف، وهو الذي فهم روسكا في رسالته العلمية الجديدة واستدعاه إلى برلين ليتولى إدارة معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية وذلك في عام ١٩٢٧ والذي توسع في عام ١٩٣٠ إلى معهد البحث عن تاريخ الطب والعلوم الطبيعية تحت إدارة العلامة الكبير باول ديغن Paul Diepgen رئيس الشرف للجمعية الألمانية لتاريخ الطب والعلوم الطبيعية والصناعة والتي إلى الشرف أن يكون عضواً فيها وأن اشترك في عدة مؤتمرات لها مقدماً بحثاً تتعلق بتاريخ العلوم الطبيعية العربية.

اتصلت بهذا المعهد قبل توسعه وغالب الظن أنه كان ذلك في عام ١٩٢٩. أما الدافع لهذا الاتصال فهو الحادث الآتي: كنت أقدم فحصاً في الكيمياء غير العضوية عند الاستاذ الكبير مانيش Mannich مدير معهد الصيدلة في جامعة برلين، وفي أثناء الفحص سألتني عن أماكن وجود الحديد في العالم، وذكرت له وجوده في ألمانيا وفي أوروبا، ولما سألتني عن وجوده في البلاد العربية لم اعرف اعطاء جواب له، لأنني لم أكن على علم في ذلك الوقت، فنصحني أن اهتم أيضاً ببلادي لأن العلم الذي اتعلمه في الغرب يلزم أن تعود فائدته على بلادي أيضاً ووطنى، فذهبت ترواً إلى مكتبة الدولة في برلين في شارع «تحت ظلال الزيزفون» "Unter den Linden" وراجعت القسم الشرقي منها والفهرس العام الكبير قسم الموضوعات، فعثرت على بعض المصادر، ولما راجعتها وجدت أن قسماً كبيراً منها من جملة ما اتخذته من المصادر، الكتب العربية القديمة مثل الترشيديات، صاحب دراسة مكائن المستعدانات في العربية Walther Schmidt, Minerallagerstätten Arabiens والذي اتخذ كتاب صفة جزيرة العرب للحاني مصدراً. فقلت في نفسي إذا كان الألمان يدرسون هذه الكتب القديمة مع صعوبة اللغة العربية من أجلهم، فما أحرارنا نحن معشر العرب أن نقوم بمثل هذه الدراسة وهي مكتوبة بلغتنا وليس من الصعب علينا فهمها اليوم رغم تقادم السنين، فاتصلت بمعهد البحث بتاريخ العلوم

الطبيعية وتعرفت على الباحثة الكبير في هذا الموضوع، ورئيس المعهد يوليوس روسكا، فقدم لي عدة كتب من دراسته ودراسة غيره، وكان من جملتها دراسته القيمة عن كتاب الاحجار لارسطوطاليس، فجذبني هذه الدراسة، وفيما اذكر ايضاً، رغم مرور أكثر من أربعين سنة، باني اثناء مروري في حديقة «تيرغارتن» بعد أن قطعت شارع تحت ظلال الزيزفون اخذت اقرأ المقدمة فاستهوتني عبارات المؤلف الحكيمة فيها فاخذت متابعة قراءتها رغم أن الوقت أصبح مساء والنور ضئيلاً، ورغم تقادم العهد على مطالعتها فلا تزال ترن في أذني كأنها البارحة، وها أنا أقوم بترجمتها إلى العربية:

«ليست الاشعار البدوية ولا الأدب الذي نشأ بعد ظهور الاسلام هو الذي جعل اسم العرب لامعاً في الغرب. إذا اردنا أن نفكر بتأثير الحضارة الاسلامية في الغرب المسيحي، فيجب علينا أن نفكر في الرياضيات العربية والفلك والكيمياء والطب، تلك الفروع التي تعلم منها الغرب بجد ونشاط قروناً عديدة قبل اكتشاف العلوم اليونانية، ولا تزال كثير من التعابير العربية المتداولة تنبؤنا عن ازدهار العلوم تحت راية الاسلام، وتعلق الغرب المسيحي من الشرق الاسلامي؟» فهزنتني هذه الكلمات فاقبلت على دراسة العلوم العربية القديمة بإرشاد العلماء الألمان، وقد طلب مني الاستاذ روسكا أن اترجم كتاب احمد بن يوسف التيفاشي القيم من القرن السابع الهجري والرابع عشر الميلادي في القاهرة واصله من مدينة قفصة من أعمال تونس والذي هو بعنوان «ازهار الافكار في جواهر الاحجار»، والذي كان يوجد منه عدة مخطوطات في غوتا وبرلين والقاهرة. وكان ذلك بعد فترة تأسيس المعهد الكبير في برلين وذلك في عام ١٩٣٢ والذي أصبح يضم معهد تاريخ الطب أيضاً، ومكثت فيه حتى أواخر عام ١٩٣٣، وقمت في ترجمة كتاب التيفاشي المذكور ولا تزال الترجمة محفوظة عندي لم اجد الفرصة اللازمة في تنقيحها ووضع الشروح اللازمة ونشرها، كما قمت بعمل دراسات مطولة عن المستعدانات العربية نشرت منها بعض الفصول. ولكن بعد ذلك سافقتني الاقدار إلى جامعة بون، لأن جامعة برلين لم توافق على المزج بين العلوم الطبيعية العصرية والعلوم القديمة رغم ما بذله استاذنا رئيس قسم تاريخ العلوم الطبيعية من جهود، ولعل موت المستشرق البار الذي ذكر بيكر كان السبب في ذلك، فوافقت على هذا المزج جامعة بون، فحولت وجهي إليها، وهناك قدمت اطروحتي عن «منايع كتاب الاحجار للبيروني»،

مع مواد الفحص علم المستعدنات والعلوم الإسلامية والفلسفة، وهكذا لم أقطع صلاتي بالعلوم العصرية أبداً. عدت ثانية إلى برلين وذلك في آخر عام ١٩٣٥ واتصلت بمعهد تاريخ العلوم الطبيعية ثانية وعندما قدمت للاستاذ روسكا اطروحتي والتي فيها تعليق على كتابه الا وهو كتاب الاحجار لارسطوطاليس منأني ورحب بدراستي، وفي حقه ينطبق وما تواتر عن الامام الشافعي قوله المأثور: «إذا كنت في مجلس لا أبالي ان انطق الله الحق على لساني اولسان خصمي». اخذت بعد ذلك بدراسة مؤلفات روسكا وخاصة المتعلقة بتاريخ الكيمياء. ولقد قام هذا العلامة بكشف جديد في هذا المضمار، ففي ربيع ١٩٣١ عندما كان مقبياً في غوتينغن عثر على مخطوطة سر الاسرار للرازي، ولكن قسماً من هذه المخطوطة وترجمتها الى اللغة الالمانية لم تظهر الى النور الا في عام ١٩٣٥ العام الذي عدت فيه الى برلين، ولعل هذا الكتاب الذي اخرجته روسكا هو من اهم الاعمال التي قام بها لكشف النقاب عن تاريخ هذا العلم، لان هذا الكتاب هو كتاب تجارب محضبة بعيد عن الطلاسم والخيالات والالغاز، ولم اتوقف لدراسته نظراً لقصر المدة التي بقيتها بعد ذلك في المانيا وانشغالي في امور غير تاريخ الكيمياء وسفري ايضا الى الوطن وزيارتي مناطق اسكندنافيا، ولكني قمت بشيء من هذه الدراسة عندما القيت في معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية التابع بجامعة مونينخ في المتحف الالمانى سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الكيمياء العربية في صيف عام ١٩٦٧، بعد ان فرغت من زيارتي للمعاهد العلمية الالمانية بدعوة من التبادل الاكاديمي الالمانى في باد غوديسبرغ. وكان جل اهتمام المعهد بالمواد التي كان يعرفها الاوائل من العرب والعمليات التي قاموا بها. اما الطلاسم والسحر التي وردت عند المؤلفين القدامى فقد كان اهتمام المعهد بها قليلاً، لان هذا المعهد التابع للمتحف الالمانى المذكور يهتم بتطور العلوم من الوجهة الواقعية، اما الامور الاخرى فهي خارجة عن نطاق اختصاصه. وقد استعنت بالقاء هذه المحاضرات على دراساتي في المخطوطات القديمة ودراسات روسكا وكذلك دراسة ايلهارد ويدهمان عن الكيمياء عند العرب: Eilhard Wiedemann, Zur Chemie bei den Arabern, Beitr. z. Geschichte der Naturwissenschaften XXIV., Erlangen 1911. وما يخص تاريخ الكيمياء فقد اخرج روسكا كتابين: الاول عن مشكلة خالد بن زيد بن معاوية واشتغاله في الكيمياء وخاصة الكتاب المنسوب اليه كتاب القراطيس،

والثاني عن جعفر الصادق الامام الشيعي السادس، ففي الكتاب الاول يقول روسكا بان الانسان لا يقدر ان ينق الصلة ولا ان يثبتها والمصادر العربية هي اوثق من المصادر اليونانية، ومما يذكره رواية عن خالد، الشعر المأثور:

هو الحجر المصاب بكل ارض
وفي الاسواق تلقاه حقيراً
يضمن به الجواد على اخيه
اذا اضحى به يوماً خبيراً

اما الكتاب الثاني فينفي روسكا علاقة جعفر الصادق بالكيمياء ويعد هذا الكتاب منتحلاً ورغم كل شيء يقوم على دراسته بكل دقة وامانة ونزاهة ضمير، وتبقى جميع هذه الآثار كوثيقة هامة في تبيان العمل الجدي والدراسة المتقنة لهذا المحقق التي نحن بأمس الحاجة اليها. ومما يؤسف له حقاً ان مخطوطات جابر لم تخرج الى النور على الطريقة التي قام بها علامتنا المذكور مع الترجمة والشرح لتفتح باب البحث على مصراعيه في هذا الخصوص^(٤) لان الدلائل تشير على وجود كيمياء عربية في القرن الثاني الهجري، والثامن الميلادي رغم وجود زيادات متأخرة.^(٥)

ان الصعوبة هنا في معرفة اثر جعفر الصادق في الكيمياء، لدى دراستي الاماكن التي تنوه بجعفر في الكتب المنسوبة الى جابر تبين ان هذه النصوص ليست في العمليات الكيميائية بل بالارشادات الدينية، ولدى فحص المذهب الجعفري حسب الوثائق المتواترة عنه، نجد التوافق فيما يذكره جابر عن امامه في الارشادات الدينية فذهب جعفر^(٦).

(٤) ان ما قام به بول كراوس في اخراج مخطوطات جابر لا تتجاوز بعض منتخبات كيفية وتحتاج الى دراسات جدية، من اجل ذلك لا يمكن اعطاء الحكم النهائي الا بعد اخراج جميع المخطوطات المنسوبة لجابر على النمط الذي اخرج به روسكا مخطوطاته. اما الاحكام المنبئية على غير ذلك فلا يمكن ان تكون لها قيمة الا بعد معرفة النصوص معرفة تامة.

(٥) «راجع كتابي الامام الصادق ملهم الكيمياء» ودراساتي المنوه عنها سابقاً، وقد روى روسكا عن ابن خلدون:

«وحدث هذا العلم في الملة ... وعند ظهور الفلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحسر وظهور الخوارق على ايديهم والتصرفات في عالم العناصر وتكوين الكتب والاصطلاحات وامزاجهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبهم، وزعموا ان الكمال الاسائي مظهرة ارواح الافلاك والكواكب وان طبائع الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان من لدن الابداع الاول تنتقل في اطواره وتغرب عن اسرارها، فحدث لذلك علم اسرار الحروف وهي من تفاريع علم السيمياء».

(٦) اني لم اقل عن علاقة اكيدة بين جعفر الصادق وجابر بن حيان، بل ذكرت انها ممكنة وذلك في الارشادات الدينية، انظر كتابي الامام الصادق ملهم الكيمياء وبده الكيمياء العربية، المصادر المتقدمة، وهكذا وقع في هذا

الأرضى ليس الا صورة عالم السماء، وهنا نكون في المراكز الطبية السريانية الفارسية وفي المدن الكبيرة في الشمال والشرق من المملكة الساسانية وفي الطرقات المؤدية الى شعوب آسيا المركزية. ومن هناك كانت تنصب منذ القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي تيارات من الفلكيين والمؤمنين بالاساطير الفلكية (المنجمين) والاطباء والكيميائيين فقد كانت هذه المراكز المحرقات الفكرية للحضارة الاسلامية.

ان دراسة تاريخ النشادر افضى بعلامتنا بصورة اضطرارية الى دراسة جابر بن حيان ذلك اللغز في تاريخ الفكر الاسلامي، ففي البدء اقتصر روسكا على مطالعة ما اخرج به برتولت Bertholet من كتب السبعين المشوهة. وفي مجرى عمله استلم بناء على رجائه. من البحاثة في تاريخ الطب الاسلامي ماكس مايرهوف في القاهرة (٨) صور مخطوطات جابر التي اقلت انواراً كشافة على هذا الموضوع، وقد كانت هذه المخطوطات مشحونة بجانب المعالجات الكيميائية والصناعية بالاافكار الفلسفية، وكانت الفكرة الهامة عند جابر مشكلة العلية ويراه في فهم النظام وان الاختلافات الكيفية في الكون ترجع الى الكمية (٩).

لمعرفة دور الكيمياء في القرون الوسطى الاوربية افضى به البحث عن كتاب ما يسمى «صراع الحكماء» Turba Philosophorum والذي كان معروفاً في عالم الغرب في القرن الثاني عشر. ولكن لم يفتن احد بقيمته، ولكن روسكا برهن انه ترجمة لاصل عربي، وان الاسامي التي وردت فيه والتي كانت غير مفهومة في النقل تشير الى الاعتراف بالاسلام وذكر السورة ١١٢ من القرآن الكريم «قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد» (١٠).

لقد وجد في هذا الكتاب اسامي يونانية محرفة، وكانت بعد معرفة التشويش الذي حصل في النقل اسامي فلاسفة اليونان امثال انكسمندرس وكسينوفان وامبدوقليس وغيرهم، كما وجد بعض اسامي مستعدنات مثل غادنيا (غادمية).

(٨) عن تاريخ حياة هذا البحاثة في تاريخ الطب العربي والذي عاش في القاهرة كطبيب للعيون، وتوفي فيها عام ١٩٤٥، راجع مقال جيزلا كيرشر، «الامان وتاريخ الصيدلة العربية»، فكر وفن ١٣، ص ٥٣/٥٤. (٩) J. Ruska, Turba Philosophorum, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. und der Medizin, Bd. I, Berlin 1931.

(١٠) وقد وجد تلميذ روسكا پاول كراوس هنا افكاراً اسباعيلية، وقد قمنا في الرد عليه في كتابنا، الامام الصادق ملهم الكيمياء، المصدر المتقدم، اما بدء الكيمياء في الحضارة العربية فيلزم ان تكون قبل القرن التاسع الميلادي، انظر المصادر السابقة.

ان في اخراج كتاب الكيميائيين العرب رقم ٢ Arabische Alchemisten II, Heidelberg 1924 اي الكتاب المنسوب لجعفر الصادق سد به روسكا فراغا كبيرا، رغم انه نبي تماماً علاقة الامام بالكيمياء. ويجد روسكا الصعوبة في فهم الكيمياء القديمة لخفاها بالرموز، ولتسهيل الموضوع اخرج بالتعاون مع ايلهارد ويدهمان «الاسامي المستترة الكيميائية» J. Ruska-Eilhard Wiedemann, "Alchemistische Decknamen", Sitzungsberichte der phys.-med. Sozietät Erlangen 1924, 56 وما وجد انه يوجد للاسم الواحد عدة اسماء مستترة كالنشادر مثلاً الذي يسمى العقاب والطيخ الخراساني والملح الطائر وبصاق الاسد وغير ذلك، وكذلك الامر في الزئبق وغيره.

اثناء بحث روسكا بتاريخ النشادر وجد النص الاصيل لكتاب اللوح الزبرجدي Tabula Smaragdina والذي كان معروفاً في ترجمته اللاتينية، ويعتبر هذا الكتاب كتاباً مقدساً من اجل الكيميائيين القدامى، وان سحره لا يمكن ان يستغنى عنه اي طالب لصناعة الكيمياء. وان آخر كتاب له اثر في الاغلاق الهرمسية، ولكن هل هذا الكتاب من اصل عربي؟ وهل انتقل بعد ذلك الى اليونانية ووصل عالم الغرب عن طريق اللاتينية؟ وللد على هذا السؤال جال روسكا مسافة قرنين من الزمن في تاريخ الكيمياء ووجد ان هذا اللوح الزبرجدي في صيغته الاصلية هو ثمرة نهاية مخطوطة تبحث في الكون، وقد جاء ذكره ايضا في اسفار جابر، وينسب تفسير اسرار الخليفة وعلل الاشياء الى بليمنسوس الطواني Apollonios von Tyana (٧) ولم يعرف ان هذا العالم الفيشاغوري اشتغل بالكيمياء. اما فكرة تأثير العلويات على السفليات والكواكب فيلزم ان تكون ضمن الحضارة المصرية اليونانية، وبذلك نصل الى الفكرة القديمة بأن العالم

المعلاً «مارتين بلسنر» في مجلة المستشرقين الالمانية انظر: Martin Plessner, Gābir ibn Ḥayyān u. die Zeit der Entstehung der arab. Gābir-Schriften, ZDMG, Bd. 115, Heft 1, 1965.

(٧) ابولونيوس الطواني: عاش هذا المفكر اليوناني في عام (١٠٠ ب. م.). وقد جاء ذكره عند علماء الاحجار في ذكر علل الاحجار، راجع مقال في مجلة الحوليات الاثرية السورية، ج ١٥، ١٩٦٥.

M. Y. Haschmi, Die griechischen Quellen des Steinbuches von al-Beruni, Les Annales Archéologiques de Syrie, Damas 1965, Vol. XV, Tom II, p. Vgl. W. Windelband, Lehrbuch der Geschichte der Philosophie, Tübingen 1935, p. 179, J. Ruska, Tabula Smaragdina, Heidelberg 1926, p. 164.

— الأئمة)، بوريتيس (حجر القداح)، والسندروس (كبريت الزرنيخ) وغير ذلك. ولم يكن التفسير عن طريق الكيمياء اليونانية بل العربية، ويشير أيضا الى رموز عديدة في هذه المخطوطة وارشادات عملية عديدة. وكل هذه الدراسات هي في الحقيقة مقدمة لدراسة الرازي.

ان العمل العظيم الذي قام به روسكا في تاريخ الكيمياء العربية هو اظهار كتاب سر الاسرار للرازي الموجود بصورة مخطوطة في مكتبة غوتينغن الى ضوء النهار وترجمته الى اللغة الالمانية مع التفاسير والشروح، وبذلك يلقي انوارا كشافا على هذا الموضوع بصورة واضحة جلية. وقد كان قد انتهى روسكا من هذا السفر الكبير بصورة مخطوطة قبل سنوات من بلوغه سن السبعين وذلك في عام ١٩٣٧. ولقد تعاون كل من دار نشر يوليوس شبرنغر Julius Springer في برلين ومعهد دراسات تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في نفس المدينة لاجراء هذا السفر الرئيسي للرازي مترجماً الى اللغة الالمانية، وقد سبق ذلك مقال نشره في مجلة الاسلام الالمانية (عدد ٢٢—١٩٣٥ ص ٢٨١ — ٣٧١) بعنوان «الكيمياء عند الرازي»، وكذلك اخراج فصول ثلاثة من كتاب الرازي المذكور، وكتاب الشبوب (جمع شب) والاملاح والسفر الاساسي للكيمياء (١٠). وتكريماً لعلامتنا اخرجت دار النشر المذكورة الترجمة الالمانية الكاملة مع الشروح والتفاسير لهذا اثر عند بلوغ روسكا السبعين وذلك في عام ١٩٣٧ (١١).

ويذكر روسكا نفسه في مقدمة كتاب الرازي الاخير ما يلي: «ويظهر ان جميع مصادر الكيمياء من مواد وآلات ومنهج واعمال والمصادر اللاتينية لجيبر Geber (١٢) يمكن ارجاعها الى مصادر كتاب الرازي (سر الاسرار)».

نعم ان بعض النتائج العلمية التي اتي بها روسكا قد تبدلت اليوم، وتبين ان الكيمياء العربية هي من تاريخ اقدم

(١٠) للكيمياء اللاتينية المتأخرة. Das Buch der Alaune und Salze. Ein Grundwerk der spätlateinischen Alchemie, Berlin 1935, Verlag Chemie.

(١١) Al-Razi's Buch Geheimnis der Geheimnisse, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. u. d. Medizin, Bd. VI, 1937, Berlin, XII.

(١٢) تختلف نصوص الكيمياء في مخطوطات جابر بن حيان العربية عن ما تواتر عن جابر «جيبر» من المخطوطات اللاتينية في الكيمياء، ويرجع روسكا هذه النصوص الاخيرة للرازي. بيد ان هوليارد يشير بان مصادر جابر اللاتينية هي ليست من كتب جابر بل ما دونه الجلدكي عن جابر، راجع مقال هوليارد عن الكيمياء في القرون الوسطى الاسلامية، اطروحة التليمي المقدمة لجامعة لندن ١٩٥٤.

E. J. Holmyard, Alchemy in medieval Islam, Endeavour, Vol. XV, 55, July 1955. M. Taslimi (Jildaki) Thesis aproved for the Ph. D. degree University of London 1954.

ما كان يظن، حتى انه من المحتمل ان تكون شخصية جابر شخصية حقيقية عاشت في ذلك الزمن المتواتر الى القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، نظرا للمخطوطات العديدة المكتشفة حديثاً (١٣). حتى ان انتحال كتاب ارسطوطاليس قد عرفه محمد بن احمد البيروني من القرن العاشر والحادى عشر الميلادي، اذ يقول في كتابه الجواهر في معرفة الجواهر (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ) ص ٤١: «وفي كتاب الاحجار المنسوب الى ارسطوطاليس (فما اظنه الا منحولا عليه) انه ربما اتفق في الباقوت نكتة فاضلة الحمرة على سائرهما فاذا نفخ عليه في النار انبسطت النكتة فيه فزادته حسنا وان كانت سوداء ذهبت بعض سوادها». وهذا النص مع بعض الاختلافات موجود ايضا في كتاب الاحجار لارسطوطاليس الذي نشره وترجمه روسكا (ص ٩٩، ١٣٥) (١٤). وهناك في الحقيقة بعض المناسبات بينما تواتر عن ارسطوطاليس الفيلسوف المعروف وكتاب الاحجار المتحلل له. ان النتائج متبدلة دوماً، ولكن البحث العلمي التزيه باق الى الأبد، ويقيم هذا لروسكا وامثاله نصبا تذكاريّاً خالداً لا يقضى عليه تعاقب الايام ومر الاعوام، وينطبق هنا وما تواتر عن الشاعر الالماني ليسنغ، Lessing:

«لا ينحصر فضل الانسان في امتلاكه للحقيقة... وانما فضله في الجهد الذي يبذله مخلصاً في السعى اليها، ولا تنمو ملكات الانسان بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، وكماله المتزايد ينحصر في هذا وحده، بل ان امتلاك الانسان للشيء يميل به الى الركود والكسل والغرور. ولو ان الله وضع الحقائق كلها في يمينه ووضع في شماله شوقنا المستمر اليها وان اخطأناها دائماً ثم خيرني لسارعت الى اختيار ما في شماله، وقلت — يا ابانا؟ رحمتك، ان الحق الخالص لك وحدك.» وهذا يوافق دعاء المسلمين في صلواتهم من سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم»، ويؤثر عن محمد اقبال في هذا الصدد قوله: «اني اضحي باليقين المطلق في سبيل الشك لأني شهيد البحث».

بقيت علينا ناحية واحدة لا بد لنا في ختام ذكرى هذه الشخصية الفذة من التنويه بها الا وهي تربية اولاده، فيقول عنه ابنه هيلموت ما يلي (١٥).

(١٣) Fuad Sezgin (Frankfurt/M), Das Problem des Ġābir ibn Ḥayyān im Lichte neu gefundener Handschriften, ZDMG, 114, 1954, S. 255—68.

(١٤) راجع مقال عن المصادر اليونانية البيروني، المصدر المتقدم (مجلة الحوليات الأثرية السورية).

(١٥) ذكرى روسكا، المصدر المتقدم. (هيلموت روسكا)

«لقد كان ابونا الكثير الانشغال، من اجلنا نحن الاولاد غرقاً في غرفة دراسته، ورغم ذلك فقد كنا نقوم بصحبته بالنزهة في ايام الاحاد وفي العطلات بصورة كافية، وكذلك كنا نجرى بعض المباحثات في الجيولوجيا وعلم المستعدنات والنبات، وكان التاريخ وما قبل التاريخ من المواضيع المحببة اليينا. اما قيام والدنا في مراقبة بعض الواجبات المدرسية فلم تكن محببة لدينا. وكانت تثار في بعض الاحيان بيني وبين اخي مناقشات حادة، ولكن وجودنا حول طاولة الدراسة للوالد كانت تسكن من حدة هذا التوتر وتهدئ الزوبعة الفكرية. وفي مقال نشره والدنا عن العيد المثوى لتأسيس المدرسة (في هايدلبرغ) ذكر انه استعمل المجهر المبعد في احدى خزائن المدرسة. ولم تتح لي الفرصة بالقيام بالتجارب المكروسكوبية مع والدي، ولكن الاستاذ لايبير Leiber دربنا على تمارين فحص الانسجة والخلايا لاداء الفحص التهيدي للطب. وعندما اظهرت لوالدي رغبتي للحصول على مجهر حقيقى لي هذه الرغبة على الفور. وبعد عشر سنوات من ذلك كنت اتمرن على المجهر الالكتروني لاخى ارنست Ernst ولصهرنا بودوفون بوريس Bodo von Borries في مختبرات سيمنس هالسكه (الشركة المساهمة) Siemens-Halske AG. للفحص الحيائى.» ثم يتابع قوله: «هناك شكايات عديدة من اجل اصلاح المدارس، وكان والدي من اولئك المصلحين، وكان يتطلب ثقافة في العلوم الطبيعية في المدارس بصورة كافية، رغم انه كان من المنتمين الى الثقافة الانسانية (للاوائل)، والتاريخ، وعلم اللغات (بجانب العلوم الطبيعية)، وكان على يقين بان المواهب النادرة في جميع الفروع لابد من ان تتقدمها ثقافات في العلوم الطبيعية المحضة. لقد تعلمنا في البيت احترام المدرسة وجهود المعلم، ولقد تربينا على ان نكون بنشاط دائم للقيام باعمال فريدة داخل المدرسة وخارجها، وكان والدي يعطى الحرية لنا في اختيار الاختصاص الذي كنا نصلو اليه، وان لم تكن هناك وظيفة براتب تداعب خواطرنا. تربينا ايضا على لزوم التعاون بين البيت والمدرسة، ونعترف بدفع مواهبنا الى الامام بدءاً من المدرسة حتى الى المواقف

الحاسمة في تقدم الحياة، وان تنفيذ مثل هذه الامور بحكمة وروية هي من الواجبات الاولى للمجتمعات الانسانية». ان فكرة الدقة هذه اورثها يوليوس روسكا لابنيه كل من ارنست واخيه الاصغر هيلموت، فاصبح الاول اليوم مدير معهد المجهر الالكتروني في جمعية ماكس بلانك (٢٠) في برلين والثاني مدير معهد الفيزياء الحياتية والمجهر الالكتروني في جامعة دوسلدورف. وليست هذه المرة الاولى التي توظف العلوم الفكرية البحتة العلوم الايجابية الحديثة، فلقد تقدمتها ايضا جهود سابقة، فاذا كانت جهود روسكا مزيجا من العلوم الايجابية والفكرية، فهناك ممن كانوا من العلوم الفكرية المحضة وكانوا مع ذلك السبب في تقدم العلوم الواقعية، فان الباعث على تشكيل جمعية الامبراطور ويلهيلم والتي اصبحت فيما بعد جمعية ماكس بلانك هو ويلهيلم فون هومبولدت الديبلوماسي والعالم اللغوي والمزني الكبير، وان اول رئيس لهذه الجمعية كان العالم اللاهوتي ادولف فون هارناك Adolf von Harnack ومع ذلك فقد كانت هذه الجمعية الباعثة على تقدم العلوم الايجابية بصورة مثالية.

يجدر بنا ان نختم ذكرنا لعلامتنا يوليوس روسكا بكلمة للجاحظ، ذكرتها ايضا في ختام محاضرتي عن علم الحياة عند الجاحظ في مؤتمر تاريخ الطب الدولي العشرين الذي انعقد في برلين، (١٦) تعبيراً عن التقدم المستمر الى الامام: «ينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على اننا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا».

هكذا انغمض هذا العالم النحرير والمدقق القدير عينيه في الثاني عشر من شباط عام ١٩٤٩ الى الراحة الأبدية. ويصادف الآن مرور احدى وعشرين عاما على وفاته، ولكنه سيبقى خالدا الى الاجيال القادمة طالما هناك دراسات جديدة في تاريخ العلوم العربية.

(١٦) عام ١٩٦٦.

Biologie bei al-Dschahiz, einem arabischen Naturphilosophen aus dem IX. Jahrhundert.

ولقد نشرت هذه المحاضرة ايضا باللغة العربية فقط. المجلس الأعلى للعلوم في أسبوع العلم التاسع (مهرجان الجاحظ) دمشق ١٩٦٨.

كارل بروكلمان

(١٨٦٨ - ١٩٥٦)

بقلم : الأستاذ يوهان فولك

الذي كان قد ألف كتاب قواعد لتاريخ لهجة مكلنبورغ أثار حماس بروكلمان الشديد لدراسة الألمانية السفلى، بحيث ظل طيلة حياته يتابع باهتمام شديد مراحل التقدم في هذا الحقل. ومع هذا الحب الشديد للوطن كان يتمتع بحب غريب للاقطار البعيدة كانت تغذيه قصص الرحلات الاستكشافية في اجزاء العالم المجهولة بحيث نشأت في نفس الصبي رغبة ملحة في أن يجوب العالم سواء كطبيب بحري أو مترجم أو مبشر. وكان هذا هو الدافع الذي حدا به إلى الاستماع إلى درس العبرية الذي كان يعطيه نيرغر؛ وقد ذكر بافتخار أنه استطاع في امتحان الشهادة الثانوية النهائي أن يترجم مقطعاً غير مشكل من سفر عاموس (العهد القديم) دون أى إعداد سابق. وتعرف في المدرسة أيضاً إلى لغة الكتاب المقدس الآرامية وإلى السريانية كذلك. وحين التحق بجامعة روستوك بعد عيد الفصح عام ١٨٨٦ قرر أن يدرس اللغات الكلاسيكية والتاريخ إلى جانب الاستشراق. وكان مدخله إلى العربية والآثورية والقواعد المقارنة للغات السامية على يدى المستشرق فريدريش فيلهلم مارتن فيلبي، F. W. M. Philippi. وبدافع من فيلبي ذهب بعد عيد الفصح من عام ١٨٨٧ إلى بريسلاو للدراسة على فرانز بريكتوروس Franz Praetorius الذي كان عالماً ممتازاً بلغات الحبشة. ودرسه زيجموند فرنيكل S. Fraenkel لغة التلمود. وراح يدرس اللغة التركية التي كان تدريسها لا يزال نادراً في ألمانيا، راح يدرسها لوحده.

وحسب نصيحة فيلبي وبريتوريوس مضى بروكلمان في عام ١٨٨٨ إلى ستراسبورغ للدراسة على يدى تيودور نولديكه. وإلى جانب ذلك راح يدرس السنسكريتية والأرمنية لدى عالم اللغات الإندو - جرمانية هاينريش هوبشمان Heinrich Hübschmann. وجذبته كذلك دراسة الحضارة المصرية القديمة فراح يحضر محاضرات دوميشن Dümichen، الذي كان عالم آثار بالدرجة الأولى

لم يكن من طبع بروكلمان أن يثير ضجة كبيرة حول نفسه وأعماله، فعندما احتفلت جامعة هاله عام ١٩٤٨ بعيد ميلاده الثمانين وذكرت في تهنيتها له جليل أعماله في خدمة الاستشراق، أجاب مذكراً الحاضرين أن مصير جميع الابحاث العلمية أن يتفوق عليها تقدم المعرفة العلمية وقال إن العادة هي أنه بعد مرور خمسين عاماً على وفاة الباحث يصبح كل ما كان صحيحاً ثابتاً من أبحاثه تراثاً عاماً للبحث العلمى، بينما تذهب أخطاؤه ضحية للنسيان. إن مثل هذا رأى يبدو مفاجئاً حين ينطق به رجل أغدق عليه بالوافر الكثير من آيات التقدير والاعتبار - فقد كان عضواً شرف في جمعية المستشرقين الألمانية والجمعية الآسيوية الملكية والجمعية الآسيوية والجمعية الشرقية الأمريكية والجمعية اللغوية الأمريكية، كما كان عضواً نظامياً في أكاديمية العلوم السكسونية، وعضواً مراسلاً لسلسلة من الاكاديميات والجمعيات العلمية، ومنح عام ١٩٥١ الجائزة الوطنية من المرتبة الأولى - ومع ذلك فإن رأيه ذلك كان مميزاً للموضوعية الصافية الحالية من أى وهم التي كان بروكلمان ينظر بها لأعماله الخاصة والأعمال غيره أيضاً. ولذا فن الضرورى لكى نفهم قوة فاعليته أن ننسبه دوماً للعلاقة الداخلية التي كانت تربط عمله الفردى بكل مستوى من مستويات البحث العلمى، وخاصة أنه شهد ثلاثة أعمار بشرية تقريباً وأنه كان منذ الثمانينات شاهداً على الازدهار الكبير الذى مر به الاستشراق.

ولد بروكلمان في السابع عشر من سبتمبر من عام ١٨٦٨ لعائلة ميسورة معتبرة. من طبقة التجار في مدينة روستوك. وقد أعزى ميوله العلمية لأمه، التي كانت امرأة خصبة الفكر عرفته بكنوز الأدب الألماني. وظهرت موهبته للغات بسرعة في المدرسة الثانوية ولاقى تشجيعاً خاصاً من مدرس علم اللغة الألمانية ك. نيرغر K. Nerger. وأثار نيرغر،

37. 1. 1857
 الى العلامة الجليلي صلاح الدين المنجد
 سيدي العرش بعد التحيات والاعتزاز فقد تفضلتم
 برسالي كتاب فضائل الشام وذمتي للرب وقد عنيتم
 بتحقيقه ونشره فابتدأت بقراءته واستفدت من
 اعلايته الهمة فتفضلوا بقبول شكري على المنحة
 الجليلة على اصحاب العلوم العربية وذمتهم بالخير
 المخلص
 Brockmann

Halle p. H. Liebknecht 18. 1. 57

العلامة صلاح الدين المنجد
 تحيات طيبات
 واشكركم خالص الشكر على انكم انبأتموني بوصول كتابي
 الاستاذين الجليلين محمد كرد علي في المذكرات واحد
 امين في حياتي فاني ما يتهاد الي الان كالكثير الكتب الجديدة
 الخارجة عن المطابع المصرية والشامية وغرها استميت ان اقرأها
 واصيف بضعة اسطر عنهما الى دراستي في التراجيع الشخصية
 حسب العرب فان تفضلتم برساليهما الى شكرتكم خالص الشكر
 فدمتم بخير وتقبلوا خالص الاعتزاز
 المخلص
 Brockmann.



Carl Brodermann

المستشرق كارل بروكلمان

اشياء كثيرة لا تهم أغلب المحتاجين له ولا تفيدهم. وفي فترة قصيرة جداً لا تتجاوز الثلاثة أعوام استخرج بروكلمان مفردات «بيشتا» و «أفرا» و «أفريم» وراح يقرأ نصوصاً كثيرة غيرها ليتم عمله. وتكسب الشروح والتعليقات هذا المؤلف قيمة خاصة حيث أنها تستند جميعاً إلى جمع من عمل المؤلف الخاص. وظهرت ميوله اللغوية في بعض الإشارات الخاصة بتاريخ المفردات وتطورها. وفوق ذلك فقد أفرّد فهرساً لاتينياً سريانياً. وساهم كل ذلك في تفضيل الكتاب من الناحية العلمية على قاموس J. Bruns, Dictionarium Syriaco-Latinum الذي صدر في الفترة نفسها في بيروت.

وقبل أن يطبع المعجم السرياني Lexicon Syriacum في شهر شباط من عام ١٨٩٥ طلب إدوارد زاخاو Eduard Sachau من بروكلمان أن يساهم في العمل على مؤلف ابن سعد الضخم وأن يسافر إلى لندن واستانبول لدراسة المخطوطات المتعلقة بذلك. وهكذا سافر في شهر اغسطس عام ١٨٩٥ إلى لندن وانتقل من هناك في شهر سبتمبر إلى باريس ومرسيليه وأثينا وأزمير ومن ثم إلى

بحيث أهمل علم اللغة. وقد أسف بروكلمان كثيراً لعدم عثوره على استاذ قدير في هذا الحقل، إذ أن العلاقات القائمة بين اللغات السامية ولغات شرق وشمال أفريقيا ظلت تشغله طيلة حياته. واشترك كذلك بتأريين قراءة النقوش التي كان يديرها مدير مكتبة جامعة ستراسبورغ فيما بعد، يوليوس أويتينغ Julius Euting، الذي كان أحسن عارف بتاريخ الكتابة السامية وخيراً ممناً بالنقوش.

وفي شتاء عام ١٨٨٩ وضع نولده مسابقة كان الواجب فيها دراسة العلاقة بين «الكامل» لابن الاثير و«أنخبار الرسل والملوك» للطبري. واستطاع بروكلمان أن يحل هذه المسألة ونال في التاسع من ابريل عام ١٨٩٠ درجة الدكتوراة في الفلسفة. وبعد ذلك بقليل فاز في امتحان الدولة — وكان قد حضر في ستراسبورغ كذلك محاضرات عالمي اللغات الكلاسيكية ليو Leo وكايبيل Kaibel، وعالم الآثار ا. ميشائيلس A. Michaelis، والمؤرخين ك. ي. نويمان K. J. Neumann وپاول شيفر-بوشورست Paul Scheffer-Boichorst وباومغارتن Baumgarten وكذلك الفيلسوف فندلباند Windelband، وبدأ يعمل منذ اول اكتوبر في المدرسة الثانوية الانجيلية في ستراسبورغ كمساعد مدرس. وإلى جانب ذلك واصل دراساته العربية ونشر عام ١٨٩١ بدافع من نولده الترجمة الألمانية للجزء الاول من ديوان لبيد التي أتمها انطون هوبر Anton Huber قبل وفاته المبكرة، ثم أصدر الجزء الثاني من الديوان بالمتن والترجمة استناداً إلى العمل التحضيري الذي كان قد أعده هوبر وهانريش ثوريكه H. Thorbecke.

ولم يدم عمله في المدرسة الانجيلية طويلاً؛ وبما أنه لم يكن يرغب في العمل في مدرسة خارج ستراسبورغ، فقد قرر العمل في التدريس الجامعي، فذهب في نهاية عام ١٨٩٢ إلى بريسلاو وحصل على درجة الكفاءة للتدريس الجامعي في ١٨٩٣/١/٢٨ بدراسة تاريخية أدبية عن مؤلف ابن الجوزي التاريخي.

وفي هذه الأثناء كان بروكلمان قد جمع بنشاط كبير مادة لأول مؤلف كبير له وهو المعجم السرياني Lexicon Syriacum. وكان تأليف قاموس للسريانية آنذاك مهمة مطلوبة: فقد كان المعجم السرياني لكاستيلوس Castellus المطبوع عام ١٧٨٨ قد نفذ منذ زمن طويل وأصبح قديماً، كما أن معجم المفردات السريانية Thesaurus Syriacus الذي كان في سبيله إلى الطباعة منذ عام ١٨٦٨ لمؤلفه ر. بين سميث R. Payne Smith، كان يحتوي

استانبول حيث امضى الشتاء هناك. ولم يقم بتنفيذ ما كلف به فحسب، وإنما نقل نسخة من عيون الاخبار لابن قتبية وأخذها معه. وفي نهاية شباط (فبراير) عام ١٨٩٦ عاد بطريق البر إلى بريسلاو.

واهتمت أكاديمية برلين بطباعة مؤلف ابن سعد، وظهر المجلد الثامن الذى اشتغل عليه بروكلمان عام ١٩٠٤. أما أمر إصدار نسخة عيون الاخبار فقد كان عليه أن يتعهد به بنفسه ووجد في شخص E. Felber في فيلبر ناشرًا كان مستعداً للقيام بتكاليف النشر إذا ما ترك له بروكلمان في الوقت نفسه أمر كتاب آخر كان تصريفه يعد بأكثر من مثل هذا المثل العربى الذى لن يتم إلا عدداً قليلاً من المكتبات والاختصاصيين. وكان هذا هو الدافع الخارجى لتأليف ذلك الكتاب الذى اعتمدت عليه شهرة بروكلمان العالمية وهو تاريخ الأدب العربى *Geschichte der arabischen Literatur (GAL)*. وكان قد رسم الخطة لتأليف ذلك العمل منذ زمن طويل. وكان يعلم أنه كان من المستحيل إزاء المستوى الذى بلغه البحث العلمى آنذاك أن يتمكن المرء من عرض مجرى التطور الداخلى للأدب العربى والمؤلفات العربية؛ ومع ذلك فقد كان عدد النصوص المطبوعة بمقارنتها بمجموع المؤلفات العربية عموماً ضئيل لا يذكر، والأقل من ذلك هو عدد تلك المؤلفات التى جرى تحقيقها ودراستها فعلاً. وإلى جانب ذلك ظهر بغضه لجميع المؤلفات المتعلقة بتاريخ الأفكار التى تقتقر إلى الأساس اللغوى الثابت. وهكذا فقد قرر كشرط لا غنى عنه لجميع الأبحاث والدراسات المقبلة للأدب العربى والمؤلفات العربية أن يقدم عرضاً كاملاً لجميع المؤلفات الإسلامية باللغة العربية المتوفرة حتى الآن مع استبعاد المؤلفات الصادرة باسماء مغللة والتى لا تحمل تاريخاً لتأليفها، مع اثبات جميع المخطوطات والمطبوعات وتبيان أماكنها واعطاء نبذات مختصرة عن سير مؤلفيها. وفى عام ١٨٩٧ صدر النصف الأول من المجلد الأول، وفى عام ١٨٩٨ تلاه النصف الثانى، وفى ١٩٠٢ صدر المجلد الثانى وتم المؤلف بذلك.

إن ما مكن بروكلمان من القيام بهذا المشروع الهائل وتنفيذه حسب خطة مدروسة وفى حدود ما يمكن تحقيقه عملياً هو ذاكرته الممتازة التى كانت تحفظ بأمانة كل ما كان يقرأ — وكان يقرأ كثيراً وبسرعة —، ويضاف إلى ذلك قدرته على التنظيم والتنسيق التى كانت تحيل التفاصيل الكثيرة المتجمعة إلى كل معقول، وأخيراً فإن

الفضل فى ذلك يعود كذلك إلى براعته وموهبته فى التعبير عن افكاره بعبارات سلسة دون عناء وفى سبيلة بحيث كانت المسودة التى يخطها تصلح فى الغالب للطبع مباشرة. وبذلك كان يعتمد أثناء تأليفه ذلك العمل الجبار على ذاكرته إلى حد بعيد؛ وما كان بوسعه أن يعمل بسرعة لو أراد أن يتحقق ويفحص كل دقيقة وكل تفصيل على حدة، بغض النظر عن أن كثيراً من المصادر التى كان يستقى معلوماته منها لم تكن متوفرة دوماً بين يديه. ومن الطبيعى أنه لم يكن بالوسع تجنب الاخطاء والسهو فى مثل طريقة العمل هذه على كتاب يزخر بالأسماء والسنوات والأرقام، بحيث أن بروكلمان نفسه أدرك ذلك وكان ممناً لكل تصحيح. ولكن أهمية عمله الحقيقية لم تتأثر بهذه النواقص مهما بلغ مدى تشويشها على القارئ، إذ أن تقديم عرض لحقل كان يشبه حتى ذلك الحين أدغالا كثيفة لا يمكن اختراقها لم يكن يتوقف على التفاصيل الصغيرة، وقد أحسن بروكلمان باهماله أولئك النقاد الذين أرادوا أن يقيسوا هذا العمل الجبار بنفس المقياس الدقيق الذى تقاس به مقالة علمية. ومن الطبيعى أن نصف المجلد الأول الذى تناول الفترات المعروفة جيداً من الأدب والتأليف العربى كان أبعد من أن يكون ملائماً لتوضيح فكرة هذا الكتاب، بحيث أن النقاد الحسنى النوايا لم يستطيعوا أن يولوه التقدير الصحيح. ولكن عندما صدر تاريخ الأدب العربى (GAL) بكامله أصبح فوراً أداة لا يستغنى عنها لكل مستشرق مهتم بالعربية.

وفى ربيع عام ١٩٠٠ استحضر زاخاو Sachau بروكلمان كمدرس للعربية فى معهد اللغات الشرقية فى برلين. وكان عليه أن يدرس هنا اللهجة المغربية بدلا من أغوست فيشر August Fischer الذى استدعى إلى لايبزغ، واستطاع بروكلمان القيام بدراسات عملية فى اللهجة المغربية مع المحاضر الظلالى من الرباط. وفى صيف العام نفسه أصبح استاذاً خارج الملاك فى إيرلانجن على إثر وفاة لودفيج آبل Ludwig Abel، وقدم له على إثر ذلك أيضاً منصب استاذ خارج الملاك فى بريسلاو على إثر انتقال ه. تزيمر H. Zimmer إلى لايبزغ، فأختار بريسلاو.

وكان بروكلمان يدرك دوماً واجب تيسير نتائج العلوم والأبحاث للقراء غير الاختصاصيين بلغة مفهومة وسهلة. وهكذا فقد قدم فى المجلد الأول من مؤلفه الجامع: «آداب الشرق ١٩٠١» *Die Literaturen des Ostens*، «تاريخ الادب العربى» *Geschichte der arabischen Literatur* وذلك بصيغة مختصرة، وقد أعيد طبعها للمرة الثانية

Bibliothèque Asiatique N. 9. 12/15
 Faridoun K. 12/15
 a comprehensive index of persons
 the ... and the ...
 of ...
 ...
 ...
 ...

ملحوظة دونها الأستاذ بروكلمان.
 وأرسل الأستاذ أنطون شبيتالر (جامعة ميونيخ) مشكوراً صورتها الأصلية إلينا مزودة بامضاء بروكلمان المنشور على ص ٨٧.

بالدرجة الأولى في بحث اللغات المفردة كل على حدة،
 بينما كانت الدراسات التي تتناول جميع اللغات أو عدة
 لغات، كأبحاث باول دي لا جارد P. de Lagarde وى.
 بارت J. Barth مثلاً، كانت لا تزال تخضع لتصورات
 فلسفة لغوية رومانتيكية تسعى إلى الاستدلال على المعاني
 الأصلية لأشكال الكلمة بطرق منطقية شكلية. أما بروكلمان
 فقد استخدم الطريقة التاريخية اللغوية لأول مرة بشكل
 منظم في دراسة جميع اللغات واللهجات السامية، بالقدر
 الذي كانت معروفة فيه آنذاك، وعرض في موجزه الخالد
 مادة زاخرة وشواهد كثيرة عرضت بتنسيق وشرحت شرحاً
 يعتمد على طريقة علمية منظمة. وتجنب بكثير من الموضوعية
 أى تحيزات قد تفرغ إليها عقيدة عدم الشواذ في القوانين
 الصوتية ونظرية التطور التي تستند إلى التصورات البيولوجية،
 ووصف في عصر كان النزاع في اللغات الإندو جرمانية على
 أشده فيه حول ما يدعى بالوطن الأصلي للإندو جرمانيين،
 وصف محاولة إعادة تركيب لغة أصلية كشبح وهمي لم يعد
 العلماء والباحثون الحقيقيون يسعون جادين في البحث عنه.
 إن ما أثار اهتمامه هو بالذات كان مجرد تطور وصيرورة
 كل من اللغات في وضعها التاريخي، فكان يرى من
 الضرورة لهذا السبب فقط أن يستعين بالاصطلاحات
 القرينة من اللغة المدروسة لغرض المقارنة، لأنه لا يمكن
 أن تجعل لغة ما مفهومة من خلال عباراتها وحدها فقط
 ودون الاستعانة بغيرها ولأن قوانين تطور اللغات في الأزمنة
 التاريخية ظلت ثابتة لم تتغير. وكان بروكلمان يدرك أن
 موجزه لا يستطيع أن يعطى جواباً ثابتاً لجميع الأسئلة
 المطروحة، وصرح إنه لن يسعده شيء أكثر من إصدار
 طبعة ثانية من هذا الكتاب بعد تنقيحه من أساسه. ولكن

عام ١٩٠٩. وقد أوحى إليه باصدار «تاريخ الآداب
 المسيحية في الشرق» „Geschichte der christlichen
 Literatures des Orients“ في المجلد السابع من السلسلة
 نفسها، وعالج فيه الأدب السرياني والمسيحي العربي.
 وقد سعى بعد ذلك إلى وصف المجموعة الصغيرة من
 المخطوطات الشرقية في مكتبة مدينة بريسلاو في «فهرس» خاص
 عام ١٩٠٣. وفعل الشيء نفسه في الاعوام القادمة بالنسبة
 لمجموعة المخطوطات الشرقية الأكثر أهمية في مكتبة هامبورغ.
 وفي ربيع عام ١٩٠٣ استدعى بروكلمان ليحتل مقعد الاستاذية
 النظامي في كونيجسبرج Königsberg بعد أن أصبح خالياً
 بسبب استقالة جوستاف يان G. Jahn. وهنا ألف ذلك
 العمل الذي يعتبر أكثر أعماله أصالة والذي كان أحب
 أعماله جميعاً إلى نفسه وهو: «موجز قواعد اللغات السامية
 المقارنة» Grundriß der vergleichenden Grammatik
 der semitischen Sprachen. (2 Bde, 1907—13)
 وكان قد تعرف على يدى هوبشمان على طرق البحث
 الخاصة بالوضعية التاريخية اللغوية، التي أصبحت سائدة
 دون منازع منذ نشوب النزاع بين علماء اللغة الشباب
 في حق اللغات الإندو جرمانية. وقد وجدت هذه النظرية
 التاريخية اللغوية أن طبيعة اللغة تكمن في عملية النطق
 الفردية وفسرت العلاقات القائمة بين اللغات المتقاربة
 بافتراض أن أصوات اللغة الأصلية قد تطورت ضمن
 لهجة معينة وخلال عصر لغوي معين حسب قوانين صوتية
 ثابتة لا شواذ لها، وأن الشواذ الظاهرة للقوانين الصوتية
 المفترضة يجب أن تفهم على أساس أنها تراكييب قياسية
 تعتمد على التداعى السيكلوجي لمعاني الكلمات. وقد
 طبقت هذه النظرية التاريخية اللغوية في اللغات السامية

هذا الأمل لم يتحقق، إلا أنه كان يسجل دون كلل جميع ملاحظاته وتصحيحاته في نسخته اليدوية، تلك التصحيحات والملاحظات التي بدت له ضرورية لإصدار طبعة جديدة منقحة؛ وتشير مقالاته حول المسائل المتنازع عليها في اللغات السامية واشتقاقاته المصرية السامية وتقريراته للكتب أنه كان مطلعاً على التقدم في علم اللغات وأنه كان يسعى إلى السير خطوة خطوة مع هذا التطور والتقدم. ولذا فقد كان يتمتع في دوائر علماء اللغة أيضاً باعتبار كبير؛ وقد دعى للاشتراك في المؤتمر الخاص بالتسجيل الصوتي والكتابة الصوتية الذي عقد في إبريل عام ١٩٢٥ في كوبنهاغن، كما أنه مثل ألمانيا عدة أعوام في لجنة اللغويين الدولية الدائمة (CIPI).

وإلى جانب الموجز، فقد ألف بروكلمان في موجز قواعد اللغات السامية المقارنة في *Porta linguarum orientalium* (Bd. 21) عام ١٩٠٨ كتاباً تعليمياً عالج فيه علم الأصوات وقواعد الصرف واقتطف الشواهد والأمثلة فيه من اللغات الأدبية. وفي عام ١٩٠٦ كان قد عرض أهم الحقائق المتعلقة باللغات السامية في كتيب صغير من دار Göschel بصورة واضحة ومفهومة تحت عنوان «علم اللغات السامية» *Semitische Sprachwissenschaft*. وقام ويليام مارسيس *William Marçais* ومارسيل كوهين *Marcel Cohen* عام ١٩١٠ بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وإعداده ليتلاءم وحاجات الدارسين الفرنسيين الخاصة، كما أن النسخة الألمانية أعيد طبعها مرة ثانية عام ١٩١٦. وفي العشر سنوات الأخيرة من عمره قام بروكلمان بتحرير طبعة جديدة تتلاءم ومستوى البحث العلمي الحاضر، وأراد أن يراعى اللغة الأوغارية بالدرجة الأولى؛ إلا أن مشروعه هذا لم يتحقق.

ولتفهم المسائل التاريخية اللغوية فقد اعتبر بروكلمان اللغة السريانية ذات ملاءمة خاصة بين اللغات السامية الكلاسيكية. ولذا فقد عالج في قواعد اللغة السريانية الذي صدر في بادئ الأمر عام ١٨٩٩، عالج قواعد الأصوات بتفصيل خاص ثم كان يعود إليها دوماً أثناء علاجه لقواعد الصرف لإيضاح خصائص التراكيب الصرفية على ضوء التطور التاريخي اللغوي. ومن الطبيعي أن عدداً كبيراً من القراء الذين كانوا يتعلمون السريانية لأهمية أدبها بالنسبة لتاريخ الكنيسة فقط كانوا على استعداد للاستغناء عن التفسيرات اللغوية العلمية، إلا أن بروكلمان رفض كلياً فكرة تأليف كتاب للقواعد من وجهات نظر عملية تطبيقية خالصة. ومن الجهة الأخرى فقد كان

يحسب منذ البداية حساباً خاصاً لرغبات الدارسين اللاهوتيين بحيث جمع في منتخبات القراءة التي تمثل النواة الحقيقية لكتابه والتي اختيرت من الأدب الكلاسيكي فقط لأسباب تاريخية لغوية، لقد جمع نصوصاً تبين تطور الكنيسة السريانية من البداية حتى الانشقاق. وهكذا انتشر الكتاب بسرعة ومرت حتى عام ١٩٥١ بخمس طبعات ونقل معارف طريقة البحث التاريخية اللغوية حتى إلى الدوائر البعيدة عن علوم اللغة.

واتيحت له فرصة استخدام الطريقة نفسها بالنسبة للغة العربية عندما كلفته هيئة *Porta linguarum orientalium* إعادة تنقيح كتاب ألبرت سوسين *Albert Socin* في قواعد اللغة العربية (ابتداء من الطبعة الخامسة عام ١٩٠٤). ومنذ الطبعة السادسة قدم قسماً خاصاً حول قواعد الاصوات كان يعود إليه دوماً في القسم الخاص بقواعد الصرف. وأزال القطع التي وضعت لترجمتها إلى الألمانية لاعتقاده بأن مثل هذه القطع تلائم قواعد للمحادثة ولكنها لا تتناسب وعرضاً للغة الأدبية الكلاسيكية. ولهذا السبب نفسه فقد قاوم فكرة تقسيم المادة إلى دروس صغيرة حسب وجهات نظر عملية تطبيقية. وكسب الكتاب بين يديه شيئاً فشيئاً طابع القواعد العلمية. وابتداء من الطبعة الحادية عشرة (١٩٤١) أخذ الكتاب يحمل اسمه وبثلاث عشرة طبعة بلغ الكتاب شهرة وانتشاراً لم يحققهما أى كتاب آخر من هيئة *Porta linguarum orientalium* ومع أن بروكلمان لم يكتب قواعد صوتية وصرفية للغة العبرية إلا أنه عقد عشرات المرات حلقات دراسية للتمرّن على القواعد العلمية للغة العبرية لتعريف طلاب اللاهوت بالدرجة الأولى على طرق بحث اللغات السامية المقارنة التي لم يتوقف عن نشرها قط والتي كان يحزن لإهمالها في الجامعات الألمانية.

وفي صيف عام ١٩٠٩ توفي زيجموند فريبنكل *Sigmund Fraenkel* في بريسلو. وعاد سلفه پريتوريوس *Practorius*، الذي كان قد استدعى إلى هاله عام ١٨٩٣، عاد الآن إلى جامعة بريسلو. وبذلك أصبح المقعد الجامعي في هاله خالياً. وقدم لبروكلمان الذي قبله بسرور وخاصة أن مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية ستقدم له امكانيات دراسية أفضل وأوسع. وفوق ذلك فقد كان قد تزوج عام ١٩٠٩ ولم تكن زوجته قادرة على تحمل مناخ كونغسبرغ. وفي هاله أنهى موجزه، الذي ظهر قسمه الثاني الذي يتناول علم الإعراب وتركيب الكلام ما بين ١٩١١ و١٩١٣. وفوق ذلك راح يحضر

الطبعة الثانية من معجمه السرياني. إلا أن الحرب العالمية الأولى أعاقَت العمل كثيراً؛ وظلت طبعات النصوص الصادرة في الخارج بعيدة عن متناول يده وبدأت تجد طريقها بعد الحرب تدريجياً إلى المكتبات الألمانية. ورغم أن طباعة المعجم بدأت فعلاً عام ١٩١٨ وأمكن تقديم القسم الأول عام ١٩٢٣، إلا أن المعجم لم ينته بكامله إلا عام ١٩٢٨. وبمقارنة هذه الطبعة الثانية بالطبعة الأولى فإنها تبدو عملاً جديداً تماماً بضعف الحجم وبشروح وتعليقات جديدة وكثيرة. وقد وسعت الشواهد المتعلقة بالاشتقاقات التاريخية بحيث يمكن اعتبار المعجم خطوة عملية تمهيدية لقاموس مقارن للغات السامية يمكن أن يصدر في المستقبل.

لقد كانت الظروف أكثر ملائمة لدراسات بروكلمان في حقل اللغة التركية منها في حقل الدراسات السريانية، وخاصة أنه طبع أثناء الحرب العالمية الأولى في استانبول أهم عمل عربي - تركي في حقل علم اللغة وهو كتاب: ديوان لغات الترك الذي ألفه محمود بن الحسين الكاشغري بين ١٠٧١ و ١٠٧٣ ميلادي. ويحتوي سجل لغات الترك هذا عدداً زائداً من الأخبار والروايات عن لهجات الشعوب التركية لأواسط آسيا في العصر الوسيط. ولكن الكتابة العربية غير الملائمة مطلقاً لتسجيل الأصوات التركية وتعايير النحويين العرب التي استخدمها الكاشغري للغة التركية ذات الطابع المختلف تماماً عن العربية، كانا عائقين شديدين أمام أية محاولة للاستفادة من هذا الكنز الثمين لدراسة تاريخ اللغة التركية. ولذا فقد شرح بروكلمان لفائدة وخبر علماء التركية الذين لا يلمون المأماً حسناً بالعربية، شرح أول الأمر عرض الكاشغري لتركيب الافعال التركية (في المجلد الثامن عشر من مجلة Kéleti Szemle لعام ١٩١٩)، ثم حقق ما يحتوي عليه الديوان من بقايا الشعر الشعبي التركستاني القديم وكذلك الحكم الشعبية التركستانية القديمة وكرس لذلك عدداً من الدراسات الأخرى ولكنه بذل مجهوداً خاصاً في كتابة جميع الكلمات التركية الواردة في «الديوان» بالحروف اللاتينية وترجمة شروح الكاشغري العربية إلى اللغة الألمانية، مضيفاً لكل كلمة عدداً من الشواهد والشروح التاريخية اللغوية والاشتقاقية. وهكذا نشأ بالتدريج كتابه المرتب حسب الحروف الأبجدية: «المفردات التركية الوسيطة حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري» *Mitteltürkischer Wortschatz nach Maḥmūd al-Kāšgarī's Dīwān luḡāt at-Turk*، ذلك الكتاب الذي طبع عام ١٩٢٨ بمساعدة الاكاديمية

المجرية للعلوم كمجلد أول من المكتبة الشرقية المجرية *Bibliotheca Orientalis Hungarica*، وكما وصلة لهذه الأبحاث رسم بروكلمان خطة لكتابة تاريخ اللغات التركية المكتوبة. ونفذ من هذه الخطة كتابه: «قواعد اللغة التركية الشرقية للغات الادبية الاسلامية لأواسط آسيا» من عام ١٩٥١ حتى ١٩٥٤.

Osttürkische Grammatik der islamischen Literatursprachen Mittelasiens، وعالج في هذا الكتاب تاريخ الأصوات وعلم تكوين وتصريف العبارات التي استخدمتها قبائل واسط آسيا التركية في الأدب منذ دخولها الاسلام في القرن العاشر وحتى فقد استقلالها السياسي. ان الفترة الأولى لنشاط وفعالية بروكلمان في جامعة هاله تمتد من ١٩١٠ حتى ١٩٢٢. وقد احتل ذروة الحياة في تلك الأعوام. وقد حقق لنفسه بالإنجازاته الفردية الخاصة اسماً لامعاً في الدراسات السريانية والعربية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية - وهي حقول كانت مع تقدم التخصص العلمي آخذة بدورها في الاستقلال كل بمفرده كعلم خاص ذي نظام قائم بذاته. وبفضل ثقة زملائه الذين انتخبوه رئيساً للجامعة في يوليو عام ١٩١٨، وقعت على عاتقه مهمة ذات مسئولية كبيرة وهي قيادة مصير الجامعة في فترة انتقالية عسيرة. وفي مايو عام ١٩١٩ حيا اعضاء الجامعة العائدين في ميادين القتال بخطاب طبع بعنوان «إعادة البناء».

وفي هذه الاثناء كان مقعد التدريس الجامعي الذي كان يحتله ادوارد زاخاولا يزال خالياً منذ انتهاء خدمات الأخير، كما تصادف أن أصبح مقعد التدريس في القسم الشرقي بجامعة بون خالياً عام ١٩٢١ كذلك. وعرض المقعدان على بروكلمان، الذي قرر قبول منصب برلين لأنه كان يرجو أن يجد فيها ظروف عمل أفضل منها في أية جامعة ألمانية أخرى وأن يجد المراجع الاجنبية التي لا يستغنى عنها لأبحاثه ودراساته المقبلة. إلا أن الآمال التي نشأت في نفسه أثناء المفاوضات حول قبول مقعد برلين لم تتحقق. فلم يستطع الانتقال إلى برلين واضطر أثناء فترة هبوط النقد الألماني إلى السفر إليها كل اسبوع لبضعة أيام وذلك طيلة فصلين دراسيين. وكان أكثر ما خيب ظنه أن غرف المعهد التي وعد بالحصول عليها قدمت لفرع دراسي آخر. ولكي يتجنب مواقف شاذة أخرى كهذه فقد تخلى بعد عام واحد عن منصب الاستاذية في برلين وعاد كخلف لاساتذه پريتوريوس في جامعة بريسلاو، حيث أمضى على حد تعبيره «سنوات جميلة

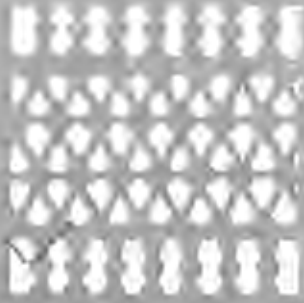
من الناحية الإنسانية»، إلا أنه ظل يعاني من الافتقار إلى المراجع الاختصاصية، ذلك الافتقار الذي اشتكى منه في مقدمة تاريخ الأدب العربي (GAI). وفي صيف عام ١٩٣٢ انتخب رئيساً للجامعة. وفي فترة رئاسته حدثت مظاهرات الطلاب النازيين ضد الاستاذ الحديث التكليل «كون» مما أدى إلى إغلاق الجامعة لمدة ثلاثة أيام. وبما أن بروكلمان سعى جاهداً إلى حماية الحرية التعليمية الجامعية، فقد راحت الصحافة النازية تهاجمه بشدة بحيث اضطر أخيراً إلى التخلي عن رئاسة الجامعة في شهر مارس عندما تسلم النازيون زمام الحكم.

وفي خريف عام ١٩٣٥ أحيل بروكلمان على التقاعد وانتقل في ربيع عام ١٩٣٧ إلى هاله ثانية، لأنه أراد أن يستخدم مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية لأبحاثه وخاصة لمواصلة العمل على تاريخ الأدب العربي. وكان، كعادته، قد جمع في نسخته اليدوية جميع التصحيحات والتصويبات والتمتات المتعلقة بتاريخ الأدب العربي، التي توصل إليها منذ عام ١٨٩٧. وكان الأحب إلى نفسه والأفضل إلى الدارسين لو أنه تمكن من إصدار طبعة ثانية من العمل الضخم؛ ولو تم له ذلك لما تمكن من تصحيح بعض الأخطاء والسهو فحسب، بل وكذلك من مراجعة بعض أحكامه على المؤلفين العرب، ومن تحسين خطة وتنظيم الكتاب بكامله أيضاً، ولو تم ذلك لنشأ كتاب جديد تماماً. ولكن بما أن مطالب ورثة الناشر فيلبر جعلت إصدار طبعة ثانية أمراً مستحيلاً، فقد نشر بروكلمان المادة المجموعة الإضافية في مجلدين ملحقين ضخمين صدرا عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ عن دار بريل في لايدن. وفي الأربعين عاماً التي مضت منذ صدور الكتاب الأصلي كان الأدب العربي الحديث قد تطور بشكل هائل، وكان بروكلمان قد اهتم اهتماماً كبيراً به أيضاً. وهكذا فقد استطاع عام ١٩٤٢ إصدار ملحق ثالث عالج فيه تاريخ الأدب العربي الحديث من عام ١٨٨٢، وهو عام الاحتلال البريطاني لمصر، حتى الوقت الحاضر. وكما فعل في المؤلف الأصلي والملحقين فقد احتفظ في الملحق الثالث أيضاً بعرض لسير المؤلفين؛ ولكن بينما اكتفى هناك بتعداد المؤلفات، قدم هنا معلومات تفصيلية عن محتويات المؤلفات المختلفة، وأشار إلى المثل العليا الأدبية وسجل ملاحظات تتعلق باللغة والأسلوب ولم يتحفظ في أحكامه على الأعمال الجارية بحجها. ولم يخف شيئاً من تعاطفه مع الاتجاهات السياسية لشعوب الشرق الأدنى ضد الاستعمار الأوروبي وضد

الاستبداد المحلي بحيث كان يتمتع باعتباره كبير في العالم الإسلامي بسبب موقفه هذا. وكان على اتصال دائم بالمراسلة مع عدد كبير من شعراء وكتاب وعلماء الشرق، وقد سر قبل وفاته حين علم بأن القسم الثقافي بالجامعة الدول العربية قرر نشر الترجمة العربية لتاريخ الأدب العربي وملحقاته.

وللتعرف على الخلفية السياسية الثقافية للأدب العربي الحديث فإن بروكلمان لم يهتم بدراسة الإسلام في الوقت الحاضر بتعمق فحسب، بل وراح يدرس تاريخه بنفس التعمق أيضاً. ويعود اهتمامه بالأبحاث الإسلامية إلى سنوات دراسته في ستراسبورغ. فمن عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩١٤ كان يكتب عن أحدث المؤلفات في التاريخ الإسلامي في التقارير السنوية لعلوم التاريخ وفي عام ١٩١٠ قدم في المجلد الثالث لتاريخ العالم الذي أصدره يوليوس فون بفولك-هارتونغ Julius von Pfugk-Hartung عرضاً لتاريخ الإسلام منذ بدايته حتى العصر الحاضر (من الصفحة ١٣١ حتى ٣١٩). والآن وبعد مضي ربع قرن على ذلك عاد إلى هذا العمل القديم من جديد واعاد تنقيحه وأضاف له فصلاً عن «النظام الجديد للدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية» صوره فيه الأحداث حتى بداية عام ١٩٣٩. وبذلك نشأ كتاب تاريخ الشعوب والدول الإسلامية Geschichte der islamischen Völker und Staaten وظهر عام ١٩٣٩ كجزء من المجموعة التي أصدرتها دار نشر ر. أولدنبرغ عن تاريخ الدول. ونظراً لاتساع إطار التاريخ الإسلامي الهائل الذي امتد عبر ثلاثة عشر قرناً وانتشر فوق ثلاث قارات فقد كان العمل ينطوي على جرأة كبيرة وخاصة أن المصادر لم تكن معروفة بعد بالنسبة لحقول كثيرة فيه، فضلاً عن معالجتها واستخدامها بطريقة نقدية علمية. وكان سد هذه الثغرات يفوق طاقات مؤلف بمفرده. ومن الجهة الأخرى فقد استطاع جمهور القراء غير المختصين والمهتمين بالسياسة العالمية أن يتوقع بحق الحصول من رجل اختصاصي على نظرة عامة تشمئ ومستوى البحث العلمي الحاضر عن التاريخ الإسلامي. وكما هو الحال مع بروكلمان دوماً، فقد استغنى هنا أيضاً عن جميع الحقوق في الأولوية وتمسك في المسائل المتنازع عليها مستغنياً عن أي بحث للموضوع بأولئك الثقات الذين اعتبرهم الأفضل في رأيه. وأبرز من بينهم ي. فلهاوزن J. Wellhausen ول. كيتاني L. Caetani بالنسبة لتاريخ العرب وف. بارثولد W. Bartholdy وف. مينورسكي V. Minorsky لتاريخ آسيا الوسطى

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية



كارل بروكلمان

تاريخ الأدب العربي

نقل إلى العربية
الدكتور عبد الحليم الجبار

المجلد الأول



دار المغارق مطبع



وب. فيتيك P. Wittek لتاريخ الدولة العثمانية. وبأصالة وحذق مألوفين استطاع أن يمد أمام القارئ خضماً كبيراً من الحقائق التاريخية منسقة بشكل قابل للاستيعاب، كما راعى في ذلك الحضارة والحياة الفكرية، وتخلّى عن كل التفاصيل التي لا داعي لها وأفسح مجالاً كافياً للتطورات التي حدثت منذ عام ١٨٠٠. وجاء الكتاب ليلاي حاجة ملحة واعيد طبعه ثانية عام ١٩٤٣. وهناك ترجمة انجليزية تمت خلال الحرب العالمية الثانية دون علم بروكلمان وظهرت عام ١٩٤٧ (واضيف إليها عرض للأحداث التي جرت من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٧، اتخذ مؤلفها م. بيرلمان M. Perlmann فيها موقفاً من القضية الفلسطينية مغايراً لموقف بروكلمان). واعيد طبع هذه الترجمة الانجليزية (دون مراجعة بيرلمان) عام ١٩٤٩ في لندن. ثم ظهرت فيما بعد ترجمات فرنسية وعربية وتركية وبولونية.

وكأستاذ متقاعد في بريسلاو اضطر بروكلمان عام ١٩٤٥ إلى القيام بمنصب أمين مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية بصورة مؤقتة؛ واهتم منذ ذلك الحين بتصنيف وترتيب الكتب المقدسة. وفي صيف عام ١٩٤٧ أصبح استاذاً فخرياً وحصل في العام نفسه على مقعد الاستاذية في اللغات التركية حسب رغبته. وراح يدل طلابه على مبادئ اللغة التركية الحديثة وقرأ معهم فصولاً تاريخية عثمانية قديمة، ويفسر لهم الوثائق التركية ويحاضرهم في تاريخ الدولة العثمانية. وإلى جانب ذلك فقد كان يلقي محاضرات في التعريف بالسريانية والاكديّة والآثيوبية والقبطية وكان يفسر المصادر السريانية المتعلقة بتاريخ الاسلام، والنصوص العبرية الآرامية، والنقوش السامية الشمالية، ومختارات من رسائل العارنه، والنصوص الميثولوجية والتاريخية الأكديّة. وكان يعقد كذلك حلقات دراسية كثيرة للتمرّن على قواعد اللغات السامية المقارنة.

وكما يظهر هذا العرض فقد أخذ بروكلمان أثناء نشاطه التعليمي --- وكان قد ألقى وعقد ما يقارب الخمسمائة محاضرة وحلقة تعليمية --- أخذ بنظر الاعتبار رغبات مستمعيه حتى وإن كان الامر يتعلق بحقول قلما عالجها في مؤلفاته أو لم يعالجها قط. وهكذا فقد كان يقيم حلقات دراسية كثيرة لتعليم الاكديّة والفارسية الحديثة، وأحياناً الفارسية الوسطى والأرمنية. وكان في المحاضرات يجيب بكل طيب خاطر على جميع الأسئلة التي كان طلابه يوجهونها له ولم يكن يتقدم في المحاضرة إلا بعد التأكد من زوال أي غموض أو صعوبة. أما خارج

محاضراته فقد كان منغمساً في أبحاثه وأعماله العلمية، بحيث قلما تجرأ طلابه على توجيه أي سؤال له. وإذا ما حدث وسأله أحد رغم ذلك، فإن بروكلمان كان يلقي عليه الجواب فوراً بكل ما يتعلق بالموضوع من تفاصيل وبكل دقة بحيث يمكن أن يرسل جوابه للطبع فوراً. أما السبب في عدم تكوينه مدرسة خاصة به فيمكن في طبيعة شخصيته كباحث، تلك الشخصية التي جمعت بانسجام فريد من نوعه ذاكرة ممتازة، وقدرة خارقة على التنظيم والتنسيق، وموهبة للفهم السريع، وقدرة على حسن تقدير ابعاد عمل أو بحث معين، بالإضافة إلى ارادة حديدية وطاقة خارقة على العمل والانتاج. وقد عرف مقدراته خير معرفة وكان يستخدمها خير استخدام. وكان عمله اليومي منظماً بكل دقة وصرامة، ولكنه كان يترك لنفسه أيضاً ساعات للراحة والاسترخاء. وفي اعوام حياته الأولى كان يسافر كثيراً في الاجازات وكان يحب البحار ويستمتع بالتجوال.

وفي صيف عام ١٩٥٣ احيل بروكلمان للمرة الثانية على التقاعد، ولكنه واصل نشاطه التعليمي. وفي ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٤ أصيب بركام لم يستطع أن يتخلص من مضاعفاته فيما بعد. وراح يواصل العمل محاطاً برعاية زوجته الثانية، متابعاً أبحاثه بالقدر الذي كانت تسمح به حالته الصحية. وبمساعدة أحد مستمعيه الأخيرين، الدكتور كونراد فون رابناو Dr. K. von Rabenau استطاع أن يتم كتاب قواعد الصرف العبري Hebräische Syntax الذي ظهر بعد وفاته. وفي السادس من مايو عام ١٩٥٦ فاضت روحه عائدة إلى خالقها بسلام.

وقد أهدى قواعد الصرف العبري لقسم اللاهوت في جامعة هاله شكراً على منحه لقب الدكتوراه الفخرية في اللاهوت أثناء يوبيل الجامعة لعام ١٩٥٢. وهي العمل الوحيد الذي يحمل إهداء باستثناء اطروحة الدكتوراة التي أهداها إلى والديه.

وفي عصر أصبحت فيه الدراسات الاسلامية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية وعلوم الشرق المسيحي علوماً مستقلة ذات اهداف وطرق بحث قائمة بذاتها مع موجة التخصص العلمي المستمرة التي لا تعرف التوقف، في هذا العصر الذي أصبح فيه كل من هذه الفروع حقلاً واسعاً يكفي للملء حياة عالم بكاملها، استطاع بروكلمان أن يمثل في شخصه وفي انتاجه وعلى أتم وجه وحدة علم الاستشراق. وقد عنت وفاته نهاية عصر بكامله.

ترجمة: محمد علي حشيشو

هانز هاينريش شيدر

(١٨٩٦ - ١٩٥٧)

بقلم: الأستاذ أوميليان پريستاك

الواحد. وكما قال صديقه كارل ي. بوركهاردت (١) Carl J. Burckhardt عنه بحق: «لقد كان من القلائل الذين تمكنوا من شد قوس أوديسيوس: فعلى أسى صعيد للخبرة اللغوية والتاريخية تجرأ على اتخاذ أسلوب البحث التركيبي ونجح في ذلك. وفي أى عهد كان نجاحه؟ في عهد كان الباحث والمفكر في حقل العلوم الانسانية لا ينجو فيه من ضغط السلطة الغاصبة إلا بالفرار أو التخفى - عهد أحيل التراث الذي أوكل إليه، وهو تراث جهد انساني عبر آلاف السنين، إلى مهزلة باستخدام الكذب الدائم المنظم» (٢).

ولم تتوفر شروط هذه الجراحة في أحد كما توفرت لدى شيدر. فقد ظلت ذاكرته حتى وفاته فريدة من نوعها. كما منحته الطبيعة بالتساوى موهبة لغوية ومواهب موسيقية شعرية: فقد كان خطيباً بليغاً شديد الاستيعاب للظواهر الموسيقية والأدبية، كما كان يتصف بقلق فكري يكاد يبلغ درجة إتلاف النفس. وكان من حسن طالع أنه نشأ في منزل أبوى على مستوى رفيع من الثقافة في كوتنكن (١٨٩٦-١٨٩٩) وفي كيل (١٨٩٩-١٩١٨). وكان أبوه د. إيريش شيدر D. Erich Schaefer (١٨٦١-١٩٣٦) استاذاً لعلم اللاهوت (المذهب البروتستنتي) - فلا عجب أن يهتم الصبي المتفتح منذ السادسة من عمره - مبتدئاً بأسئلة طفولية - بالبحث في الكتاب المقدس وأن يتمكن وهو لا يزال في سن الدراسة الثانوية من تهذيب وتدريب إحساسه الفريد بالظواهر الدينية. غير أن أسلوبه في الملاحظة التاريخية نشأ على خلاف

في صباح الثالث عشر من مارس ١٩٥٧ توفي في غوتنغن بعد عذاب جسدى ونفسى طويل مبرح الاستاذ النظامى للغات الشرقية وتاريخ الأديان هانز هاينريش شيدر Hans Heinrich Schaefer. وبفقدته فقد الاستشراق الألماني، الذي لا يفتقر إلى الشخصيات العظيمة، واحداً من أطرف ممثليه، لا بل مستشرقاً فريداً من نوعه.

وعندما ينوى المرء كتابة سيرة مستشرق عظيم، يتجه عادة، بعد الافتتاح بتسجيل المعلومات الشخصية اللازمة، إلى تصوير تاريخ الحقل العلمى الذى يمثل مساهمته العلمية فيه بمعزل عن شخصه. أما بالنسبة لشيدر فقد كان اعتناقه للظواهر الفكرية يتسم، حتى مع أشد الالتزام بالروح العلمية، بطابع شخصى، فقد كان دوماً يتقل في الحدود بين العلم والفن والفلسفة والدين، تماماً كما كان اختيار موضوعاته العلمية يتحدد عادة بحياته المتأثرة بالسانية القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي عصر الاختصاص المطرد في العلوم الإنسانية التي ظلت - خلافاً للعلوم الطبيعية - تتابع أهدافها الذاتية السرية وحدها بسبب عزلتها عن الحياة اليومية، لم يرد ولم يستطع أن يكون مجرد عالم مختص. وظل طيلة حياته على اهتمام دائم بجميع الظواهر الفكرية لعصره كما كان يبذل الجهد لانتظامها في فلسفته العامة عن العالم، تلك الفلسفة التي ظلت في توتر دائم بين التقويم الإنساني والمسيحي. وفوق هذا فقد كان يسعى إلى مواجهة هذه الظواهر الفكرية بالواقع في نشاط فكري نابض بالحياة - ونذكر هنا محاضراته التي لا تحصى والتي كانت تبلغ عدة محاضرات في الاسبوع

لاهوت أبيه (آرنولد توينبي: Arnold J. Toynbee; Chalenge and Response). واعتاد شيدر أن يشير دوماً بكبرياء إلى «جعبته المدرسية» العامة. فقد استوعب اللغات والآداب الكلاسيكية في الجمنازيوم الانساني في كيل بالإضافة إلى اللغات الحديثة (الانكليزية والفرنسية والاطالية) وكذلك العبرية. وحين بلغ السابعة عشرة كان قد قرأ الكوميديا الإلهية لدانتي بكاملها بلغتها الأصلية. وإلى جانب ذلك فقد تلقى دروساً نظرية في الموسيقى (التوافق والتأليف)؛ وكان عازف بيانو فوق المستوى المتوسط. وظلت الموسيقى مع جهده الفكري وقلقه الدائم ترويحاً لا غنى عنه طيلة حياته.

إلا أن الشيء الحاسم بالنسبة لتطوره وكذلك بالنسبة لحياته كلها ونتاجه الفكري فقد ظل التقاؤه بالمنطق اليوناني والعقل اليوناني وتراث الرومان الانساني. واختار الشاب الذي بلغ الثامنة عشرة عندما بدأ دراسته في جامعة كيل في فصل الصيف عام ١٩١٤ الاستاذين: الإنسان فيرنر ييكر^(٢) Werner Jaeger ومؤرخ العصر الوسيط فريتز كيرن^(١) Fritz Kern (١٨٨٤ - ١٩٥٠). وكان الأخير يعمل آنذاك على تقويم التقارير والروايات العربية حول تاريخ ألمانيا، وكان يأسف كثيراً لعدم استطاعته دراسة المصادر والحكم عليها بنفسه مستقلاً. ونصح تلميذه الموهوب شيدر بدراسة العربية واعطاه بذلك الدافع الأول للمضي في طريقه إلى دراسة اللغات الشرقية. وما كاد الفصل الدراسي الأول بالنسبة لشيدر ينتهي، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى، فتقدم متطوعاً، وكيف كان له أن يفعل غير هذا؟ ولأسباب صحية أحيل على الخدمة الصحية التي قضّاها أولاً في المحاجر الصحية في فرنسا (نوايون، لاكاييل)، وفيما بعد (خريف ١٩١٥ حتى نهاية ١٩١٦) في ليتوانيا (كوفنو، فيلنا) وأخيراً في زينبوركن وكوكسهاغن (١٩١٨). وكانت سنوات الخدمة الحربية هذه بالنسبة له «جامعات» للخبرة والمراس على حد تعبير مكسيم غوركي. إذ بعد أن عاد في نهاية ١٩١٨ إلى الوطن (كان أبوه قد بدأ يعمل في بريسلو منذ ١٩١٨) كان قد أصبح رجلاً وباحثاً ناضجاً. وخلال الفصلين الدراسيين المحددين عند تغيير الجامعة لم يته اطروجه الدكتوراه فحسب، وإنما تمكن من اجتياز امتحان الدكتوراة أيضاً.

لقد جعله اتصاله اليومي بالموت متفتحاً لجميع قضايا الوجود البشري. ولكن هذا كان يعني بلوغه مرحلة النضوج. وكان الموظف الصحي الشاب يصطحب معه

دوماً الكتاب المقدس والمؤلفات اليونانية وكتب دانتي وجوته وكانط وكتب النحو لعدة لغات شرقية وخاصة السامية منها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يتابع - بقدر ما كان يسمح به ظرفه - قراءة منشورات الاوساط الأدبية والفكرية في تلك الآونة. وقد حمل لقاءان من ذلك العهد أهمية خاصة بالنسبة لمؤرخ الأديان والمستشرق الناشئ شيدر. وكان اللقاء الأول مشاهدته للشرق اليهودي في كوفنو وفيلنا (١٩١٥ - ١٩١٦) وقد ظل هذا لقاءه الوحيد مع الشرق الحى. وبمساعدة حاخام كوفنو استطاع اتمام دراسته الخاصة بالكتاب المقدس وذلك بمشاهدة جميع مظاهر الحياة الدينية عن كثب. أما اللقاء الثاني فقد كان ذا طابع أدبي. ونعني به المقالات التي ظهرت في «آرشفيف العلوم الاجتماعية» منذ ١٩١٥ حول «الاخلاق الاقتصادية للأديان العالمية» لماكس فيبر^(٥) Max Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) الذي سنتحدث عن تأثيره على شيدر فيما بعد.

وكان عالم اللغة الآشورية برونو مايسنر^(٦) Bruno Meissner (١٨٦٨ - ١٩٤٧) صاحب كرسي تدريس اللغات السامية في بريسلو آنذاك يود مساعدة العائد من الحرب شيدر عام ١٩١٩ على كتابة أطروحة غير معقدة بحيث يمكن اتمامها بسرعة. ولذا فقد اقترح عليه أن يعمل على دراسة مادة الحسن البصري، ممثل الورع الاسلامي الهام في القرن الهجري الأول في الجزء الأول من المجلد السابع من طبقات ابن سعد الذي أصدره آنذاك. ولكن شيدر أدرك بسرعة أن «المادة التي يقدمها ابن سعد وغيره من مؤلفي علم الرجال لا تكفي في حال من الاحوال لهذا البحث، لا بل انها على العكس من ذلك ملائمة لإحاطة الموضوع الحقيقي بالغموض». كما أن السيرة وحدها لا تضيف شيئاً جديداً. فالسبيل إلى فهم الطابع الديني الحقيقي للحسن البصري هو في ضرورة العودة إلى «مؤرخي الدين الاسلامي وخاصة مؤلفي سير القديسين والصوفيين» (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ١). وهكذا فقد مال الثقل في بحث هذه الاطروحة إلى جانب التاريخ الديني. وكشرط أساسى لذلك كان لا بد من دراسة التيارات الفكرية في العراق، موطن الحسن. وأدى هذا الأمر بشيدر إلى مواجهة المسائل الجذرية في الأبحاث والدراسات الإسلامية ومنها إلى المسائل الجذرية لعلم الأديان بوجه عام. فالعراق - بلاد بابل القديمة، هي الوطن الحقيقي لعلم الديانة الاسلامية، وللتصوف الإسلامى، كما أنها موطن العقائد الغنوصية المختلفة، وخاصة المانوية، أى تلك



صحيفة بخط الأستاذ شيدر.

إن موقف ألمانيا الفكرى بعد الحرب العالمية الأولى كان مبلبلاً ولكنه يتسم بالنشاط. وقد شعر شيدر بدافع ذاتى للاشتراك فيه. فبعد نواله درجة الدكتوراة جاء في بداية ١٩٢٠ إلى برلين واشترك في تحرير "Grenzboten" وراح يحتك بدائرة الشبيبة المسيحية المحافظة لنادى يونيو والحلقة وكانت تتألف من محاربين سابقين أمثال شيدر نفسه. إن نظرة سريعة في قائمة المواضيع التى عالجها الكاتب الشاب في ١٩٢٠ - ١٩٢١ تعطى فكرة كافية. فهى تبدأ بتقويم أدبى لأوتوبراون^(٨) Otto Braun بمناسبة طبع مذكراته وأشعاره ورسائله، ثم تتلو ذلك أربع مقالات عن الموسيقى (حول النزاع بين Busoni^(٩) و Pfitzner^(١٠))، وحول الجذور القومية للموسيقى الألمانية في العصر الحاضر، وحول الموسيقى في الحياة العصرية، وحول موسيقى ماكس ريجر^(١١) (Max Reger)، ثم أعمال أدبية من جديد (شعر وجدانى جديد، والطبعة الجديدة

الروح المحركة التى أدت بصورة حاسمة إلى نشوء علم الكلام عند المسلمين (وعلم اللاهوت المسيحى قبل ذلك). ولم يكن العراق جزءاً من المملكة الساسانية فحسب، وإنما محورها الأساسى. فهنا كانت تقع العاصمة كتيشفون، على مقربة شديدة من بابل القديمة، ومن بغداد فيما بعد. وتبرهن الدراسات الطوبوغرافية والتاريخية التى قام بها شيدر تفصيلاً وراء أصل الحسن أنه كان منذ ذلك الحين يهتم اهتماماً جدياً بدراسة اللغة والحضارة الإيرانية. وقد فعل ذلك معتمداً على نفسه بطبيعة الحال ولكنه بلغ من الدراسة الذاتية مستوى جعله يفوز بعد ذلك ببضعة أعوام بكرسى الاستاذية لعلم اللغات الإيرانية والأرمنية - وهو الوحيد فى ألمانيا. ولم تنشر أطروحة شيدر فوراً، بل أعاد مراجعتها وتنقيحها مرتين، وكانت المرة الثانية عام ١٩٢٢، إذ تمكن فى هذه الأثناء من الاطلاع على مؤلف لوى ماسينيون^(١٢) Louis Massignon الرائع عن أبرز ممثلى التصوف الإسلامى، الحلّاج. ولم ينشر من الأطروحة المنقحة إلا القسم الأول (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ص ١ - ٧٥). أما الفصلان الهامان اللذان تناولا أهمية الحسن فى التاريخ الأدبى والفكرى فقد ظلا بدون نشر، وهو أمر يؤسف له. وكرس شيدر لعمل الحلّاج بحثاً واسعاً فى مجلة Der Islam (المجلد ١٥، ١٩٢٥، ص ١١٧ - ١٣٥) ندرك منه مدى تأثره بأسلوب بحث ماسينيون وروحه. وكما سينيون الذى أولى دوراً مركزياً لدراسة تكوين الاصطلاحات الدينية وأشكالها اللغوية فقد فعل شيدر ذلك فيما بعد فى دراساته وأعماله المتعلقة بالمناوية. غير أن توحيداً للمفكر المتمرس فى الفلسفة اليونانية والأوروبية والباحث اللغوى والموضوعى فى شخص واحد ممكن من المعارضة الواضحة لموقف «يعتقد بالاقتصار إزاء التراث الفكرى الشرقى على مجرد الاعادة والتوليد والوصف بقدر الامكان» بدلا من الرد عليه فكراً (مجلة Der Islam، المجلد ١٥، ١٩٢٥، ١٣٥). لقد أصبح الحوار الفكرى مع الشرق وليس هضمه، بسبب التصورات الرومانتيكية، الدافع البارز لموقف شيدر إزاء الشرق. ولم يكن يتمتع بعلاقات تذكر مع «شرقيين» معاصرين ولم يكن راغباً فى عقد هذه الصلات؛ كما أنه لم يذهب إلى «الشرق» الحقيقى قط. وكان يعتبر الدراسات الشرقية الطريق الذى يستطيع الغرب عليه أن يدرك ذاته بتحديداتها من الشرق مع اقتباس ملا يلائمه من تراثه الفكرى فى الوقت نفسه. وقد وجد شيدر موقفاً مشابهاً كذلك فى «الديوان الغربى الشرقى» لحوته. ولكننا سنعود إلى ذلك فيما بعد.

لك. ه. بيكر^(١٨) C. H. Becker ، والثاني المؤرخ والعالم بالدراسات الإيرانية ي. ماركفارت^(١٩) J. Markwart. ومن الطبيعي أيضاً أن يكرس شيدر أول بحثين كبيرين ألفهما هذين العالمين: «النظرية الإسلامية في الإنسان الكامل» - مهداة إلى ي. ماركفارت (١٩٢٥) و«دراسات في التوفيقية في العصر القديم - دراسات إيرانية» - مهداة إلى ك. ه. بيكر (١٩٢٦). أما ما سحره في ك. ه. بيكر فقد أعرب عنه شيدر عام ١٩٤٦ كمايلي: «يعود تأثيره المباشر على زملائه في الاختصاص إلى دراساته التاريخية الدينية وما كان يتوصل إليه من نتائج في ذلك. وكان منطقته الأساسي هو الحقيقة القائلة بأن للعصر الوسيط الغربي والشرق مصدرى تراث مشتركين وهما الهيليني والمسيحي، ففي الأول تلقى الجرمان هذا التراث مستغنين عن استقلالهم الفكري، وفي الثاني تلقاه العرب مع تعديله بالعقيدة الإسلامية التي جاءوا واحتفظوا بها عند دخولهم عالم الحضارة القديمة.»^(٢٠) وكتب شيدر عن ماركفارت الذي جاء كذلك من العهد القديم إلى الدراسات الإيرانية، كتب عام ١٩٣٠: «وأثناء شرح الشاهنامة مثلاً التي لم يكن يتعرض كثيراً لمضمونها الشعري، كان يخوض أبحاثاً تستغرق عدة ساعات كان يعلق فيها، دون الحاجة إلى ما يدعم الذاكرة، على خطأ في المتن، أو ملاحظة ميثولوجية، أو نقطة طوبوغرافية، فتصبح أبحاثه هذه مصدر علم وافر لا يقدر بثمن.»^(٢١) ويمكن اعتبار شيدر ورثاً للثنتين. وهكذا فقد أشرف على نشر مؤلف بيكر «دراسات إسلامية» (١٩٢٤)؛ كما أن بيكر أهدى شيدر الذي كان قد بلغ الخامسة والثلاثين إحدى كتاباته الأخيرة التي كانت تعالج أيضاً «تراث الأولين في الشرق والغرب» (١٩٣١). وفي السنة نفسها خلف شيدر ماركفارت في احتلال مقعد تدريس اللغات الإيرانية في برلين.

وفي محاضراته ودراساته الواسعة الغديدة كان شيدر يتعرض دوماً إلى التراث اليوناني في الشرق. وفي دراسة خاصة كرسها لاستأذه السابق في كيل ف. ييجر بين بصورة تبحث على الاهتمام الاختلاف في استمرار تأثير التراث اليوناني في الغرب (الرومان) وفي الشرق (١٩٢٨) (٢٢). فهذا (أى في الغرب) تشهد القدرة على المرور ببعث فكري جديد ناجم عن الاحتكاك (أى الرغبة التي لا حد لها في التعلم) بالفكر اليوناني، بينما هناك (أى في الشرق) لا نلمس بعثاً للقديم ناجماً عن التفاعل معه، وإنما حفظاً وتحليلاً له. «بينما ندرك لدى الرومان إرادة منفتحة للتعلم،

لأعمال رودلف بورشاردت^(١٢) R. Borchardt ومقدمة لعمل ج. ياكوب^(١٣) G. Jacob: قصائد مترجمة لحافظ وعسكري). وفوق ذلك فقد عالج شيدر تيارين اعتبرهما مفتتين على حد اقتناعه: إذ كتب مقالين حول رودلف شتاينر^(١٤) Rudolf Steiner ومقالين آخرين حول رسول الانحطاط أوزفالد شبنجلر^(١٥) Oswald Spengler ولم يفته أن يكتب كلمة تقدير عن «مثله الأعلى» ماكس فيبر؛ ففي عام ١٩١٩ بالذات كان قد صدر للأخير مؤلفان أثارا اهتمامه الشخصي أيضاً. وكتب شيدر حول هذين المؤلفين عام ١٩٤٩، بعد الكارثة الوطنية الثانية التي كان عليها أن يشهدها: «إن من كان يذهب آنذاك إلى الجامعة ليتعلم شيئاً حقاً وليشهد في التعلم الحق حرية الفكر، فإنه لن ينسى قط كيف مسه في أولى سنوات ما بعد الحرب، وفي وسط الضجة التي بدأت حول نبوءة الانحطاط التي أرسلها شبنجلر، صوت قوى هادئ مرتين، صوت مسه في الأعماق. وكان هذا الصوت يؤكد له صحة الدرب المطروق، وينير الطريق أمام تساؤلاته الغامضة ويكسبها نظاماً وجلاء، ويعطيه شجاعة وثقة لخوض الحياة الفكرية. لقد انطلق ذلك الصوت من كراسين، طبعاً على ورق رديء كما كان يقتضيه الظرف، وضمنا في غلاف بائس أصفر. وكان المرء يقرأ الكراسين، ثم يعيد قراءتهما مرة بعد أخرى، ويناولهما للأصدقاء وقد تجعدت صحائفهما وامتلات بالخطوط تحت السطور؛ أو كان يجمع القروش - وكان المرء عام ١٩١٩ لا يزال يحسب بالقروش - ليشتريهما بها ويقدمهما هدية للأصدقاء. وكان عنوان الكراس الأول «العلم كمهنة» والثاني «السياسة كمهنة». وكان يجمع بين الاثنين خليط من الموضوعية والحساس يسلبان اللب ويفحمان من الجملة الأولى.»^(١٦) وكان هذان الكتيبان الدافع الظاهري لقرار شيدر في استبدال العلم بالسياسة وفي الإسراع إلى ميونيخ للمثول بين يدي المعلم الكبير. إلا أن هذه الخطة فشلت بسبب وفاة فيبر المفاجئة. فقد ظل شيدر في برلين وراح يشترك بالاضافة إلى عمله التحريري في الدوريات العلمية التي كان يعقدها اللاهوتي والفيلسوف البروتستنتي الكبير إيرنست ترولتش^(١٧) Ernst Troeltsch الذي أصبح يرعى تراثه الفكري بكثير من التقدير فيما بعد أيضاً.

وفي تلك الفترة كان قد التقى كذلك بعالمين وشخصيتين كان لهما أثر خارق في تكوينه الفكري: وكان الأول مؤسس حقل الدراسات الإسلامية في ألمانيا، وزير الثقافة

وانفتاحاً حقيقياً، لا بل خضوعاً صادقاً للعاطفة للفكر اليوناني، فإننا نجد لدى الشرقيين أنه رغم تشبعهم الذي لا يقل عمقاً بالتراث الفكري اليوناني الموروث، إلا أنهم لا يملكون تلك النزعة الفكرية الخاصة بالرومان إلا في حالات فردية استثنائية. ويعتبر الرومان مثلاً أعلى لبقية الأمم الغربية حيث أنهم الأمة الأولى التي حققت فكرة الانسانية. (٢٣) «أما ما تعلمه الشرقيون من الاغريق فقد استخدموه لأغراض عملية، وليس لتجديد ثروتهم الثقافية وإحداث تغيير في كيانهم الثقافي والعلمي». (٢٤) إذن فلا وجود لفكرة الانسانية القائمة على بعث التراث القديم في الشرق! وكتتمة لا هوادة فيها لهذا التسلسل الفكري ظهرت دراسة شيدر الرائعة «الفرد في الإسلام» (١٩٢٩). (٢٥) وجاء فيها: «إن أعلى قيمة يستطيع الوعي الانساني تكوينها، وهي الحرية، لم تكن تعني ولن تعني بالنسبة للشرق إلا حرية النفس المنطوية على ذاتها السامية في حد ذاتها وحيدة فوق خوف الحياة الأرضية وآلامها». (٢٦)

وكانت لدى شيدر أيضاً أمور كثيرة مشتركة بينه وبين ماركفارت فهناك أولاً نفس المنطق: إذ انتقل كلاهما من حقلي العهد القديم واليونانية القديمة إلى حقلي الدراسات الايرانية، كما فعل أيضاً تيودور نولدكه (٢٧) Th. Nöldeke وب. دي لاغارد (٢٨) P. de Lagarde اللذان كان لهما أثر كبير في تحويل شيدر إلى عالم بالدراسات الايرانية - وهو الطريق الوحيد الذي يمكن طرقة لم يكن الباحث من التغلب على مشاكل حقلي الدراسات الايرانية. كما أن حب ماركفارت لمعالجة الوجوه اللغوية والتاريخية والدينية والاثنوغرافية لمسألة ما، بحيث يضع قدماً في ايران والاخرى في آسيا الوسطى أو الصين، صفة تمتاز بها دراسات شيدر الاختصاصية. وأود هنا أن أشير فقط إلى عمله «ايرانيا» Iranica. وماركفارت فان شيدر أيضاً لم يكن يميل إلى نشر النصوص الطويلة المستقلة. (٢٩) وكان اهتمامهما الحقيقي عمل دراسات نقدية للنصوص المنشورة أو نشر مواضع معينة من النصوص تتعلق بالمسائل التي كانا يعالجانها.

لقد كان طريق شيدر من الحسن البصري (اطروحة الدكتوراة، ١٩١٩). إلى حافظ (بحث اجازة التدريس الجامعي، ١٩٢٢) على خط ميله الخاص إلى الظواهر الفكرية على الحد الفاصل بين الدين وعلم الجمال (الشعر). وكان دأبي هو البداية كما سبق وذكرنا. أما المراحل الاخرى فهي: ر. بورشارت (٣٠) R. Borchardt (وهو مترجم داني أيضاً)، وهوجو فون هوفمانزثال (٣١) H. v. Hofmannsthal

ور. ا. شرودر (٣٢) R. A. Schröder وحافظ وغوته وأخيراً (وابتداء من ١٩٤٦) ت. س. ايليوت (٣٣) T. S. Eliot وظل بحث اجازة التدريس الجامعي «دراسات حول حافظ» محفوظاً غير منشور (ويذكر شيدر فيه ج. ياكوب (٣٤) G. Jacob وهيلموت ريتير (٣٥) H. Ritter، كأستاذيه الأدبيين) (٣٦). ومما يضاعف الشعور بالأسف لعدم نشر هذه الدراسة أن شيدر يبدو فيها عارفاً بجميع الشعر الفارسي الكلاسيكي وقادراً على التمييز بين العناصر الاسلوبية والفردية لدى الشاعر الفارسي. إن البؤس الذي يجب أن ينجم عن معالجة منعزلة لشاعر فارسي يتضح في النقد الذي نشره شيدر حول دراسة ه. ماسيه (٣٧) H. Massé عن الشاعر سعدي في مجلة «الاسلام» Der Islam، مجلد ١٤، ١٩٢٤، ١٨٥ - ١٩٠.

وبالحصول على إجازة التدريس الجامعي عام ١٩٢٢ بدأ شيدر الذي بلغ السادسة والعشرين الآن مدرجه المهني اللامع في الجامعة كباحث وأستاذ. ويمكن تقسيم نشاطه العلمي إلى ثلاث مراحل: مرحلة برسلو - كونغزبيرغ (١٩٢٢ - ١٩٢٦ - ١٩٣٠)، مرحلة برلين (١٩٣١ - ١٩٤٤) ومرحلة غوتنغن (١٩٤٦ - ١٩٥٧). وكانت الاولى أهم المراحل وأكثرها إنتاجاً. كان في برسلو قد اكتسب معرفة مدهشة في ميادين اللغات السامية والدراسات الايرانية وعلم اللغات المقارن والدراسات التركية وتاريخ الأديان، وعلم الأديان والفلسفة بالدراسة الذاتية، معزراً معرفته بالاتصال بذوى الاختصاص كل في حقله (وقد تحولت هذه الاتصالات بعد ذلك إلى صداقات). وبالإضافة إلى المذكورين فقد كان يستشير الباحثين التاليين: ج. بيرغستراسر (٣٨) G. Bergsträsser (اللغات السامية)، ر. كيتل (٣٩) R. Kittel (الدراسات اليهودية)، ا. هيلبيرانت (٤٠) A. Hillebrandt (حقلي أبحاث الفيدا)، ف. تومسون (٤١) V. Thomsen (علم اللغات المقارن، والدراسات التركية)، ه. فينكلر (٤٢) H. Winkler (علم اللغات المقارن)، ف. بانغ (٤٣) W. Bang (الدراسات التركية والمأنوية)، ي. ستنتزل (٤٤) J. Stenzel (الفلسفة القديمة)، ر. رايتزنشتاين (٤٥) R. Reitzenstein (التوفيقية الدينية القديمة)، وه. س. نيبيرغ (٤٦) H. S. Nyberg (الغنوصية الإسلامية، الدراسات الايرانية). وتدل مقالاته النقدية المفصلة في مجلة «الاسلام» Der Islam (المجلدات: ١٣-١٥) وكذلك في «الحوليات السنوية المجرية» «Ungarische Jahrbücher» (المجلد الخامس) على أنه كان قادراً لا على الكتابة كباحث اختصاصي فحسب،

Urform und Fortbildungen des manichäischen Systems" وذلك عام ١٩٢٧، وقد جعلته الموقظ الحقيقي لفكر ماني. وقد حكم رفيق شيدر القديم في البحث نيبيرغ عام ١٩٣٥ على هذا الكتاب بالكلمات التالية: «إن شرف الأولوية في إحلال النظام في هذه الفوضى (أى في النظريات السائدة حتى ذلك الحين حول طبيعة المانوية الحقيقية - المؤلف) يعود إلى المستشرق الألماني الشاب ه. ه. شيدر. فبه فازت أبحاث المانوية بقوة من الدرجة الأولى تمتاز بشروط غير عادية للقيام بأعبائها الهائلة. وقد بدأ مدرجه العلمي بصفته مؤرخاً دينياً كتلميذ لرايتزنشتاين ... ثم ما لبث أن انفصل عنه فيما بعد ليشق طريقه الخاص بنفسه. وفي عام ١٩٢٧ أصدر في لايبزغ بحثاً عرض فيه رأيه في مسألة المانوية (الشكل الأصلي.. الخ) وهو ليس بحثاً واسعاً -- ٩٢ صفحة -- ولكنه بدون شك أهم بحث برنامجي ألف حتى الآن حول مسألة المانوية. فبالانطلاق من الكساندر الليكوبوليسي^(٥٧) Alexander von Lykopolis الذي يعرض الأفكار الأساسية لنظام ماني دون أى غلاف اسطوري، يسعى إلى تحديد العلاقة بين المحتوى النظري للمانوية والحواشي الاسطورية المحيرة التي تظهر في كل مكان ولا تخلو منها كذلك نصوص مخطوطات تورفان سواء في عرض النظرية أم في الترائيل. ثم يستنتج أن ماني أقام دينه على نظام فلسفي عقلائي واضح، يهدف إلى إعطاء تفسير للعالم والحياة وإلى منح البشر المعرفة، γνῶσις، التي كانوا بحاجة إليها للخلاص. وأمكن التعبير عن هذا النظام بكلمات عقلانية واضحة، فقد كان بلاغة عقلية، λόγος بالمعنى الفلسفي الاغريقي. ولا يصلح هذه التعاليم إلى البشر، استخدم ماني اصطلاحات اسطورية ميثولوجية. وبالرجوع إلى تصورات البشر المألوفة استخدم الصور الميثولوجية المتداولة في الاوساط التي كان يخاطبها كعناصر اسلوبية تعبيرية. وهكذا فالى جانب كلامه العقلاني الفلسفي λόγος قدم الاسلوب الميثولوجي μῦθος كما فعل أفلاطون قبله. وكانت هذه الفكرية عبقرية بحيث جعلت الميثولوجيا المانوية مفهومة من حيث المبدأ مرة واحدة.»^(٥٨)

ويربط بين المؤلفين «عزرا»^(٥٩) و«مساهمات ايرانية»^(٦٠) (١٩٣٠) نفس الموضوع الرئيسي: ايران والكتاب المقدس، وكذلك شخصية الانسان الرئيسي الذي يدور حوله البحث. ففي تحليل فلهوى لكلمة Sōpēr «الكاتب» يتم البرهان على أن عزرا، المحمد الفكري للجالية اليهودية بعد النفي البابلي، استخدم هذا اللقب كدلالة رسمية علىظيفته

وانما فوق ذلك على تطوير البحث في المسائل التي تعرضت لها الكتب التي كان يقرؤها. وفي تلك الفترة أيضاً نشأت دراساته الطليعية الخاصة حول المانوية: «مساهمات ايرانية» و«عزرا الكاتب».

كان حسن البصري وحافظ منطلق شيدر لدراسة التصوف الاسلامي^(٦١) والغنوصية الاسلامية (مبتدئاً بحركة الباطنية)^(٦٢) ولإذ تعرف على الحقل ودخله من الدراسات الرائعة التي ألفها ل. ماسينيون^(٦٣) L. Massignon وتور أندري^(٦٤) T. Andrae ور. أ. نيكولسون^(٦٥) R. A. Nicholson وه. س. نيبيرغ، وضع نصب عينيه مهمة متابعة تطور «فكرة شرقية قديمة مقتبسة من الحضارة الهيلينية حتى تشكيلها التأمل الكلاسيكي في الغنوصية الإسلامية»: أما هذه الفكرة فهي فكرة الانسان الكامل (النظرية الاسلامية للانسان الكامل، أصلها وتشكيلها الشعري: Die islamische Lehre vom Vollkommenen Menschen, ihre Herkunft und ihre dichterische Gestaltung" جمعية المستشرقين الألمانية، ZDMG, Bd. 79, 1925, 268-192). ومن هنا وجد طريقه إلى المانوية. ومنذ اكتشف العبقري ف. ف. ك. مولر^(٦٦) F. W. K. Müller بين مخطوطات أحضرها معه عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ من تورفان في شمالي سينكيانغ مؤلفات مانوية أصلية بثلاث لهجات ايرانية وبالتركية حصلت الأبحاث المانوية على دوافع جديدة. ويجدر بالدرجة الأولى هنا أن نذكر أعمال اللغوي الكلاسيكي في كوتنغن ر. رايتزنشتاين الذي اشترك مع مؤسس معهد الدراسات الايرانية في كوتنغن ف. ك. أندرياز^(٦٧) F. G. Andreas في دراسة المكتشفات الجديدة وتقييمها وشرحها. وقد أثرت نظريته في سر الخلاص الايراني^(٦٨)، الذي يرى أنها الأساس الذي تقوم عليه الزرادشتية والمانوية وطقوس العبادات الهيلينية، قلنا إنها أثرت كثيراً على شيدر وقام بينهما سيل من الرسائل أدى بعد حين سريع إلى تعاون وثيق. وبالاشتراك مع رايتزنشتاين أصدر شيدر الآن عملاً ذا أهمية هائلة عولجت فيه لأول مرة نظرية الانسان الأول (وقد عالج شيدر النظريات الايرانية)^(٦٩) وكان ذلك عام ١٩٢٦. غير أن طريقيهما انفصلا بعد حين. فبعد أن انشغل شيدر بدراسة للمصادر المانوية لم يعد قادراً على موافقة رايتزنشتاين على موضوعه الكلي الخاص «بسر الخلاص». وقرر أن يجمع نتائجه الخاصة وينشرها. وبذلك نشأت دراسته المهداة إلى ي. شتينزل J. Stenzel «الشكل الأصلي والتطورات التالية للنظام المانوي»^(٧٠)

Yea, East is East and West is West
And never the twain shall meet,
Till Earth and Sky stand presently
At God's great judgment seat.
But there is neither East nor West,
Border nor breed nor birth,
Where two strong men come face to face,
Though they come from the ends of the earth.

In herzlichem Dankbarkeit für gütlich gewährte
Gastfreundschaft und Fürsorge
Marburg 4.15. Mai 1949 Hans Heinrich Schader

هانس هاينريش شيدر.
نشكر أرييلة الأستاذ المرحوم، الدكتور جريته شيدر، التي وضعت هذا
التصوير تحت تصرفنا.

«مشكلة ايران والكتاب المقدس» حتى وفاة شيدر القضية الرئيسية التي تشغل باله. وقد صمم سلسلة من الدراسات الخاصة الاخرى حول هذه المسألة. إلا أنه لم يتمكن لسوء الحظ من نقل الافكار الجاهزة في فكره إلى الورق. ومع ذلك فإن المؤلفين غزيران جداً من الناحية اللغوية البحتة أيضاً. فقد أدرك شيدر لأول مرة كنه «الآرامية الامبراطورية» (كان ماركفارت هو الذي وضع هذه التسمية). والمقصود هنا هو لغة ادارية موحدة كانت تستخدم في جميع دواوين الدولة الأخمينية وتخلو من أى اختلاف في اللهجة ولم تكن لغة للمخاطبة وإنما للتدوين وتألف من رموز صورية يستطيع كل قوم قراءتها بلغته الخاصة. وفي جدال طويل مع ف. ك. اندرياز أظهر شيدر أن الكلمات والأسماء الايرانية في «الآرامية الامبراطورية» لم تكن متقدمة كثيراً في طريق تطورها إلى اللغة الفارسية

ومنصبه الادارى في المملكة الأخمينية. إلا أن الجالية اليهودية اتخذت هذا اللقب بمعنى «الكاتب العالم». وبذلك يصبح هنا لقب «الكاتب» رمزاً لمكانة عزرا الفريدة الخاصة بين الحكومة الايرانية والمجتمع اليهودي. إن ما فتن شيدر في دراساته للكتاب المقدس هو انجاز اليهود الفريد من نوعه في حقل الدين، ذلك الانجاز الذي يعتبره مضاهياً لانجاز الإغريق في الميدان الفكري (ولانجاز الألمان في حقل الموسيقى). إن العملين («عزرا» و«مساهمات ايرانية») لا يعتبران رمزاً لطريقة بحث شيدر فحسب، وإنما كذلك لطبيعته الفكرية: فهنا يؤدى الجول اللاهوتي الذي نشأ فيه شيدر في منزل والديه إلى ايقاظ الاهتمام بعلم الدين الذي يمثل بدوره وفي الوقت نفسه ربطاً بين الدراسات السامية والدراسات الايرانية ويطرح بذلك وجهات نظر جديدة في التاريخ العالمى! لقد ظلت

الوسطى (المساهمات الايرانية، ٢٥٥-٢٧٣). ويربط بحثه حول تاريخ تطور الاصطلاح العربى «زنديق» مؤلفه «المساهمات الايرانية» (٢٧٤-٢٩١) بمؤلفاته المانوية. والأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأديان هو رأى شيدر النقدي حول مسألة التاريخ الأصيل للتعيميد المسيحى. فقد استطاع أن يثبت بطلان موضوعة رايتزنشتاين القائمة، وهى اشتقاق تعيميد يوحنا وتعيميد المسيحية الأصلية فى تنوعه من التعيميد الماندوى: إذ أن التعيميد المسيحى جاء من التعيميد اليهودى لمعتنى الدين الجديد. (٦١)

لقد أفرد شيدر «لغة الشاعر التنظيمية» مكانة خاصة. فهو يرى أن الشاعر يستطيع ويجب أن «يعطينا ما لا يستطيع أن يعطينا إياه العلم التجريبي فى البحث والنقاش والإفصاح ولا الفلسفة فى المعادلات التجريدية التى تستخدمها فى لغتها المدرسية: ألا وهى الرموز التى لا ينضب معينها والتى تشبع روحنا وتهديء من قلق خاطرنا، الرموز التى تشير إلى علاقات كل شئ بكل شئ. إن وحدة الحياة، والعلاقات الأزلية والبسيطة بين الله والعالم، وبين العالم و«أنا»، بين الاجتماع والانفراد، إن هذه الأمور هى التى تشغل بال الشاعر والتى — بتشكيلها والتعبير عنها — يربطنا بالمطلق». (٦٢) وهكذا فقد افتتن شيدر لأمد طويل بالحوار الدائر لدى ر. ا. شرودر بين الانسانى والمسيحى، بين الإنسان المتعشق للجمال والمتدين. وقد أهدى له — بالإضافة إلى بضع دراسات — عام ١٩٣٨ كتابه «تجربة غوته للشرق» وعام ١٩٤٨ الكتاب الذى ألفه مع زوجته «طريق إلى ت. س. إيليوت»؛ وكما سبق وقلنا فإن ر. ا. شرودر مترجم أعمال إيليوت أيضاً.

وفى فترة بريسلاو-كونغزبيرغ كان شيدر شديد التعلق بهوغوفون هوفانزثال. وقد كرس له دراستين وكتاباً ضخماً كان قد أعلن عنه عام ١٩٣٣، غير أنه لم يسمح بنشره، وقد وصف فيه طريق هوفانزثال من جوجالى خالص إلى احتلال العالم الفكرى الغربى، إلى الارتباط الشخصى بقيمه الأخلاقية والدينية. ويكتب شيدر فى رثائه لهوفانزثال عام ١٩٢٩: «لقد كان شاعراً يحيل القدرة اللاهوائية على التجربة والألم فى طبيعته وفى جيله منذ بداية الظهور إلى فكرة خالصة ويشكلها فى كلمات خالصة، شاعراً انفتح أمامه — بفضل وعيه الطبيعى لثبات النظام الأخلاقى — الطريق إلى عالم من الأشكال يحتوى جميع المناحي الإنسانية على اختلاف ألوانها، وهو طريق اجتازه بطاقة تهذيب ذاتى للنفس تعتبر فريدة فى عصرنا». (٦٣) وأصبح هوفانزثال شاعر قدره أيضاً. لقد استيقظ الاهتمام بأعمال

هوفانزثال منذ عام ١٩٢٧ عندما اشترك شيدر بدراسة هذه الأعمال مع الباحثة الشابة المختصة بالشاعر غريته فاراينتش (٦٤) Dr. Grete Waranitsch (المولودة عام ١٩٠٣) التى أصبحت منذ ذلك الحين حرمه الوفية المضحية ورفيقة عمره وشريكته فى البحث فى حقل الأدب.

لقد بدأت الفترة البرلينية بداية تعد بالآمال والوعود الزاخرة. فقد استطاع شيدر الآن أن يوجد مع كثير من أصدقائه (ك. ه. بيكر وف. بانغ وغيرهما) فى مكان واحد. كما أن زملاء القسم فى تلك الجامعة البارزة استقبلوه بحفاوة وود كبيرين. وأصبح «جاره» المباشر بعد حين استاذ الفاحص السابق فى بريسلاو وسلفه فى كونغزبيرغ ريشارد هارتمان (٦٥) Richard Hartmann وسرعان ما أصبح شيدر عضو الندوة الشهيرة «Kränzchen». ويدل فهرس اسماء ومواضيع أعضاء هذه الندوة (ويظهر اسم شيدر كثيراً فيه) الذى طبع عام ١٩٣٩ على مدى نشاط وأهمية هذه المؤسسة الخاصة التى أنشأها الاساتذة البرلينيون بالنسبة للتطور العلمى. وأصبح شيدر ناشر عدد كبير من المتسلسلات النثرية التى يجب أن نخص بالذكر منها «الأبحاث الايرانية Iranische Forschungen» و«امبراطورية المغول العالمية Das Mongolische Welt-reich». ومن مؤلفاته الخاصة فى تلك الفترة نذكر: تحقيقه ودراسته لنقوش آريارامنس الفارسية القديمة (٦٦)، ودراسته الخاصة بسلف ماني: باردسانس الرهاوى، وأربع دراسات من حقل الأديان الشرقية (زرادشت — المانوية — محمد فى OLZ ١٩٣٢، ص ١١٧٧-١١٨٥؛ و DLZ ١٩٣٢، ص ٢١١٣-٢١٢٧) وأخيراً الدراسة «ايرانىكا» (٦٧) Iranica ويذكر شكلها الخارجى بمؤلفه «دراسات ايرانية»: فهى تحتوى على مسألتين منفصلتين من حيث الزمان والمكان (وهما اللقب الأخيمنى «عين الملك»، ص ٣-١٩، والاسم الصينى 'Fu-lin' Rom من عهد T'ang، ص ٢٤-٦٨) وببحثان آخران أيضاً؛ وتتصل جميع هذه الموضوعات بالمانوية. وبفضل مقدرته الخاصة فى إيجاد الصلات والروابط، أدرك شيدر كلمة frwm فروم (Fröm) فى البارسية والصوغدية وهى الكلمة التى سبق لب. بيليوت (٦٨) P. Pelliot أن طالب بأنها الشكل الايرانى الشمال الشرقى لكلمة 'Rom' Hröm فى الايرانية الوسطى وهى الكلمة التى يقوم عليها اسم Fu-lin الصينى. والمهم أيضاً البحثان الآخران حيث يبحث فى الأول (بالننى) مسألة التعيميد المانوى المزعوم (ص ١٩-٢٤)، وفى الثانى يتناول بالبحث مذهب الديناوارية التابع للمانوية

الشرقية. واستطاع أن يبرهن بالحجة القاطعة أن مؤسس هذا المذهب هو سداد أورمزد حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. لقد ختم شيدر محاضرة افتتاح مدرجه التدريسي في جامعة لاينزغ بعنوان «فكرة تاريخ الأديان الشرقية» (٥/٣١/١٩٣٠)؛ لم تنشر؛ وكان شيدر قد جاء إلى لاينزغ خلفاً لـ أ. فيشر (٧٢) (A. Fischer) بالكلمات التالية: «إن الحوار بين المسيحي والإنسانى هو الموقف الذى تواجهه حياتنا الفكرية». ولم تكن هذه الحملة مجرد كلمات «أكاديمية» فحسب، وإنما كانت اعترافاً ذاتياً عما يؤمن به بنفسه. وعندما نطق بهذه الكلمات كان الاتجاه المسيحي الذى بدأ فى بريسلاو قد ولى. وكان الجانب الإنسانى هو الفائز فى الصراع. وكانت فكرة الثقافة الإنسانية قد طرحت على شيدر بواسطة غوته، الذى كان قد تمكن من اختيار سعة افق النبوءى من قبل أثناء عمله على أطروحة اجازة التدريس الجامعى حول حافظ وشعره: ونعنى بذلك حكم غوته على شعر حافظ. لقد رافق الكتاب المقدس غوته — كما رافق شيدر — طيلة حياته؛ وكان — كشيدر أيضاً — يعرفه بجميع تفاصيله. ورغم أنه كان يعتبره وحى منزل من الله، ولكنه لم يكن بالنسبة مصدر الوحى الوحيد، تماماً كما كان شيدر يرى ذلك أيضاً فى تلك الفترة. وبذلك أصبح غوته بالنسبة لشيدر الضمانة الكبرى لديانة الفكر تلك، التى اعتقد أنها توحد فى ذاتها بين العلم والايمان.

ثم جاءت فترة ١٩٣٣ — ١٩٣٤. وبقى شيدر فى برلين وتولى مؤقتاً مهمة إدارة معهد الدراسات الشرقية (١٩٣٣ — ١٩٣٥). إنه لا يستطيع الحياة دون أن يتوفر لديه حقل واسع من النشاط والفاعلية، حتى وإن اضطر فى سبيل ذلك إلى دفع ثمن من التكيف للوسط الحديد وخداع النفس والتخلي عن امتلاك خط واضح. وأخذت الصراعات الداخلية تشوش عليه وقدرته على التركيز. ورغم أنه نشأت مساهمات هامة فى حقل تاريخ اللغة والكتابة الايرانية (٧٢)، وفى حقل النقوش الايرانية (٧٤)، ودراسات تاريخية — طبوغرافية مليئة بالآراء المحفزة (٧٥)، وتقييم لتعاليم زرادشت (٧٦)، ودراسة حول الزرقانية (٧٧)، ودراسات عن المانوية (٧٨) وعن المسيحية (٧٩)، وأبحاث عديدة، منها ما يعالج أيضاً مشاكل العالم الشرقى (٨٠) منها ما يتناول أبحاث الاستشراق الألمانية (٨١) — إلا أنه لم يكتب لأى من هذه الموضوعات المطروقة أن ينمو ويتربع. وهو فى جميع الصعوبات التى يواجهها يجد العزاء لدى غوته. فقد جذبا بسحر الشرق — ثم الشعور

بالغربة وعملية الاندماج فالابتعاد التاريخى ومحاولة انقاذ الذات باتخاذ «السلوك الانتاجى» فى زمن عاصف — هنا اكتشف شيدر عند غوته عدة مشكلات كمشكلاته نفسها. ومن أكثر المسائل أهمية بالنسبة لشيدر فى ذلك العهد مفهوم غوته حول تاريخ العالم (٨٢) — وهى المسألة التى كان عليها أن تصبح العمل «المنتج» الذى سيشغل شيدر منذ الآن. وإذا كان فى الماضى قد رأى التاريخ بالدرجة الأولى كتاريخ للأفكار والأديان، فقد أصبح التاريخ السياسى يحتل المرتبة الأولى الآن — وبعد أن شهد السلطة السياسية. وكعلمين يهتدى بهم فى هذا الاتجاه اختار ادوارد غيبون (٧٢) Edward Gibbon وليوبولد رانكه (٨٤) Leopold Ranke، وياكوب بوركههارت (٨٥) Jacob Burckhardt ويوليوس فلهاوزن (٨٦) J. Wellhausen وقلهم (فاسيلي فلاديميروفتش) بارتولد (٨٧) Vasilij Wilhelm Barthold Vladimirovič. وكان الموضوعان الرئيسيان: «الامبراطورية الفارسية الكبرى» و«محمد» (دخول العرب فى التاريخ العالمى). ولكن الموضوعين لم يتخطيا حدود الدراسات الأولية الصغيرة (٨٨). ومع ذلك فأنهما يستحقان القراءة حتى فى هذه الصيغة. وأود هنا أن أشير فقط إلى التفسير الذكى لعبارة «فى العام نفسه» فى نقش دارا. غير أن العمل على غوته و«ديوانه» جاء بثماره أيضاً. فقد نشأ من ذلك أعظم مؤلف له فى هذه الفترة: «تجربة غوته للشرق» (٨٩) «Goethes Erlebnis des Ostens»؛ وفى أعوام حياته الأخيرة رسم أن يصدر طبعة ثانية يوسع فيها الفصلين: «غوته والكتاب المقدس» و«النظرة الحياتية والشكل الوجدانى عند حافظ».

ثم جاءت فترة غوتنغن وهى فترة الهبوط (١٩٤٦ — ١٩٥٧). فقد ذكرته الاعوام التى اعقبت الحرب العالمية الثانية كثيراً وبصورة حية جداً بتجاربه كطالب يبحث عن الحقيقة بعد انهيار الدولة والعقيدة السائدة بعد الحرب العالمية الأولى. وهكذا فقد رأى من واجبه أن يسعف هذا الشباب بالعون فى المحاضرات العامة ذات الصبغة الانسانية من حقل التاريخ الفكرى والتاريخ السياسى الأوروبى والأوروبى الاسيوى. وقد سعى بوجه خاص إلى تمهيد الطريق أمام الجيل الجديد من مواطنيه للتعرف على ت. س. إيليت وعلى المؤرخ الجامع ا. ج. توينبى A. J. Toynbee. وكثيراً ما كان مزاجه يدفعه إلى التفوه بأقوال لا مبالاة فيها، كانت تفهم خطأ أحياناً، وتثير له المتاعب الكبيرة من جهات مختلفة، وكان من نتيجتها أيضاً أنه منع عن لقاء الخطب مدة عام تقريباً. وقد سبب له هذا

وغيره من التجارب المأساوية شعوراً بالأسى والكدر، وأضيف إليه المرض والآلام العضوية التي لم يعد قادراً على الخلاص منها. وبذل محاولات يعثر بها التشنج لتحقيق جزء من مشاريعه على الأقل. إلا أنه لم يتمكن من تأليف بحث جديد عن أناشيد الـ Gathas الزردشتية على الورق، ولا من تحقيق مشروعه الكبير في تأليف دراسة تاريخية حول دخول العرب في التاريخ العالمي؛ ولم يعرف إلا فصل منه على شكل محاضرة، وهو الذي عالج فيه القبائل الآوارية الآسيوية Avaren. ولم تتحقق كذلك محاولاته لوضع كتاب في قواعد الفارسية الوسطى ودراسة حول التصوف الإسلامي، كما لم يتمكن من تأليف بحث شامل جديد عن المانوية استناداً إلى المصادر الجديدة (١٠).

كانت آخر تجربة شعرية لشيدر هي أعمال ت. س. ايليوت التي تعرف عليها منذ عام ١٩٤٦. وأصبح ايليوت بالنسبة له ما كانه هوفمزنال في فترة بريسلو-كونغزبيرغ وما كانه غوته في الفترة البرلينية. وبذلك نشأت دراساته العديدة حول ايليوت وكذلك الكتاب الذي اشترك مع زوجته في تأليفه «طريق إلى ت. س. ايليوت Ein Weg zu T. S. Eliot» (هامن، ١٩٤٨، ١٦٠ صفحة). أما الشيء الذي فتن شيدر في ايليوت فهو التغلب بقوة الشعر على عصره وأهواله في «الرباعيات الرابع». فكما فعل بيتهوفن في رباعياته الأخيرة: السموفوق صعيد الموسيقى بوسائل الموسيقى نفسها، أراد ايليوت أن ينير بوسائل الشعر عالمًا ساميًا أعلى من مستوى الشعر نفسه، لا يمكن ادراكه إلا بالایمان. وهنا يظهر التحول الديني لأول مرة، ذلك التحول الذي يتم في شيدر نفسه في أعوامه الأخيرة. ويتحقق ختام ذلك بانتقاله إلى المذهب الكاثوليكي عام ١٩٥٥.

كتب شيدر في رثائه لما ركضت عام ١٩٣٠: «لم يكن معلماً في المعنى المألوف للكلمة. ومن حضر محاضراته ودروسه كمتدئ أصيب بالدوار. ولكن كلما حاول المرء أن يتعلم عنده، كلما ازداد فهمه له.» (١١) غير أن هذه الكلمات تنطبق تماماً عليه نفسه. إذ أن كاتب هذه السطور يستطيع أن يشهد أنه في درس واحد لمدة ساعتين في مادة الفارسية الوسطى حدث «عرضاً وبالمناسبة» تناول مسائل أخرى أيضاً كمشاكل الأدب الفرنسي الحديث، وتاريخ الصين القديم، والتاريخ الروسي، وتصنيف اللغات الأفريقية وغير ذلك، تبعها نقاش لآراء شبنجلر وف. ل. أندرياز ودوستوفسكي وغيرهم أيضاً. ولم يكن لشيدر تلامذة أتباع. ومن استطاع أن «يصمد» لديه، كان

لا بد أن يكون قد جاءه وهو باحث ثام الأعداد. ورغم أنه يوجد عدة علماء يشعرون بالانجذاب إليه، ويقدرونه كأستاذهم — إلا أنه لا توجد له مدرسة مستقلة به. فقد كان أكثر عالمية وأوسع شمولاً من أن يعطي مدرسة ما اتجاهًا معيناً. وكان شديد التركيز على نفسه شديد الاندفاع. وكان يعيش دوماً بين الحدود المتطرفة. وقد اشتهرت الألقاب الوصفية «Epitheta» التي كان يبدعها من وحى اللحظة ويسجلها كتابة فوراً، وكان يصف فيها أفكار شركائه في البحث، وتلاميذه أيضاً. وكان بحثة الدائم عن «المواهب الجديدة» الناجم عن حسه الفطري يؤدي إلى إحساس «ذوى مواهب الأمس الجديدة» بالكبت والإهمال لإزاء «مواهب اليوم» و«الغد»، رغم أن استعداداته الودى للعون وحبه للضيافة لم يكن لهما حد. غير أن كل لقاء معه، سواء أكان ذلك في الدرس، أم في منزله، كان دوماً تجربة لا تنسى، واثراً للمعرفة وتصحيحاً للرؤية وحافزاً لاكتشاف أفكار جديدة (١٢).

إن قائمة من المؤلفات المهداة إليه وأسماء مؤلفيها الذين يمثلون حقولاً مختلفة عديدة لتعتبر أفضل دليل على تأثيره على البيئة المحيطة به:

1926: Joachim Wach, Die Typenlehre Trendelenburgs und ihr Einfluß auf Dilthey. Tübingen.

Eberhard Zwirner, Zum Begriff der Geschichte. Eine Untersuchung über die Beziehungen der theoretischen zur praktischen Philosophie, Leipzig.

1928: Martin Plessner, Der Oikonomikos. Heidelberg.

1931: C. H. Becker, Das Erbe der Antike im Orient und Okcident, Leipzig.

Julius Stenzel, Metaphysik des Altertums. München und Berlin.

Wilhelm Eilers, Gesellschaftsformen im alt-babylonischen Recht, Leipzig.

Günther Raphael, Quartett Nr. 3 in A-dur für 2 Violinen, Viola und Violoncell. Op. 28, Leipzig.

H. S. Nyberg, Hilfsbuch des Pehlevi, II. Glossar, Upsala.

1934: P. Kraus, Beiträge zur islamischen Ketzer-geschichte. Das Kitāb az-zumurrud des Ibn ar-Rāwandī, Rom (Rivista, Bd. 14, 93-379).

Hans Jakob Polotsky, Abriß des manichäischen Systems. Stuttgart. (Pauly-Wissowa, Real-Encycl., Suppl, VI, 241-72)

1943: Bertold Spuler, Die Goldene Horde, Leipzig.

وبعد وفاته:

لقد كان شيدر يتمتع بطلاقة في أغلب اللغات الأدبية الأوروبية والآسيوية (بما في ذلك الروسية والصينية). إلا أنه كان كذلك بليغاً في الألمانية - وهو شئ نادر في تاريخ أدب الاستشراق! وكان حماسه للروائع العلمية التي كان يبدعها زملاؤه في الاختصاص من الاجانب يبلغ حداً بحيث لم يكن يعتبر الأمر مضيقاً للوقت في أن يترجم دراسات موسعة بكاملها إلى الألمانية ليتيح بذلك الفرصة أمام الاوساط المثقفة الألمانية للاطلاع على هذه الكنوز^(١٢).

لقد كتب صحافي سويسري عام ١٩٢٨ بمناسبة محاضرة

ألقاها شيدر في زوريخ ما يلي: «إن الجمهور العام لا يعرف حتى الآن إلا جزءاً يسيراً من علمه ومعارفه... إلا أن قسماً كبيراً منها يمكن كعود ضخمة أو مشاريع لم يكتمل أكثر من نصفها، وكل ذلك أجزاء من برنامج هائل لا يمكن لإنسان واحد أن يحققه إلا إذا اقتصد في قواه بعناية. وهنا يمكن الخطر؛ إذ أن قوة هائلة مدمرة للذات تنبض في جوانح شيدر؛ وهي تترك في كل لحظة في نقده، إلا أنها، كما أكد لي وكما اعتقد، أكثر ما تكون تأثيراً في محاضراته وإلقائه الشفوي.»^(١٤)

ومما يؤسف له أن الأمر حدث كما تنبأت به هذه الكلمات العرافة. مما يؤسف له؟ كلا، إذ لم يكن بالوسع أن يكون الأمر غير ما كان عليه! ونحن، الذين كان من حظنا أن نشهد شيدر، مدينون لهذا النبؤ في أن تصبح هذه الأجزاء الرائعة تراثنا المشترك.

ترجمة: محمد علي حشيشو

تعليقات

بالنصف الاسلامي. وقد حاول ماسينيون كسحي متمسك بالكاثوليكية أن يوجد للاسلام مكاناً خاصاً في التاريخ الديني المسيحي. ألف دراسة عن الحلاج وكتبها أخرى عن التصوف الاسلامي.

(٨) أوتو براون: شاعر وأديب ولد عام ١٨٩٧ وتوفي عام ١٩١٨ ضحية الحرب العالمية الأولى وهو في الحادية والعشرين. أمه ليلي (Lily Braun) أديبة وكاتبة مذكرات وزعيمة في الحركة النسائية الاشتراكية.

(٩) بوزوني: موسيقار وعازف بيانو ولد عام ١٨٦٦ في إيطاليا وتوفي عام ١٩٢٤ في برلين. اشتهر أثناء جولاته الموسيقية في أوروبا وأمريكا وأقام في برلين منذ عام ١٨٩٤ ثم في زيوريخ (١٩١٥-١٩١٩). منذ عام ١٩٢٠ أصبح استاذاً للتأليف الموسيقي في الأكاديمية البروسية للفنون في برلين. حاول في مؤلفاته الأخيرة مواصلة التقاليد الموسيقية الكلاسيكية بوسائل موسيقية تقدمية حديثة.

(١٠) هانز بفتز: موسيقار ألماني. ولد في موسكو عام ١٨٦٩ وتوفي في زالتزبورغ عام ١٩٤٩. يمثل فترة الرومانتيكية المتأخرة رغم أن تأليفه تمتاز بفردية شديدة وتنوع في التركيب النغمي. عمل في تدريس التأليف الموسيقى والقيادة الموسيقية في برلين وستراسبورغ وميونيخ وفيينا.

(١١) ماكس ريجر: موسيقار ولد عام ١٨٧٣ وتوفي في لايبزغ عام ١٩١٦. عمل في تدريس الموسيقى في فيسبادن وميونيخ ثم انتقل إلى لايبزغ. برز كمؤلف بيانو وارفون وأبدع في تأليفه الخاصة بموسيقى الارغن.

(١٢) رودلف بورشارت: شاعر ولد عام ١٨٧٧ وتوفي عام ١٩٤٥. درس اللاهوت واللغات القديمة وعلم الآثار؛ وكان صديقاً لهوفنزنال (انظر تعليق ٣١). امتاز بقوة تعبير لغوي نادرة وكان خطيباً أليماً حريصاً على تراث الحضارة الغربية.

(١٣) جيورج ياكوب: مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام. ولد عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل واهتم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول مترج العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب. (انظر فكر وفن ١١)

(١) كارل ياكوب بوركهاردت: مؤرخ وديبلوماسي وكاتب سويسري ولد في بازل عام ١٨٩١. انتدبه عصبة الأمم في دانزيغ من ١٩٣٧ حتى ١٩٣٩. أصبح رئيساً للصليب الأحمر الدولي من ١٩٤٤ حتى ١٩٤٨، ثم وزيراً مفوضاً في باريس من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩ له عدة مؤلفات ادبية وتاريخية.

(٢) من مقال نشره بوركهاردت حول هانز هاينريش شيدر في الصحيفة السويسرية Die Tat, Zürich, 25. 3. 1957.

(٣) فيرنر جيجر: عالم باللغات القديمة ولد في منطقة راينلاند عام ١٨٨٨ وتوفي عام ١٩٦١. عمل استاذاً في بازل وكيل وبرلين وشيكاغو وكامبردج (ماساتشوستس). برز بوجه خاص بفضل دراساته في الفلسفة اليونانية وتاريخ الفكر اليوناني.

(٤) فريتز كيرن: مؤرخ ولد في شتوتغارت عام ١٨٨٤ وتوفي في ماينز عام ١٩٥٠. أصبح عام ١٩١٤ استاذاً في فرانكفورت على الماين ثم انتقل إلى بون عام ١٩٢٢. انطلق من تاريخ الدساتير الويسطية وحاول وضع تاريخ عالمي للفكر.

(٥) ماكس فيبر: عالم اجتماعي ألماني ولد في إيرفورت عام ١٨٦٤ وتوفي في ميونيخ عام ١٩٢٠. عمل استاذاً في برلين وفرايبورغ وهيدلبرغ وفيينا وميونيخ. اشترك في تأسيس الحزب الديمقراطي الألماني وكان بفضل مؤلفاته المتفرقة أهم علماء الاجتماع في عصره وأقواهم نفوذاً. برز كذلك في تحليله للسلطة والسيادة وأسس ما يدعى بعلم الاجتماع الديني. أهم أعماله «الاقتصاد والمجتمع».

(٦) برونو مايسنر: عالم بالآشورية والآثار القديمة ولد عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٤٧. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً مساعداً في هاله واشترك في ١٨٩٩/١٩٠٠ في حفريات بئنة الآثار الألمانية في بابل. ثم انتقل لتدريس العربية في المعهد الشرقي في برلين وأصبح منذ عام ١٩٠٤ استاذاً في برينسلاوموند ١٩٢١ في برلين.

(٧) لوي ماسينيون: مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٨٣ وتوفي في باريس عام ١٩٦٢. كان استاذاً في معهد كوليج دو فرانس ومن أشهر العارفين

رئيسياً للطباعة والرمزية النموية. وقد كان لتعاون الوثيق مع الموسيقار ريتشارد شتراوس أهمية كبيرة للمسرح الموسيقي الحديث. تنعكس من أعماله بوجه عام جهوده الكبيرة للحفاظ على تراث الفكر الأوروبي.

(٣٢) رودلف ألكساندر شرودر: شاعر ورسم ولد عام ١٨٧٨ في مدينة برمين. كان صديقاً لهوفمانزثال وبورشارت. تأثر بفكرة «الثورة المحافظة» التي اقتبسها من هوفمانزثال وأصبح حريصاً على الحفاظ على تراث الفكر الغربي القائم على النظم المسيحية والكلاسيكية الأوروبية.

(٣٣) ت. س. إيليوت: شاعر وناقد إنجليزي ولد عام ١٨٨٨ في سانت لويس بالولايات المتحدة. درس في هارفارد وباريس واكسفورد وألمانيا. أصبح عام ١٩٢٧ مواطناً بريطانياً وفاز عام ١٩٤٨ بجائزة نوبل للأدب. يعتبر أهم شعراء إنجلترا المعاصرين وأقلام أثر. تأثر بالرمزية الفرنسية وشعر دائي و«الشعراء الميتافيزيقيين» وألف أشعاراً معقدة البناء غنية بالرموز والتشابه والامامات تظهر الأزمة الفكرية التي يجتازها العالم المعاصر (The Waste Land, 1922) ثم أعقب ذلك فيها بعد شعر يكشف عن احتمالات الخلاص والتغلب على الزمن باللازني (Ash-Wednesday, 1930; Four Quartets, 1943) ويسمى إيليوت إلى تجديد الدراما الشعرية الإنجليزية ويمارس، كشاعر، ومن صفحات مجلة «Criterion» التي يشرف عليها، تأثيراً كبيراً على الأدب الأوروبي. غير أنه محافظ في نقده الاجتماعي.

(٣٤) انظر الملاحظة ١٣.

(٣٥) هيلموت ريتز: مستشرق معروف عاش بين ١٨٩٢ و ١٩٧١. عمل استاذاً في هامبورغ بين ١٩١٩ و ١٩٢٦ وفي استانبول عام ١٩٣٥. كان ممثلاً لجمعية المستشرقين الألمانية في استانبول من ١٩٢٧ حتى ١٩٤٩. عضو المجمع اللغوي في دمشق وخبير كبير في الشعر الصوفي العربي والفارسي. انظر كلمة رثائه في مجلة فكر وفن ١٨.

(٣٦) بناء على بحث الكفاءة التدريسية الجامعية ألف فصل: Lebensansicht und lyrische Form bei Hafiz في كتاب شيدر: Goethes Erlebnis des Ostens الصادر في لايبزغ عام ١٩٣٨ (ص: ١٠٥ - ١٢٢ و ١٧٣ - ١٧٨). انظر أيضاً

„Die persische Vorlage von Goethes Seliger Sehnsucht“ in: Festschrift E. Spranger, Berlin 1942, 93—102.

وكذلك „Läßt sich die seelische Entwicklung des Dichters Hafis' ermitteln?“ in OLZ 1942, 201—10.

(٣٧) ماسيه: مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٨٦ وعمل استاذاً في كلية الآداب في الجزائر ثم مديراً للمعهد الوطني للغات الشرقية حتى عام ١٩٥٨. نشر عدة كتب تتعلق بالأدب الفارسي توفي عام ١٩٧١.

(٣٨) ج. بيرجسترير: عالم باللغات السامية عاش بين ١٨٨٦ و ١٩٣٣. عمل استاذاً في استانبول عام ١٩١٥ ثم في كونغزبيرغ وبريسلاو وهایدلبرج. يعتبر خبيراً بالشرح الاسلامي أيضاً.

(٣٩) رودلف كيتل: لاهوتي بروتستانتي عاش بين ١٨٥٣ و ١٩٢٩. (٤٠) ألفريد هيلبيرانت: عالم بالسكسكريتية عاش بين ١٨٥٣ و ١٩٢٨. اهتم بوجه خاص بأدب الفيدا.

(٤١) ف. تومسن: باحث لغوي دانمركي عاش بين ١٨٤٢ و ١٩٢٧ وعمل استاذاً في كوبنهاغن من ١٨٨٧ إلى ١٩١٣.

(٤٢) ه. فينكلر: مستشرق ألماني عاش من ١٨٦٣ حتى ١٩١٣.

(٤٣) يوهان فيلهلم بانغ-كاوب: عالم باللغات والآداب التركية والانجليزية عاش بين ١٨٦٩ و ١٩٣٤. درس في فرنسا وهولندا وإنجلترا عمل عام ١٩١٤ استاذاً للغة الانجليزية وآدابها في لوفن وفي عام ١٩١٧ استاذاً لعلم اللغة التركية في فرانكفورت ثم انتقل بعد ذلك إلى برلين. كرس جل اهتمامه لدراسة اللغات الفارسية والمغولية وتاريخ لغات الترك وساهم في تطوير الدراسات المتعلقة بالمناوية.

(٤٤) ي. شتنتزل: لم تتمكن من العثور على ترجمته.

(٤٥) ر. رايتشتاين: عالم باللغات القديمة ومؤرخ أدبان عاش من ١٨٦١ إلى ١٩٣١. عمل استاذاً في روستوك وجيسن وستراسبورغ وفرايبورغ وجوتنجن.

(١٤) رودلف شتاينر: مؤسس علم الانثروپوسوفى القائم على دراسة الفكر والروح. ويرى هذا العلم إلى توحيد علم الروح الهندي والافلاطونية والمسيحية والغنوصية والتصوف والمثالية الفلسفية والسحر في نظام موحد شامل. ولد شتاينر عام ١٨٦١ في كرواتيا وتوفي عام ١٩٢٥ بالقرب من بازل. اهتم كذلك بدراسة أعمال غوته ونيته.

(١٥) أوزفالد شينجلر: فيلسوف تاريخ (١٨٨٠ - ١٩٣٦) اشتهر بكتابه الرئيسي «انحطاط الغرب» الذي اعتمد فيه على آراء غوته ونيته في وضع فلسفة للتاريخ ونظرية تقييم للتطور التاريخي. ويتخلل شينجلر في نظريته إلى التاريخ عن الوضعية ويجادل ادراك التاريخ العالمي من خلال الفن والأدب، فبرى في ذلك حضارات ثمان، يعتبر كلا منها كائناً متكاملًا ذا روح خاصة به في طريق التطور ثم الزوال.

(١٦) Sonntagsblatt der Basler Nachrichten, 43. Jhg., Nr. 27, (16. 7. 1949).

(١٧) إيرلست ترولتش: لاهوتي وعالم اجتماع وفيلسوف تاريخ (١٨٦٥ - ١٩٢٣). أصبح عام ١٨٩٢ استاذاً في بون ثم انتقل عام ١٨٩٤ إلى هايدلبرغ وعام ١٩١٥ إلى برلين. احتل منصب امين الدولة في وزارة الثقافة البروسية عام ١٩٢٢.

(١٨) كارل هاينرش بيكر: مستشرق عاش بين ١٨٧٦ و ١٩٣٣. قام برحلات في افريقيا وتركيا وعمل استاذاً في هامبورغ وبون وبرلين منذ ١٩٣٠. أصبح عام ١٩٢١ وكذلك من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠ وزيراً للثقافة. له كتاب «دراسات اسلامية» في جزئين وكان يبدى اهتماماً خاصاً بقضايا المشرق والغرب في عصره.

(١٩) يوسف ماركشارت: مستشرق عاش من ١٨٦٤ إلى ١٩٣٠. كان استاذاً في برلين وكان اهتمامه موجهاً بشكل خاص إلى دراسة الجغرافية التاريخية لآسيا الوسطى وأرمينيا.

(٢٠) Sammlungen, Jhg. 1, 8, Göttingen, Mai 1946, 455.

(٢١) Ungar. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119.

(٢٢) Der Orient und das griechische Erbe, in „Antike“, Bd. 4, (22 226—65.

(٢٣) Neue Schweizer Rundschau, Nov. 1928, 807.

(٢٤) Antike, Bd. 4, 233.

(٢٥) Biologie der Person, Bd. 4, 1929, 913—55

راجع أيضاً: Die Leistung des Islam, in Z. f.

Missionskunde u. Rel. wiss., Bd. 46, 12, 1931, 353—81.

(٢٦) Die Biol. d. Person, Bd. 4, 923.

(٢٧) تيودور نولدكه: مستشرق ألماني كبير ولد في هاربورغ عام ١٨٣٦ وتوفي في كارلزروه عام ١٩٣٠. راجع المقالة التي نشرت عن حياته في مجلة فكر وفن، العدد ٤٩، ١٩٦٧ (السنة الخامسة)، ص: ٣٣ - ٤١.

(٢٨) بول أنتون دى لاغارد: مستشرق وفيلسوف حضاري (١٨٢٧ - ١٨٩١). عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية في غوتنغن وما زال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحليله لنصوص العهد القديم. اشتهر أيضاً بمقالاته السياسية التي تتناول النقد الحضاري والمشيعة بالروح القومية الرومانتيكية.

(٢٩) باستثناء قيام شيدر بنشر كتاب عزرا ونحميا في:

R. Kittel, Biblia Hebraica, 2. Aufl. 1937 und 3. Aufl. 1945, 1284—1324.

(٣٠) راجع التعليق رقم (١٢).

(٣١) هوفوفون هوفمانزثال: شاعر نمساوي عاش بين ١٨٧٤ و ١٩٢٩. قام برحلات إلى إيطاليا وفرنسا واليونان. درس الحقوق واللغات الرومانية وعاش في فيينا. أو قريباً منها. كانت أشعاره ومسرحياته الأولى تتسم بقوة الشعور والإيقاع الموسيقي وصوفية الموت والعدم. أصيب بحجة أمل شديدة في أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها فاخذ اهتمامه يدور حول قضايا الفكر والسلطة، الشعراء والزمن، والحفاظ على الفكر الغربي وخاصة الألمان. يعتبر هوفمانزثال كشاعر وابدائي ومؤلف مسرحي ممثلاً

وكونجيز بيرج وهایدلبرج وغوتنغن. اشتهر ببحوثه حول الاسلاميات وكتب مؤلفات حول التصوف والإسلام عموماً. انظر فكونف ٦.

(٦٦) Kränzchen (1929—39). Berlin 1—100, 1939. (٦٧) Über die Inschrift des Ariaramnes, SBAW 1931, 23, 635—45; SBAW 1935, 19, 494—96.

Z. f. Kirchengesch., 3. Folge, II, Bd. 51, 1—2, 1932, (٦٨) 21—74.

Iranica (Abh. d. Ges. d. Wiss. zu Göttingen, 3. Folge, (٦٩) Nr. 10), Berlin 1934.

(٧٠) ترجمت هذه الدراسة إلى الصينية.

(٧١) پ. پيليو: مستشرق فرنسي تخصص في لغات الشرق الأقصى وعاش من ١٨٧١ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩١١ استاذاً في الكوليج دو فرانس بباريس. احضر معه مخطوطات قيمة من رحلاته في آسيا الوسطى بين ١٩٠٦ و ١٩٠٨.

(٧٢) ا. فيشر: مستشرق ولد عام ١٨٦٥ في هاله وتوفي عام ١٩٤٩ في لايبزغ. درس في هاله وبرلين وماربورغ. عمل مدرساً للغة العربية منذ عام ١٨٩٦ في معهد اللغات الشرقية في برلين. ثم انتقل استاذاً الى جامعة لايبزغ حيث خلف المستشرق المعروف فلايشر في كرسى علم اللغات الشرقية. وكان فيشر عارفاً ممتازاً باللغة العربية ابتداء من الشعر الجاهلي حتى اللهجات الحديثة وقد قام بأبحاث قيمة لدراسة هذه اللهجات. انظر فكونف.

Beiträge zur iran. Sprachgeschichte, in Ung. Jahrb., (٧٣) Bd. 15, 1935, 560—88; Ein parthischer Titel im Soghdischen, BSOS Bd. 8, 1935, 737—49; Eine verkannte aramäische Präposition (bağan), OLZ 1938, 593—99; Ein indogerman. Liedtypus in den Gathas, ZDMG, Bd. 94, 1940, 399—408; Altpersisch aruvastam 'Rüstigkeit', OLZ 1940, 289—93; Die Veröffentlichung der Kopenhagener iran. Handschriften, OLZ 1940, 145—50; Mittel- und neupers. bāš 'sei!', OLZ 1941, 193—201; Beiträge zur mittelpers. Schrift- u. Sprachgeschichte, ZDMG Bd. 96, 1942, 1—22; Ein iran. Lehnwort in den Inschriften von Mānikīāla, ZDMZ Bd. 97, 1943, 330—32.

Über einige altpers. Inschriften, SBAW 1935, 489—506; (٧٤) Die Jonier in der Bauinschrift des Darcios von Susa, Jahrbuch d. Deutschen Archäol. Inst. 1932: 1/2, 269—74; Die Gründungsurkunden des Sassanidenreiches und der zoroastr. Staatskirche, ZDMG, Bd. 95, 1941, 14—18.

Türkische Namen der Iranier, Die Welt d. Islams, (٧٥) Festschrift F. Giese, 1941, 1—34; Zwei altiran. Ortsnamen, ZDMG, Bd. 96, 1942, 127—38.

War Daqiqi Zoroastrier?, in Festschrift G. Jakob, 1932, (٧٦) 288—303; Gott und Mensch in der Verkündung Zarathustras, in Corolla (Festschrift L. Curtius), 1937, 187—200; Zarathustras Botschaft von der rechten Ordnung, Corona, Jhg. 9, 1940; 6, 575—602.

Der iran. Zeitgott und sein Mythos, ZDMG, Bd. 95, (٧٧) 1941, 268—99.

Der Manichäismus und spätantike Religion, in Z. f. (٧٨) Missionskunde, Jhg. 50, 3, 1934, 65—85; Der Manichäismus nach neuen Funden und Forschungen, in Orient. Stimmen zum Erlösungsgedanken, 1936, 80—109.

Historische Theologie und Religionsgeschichte, Z. f. syst. (٧٩) Theologie, Bd. 9, 3 (Festschrift E. Schaefer), 1931, 567—79.

(٤٦) ه. س. نيرغ: مستشرق سويدي ولد عام ١٨٨٩ وعمل استاذاً في أوبسالا. له همة خاصة كعالم باللغات السامية والارامية القديمة.

Zur Deutung der islam. Mystik, in OLZ 1927, (٤٧) 834—48.

Die kleineren Schriften des Ibn al-ʿArabi, in OLZ; كذلك 1925, 794—99.

Zur Stifterlegende der Bektaschis, in OLZ 1928, وكذلك 1038—58.

Neue Quellen zum Verständnis der bāḫinitischen (٤٨) Bewegung, ZDMG, Bd. 78, 1924, LXXXVI—VII.

(٤٩) انظر ملاحظة رقم (٧).

(٥٠) تور أندريه: لاهوتي ومؤرخ أديان سويدي عاش من ١٨٨٥ إلى ١٩٤٧. عمل استاذاً في ستوكهولم وأوبسالا وأصبح اسقفاً في لينكوبينج عام ١٩٣٦. يعتبر عالماً طليعياً في العلوم الابلامية وله عدة مؤلفات عن الرسول وأصل الاسلام والمسيحية.

(٥١) ر. ا. نيكولسون: مستشرق انجليزى عاش من ١٨٦٨ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩٢٦ استاذاً في كامبردج. من أهم أعماله: التاريخ الادبي للعرب، ودراسات في التصوف الاسلامي.

(٥٢) ف. ف. ك. مولر: مستشرق الماني عاش من ١٨٦٣ إلى ١٩٣٠ واهتم بدراسة لغات الشرق الأقصى. قدم مساهمة كبيرة في فك رموز مخطوطات تورفان.

(٥٣) فريدرش كارل أندرياز: مستشرق مختص بالدراسات اليرانية. ولد عام ١٨٤٦ وتوفي في ١٩٣٠. ألف عدة أبحاث عن النقوش الفارسية الوسطى وعن اللهجات اليرانية الحديثة.

Das iranische Erlösungsmysterium, Bonn 1921; وخاصة: (٥٤) راجع أيضاً نقد شيدر في: DLZ 1922, 318—21.

Studien zum antiken Synkretismus, Teil II, (٥٥) انظر: Leipzig 1926 (Studien der Bibliothek Warburg 7), 203—355.

Vorträge der Bibliothek Warburg 4, 65—157. انظر: (٥٦) Ein Lied von Mani, OLZ 1926, 104—07; Manichäer und Muslime, ZDMG Bd. 82, 1928, LXXXVI—LXXXI; Manichäismus, RGG, Bd. 3, 1929, 1959—73.

Ein Mani-Fund aus Ägypten: Schmidt-Polotsky كذلك تعريف Gnomon, Bd. 9, 1933, 337—62.

Die Stellung der mand. (٥٧) أيضاً دراسة شيدر حول الصابئة. Überlieferung im orientalischen Synkretismus, Klio, Bd. 21, 1927, 441.

وذلك: Zur Mandäerfrage, OLZ 1928, 163—71.

(٥٧) لم نعث له على ترجمة.

Z. f. d. neutest. Wiss., Bd. 34, 1935, 85. (٥٨)

Esra der Schreiber, Tübingen 1930, VIII, 77. (٥٩)

Iranische Beiträge I, Halle, 1930, Schriften d. Königsb. (٦٠) Gel. Ges., 6. Jhg., H. 5, XI, 199—296.

Gnomon, Bd. 5, 1929, 353—70. (٦١)

Archiv f. Rel. wiss., Bd. 27, 3—4, 1929, (٦٢) انظر جواب رايتسنشتاين: 241—77.

Neue Schweizer Rundschau, 1929, H. 8, 573. (٦٣)

In memoriam Hugo von Hofmanns- نفس المرجع. كذلك thal, Antike, Bd. 5, 1929, 221—41.

(٦٤) قدمت أرملة شيدر لمؤلف هذه المقالة مساعدات كثيرة كفتح خزائن أرشيف زوجها ومراسلة أصدقائه القداى للحصول على تفاصيل عن مراحل حياته.

(٦٥) ريشارد هارتمان: مستشرق ولد عام ١٨٨١ وعمل استاذاً في لايبزغ

(٩٠) لم يستطيع أن يصدر إلا دراسات قصيرة أهمها:
Der Manichäismus und sein Weg nach Osten, in Glaube und Geschichte (Festschrift F. Gogarten), 1947, 236—54;
Des eigenen Todes sterben, Nachrichten der Akad. d. Wiss. in Göttingen aus d. J. 1945—47, 24—36; Die Kantäer, in: Die Welt des Orients, Heft 4, 1949, 288—98.

(٩١) Ung. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119.
(٩٢) يجد المرء في كثير من المؤلفات اشارات بأن الدراسات والأبحاث المعنية تمت بإيجاء من شيدر أو بمساهمة منه أو تعليقاً يقول بأن المؤلف مدين بالحل المعنى إلى بيان شغوى أو تحريري من شيدر حول المسألة المذكورة، كما فعل مثلاً ب. أ. فرانكه O. Franke في تاريخ الامبراطورية الصينية Geschichte d. chin. Reiches في المجلد الثالث، F. Altheim, Weltgeschichte Asiens im griech. Zeitalter, Bd. 1, Halle 1947, 53—54, Anm. 18.

وليبيان مدى اهتمام زملاء شيدر في البحث بمراسلاتهم العلمية معه — وقد كان شيدر حريصاً على الرد على رسائله برعاية وعناية — ما قاله ه. س. نيبيرغ Nyberg بهذا الخصوص: «إن الرسائل الطويلة التي كنت أتبادلها معه (شيدر) في هذه الاعوام، والتي لم تكن تبحث فيها Iranica وحدها فحسب، بل وكذلك كل ما يتعلق بالشرق والإله والإنسان على الاطلاق، كانت بالنسبة لي أغنى مصدر للعلم والحفر والسعادة الفكرية» (من كتاب Hilfsbuch des Pehlevi, Bd. 2, S. XIII).

(٩٣) أود هنا أن أذكر أهم الترجمات التي قام بها شيدر. فن اللغة الدانمركية ترجم ما يلي:

V. Thomsen, Alttürkische Inschriften aus der Mongolei, ZDMG Bd. 78, 1924, 121—75; S. Kierkegaard, Über den Begriff der Ironie, München 1929, 283 S.; F. Buhl, Das Leben Muhammeds, Leipzig 1930, 2. Aufl. Wiesbaden 1954, viii, 379 S.; V. Grønbech, Werke 1. Zeitwende; 2. Jesus der Menschensohn, Stuttgart 1942, 157 S.

ومن اللغة السويدية ترجم:

H. S. Nyberg, Die Religionen des alten Iran, Leipzig 1938, X, 506 S.; T. Andrae, Die letzten Dinge, Leipzig 1940, 2. Aufl. 1942, 240 S.

ومن الانجليزية:

A. D. Nock, Paulus, Zürich und Leipzig 1940, 203 S.; M. Rostovtzeff, Geschichte der Alten Welt, 2. Bde, Wiesbaden 1941—42, 500, 502 S.

ومن الإيطالية:

E. Rossi, Die Kulturarbeit Italiens im Nahen Osten, Der Nahe Osten, Jhg. 1, 8—9, 1940, 134—39.

ومن الروسية:

W. Barthold, Zur Geschichte der pers. Epos, ZDMG Bd. 98, 1944, 121—57.

E. H., Hans Heinrich Schaefer (Zu seiner Vorlesung am ٩ 4. Juni), in: Neue Zürcher Zeitung, Morgenausgabe 2. 6. 1928, Nr. 1007.

Geschichte der islam. Staaten, SA aus Propyläen- (٨٠ Weltgeschichte, 1933, Bd. 3, 211—48; Bd. 5, 511—52; Bd. 9, 237—98; Der Vordere Orient, in Handbuch der Kulturgeschichte, hrsgb. v. H. Kindermann, 1937, 161—250; Der Orient in der Zeitenwende, Corona, Jhg. 7, 3, 1936/37, 277—304; Imperium und Kalifat, Corona, Jhg. 7, 5, 1936/37, 540—63.

Deutsche Orientforschung, Der Nahe Osten, Bd. 1, (٨١ 8—9, 1940, 129—34; Orientforschung, Studien z. Auslandskunde, Bd. 1, 2, 1944, 75—84.

(٨٢) راجع بهذا الخصوص شيدر في طبعة E. Beutler لديوان الغربى الشرقى: West-östl. Divan, 1943, 788—805 وكذلك: Goethes Entdeckung der Geschichte und der Orient, in Neue Zürcher Zeitung, 28.8.1949, Sonderausgabe, SA, S. 18—20.

(٨٣) إدوارد غيبون: مؤرخ انجليزى عاش بين ١٧٣٧ و ١٧٩٤، واشتهر بمؤلفه تاريخ الخطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها. وقد كتبه بروح قولير الناقدة. ويحتوى على معلومات واسعة عرضت بأسلوب خلاب وحكم ثاقب.

(٨٤) ليوبولد فون رانكه: مؤرخ ألماني عاش بين ١٧٩٥ و ١٨٨٦. (٨٥) راجع التعليق ١.

(٨٦) يوليوس فيلهاوزن: مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتى، ولد في هاملن عام ١٨٤٤ وتوفى في غوتنغن عام ١٩١٨، ويعتبر اهم عالم مختص بالمعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت في غرايفزفالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢ ثم في ماربورغ وغوتنغن. له مؤلفات وأبحاث ممتازة في اللاهوت والمهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات اصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الاسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام». انظر نكر وفن.

(٨٧) فلهلم بارتولد: مستشرق روسي تخصص في تاريخ الأتراك ولغتهم وكذلك في تاريخ آسيا الوسطى عموماً. عاش بين ١٨٦٩ و ١٩٣٠ وعمل استاذاً في لئنفرد منذ عام ١٩٠١.

(٨٨) Das persische Weltreich. Vorträge d. Friedrich-Wilhelms-Universität zu Breslau, 1940/41, 39 S.;

وقد تترجم نفس الكتاب إلى الفارسية على يد الدكتور منشى زاده، طهران، ١٩٥٥، ص ٥٢؛ Muhammed, in Arabische Führergestalten, 1944, 1—72.

وكان أول بحث ألفه شيدر عن محمد قد ظهر عام ١٩٢٣ في: Kämpfer, Großes Menschentum aller Zeiten, Bd. 1, 115—38.

(٨٩) ظهر في لايبزغ عام ١٩٣٨. وما له صلة بهذا المجال أيضاً المقالات التالية: Der Osten im West-östlichen Divan, in GOETHE, Westöstl. Divan, hrsgb. v. Beutler, Wiesbaden, 1943, 2. Aufl. 1948, 787—839; Des Epimenides Erwachen, in Goethe-Kalender auf das Jahr 1941, 219—63;

ثم الخطاب الاحتفالي في كوتنن: S. 15, 1949, Goethe als Mitmensch.

أنو ليتمات

(١٨٧٥ - ١٩٥٨)

بقلم : الأستاذ رُودي بَاريت

من نصيب اللغات الشرقية بوجه خاص. ولكن بما أن الاستشراق وحده لم يكن آنذاك أيضاً ليفتح المجال لمستقبل مضمون فقد اختار علم اللاهوت كفرع مهني. وفي ربيع عام ١٨٩٨ اجتاز في جامعة هاله امتحان التعليم الثانوي بمادتي اللاهوت والعبرية كفرعين رئيسيين، والألمانية واللاتينية والانجليزية كفروع ثانوية. ثم تقدم في صيف العام نفسه لأداء الامتحان النهائي الوحيد في الدراسات الشرقية وهو امتحان الدكتوراة في الفلسفة استناداً إلى أطروحة حول الفعل في اللغة التكرية. وفي شتاء ١٨٩٨/١٨٩٩ قضى ليمان فصلاً دراسياً إضافياً في جامعة ستراسبورغ لدى المستشرق الأصل الألماني والعالمي في الوقت نفسه تيودور نولدكه Theodor Noeldeke^(٨)، جد زوجته فيما بعد.

وفي هاله تصادق مع الأمريكي الشاب W.K. Prentice^(٩)، وهو طالب كان يدرس اللغات الكلاسيكية. ومن هذه الصداقة نشأت علاقة متينة بجامعة برنستون. وحصل على فرصة ثمينة وهي الالتحاق بعضوية حملة استكشافية أثرية لهذه الجامعة نفسها من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٠ في أول رحلة أبحاث إلى سوريا وفلسطين. وفي عام ١٩٠١ استدعي ليحاضر في برنستون، وفي عام ١٩٠٤ أوفد من هناك للمرة الثانية في حملة استكشافية أمريكية إلى اثيوبيا، لكنه لم يمكث فيها حتى النهاية، إذ حصل من برلين أثناء طريقه في تلك الرحلة على أمر مشرف وهو أن يرأس حملة استكشافية ألمانية برعاية الامبراطور فيلهلم الثاني إلى أكسوم.

وبينما مكث ليمان في اثيوبيا كرئيس لحملة أكسوم الألمانية هذه حصل عام ١٩٠٦ على استدعاء من جامعة ستراسبورغ ليشغل كرسى الدراسات الشرقية كخلف لاستاذة الذي احيل على التقاعد، تيودور نولدكه. ولبي هذا الاستدعاء بكل بهجة وانهى بذلك شطراً من حياته ملياً بالرحلات الاستكشافية. ومن عام ١٩٠٦ حتى تقاعده

في عام ١٩٥٨ ذكرت الصحافة والاذاعة في كثير من التقدير رجلين شهيرين من أولدنبورغ مرات عديدة: وهما استاذ الفلسفة في جامعة بازل كارل ياسبرز Karl Jaspers^(١)، الذى بلغ آنذاك الخامسة والسبعين عندما منح جائزة السلام لهيأة تجارة الكتب الألمانية، واستاذ اللغات الشرقية في جامعة توبنجن إينو ليمان عندما وافته المنية عن اثنين وثمانين عاماً في الرابع من مايو من ذلك العام. وقد غرس العالمان بشخصيتهما وأعمالهما قطعة من طبيعة ألمانيا السفلى في الجنوب الغربي من البقاع الناطقة بالألمانية وجعلها تشع على العالم كله من وطنهما الجديد. وكان كلاهما، رغم اختلاف وجهات نظرهما تماماً، يسعيان طيلة حياتهما إلى إدراك ماهو حقيقى واقع وإلى الاعتراف به في واقعه هذا.

ولد إينو ليمان في السادس عشر من سبتمبر عام ١٨٧٥ لصاحب مطبعة في أولدنبورغ. أما أمه فقد انحدرت من اسرة ألمانية فريزية. وفي مدينة أولدنبورغ نفسها قضى مع اخوته واخواته التسعة فترة شبابه الأولى. وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والثانوية وألم بالعبرية ومبادئ الإيطالية والعربية والسريانية والفارسية وتعلم الألمانية السفلى على يد عم له كان يعيش في الريف، التحق في الأعوام ما بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ بجامعات برلين وكرايفزفالد وهاله. وكان من اساتذته العالم بالعهد القديم إميل كاوتش Emil Kautzsch^(٢)، والمؤرخ ادوارد ماير E. Meyer^(٣)، واستاذ اللغات الألمانية أوتو بريمر Otto Bremer^(٤)؛ وكان بينهم من المستشرقين استاذ اللغة الحبشية أوغست ديلمان August Dillmann^(٥)، وفرانتز بريتوريوس Franz Praetorius^(٦)، الخبير في حقل علم اللغة الحبشية وقراءة النقوش السامية والنحو والوزن الشعرى العبرى، وأخيراً جيورج ياكوب Georg Jacob^(٧)، واحد من أكثر ممثلى الاستشراق تعدداً في الاهتمامات وخصوصية في الأفكار واستقلالا في الشخصية. وكان حب الطالب الشاب



Enno Littmann.

اينو ليتمان.
نشكر السيدة إلزا ليتمان بتوبنجن لإرسالها إلينا هذه الصورة.

في اللغات الأصلية أو بصيغ مترجمة. كما أن ترجمة ألف ليلة وليلة في مجلداتها الست وفي لغة دقيقة واسلوب فني رائع، يمكن كذلك أن تنسب إلى حقل اهتمامه وعمله هذا.

وإلى جانب كل ذلك فهناك عدد كبير من الحقول الجانبية التي أجرى ليتمان فيها بحثاً علمية: كالعهد القديم والحديث والاسلام واللغة التركية ولغة الغجر والألمانية السفلى وغير ذلك كثير. وإن فهرس المؤلفات الواسع الذي أعده انتون شال Anton Schall (١٢) والذي نشر عام ١٩٥٥ في المؤلف التذكاري «قرن من الاستشراق» بمناسبة العيد الثمانين للمستشرق الكبير ليشير إلى اتساع وعمق إنتاجه العلمي. فكثيراً ما تحتوى متنوعاته الصغيرة معارف وتفسيرات لغوية هامة. وقد أفاد كثيراً وبوجه خاص فيما كان ينقده من الكتب بأسلوب واضح متحفظ نقاد. وأخيراً،

عام ١٩٥١ ظل يعمل استاذاً نظامياً للدراسات الشرقية في الجامعات الألمانية. وحتى عام ١٩١٤ ظل يدرس في ستراسبورغ - مع فترتي انقطاع قضى الأولى منهما وهو يحاضر في جامعة القاهرة الحديثة آنذاك، والثانية في تركيا لحل رموز النقوش الليدية التي وجدت في ساردس - وعمل من ١٩١٤ حتى ١٩١٦ كمخلف لقلهاوزن J. (١٠) Wellhausen، في غوتنجن، ومن ١٩١٨ حتى ١٩٢١ كمخلف لبيكر C. H. Becker (١١) في بون، وابتداء من ١٩٢١ كمخلف لزايبولد Chr. Fr. Seybold (١٢) في توبنجن. ومن جامعة توبنجن كان يمضى عدة مرات خلال الحربين إلى القاهرة والاسكندرية لالقاء محاضرات علمية وللإشتراك في جلسات المجمع اللغوي في القاهرة. ولكن وطنه الثاني ظل تلك المدينة الجامعية السوادية. وقد رفض أثناء عمله عروض من جامعات برلين وهاميدلبرغ وميونخ وبالتييمور وغوتنجن.

وكان اتجاهه الاختصاصي ضمن حقل الاستشراق الواسع نتيجة موهبة لغوية فردية هذبت منذ الصغر، وتأثير متواصل عميق الأثر من اساتذته المستشرقين ديلمان وبريتوريوس ونولدكه. وقد حدد هذا الاتجاه أكثر بعد إنهاء دراسته بفضل رحلاته الاستكشافية وما نجم عنها من مهمات ووجهات نظر خاصة. وقد تركز اهتمامه وجهده العلمي على فك رموز النقوش السامية. وكان يعمل بلا هوادة وفي دقة متناهية على حل النقوش التدمرية والنبطية والسريانية والعبرية والعربية والآثيوبية وشرحها. وقد عمل بخبرة متناهية كذلك على حل النقوش السبئية واليونانية واللاتينية والليدية وتفسيرها. ومن اهتماماته العلمية الكبيرة أيضاً حقل اللغات الحبشية الواسع الذي لم يتطرق إليه إلا القليلون. فبالإضافة إلى اهتمامه بالآثيوبية وهي اللغة الكلاسيكية المنجى إلى البحث في اللغة الامهارية الحديثة وكذلك في لغة غاللا، والهرري وتيجرينيا وخاصة لغة تيجري. ولم يقتصر في ذلك على الحقل اللغوي البحث، بل عالج كذلك مسائل الوزن الشعري والأدب («فن شعر الغالا» و«تاريخ الأدب الآثيوبي») وأوضاع آثيوبيا الحديثة على اختلاف أنواعها. وقد اهتم بوجه خاص بجمع الأشعار الشعبية والمواد الفولكلورية بوجه عام من البلاد التي كان يزورها أي من البقاع الناطقة بالحبشية والعربية، كما كان مهتماً بتقديم هذه المواد للقراء عن طريق ترجمتها ما وسعه ذلك. وهنا يمكن جانب هام آخر من جوانب نشاطه العلمي. فنحن مدينون إلى ولعه الشديد بالجمع والنشر فيما نملك اليوم من عدد كبير من النصوص العامية، العربية والحبشية،

لا بد أن نذكر في هذا الخصوص أيضاً عمله كمكشوف على إصدار الفهرس الحبشي Bibliotheca Abessinica (من ١٩٠٤ حتى ١٩١١) ومجلة الدراسات السامية (من ١٩٢٢ حتى ١٩٣٤).

إن الكتب والمقالات التي ألفها ونشرها ليمان خلال حياته المديدة ستخلد وتثمر في الدوائر المختصة وغيرها أيضاً. ولكن صورة هذا العالم الكبير لن تتم إذا نسينا فيه الإنسان الحيوى النشط. إذ لم يكن استاذ اللغات الشرقية في توبنجن عالماً جافاً. بل إنه كان يتمتع بموهبة نادرة وهي قدرته على تمثيل النوادر والتجارب والمواقف التي شهدتها أثناء ترحاله وتجوّله بأسلوب تمثيلي بارع، وإعادة من الذاكرة في تصوير يكاد يشبه الحقيقة. وكان يسبغ بذلك جواً من الانفراج والمرح على طلابه وينقلهم بطريقة مسلية إلى أوساط شرقية خالصة. وكان في الأحاديث الخاصة سيداً في رواية النوادر والملح وفي تقليد اللهجات بفضل مواهبه اللغوية النادرة. وكان يحب العشرة المرحّة الطبيعية بوجه عام، وخاصة في الندوات الصغيرة. وكانت تربطه أواصر الصداقة بعدد كبير من الرجال حتى بعد فترة عزوبته. وبعد زواجه واصل عشرة أصدقائه في إطار الأسرة، وراح يستقبل الزائرين القادمين من قريب وبعيد في منزله الجميل في شارع موريكه ويستضيفهم على الرحب والسعة. وكانت تروى الأقاصيص والأحاديث الدكية في الأمسيات الطويلة أثناء تدخين الغليون أو السيجار واحتساء كأس من الخمر.

ولم يكن ليمان يهوى الإفراط في الكد. وكان متحفظاً في الأمور الشخصية ويكاد يكون خجولاً إزاءها. ولم يكن يتحدث كثيراً عما كان يثبته في أعماق نفسه. ولكن طبيعته الأصيلة كانت تشع بوضوح لا غموض فيه جواً من الصفاء والجلال. وفي كثير من طيب العنصر وحب المساعدة والمسألة والتواضع على غير جهل بقدره الحقيقي، أصبح المستشار السرى البروسى، ذو القامة المديدة والرأس الذى يشع تعبيراً وفكراً ثاقباً، أصبح مع مرور الأعوام والأجيال السيد الجليل الحقيقى للاستشراق الألمانى. وقد تعرف أثناء رحلاته الكثيرة على عدد كبير من البشر في الشرق أيضاً. وبفضل قدرته على محادثة أهل البلاد بلغتهم الأصلية، وبفضل اهتمامه العلمى والانسانى بأعمالهم ومشاكلهم لم يكسب احترامهم واعجابهم الشديدين فحسب، بل ونال حبهم وصداقتهم أيضاً.

وخلافاً لمواطنه ياسبرز، لم يكن ليمان يهتم بالفلسفة.

كما أن القضايا اللاهوتية لم تتراهته رغم دراسته اللاهوتية. ويمكن اعتباره بشئ من التحفظ ابناً متأخراً من أبناء عهد التنوير العقلى وتابعاً من اتباع المذهب الوضعى. وكان دافع المعرفة العلمية لديه يشق من حيث المبدأ سبيل الطريقة الاستقرائية. وكان يهتم بالدرجة الأولى بالحقائق القائمة سواء كانت نقوشاً أم أشكالاً لغوية أم مواد فولكلورية. فكان يسعى إلى ايضاحها وتفسيرها متجنباً بقدر ما وسعه أن يضع في التأملات التاريخية الفكرية. ولذا فانه لم يكن كذلك مؤرخاً حقيقياً رغم إعجابه الشديد في سنوات دراسته بإدوارد ماير ويوليوس فلهاوزن فيما بعد. وحتى في حقل أبحاثه الخاص قلما وجد نفسه مستعداً لتقديم أبحاث تركيبية شاملة. ولم يتمكن من تنفيذ مشروعه الذى أعلن عنه طويلاً وهو تأليف كتاب في قواعد اللغة الاثيوبية. ولكن بسبب طريقة عمله الحذرة والمهادنة إلى إيضاح الحقائق والمتون وتفسيرها ظلت نتائج أبحاثه صامدة أمام النقد والطعن.

وبسبب الانجازات الكبيرة التى حققتها اينوليمان تجاوز تقديره وشهرته حدود ألمانيا وتعداها إلى الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة والشرق الأدنى. وكان يحمل درجة الدكتوراه الفخرية في اللاهوت من جامعة هاله، والدكتوراه الفخرية في الفلسفة من جامعة القاهرة، وكان عضواً في المجامع العلمية في برلين وغوتنجن وماينز وأمستردام وبروكسل والقاهرة وكوبنهاجن وباريس وروما، كما كان عضواً فخرياً في الاكاديمية العلمية في فيينا، والرئيس الأول ثم العضو الفخرى لجمعية المستشرقين الألمانية، وكان فارس مرتبة السلام في نظام pour le mérite وحائزاً على اوسمة أجنبية رفيعة. ومن الطبيعى أن هذه الأمجاد لم تلق في نفسه الرفض، ولكنه كان يتلقاها بالتواضع المعروف عنه، ولم يحاول أن يتباهى بها قط. وكانت رغبته الأخيرة أيضاً أنه يود حين سيحين الأجل أن يغادر العالم والحياة بهدوء، تماماً كما جاءهما بهدوء. وقد تمت مراسيم إحراق جسده ومباركته في أضيق دائرة من أفراد عائلته وبعض أصدقاء الأسرة. وبسيرة بسيطة مختصرة كان قد كتبها بنفسه لهذه المناسبة، وقد قرئت في هذا الاحتفال الجنائزى العائلى الضيق، تكلم بطبيعته المتكاملة المتناسقة لآخر مرة. إن هذا العالم العظيم ليستحق الخلود ببساطة ودون تزوير في ذاكرة جميع من تعلموا منه، ومن كانوا مقربين إليه، ومن قدروه وأجلوه.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعليقات

(١٠) يوليوس فلهاوزن (J. Wellhausen): مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي، ولد في هاملن عام ١٨٤٤ وتوفي في جوتنجن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت في غرايفزفالد عام ١٨٧٢، واستاذاً للغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات أصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الإسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الإسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها»، كما ألف أيضاً كتاب الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام. (انظر فكر وفن، العدد ١٣)

(١١) كارل هاينرش بيكر (Carl Heinrich Becker): مستشرق وسياسي بروسي، ولد في امستردام عام ١٨٧٦ وتوفي في برلين عام ١٩٣٣. وقد عمل استاذاً في هايدلبرغ وهامبورغ وبون وبرلين. وعمل منذ عام ١٩١٦ في وزارة الثقافة البروسية وأصبح من عام ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ وزيراً للثقافة. ومن أعماله كوزير للثقافة إصلاح نظم التعليم الجامعي وتأسيس الأكاديميات التربوية والأكاديمية للشعراء. ومن أهم مؤلفاته في حقل الاستشراق «مقالات وبحوث في تاريخ مصر في العهد الإسلامي» (مجلدان، ١٩٠٢-١٩٠٣) و«دراسات إسلامية» (مجلدان، ١٩٢٤-١٩٣٢)، وتوفي منذ عام ١٩١٠ إصدار مجلة «الإسلام» الألمانية المعروفة.

(١٢) زايبولد (Chr. Fr. Seybold): ولد عام ١٨٥٩ وكان استاذ اللغات السامية في جامعة توينجن، وقد حقق ونشر آثار ابن أنباري، كما أصدر القاموس اللاتيني - العربي وغير ذلك من المصنفات العربية الكلاسيكية. توفي عام ١٩٢١.

(١٣) أنتون شال (Anton Schall): استاذ اللغات السامية وعلوم الاسلام في جامعة هايدلبرغ ومن المستشرقين المعاصرين الألمان المعروفين. من مؤلفاته الهامة «دراسات حول المفردات اليونانية في اللغة السريانية»، وكتاب «حول فن الشعر الاثيوبي».

(١) كارل ياسبرز (Karl Jaspers): فيلسوف معاصر ولد في ١٨٨٣/٢/٢٣ في اولدنبورغ، وأصبح استاذاً في هايدلبرغ وبازل. وبدأ حياته كطبيب نفسي، وما لبث أن أصبح مع هايدجر مؤسس الفلسفة الوجودية.

(٢) إميل كاوتش (Emil Kautsch): عالم لاهوت بروتستانتي ولد عام ١٨٤١ في بلاون وتوفي عام ١٩١٠ في هاله. وأصبح استاذ العهد القديم في بازل عام ١٨٧٢، وفي توينجن عام ١٨٨٠ وفي هاله عام ١٨٨٨.

(٣) إدوارد ماير (E. Meyer): مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و ١٩٣٠.

(٤) أوتو بريمر (Otto Bremer): من علماء اللغة الألمانية ولد في شترالزوند عام ١٨٦٢ وأصبح استاذاً للغة الألمانية في هاله عام ١٩٠٥.

(٥) أوغست ديلمان (August Dillmann): مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي. ولد في ولاية فورتنبرغ بألمانيا في ١٨٢٣ وتوفي في برلين عام ١٨٩٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً في كيل، وعام ١٨٦٤ في غيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

(٦) فرانز بريثوريوس (Franz Praetorius): عالم باللغات السامية ولد في برلين عام ١٨٤٧ وتوفي في بريسلو عام ١٩٢٧. أصبح استاذاً في بريسلو عام ١٨٨٠ وفي هاله عام ١٨٩٣. وقد نشر أبحاثاً علمية تتناول اللغة الحبشية وتفسير النقوش السامية وقواعد اللغة العبرية وأوزانها الشعرية.

(٧) جيورج ياكوب (Georg Jakob): مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام، ولد عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل وأهتم خاصة بدراسة التصوف واصحاب الطرق كاليكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب (انظر فكر وفن، العدد ١١).

(٨) تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke): بشأن هذا المستشرق الكبير راجع المقالة المنشورة في فكر وفن، العدد ٩، الصفحة ٣٣.

(٩) و. ك. پرينتس (W. K. Prentice): عالم اميركي، اختصاصي في اللغات الكلاسيكية، ولد عام ١٨٧١.

الينوليتمان استاذاً ولجاً

بقلم مراد كامل

ومن المعروف ان الدكتور طه حسين والمرحوم الاستاذ على عبد الرازق كانا من تلاميذ الاستاذ ليمان في الجامعة المصرية القديمة، والتي كان ليمان عميداً لكلية الآداب بها فترة من الزمان، كما كان الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) مديراً لها.

والواقع أن ما أحس به طه حسين وعبر عنه بهذه الكلمات، وهو من الرعيل الأول من تلاميذ ليمان، أحسنا به نحن فيما بعد، ولمسناه من معاملة الاستاذ الأب.

كنا نحيط به في منزله في قاعة من قاعات مكتبته نستمع اليه يحاضرنا، يرعى كل منا بعطف خاص. وأذكر اني

قال الدكتور طه حسين في حفل تأبين الاستاذ ليمان بمجمع اللغة العربية: «وما أنسى فلن أنسى الاستاذ ليمان حين لقيته في مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين، في مؤتمر ليبزج، وكنت ألقى حديثي في هذا المؤتمر، وإذا الاستاذ ليمان - وكان رئيس الجلسة في ذلك اليوم - يبكي بكاء شديداً، كأنه تأثر أن يرى تلميذه يتحدث بين يدي هذا الجمع من العلماء المستشرقين الذين أقبلوا إلى هذا المؤتمر في ليبزج.

كانت إذن بين ليمان وبينى هذه المودة التي تكون بين الآباء والابناء».

حين حضرت من مصر اليه كنت أجهل الألمانية تماماً، وكان يزاملني أحد الاسبان، وهو يجهل الألمانية ومعنا طالب ألماني. وكنا نقرأ النص الاثيوبي عليه يترجمه الالماني بالالمانية والاسباني باللاتينية وأنا بالعربية.

كان لي زميل أجنبي يحضر رسالة الدكتوراه على الاستاذ ليمان، وأتى اليه يوماً يبكي ويذكر له أن حكومته قد انتهت بعثته وأنه يريد أن يتقدم إلى الدكتوراه خوفاً من أن يعود إلى بلده دون الحصول على شهادته. وكان ليمان يعرف أن بينه وبين إتمامها بعض الوقت، وتحركت عاطفة الأبوة وتغلبت على موقف الاستاذية فقبل الرسالة. ولما تبين له أن الطالب استغل ما عرف عن ليمان من عطف على أبنائه الطلبة، لم يغضب وإنما أضع من وقته الثمين فيما بعد حولي الخمسة ساعة، يصحح الرسالة حتى تطبع على الوضع العلمى اللائق.

ذكرياته

اعتاد ليمان أن يدعو طلبته في آخر كل فصل دراسي على حفل عائلي في منزله، وكان يقص علينا من ذكرياته الكثيرة. أذكر وهو يتحدث عن استاذة نولده، أن نولده كان يدعو طلبته أيضاً في آخر كل فصل دراسي وكان يقابلهم في منزله بستره المنزل، ويلاحظ ليمان أنه كان يجد أضرار هذه السترة تنقص زراً كل عام حتى لم يبق فيها من الأضرار شيء عام وفاته.

وبحدثنا عن الملك فؤاد أنه كان يتحدث معه بالايطالية بطلاقة ولكن بلهجة روما.

ويذكر أنه كان في صحراء الشام ومر بخيمة منعزلة ورأى ثلاثة أطفال يلعبون خارجها، وما كانت أشد دهشته حين سمع الأم تنادى أطفالها من الداخل وتحدثهم بلهجة المانية سويسية Schwäbisch.

هل المصري سبّه؟

كنت اسكن في توبنجن في غرفة في الشارع الرئيسي، وكان اليوم صيفاً، وأنا جالس إلى مكتبي. وفي غرفة مجاورة تحيط بنوافذها زهور الجارونيا وقفت صاحبة المنزل تسقى الزهور. وسقط بعض الماء على عامل بورشة اصلاح السيارات في أسفل المنزل فأخذ يسب. وأطلت صاحبة المنزل من النافذة ورأت العامل فقالت له: «يا مصري»، ثارت ثائرتة وأخذ يسبها ويلعنها.

ولم أصدق أدنى بادئ الأمر، فذهبت إليها أسألها اذا كنت ما سمعته صحيحاً، وهل قالت له يا مصري؟

فقلت نعم هذا من قرية بفيفنجن Pfäffingen ولقبهم بالمصريين.

فعجبت لهذا وأخذت أسأل عن بفيفنجن وهي قرية من توبنجن يجري في واديها رافد من روافد نهر النكر يسمى الأمر وعرضه لا يزيد عن المتر، ويمر السائر إلى هناك على جسر خشبي يسميه الاهالي جسر قناة السويس، ووجدت وادي الأمر جهة بفيفنجن متسعاً اتساعاً لا يتفق مع ضيق النهر الصغير.

وسألت نفسي، هل مر من هنا بعض الغجر، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم المصريين (جيسى)؟ ولكني وجدت الناس هناك من الالمان الصنف وسميتهم ألمانية، وليس بهم ما يدل على دم غجري دخل عليهم. وذهبت إلى الاستاذ ليمان، وقلت له أنت تحب الآداب الشعبية وتعشقها، فهل لك أن تشرح لي معنى هذا؟ وكيف أصبحت عندكم كلمة «مصري» سبة؟

ولم تمض الا أيام حتى جاء متهللاً، فقد توصل إلى كشف السر، وتعليل أصل الموضوع. فوجد أن رافد الأمر ضيق جداً وهو يجري تحت الشوارع في توبنجن، بينما نهر النكر متسع. ووجد أن حوض نهر النكر في هذه المنطقة ضيق جداً، بينما وجد أن حوض الأمر في بفيفنجن متسع وخصب. وقد سمى الطلبة في توبنجن الأمر على سبيل الدعابة نهر النيل، وبطبيعة الحال الأرض التي يجري فيها الأمر هي مصر أي بفيفنجن، وسمى الناس سكانها بالمصريين.

هذا هو تعليل الاستاذ ليمان لمسألة معقدة غامضة، تدل على أنه كان ثاقب النظر في كل ما يتعلق بحياة الشعوب وتفكيرهم.

سرعة خاطره

ذهبت مع الاستاذ ليمان إلى إحدى المكتبات في حي من أحياء القاهرة القديمة، وكان يريد أن يشتري بعض الكتب، وأخذ يناقش صاحب المكتبة في الثمن. فقال له صاحب المكتبة انت خواجه ومعلك من النقود ما يكفي أن تدفع القيمة التي طلبتها منك. فرد عليه الاستاذ ليمان على البديهة مداعباً، ابدأ، أنا حتى ساكن في درب المفلسين. فظن صاحب المكتبة أن هناك دربا يسمى درب المفلسين يسكنه من لا مال عنده، فرق لحاله وتجاوز له عن نصف قيمة الكتب.

كان الاستاذ ليمان في طريقه إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وكنت أصعبه، وكان عليه في هذا اليوم أن يناقش

يوجه اليه الكلام. وعلى أى حال لم يظهر صاحبنا بهذا المظهر فيما بعد فى أى حفل من الحفلات.

كان من سوء حظى أن أبدأ بدراسة اللغة الألمانية فى توبنجن، وزاد الطين بلة أن النص الذى بدأت أدرسه وأترجمه، كان مقدمة كتاب قواعد اللغة الاثيوبية لديلمان. وتبدأ المقدمة بجملة فى أول الصفحة وتنتهى عند ثلث الصفحة الأخير، ويتخللها جمل اعتراضية وجمل موصولة وما إلى ذلك مما هو معروف بطريقة كتابة العلماء الالمان فى القرن الماضى، والمتأثر بأسلوب الكتابة اللاتينية فى العصور الوسطى. والحقيقة أن هذه البداية فى تعلم الألمانية قد كونت عندى عقدة نحو الألمانية وصورت لى اللغة الألمانية بأنها صعبة المنال، معقدة الأسلوب، لا سبيل إلى معرفتها مهما بلغت من سحر هارون أو حكمة سليمان.

وسألنى الاستاذ ليمان عن حالى فى دراسة الألمانية وما أحرزته من تقدم فى معرفتها. فقلت أدور منذ شهرين عند جملة واحدة، وشرحت له ما ألاقىه من عقبات وما أواجهه من صعوبات. فقال لى لا تيأس، ودخل معى إلى مكتبته ووقف حيث وضع ترجمة الف ليلة وليلة. وقال أتعرف كيف أمكننى أن أنهى هذه الترجمة فى وقت قصير، وعلى خير وجه؟ طريقة واحدة، ومنهج واحد يجب أن يضعه المترجم نصب عينيه: وهو أن يقسم الجملة الطويلة إلى جمل قصيرة، وبهذا يصل إلى هدفه فى أسلوب سهل ممتع، مفهوم من القارئ، به رقة وأناقة. وكان هذا هو الطريق الذى سلكته فى ترجمة الف ليلة وليلة. وأصبح هذا الدرس نبأساً لى فى حياتى حين أترجم وحين اكتب أيضاً.

يقول الاستاذ ليمان كنت فى أكسوم فى اثيوبيا فطلبت من أحد العمال أن يأتينى بحجرة وأشرت على حجرة كبيرة وتلفت العامل حوله وقال للاستاذ انى لا أرى حجرة، وأنما ما أراه حجراً، لأن الحجر كبير والحجرة صغيرة. وقد نهت هذه العبارة الاستاذ ليمان — كما يقول — أن التاء هنا ليست للمؤنث أو للوحدة وإنما هى للتصغير. وقد ذكرت له أن هذا الاستعمال شائع أيضاً فى العربية الحديثة. وجعله هذا يفكر فى الكثير من اسماء الاعلام العربية القديمة للذكور التى تنتهى بالتاء هى فى الواقع ليست مؤنثة، بل هى نوع من التصغير لم تأخذ به اللغة العربية ولا اللغات السامية. وهذا النوع موجود فى بعض لغات جنوب افريقيا، ففى لغة الناما مثلاً، وفيها تقسم الاسماء الى أقسام مختلفة يدخل الكبير تحت قسم المذكر،

رسالة دكتوراه عن الف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى. وبينما كان فى طريقه الى دخول الكلية بالجيزة، قابله ساعى مدير الجامعة واسمه عبد العاطى وكان يعرف الاستاذ ليمان منذ أن كان عميداً فى الجامعة القديمة، فبادره بالتحية، فقال له ليمان ملاطفاً يا عبد العاطى أنا اليوم مسرور جداً لأننى امتحن بنت ابنى يقصد سهير القلماوى وهى تلميذة الدكتور طه حسين الذى يعتبره ليمان من أبنائه. فرد عليه عبد العاطى يا استاذ ليمان مصر مليئة بأولادك وأولاد أولادك. فقال له ليمان أخفض صوتك حتى لا تسمعك زوجتى وتصدق ما تقوله، وتخاف أن لا يبقى لها من الميراث شيئاً.

طلبت اليه فى الاحتفالات باليوبيل الفضى للجامعة القاهرة صورة فوتوغرافية وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، لأن الجامعة كانت قد كلفتنى بالكتابة عنه نبذة تنشر فى كتاب اليوبيل الفضى، وهو ذكرى مرور ٢٥ عاماً على انشاء الجامعة، فأعطانى صورة له وهو فى سن الستين. فقلت له هذه صورتك وانت فى الستين، فرد على قائلاً انشر هذه الصورة، لأننى لا اريد أن يتذكرنى الناس بعد موتى بأكثر من هذه السن وهذا الشكل والسحنة.

ملاحظات ثاقبة

كنت فى برلين وارسل لى الاستاذ ليمان خطاباً يطلب منى الرد على بعض المسائل. وتأخرت فى الرد عليه. ولما حضرت لى توبنجن وقابلته أخذ يعتذر عنى لتأخرى فى الرد عليه لكثرة مشاغلى وقال لى أنى نظمت أوقاى بأن خصصت يوم الاثنين من كل اسبوع للرد على البريد وبهذا أنهى ما على أولاً بأول. وكانت هذه طريقته فى التوبيخ والتوجيه، وذلك فى رفق ورقة.

وهذه المناسبة أذكر أنه فى يوم من أيام شهر يونيه الحار وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر، دعا الاستاذ ليمان طلبته فى نهاية الفصل الدراسى إلى حفل شائى — كما تعود ذلك .. واجتمع الطلبة والطالبات وإذا أحد الطلبة الاجانب وقد دخل علينا يلبس السموكنج وعليه كرافتة حمراء طويلة، فكتمنا ضحكنا، وفهم الاستاذ ليمان من بريق أعيننا ما يدور بخلدنا من نقد واستفهام. فلما استوى بنا المجلس أخذ يتحدث — فيما يتحدث — عن عادات الشعوب المختلفة فى لبس لباس السهرة وغير ذلك من أنواع اللباس فى المناسبات المختلفة، ويقص ما حدث له هنا وهناك، وهو فى ذلك كله يريد أن يلحق صاحبنا درساً، بدون أن

والصغير يتدرج تحت المؤنث، ولهذا كان في هذه اللغة ثدى المرأة مذكراً لأنه «كبير»، وثنى الرجل مؤنثاً لأنه «صغير». والواقع أن هذه الملاحظة العابرة التي ذكرها الاستاذ ليتمان نبهتني لكثير من أشباهها في دراسة اللهجات العربية الحديثة.

اهتم الاستاذ ليتمان بدراسة أسماء الاعلام وألف فيها، لأنه كان يرى أن العالم يمكنه أن يستخلص كثيراً من الدراسات الاجتماعية والتقاليد من خلال الاسماء. ويقص علينا أنه حين كان في رحلة من رحلاته في جنوب صحراء الشام للكشف عن النقوش الصفوية والتمودية واللحباشية، قابل أحد البدو، فسأله عن اسمه، فقال اسمي سكران، فسأله الاستاذ ليتمان متبسّطاً معه: سكران من شرب أى نوع من الخمر؟ فرد عليه على الفور: لا أنا سكران من دم الاعداء. يقول الاستاذ ليتمان فتذكرت ما يقول العرب قديماً: إن أسماء عبيدنا لنا، وأسماءنا لاعدائنا.

في رحلة من رحلات الاستاذ ليتمان الكشفية جنوبى حوران، كان قد حصل على خارطة جغرافية للمنطقة وضعها أحد الضباط الانجليز. وقرأ على الخارطة اسماً لوادى من الأودية أطلق عليه «وادي الويسكيات». وشعر الاستاذ ليتمان أن الاسم الحقيقي لهذا الوادى اختلط على الضابط البريطاني مع الويسكى. وحاول أن يصل إلى الخطأ الذى وقع فيه الضابط فلم يسعفه التخمين. وصمم الاستاذ ليتمان أن يتحمل مشقة السفر إلى هذا الوادى حتى يكشف عن اسمه الأصلى. وحين وصل إلى المنطقة أخذ يسأل البدو هناك عن اسم الأودية التي تقع في هذه المنطقة أو على مقربة منها. وما كانت أشد دهشته إذ علم أن الوادى الذى سماه الضابط البريطاني بالويسكيات هو وادى العوبسيجات. وأنى أنهى حديثي بقصة وقعت بينى وبين الاستاذ ليتمان تدل على عظمتة العلمية وروحه الأكاديمية ومعاملته الابوية.

أنكر ليتمان كما أنكر غيره من العلماء مثل كونتى روسيني وماريو مورينو، وجود أى نوع من الاوزان في الشعر الاثيوبي. ولما ذهبت إلى اثيوبيا على رأس البعثة التعليمية المصرية، وتوليت مركز المستشار الفنى لوزارة المعارف الاثيوبية، تهيأت لى الفرص أن أقابل عدداً من العلماء الاثيوبيين. وخطر ببالي أن أنظم بعض الاشعار الاثيوبية من القفى، وعرضتها على العلماء الاثيوبيين، فقالوا لى إن الأشعار ليست سليمة. وسألهم عن السبب، فقالوا لا ندرى سببها، وإنما هى مخالفة لما تعودناه وألفناه. وفكرت في أن الشعر الاثيوبي، لابد أن يكون له من الوزن

ما لا نعرفه، وما لا يعرفه الاثيوبيون أيضاً. وهم يقرضون الشعر بحسب السماع ولم يسبق لهم أن درسوا الاوزان لا عن قرب ولا عن بعد، وإنما يحسون بالصحيح منها وغير الصحيح. وقدرت أن تكون الاوزان تخالف كل ما نعرفه من أوزان في اللغات المعروفة. وهذا ما حدا بعلماء الغرب وفي مقدمتهم ليتمان أن ينكروا وجود الاوزان في الشعر الاثيوبي.

وبدأت بدراسى في القفى وهو لون من ألوان الشعر الاثيوبي وهو على ثلاثة عشر نوع وكل نوع على ضروب، وتوصلت - كما خيل لى - إلى نتيجة ايجابية.

ولكن ساورتني الشكوك، وترددت أن أعلن على الناس ما أنكره اساتذتى من قبل. وظننت أنى تجاوزت حدود المنطق العلمى إلى الخيال.

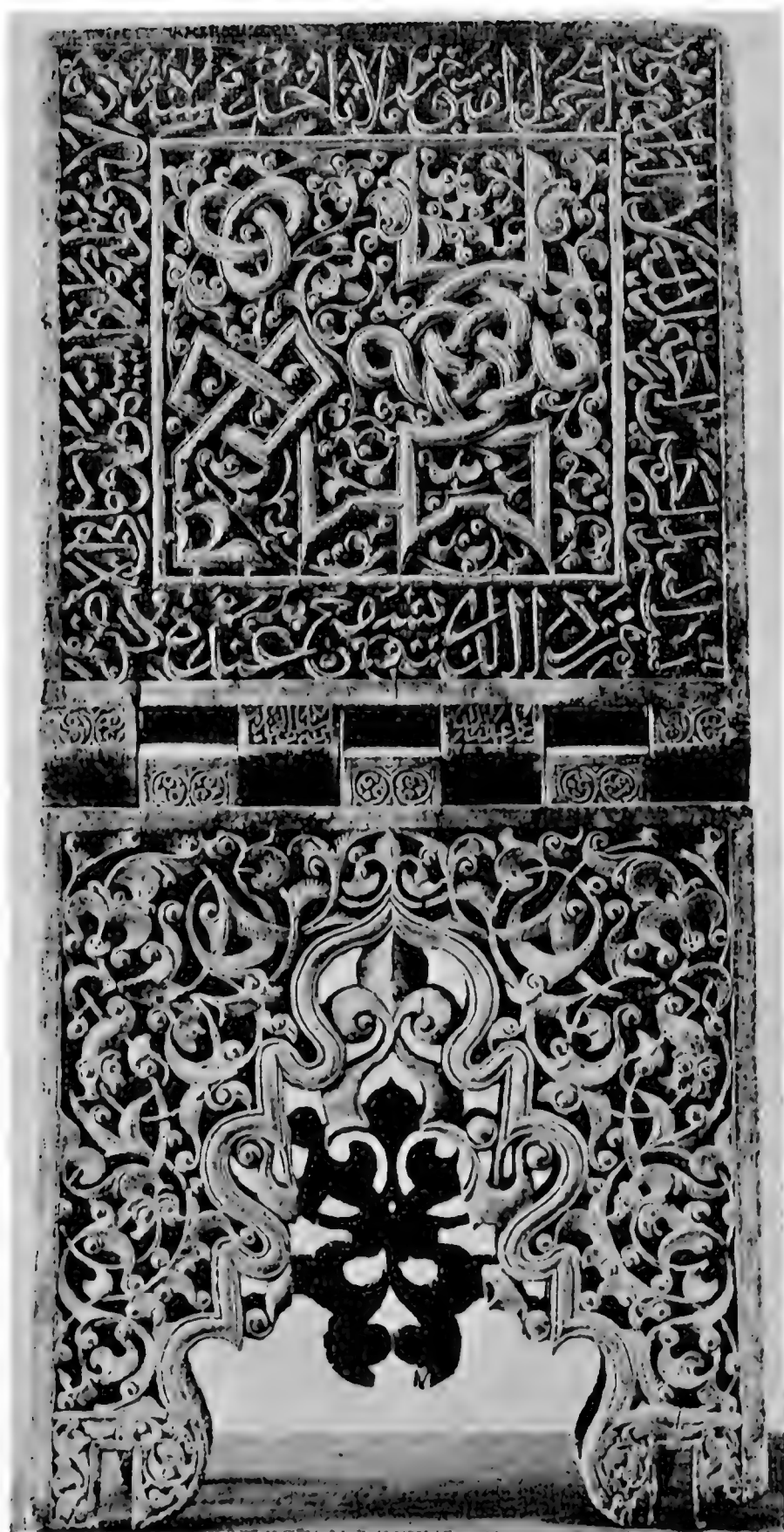
وانتظرت حتى أتى الاستاذ ليتمان إلى القاهرة في الربيع يحاضر في كلية الآداب. فقلت له هل لى أن أسألك معروفاً. فقال هات ما عندك. قلت فلنجلس جلسة طويلة على النيل، وذهبنا إلى حيث الهدوء، وأخذت أقص عليه قصتي، وأعرض عليه نتيجة عملى. وتوقعت أن يفض المجلس بملحة من ملحه أو نادرة من نوادره، وينهى بذلك أمر خيالى. ولكنه على العكس مما توقعت، هثنى على هذا الكشف - كما قال - وشجعنى على الاستمرار فى بحثى، وطلب لى أن أقوم بعرضه فى مؤتمر المستشرقين فى باريس وكان يحضر الجلسة - على غير علم منى - كونتى روسيني ومورينو.

وذكر ليتمان هذا البحث فى عرضه للدراسات الاثيوبية، كما وجه الاستاذ شال Schall فى أن يجعل من هذا البحث رسالته للأستاذية Habilitation.

هذا كله يدل على معاملة ليتمان لتلاميذه، وعلى عظمتة العلمية كما قلت. فلم يؤثر عليه أن يعارض تلميذه رأيه، بل شجعه على أن يمضى فيه. ثم فآخر هو بما انتجه تلميذه وسرله ورحب به.

تلقي العلم على الاستاذ ليتمان فى مصر وفى المانيا عدداً غير قليل من الطلبة العرب. وقد أمدهم ليتمان بعلمه الغزير، وبذل معهم جهداً كبيراً، وضحى بوقته، وفتح بيته ومكتبته لابنائهم من العرب، ولم يقبل على عمله أجراً أو هدية.

ونحن حين نلتقى بالطلبة الالمان الذين يقومون بالبحث والدرس فى جامعاتنا، فإننا نعطيهم ما نستطيع إعطاه، ونبذل ما نقدر عليه من جهد، وفاء لبعض ما أسداه إلينا أساتذتنا فى المانيا.



شيخ المستشرقين الألمان :

هلموت ريتير

(١٨٩٢ - ١٩٧١)

بقلم: الأستاذة أنا ماري شمل

فقد الاستشراق الألماني واحدا من كبار شيوخه. توفي هلموت ريتير في التاسع عشر من شهر مايو عام واحد وسبعين وتسعمائة بعد الألف عن تسعة وسبعين عاما.

ليس بالامكان أن نحيط بقدر هذا العالم الفذ وقيمه العلمية والانسانية في عجالة قصيرة كهذه. فأولئك الذين تعاونوا معه عرفوا عنه اتساع ميادين اهتماماته، وحدة ذكائه، فضلا عن ارتفاع مستوى ملكاته الفنية. أما الذين تتبعوا ما نشر في ميدان الاستشراق الأوربي خلال العقود الخمسة الأخيرة فقد لاحظوا ولاشك تطرق ريتير إلى بحث عدد كبير من الموضوعات في مختلف تيارات التخصص. كما أنه لم تصدر عنه دراسة واحدة، مهما كان حجمها محدودا، إلا وكانت تعتمد على مراجع غزيرة من أقدم وأوثق المصادر العلمية.

ولد هلموت ريتير في ٢٧ فبراير ١٨٩٢ بالقرب من «كاسل» (مقاطعة هسن). وقد صار فيما بعد كل من أشقائه الخمسة الذين نشأ وترعرع معهم عالما ذائع الصيت والمكانة.

أدى هلموت ريتير خدمته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى في الجيش الألماني بتركيا. وقد انتهر هذه الفرصة ليجمع من العراق خاصة قدرا كبيرا من المواد اللازمة للقيام ببحوث أنثروبولوجية ولغوية. وكان عنوان أول إنتاج كبير له هو «قاموس عربي لعلوم التجارة». وفي جامعة هامبورج بدأ يحاضر للمرة الأولى في معهد الدراسات الشرقية الذي كان قد أسسه الوزير البروسي «كارل هاينريش بيكر». ورغم أنه كان من أصغر محاضري ذلك المعهد سنا، إلا أنه كان معروفا بشدته المتناهية ودقته العلمية الفائقة، مما جعل له رهبة خاصة في نفوس الدارسين. ولقد حدثت به ملايسات شخصية إلى الرحيل إلى استانبول في نهاية العشرينات حيث أقام عشرين عاما وصار من أقدر العارفين بالمخطوطات الاسلامية المتوفرة في تلك المدينة. فن كان بحاجة إلى معونة أو مشورة بشأن مخطوطة تركية أو عربية أو فارسية ولجأ إلى ريتير وجد فيه خير مرشد وخير.

عاد ريتير إلى ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة وحاضر عدة أعوام في جامعة فرانكفورت التي تنلمذ فيها على يديه عدد كبير من الدارسين الألمان وغير الألمان، فكان عليهم جميعا أن يتمرسوا بشدته وأمانته العلمية القصوى.

عاد ريتير مرة أخرى إلى استانبول خلال الخمسينات، وإن ظل يشكو المرض طوال الأعوام الأخيرة من حياته. حياته التي لم يفقد متعة العمل يوما واحدا فيها ولو كان يومه الأخير. وقد قضى لحظاته الأخيرة في داره الأنيقة الكائنة بضاحية «أوبر أورزيل» التابعة لفرانكفورت/ماين.

لوثأملنا الآثار العلمية التي خلفها ريتير لتبيننا اتساع رقعتها وضخامة مكانتها خاصة وأنها تعالج قدرا هائلا من موضوعات الحضارات الاسلامية كما أنها تربط مختلف ميادين الاستشراق بعضها ببعض الآخر. فريتير هو الذي حقق أثناء إقامته في تركيا نصوص تمثيلات القراقوز وترجمها إلى الألمانية بمهارة فائقة، حتى أنه استطاع في هذه الترجمات أن يوجد مضاهيات ألمانية شعبية لكل لعب لفظي وارد في الأصول الشرقية. وقد كرس هذا العالم نفسه في أواخر حياته لبحث لهجة سريانية حديثة والترجمة عنها إلى الألمانية وتحليلها بغية انقاذ لغتها وأدبها اللذين في سبيلهما إلى الانقراض. وهو نفسه الذي قام بتحقيق علمي نموذجي لـ «مقالات الاسلاميين» للأشعري، فضلا عن إصداره مصنفات «المكتبة الاسلامية» Bibliotheca Islamica في الغرب طيلة عشرات السنوات، وتقديمه للشعر الفارسي في أوروبا أجمل وأروع تقديم. ويعد الكتيب الذي ألفه بالألمانية «حول اللغة التصويرية عند نظامي» (١٩٢٧) أثرا قويا لكل مهتم بالشعر الفارسي إذ يعرض في صفحات



قليلة خصائص شاعرية اللغة الفارسية كما لا يعرضها عمل آخر. وفي عام ١٩٣٠ قام ريتز بالتعاون مع المستشرق التشيكوسلوفاكي الشهير يان ريبيكا في تحقيق نص رائعة نظامي «هفت پيكر» (الصور السبع). إنه لمن الصعب حقا تعيين الأثر الرئيسي الذي خلفه ريتز. ولقد صدرت دراساته المتصلة للمخطوطات الشرقية عبر عشرات السنين في مجموعة سلسلة من المقالات التي نشرها أول الأمر في مجلة «الاسلام» الألمانية Der Islam ثم بعد ذلك في مجلة «أورينس» Oriens التي كان هو مؤسسها. وكانت هذه السلسلة من الأبحاث المنشورة تحمل عنوان «لغويات» Philologika حيث يقف قارئها على قدر هائل من المواد حول المخطوطات التي تتناول لونا معيناً من الموضوعات خاصة ما تعلق منها بتاريخ التصوف الاسلامي. ومن ذلك دراسته عن مولانا جلال الدين الرومي الذي عرف فيها الغرب بحلقات أتباعه ومريديه. وله دراسة أخرى عنوانها «السهرورديون الأربعة» Die vier Suhrawardis قدم فيه كبار متصوفي الاسلام في القرن الثاني عشر. كما أن له آثاراً أخرى تعالج قضايا اللغة العربية أو تتعرض لأصول الاسلام والعقيدة الاسلامية. وقد انكب ريتز في أواخر أيامه على مخطوطات أحب المتصوفين الفارسيين إلى قلبه: فريد الدين العطار. الذي حقق له نص كتابه «الهي نامه» حتى ليعد الكتاب الذي ألفه ريتز عن العطار في عام ١٩٥٥، وصدر بالألمانية تحت عنوان «بحر النفس» Das Meer der Seele، من أروع انتاج المستشرق الكبير ومن أنفس ما كتب عامة عن متصوف وشاعر اسلامي. يحلل ريتز في هذه الدراسة آثار العطار الأساسية، ويستعرض عبر فصول الكتاب شتى المراحل التي مرت بها شخصيته جاثلاً مع مختلف أبطال تلك المراحل، حتى يبلغ في النهاية غاية المرام، وهو بلوغ النفس بحر الكل الشامل وارتباطها في أحضانه. ولا يعكس نص ريتز الرائع أفكار العطار المستمدة من آثاره وحسب، وإنما يرجعها في نفس الوقت إلى الأفكار الأساسية لكبار المتصوفين المسلمين، ويحابه كل جملة من جمل العطار بالعديد من المواضيع المقابلة لدى هؤلاء. ويعد كتاب «بحر النفس» للأستاذ ريتز من المراجع التي لا مناص من أن يطلع عليها كل مهتم بالحياة الثقافية والدينية في الاسلام. وهو يستحق بكل جدارة أن يترجم إلى اللغات الكبرى المتداولة.

كان اهتمام ريتز بالتصوف الاسلامي مبكراً. وتدل دراسته المنشورة في مجلة الاسلام Der Islam الألمانية عام ١٩٢٤ عن «الحسن البصري» على منهجه في بحث هذه الظاهرة الدينية الثقافية، مثلما تدل عليه مقالته البالغة العمق عن «أبي يزيد البسطامي»، وهي التي نشرت ضمن مجموعة الدراسات التي صدرت تحية وتكريماً للأستاذ «تشودي» Tschudi في عام ١٩٥٤. وإن الاستشراق الأوربي مدين له بالفضل على تقديمه وصفا للحركات الايقاعية التي يقوم بها المشتركون في حلقات الذكر من دراويش طريقة مولوى استجابة لموسيقى «السماع».

٩٥٧ / ٢ / ١٠

صديقنا الاجل الاستاذ صلاح الدين المنجد

حيات طيبات

اشكركم على رسالتكم المؤرخة في ٩٥٧/٢/٢٣ واحتمدركم على
طول سكوتكم كنت مشغولا جدا ولا ازال كذلك لشغل قبلي في
ال UNESCO وهو تنظيم فهرست مخطوطات دواوين الشعراء الفارسية
في الستانه وهذا الشغل قد تبين انه اصعب والى ان كنت اتصور
واعتقد اني لا اعلم كيف اتجه الى الوقت اعين فضلا سبب تأخر
الجواب لرسالتكم وتغافل عن الشكر على الحلاوة الثمينة الالافني
وصيت اهل بيتي بكتابة رسالة شكر العلم لانهم الذين اكلوها
واستلذوا منها ... وصحت من الاستاذ دومر انه يلاقيكم قريبا ورسالته
مملوءة بالمدح لكم والثناء عليكم من وجوده وخاصة من تنظيم معهد المخطوطات
الذي لا نظيره في الشرق والغرب وكيف لا يمدحكم وقد علمنا من فضلكم
وحسن ادارتكم وعلمكم ما يومه نادرا في عالم اليوم واشكركم ايضا على ارسال
الكتب وان لم ارها بعد فعند فراغي من الشغل الحاضر الساعه وعودتي
الى آلمانيا تيسر مطالعتها والاستفادة منها وادعو لمسلها
بالدائمة وكل خير

المخلص

هو ررر

٣ - نظرت في مجلة معكم والفتية بمعية ناضة
 جدا وهو اول مجلة تختص بالمخطوطات والسماعات
 ونحوها الخوفين وخير ذلك والاحتياج الى مثلها
 كانت مائة من زمان طويل الا ان علماءكم لم
 يروا اهمية تلك البحوث التي هي اساس كل
 تحقيق في ~~العلم~~ فانا اهنئكم هذه الخدمة الليرة
 للعلم ومبهم ما نشر في المخطوطات مفيد ايضا جدا
 ودست جمعتها بالمبادلة منتظما ولا يفوتني
 تقديم المجلة لقاريي ~~بمعية~~ بالتقوية والمدرج والثناء
 ٤ - كتبت تنويرا لبعض مؤلفاتكم الا انه سينشر
 في الجزء الاول من المجلد التاسع راني المجلد الثامن
 سرفي انكم زر قنم ولدا وادعوه ولا أمه بالصحة
 ٥ - السلامة ولا شك انه سيجتمع فضل الارب والام
 ويصير ~~من ذواهي~~ العرب في العلم والفضل وكل خيراته
 وكيف وله زلازل الارب وذاك الام با وقدموا للام
 تزيكات وتحياض الصمعية
 المحلف
 د رية

ومن بين المخطوطات التي حققها الأستاذ ريتز نجد كتاب «سوانح» الذي ألفه بالفارسية أحمد الغزالي (شقيق الامام الغزالي). وهو يحتوي على أذكى نظرية حب صوفي كتبت بالفارسية.

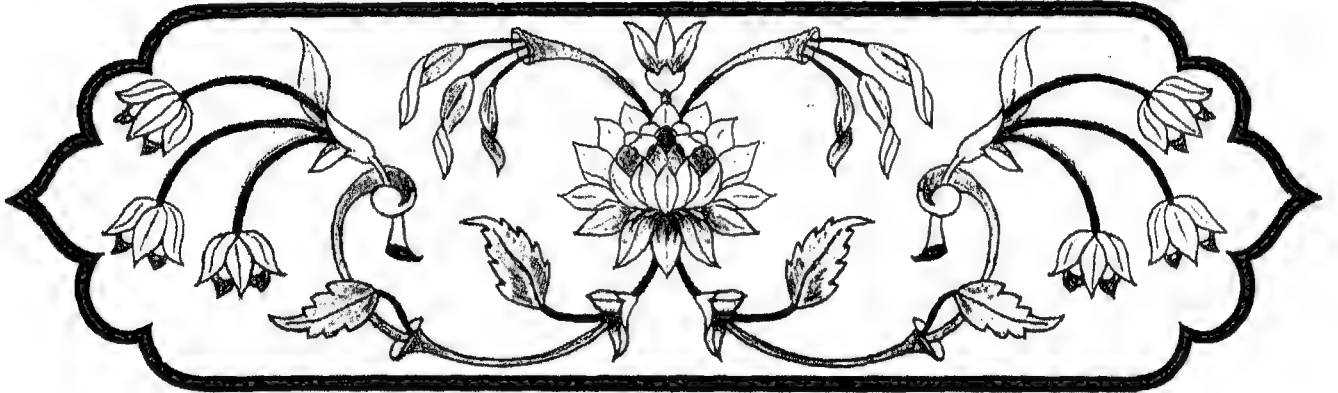
ولا يمكن إغفال دراسات الأستاذ ريتز حول الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الهيلينية، ولا اشتراكه مع «مارتين بلسنر» في وضع كتابهما الذي يدعى Picatrix. كما لا تنسى أبحاثه القيمة حول طرق صنع الخزفيات الفارسية التي قام بها مستعينا بزملائه من أساتذة العلوم الطبيعية. ويعد فوق ذلك مقاله عن «ابن خلدون من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث» بمثابة دراسة رائدة عن المؤرخ والفيلسوف العربي الكبير. ولا ننسى ترجمته الرائعة لكتاب «أسرار البلاغة» لمؤلفه عبد القاهر الجرجاني.

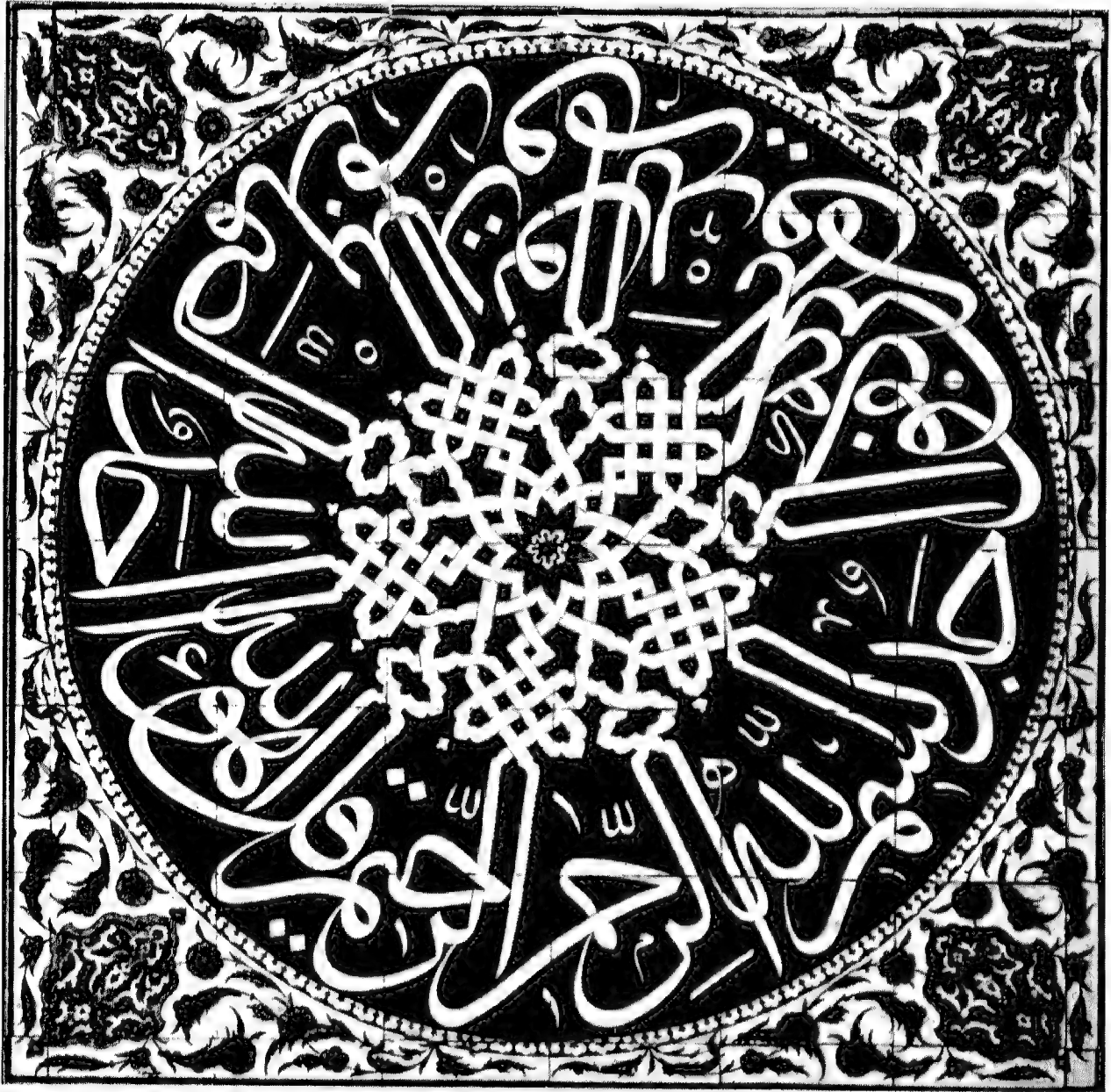
وقد قام ريتز بما لا يحصى من تعقيبات على ما تخرجه المطابع من إنتاج علمي. وكانت معظم هذه التعقيبات مقالات مستقلة. بينما عرف عنه قسوته البالغة في نقد ما يتعرض له من أعمال. ولم يكن ذلك منه إلا رغبة في الدفاع عن الدقة والاختلاص العلميين. فالحق أن الدرس على يد ريتز كان غاية ما يطمح إليه طلبة الاستشراق.

رأيت آخر مرة في أنقره. كان يقضي هناك أحد أيام الآحاد، وقد صار أدمث طبعاً، لا تغادره النكتة، ولا تخلو كلماته من فكر متقد غني بالموجيات. لكم عانى في حياته – وليس قليلاً ما عاناه من جهالة المحيطين به، واستبداد المرض به في أواخر حياته. وإننا لنعتز ونفخر إذ عرفناه – وإن موته ليسدل الستار على حقبة جليلة من حقب الاستشراق الألماني. فلسنا نعتقد أن أحداً سيكون له من بعده ما كان يتمتع به الفقيه من عمق البحث وتباين ميادينه في آن واحد.

إليك ما يقول في نهاية «بحر النفس»: «لم يعد توقف وجود الفرد نهاية تهدده، أو بوابة تفضي به إلى مصير غيبي مجهول نتطلع إليه وفرائصنا ترتعد، كما أنه لم يعد جسراً يحقق لنا أن نشهد محيا الرب المعشوق، إنما هو الانفتاح والانطفاء في قاع الوجود ذاته، وهو تلاشي القطرة في بحر ما وراء الدنيا الذي عنه نشأت ومنه جاءت، وفيه تظل أبداً، باعتبارها فريدة، مطرودة ومحتفظاً بها في آن واحد: ضائعة، مخفية، وموثمة عليها.»

(أنهارى شيمل)





الفهرس

٥	تمهيد
٧	لحات من عظمة الاستشراق الألماني صلاح الدين المنجد
١٥	يوهان يعقوب رايسكه يوهان فوك
٢٧	يوسف فون هامر - بورجستال أنا ماري شمل
٣٩	هاينريش بارت فيلكس فرانكه
٥٥	فريدريش روكرت أنا ماري شمل
٧١	ارنست ترامب أنا ماري شمل
٧٩	الرحالون الألمان محمد علي حشيشو
٩٣	ادوارد غلازر ماريا هوفنر
١٠١	فيللم الورد مانفريد اولمان
١٠٧	يرليوس فيلهاوزن انطون شال
١١٥	تيودور نولدكه اينو ليتان
١٢٥	جورج ياكوب أنا ماري شمل
١٣١	اوغست فيشر أنا ماري شمل
١٣٧	الألمان وتاريخ الصيدلة العربية جيزلا كيرشر
١٤٥	يرليوس روسكا محمد يحيى الهاشمي
١٥٣	كارل بروكلمن يوهان فوك
١٦٣	هانز هاينريش شيدر اوميليان بريستاك
١٧٧	انـّو ليتان رودي بارت
١٨٥	هلموت ريتز أنا ماري شمل





GERMAN ORIENTALISTS

BIOGRAPHIES
AND
CONTRIBUTIONS TO ARAB STUDIES

EDITED

by

SALAHUDDIN AL MUNAGGID

The New Book Publishing House

BEIRUT — P.O. Box 5104 — LEBANON